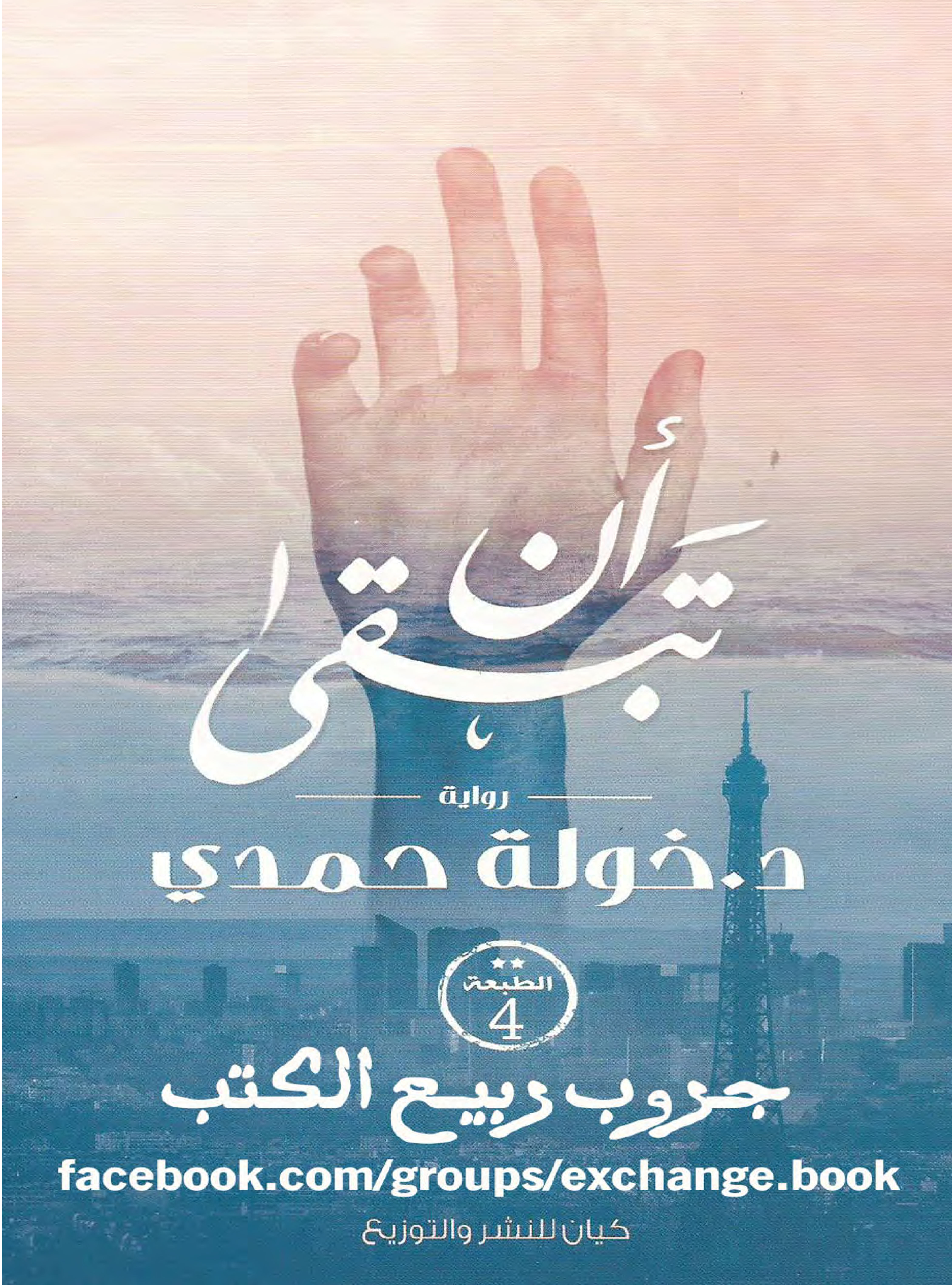


أن تبقى

رواية

د. خولة حمدي

الطبعة 4

كيان للنشر والتوزيع

أن تبقى

رواية

تأليف :

د.خولة حمدي

مراجعة لغوية :

محمد حمدي

رقم الإيداع : 2016/8969

الترقيم الدولي : 978-977-6376-90-8

إشراف عام :

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 -0235688678

هاتف محمول: 01005248794-01000405450-01001872290

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

أن نبقى...

د.خولة حمدي

رواية

إهداء

أن تكون عاريا من الهويّة

حافيا من الانتماء

فذلك أقسى أشكال الفقر

إلى الفقراء الذين لمّا يدركوا مدى فقرهم

«الحب ليس أن ينظر أحدنا إلى الآخر،
بل أن ننظر معا في الاتّجاه نفسه»

أنطوان دي سانت اكسوبيري

السّبت ١٥ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة السادسة مساءً.

الزمـن، شـتاء باريـسيّ قـارس، والشـوارع مزدانـة بزينـة رأس السّـنة الـتي يحـلّ موعدهـا بعـد أسـبوعين. مصابيـح بيضـاء وملوّنـة تغطـي أذرع الأشـجار المقلّمـة في تناسـق عـلى جوانـب الطرقـات، وأشرطـة مضيئـة تمتـدّ بـين أعمـدة الإنـارة الشـامخة، وموسـيقى خافتـة تنبعـث مـن مكـبّرات صـوت مبثوثـة بـين الأعمـدة والأشـجار، لتبـدّد وحشـة الليـل وتؤنـس المشرّديـن وعابـري السّـبيل.

عنـد رأس الشّـارع، نُصبـت لافتـة إعلانيّـة إلكترونيـة مقسّـمة إلى شاشـات متلاصقـة، ظهـرت عبرهـا لوحـات متشـابهة الأشـكال والأحجـام، تحمـل وجوهـا مبتسـمة في نفـاق يـؤذي الأعـين، لمرشـحي مجلـس النـوّاب الموقريـن. شاشـات عبثـت بهـا أيـدي المـارّة بمختلـف مشـاربهم فتشـقّق زجـاج بعضهـا، وشـوّهت الصّامـدة منهـا بطـلاء أسـود يـكاد يحجـب مضمونهـا، أو بكتابـات قبيحـة مـن أصحـاب الـرؤى المضـادّة.. ووعـد المشـهد بعـرس ديمقراطـيّ مشـحون بالتوتّـر.

خلـف المكتـب الفاخـر في الطابـق الرابـع مـن عمـارة تجاريـة حديثة التشـييد، جلـس الأسـتاذ خليـل الشـاوي المحامـي، المرشّـح اليسـاريّ المسـتقلّ، وعينـاه تدقّقـان في الملـفّ الإلكـتروني الـذي يظهـر عـلى جهـاز العـرض. الشّـارع الـذي أخـذ يغـرق في الظلمـة يبـدو مثـل لوحـة حيّـة مـن واجهـة المبـنى الزّجاجيّـة، الـتي تغطـي مسـاحات الجـدران الخارجيّـة كاملـة. بينمـا يتناقـص نسـق الحركـة في الطّريـق الرّئيسـيّة الـتي ينتصـب مبـنى المكتـب عـلى جانبهـا الأيـسر، يواصـل خليـل عملـه كأنّ شـيئا لـن ينتزعـه ممّـا يشـغله. لـم يكـن يعمـل عـلى قضيّـة مـا في ذلـك الوقـت المتأخّـر مـن مسـاء السّـبت. السـكرتيرة غـادرت منـذ السّـاعة الرّابعـة. وشركاؤه أيضـا انفـرط عقدهـم منـذ زمـن لقضـاء عطلـة نهايـة الأسـبوع مـع عائلاتهـم، أو للعربـدة في بعـض حانـات عاصمـة الأنـوار

حتّى ساعة متأخّرة من الليل. لكنّ خليل كان يقبع خلف المكتب، يتابع باهتمام وتركيز شديدين المشاهد المسجّلة لبرنامج حواريّ حديث البثّ. يرقب بتوتر حبّات العرق التي تلمع على جبين الضيف وتسيل على جانب وجهه، ونظرات المحاورة المتمرّسة تعتصره بقبضة من حديد، فينصهر معدنه الرّخيص تحت وطأة أسئلتها اللاذعة.

تساءل في جزع، هل سيشهد مصيرا مماثلا بعد أسبوع من الآن؟

كان حتّى ذلك الحين محاميا مفوّها. ربح القضيّة تلو القضيّة، حتّى عُرف اسمه في الوسط المهنيّ. مكتبه الذي افتتحه مع زمرة من الشركاء، والمؤلّف من أربعة مكاتب وقاعة اجتماعات وصالة انتظار واسعة، يشغل طابقا كاملا من بناية تجاريّة على الشارع الرئيسي في ضاحية «سوران-Suresnes» الخلاّبة.

منذ اتّخذ قراره بخوض معركة البرلمان، ضاق صدره، كأنّما انطبقت جدران حياته بعضها على بعض، فأصبح يصاب بضيق تنفّس مفاجئ كلّما استرسل في التفكير في حربه المرتقبة. إمّا انتصار وإمّا اندحار. كان يبني آمالا عريضة على تلك القضية. هي مسألة حياة أو موت. ثورة على حياته كلّها وما كانت عليه حتّى تلك اللحظة.

فكّر، ما الذي سيؤول إليه الأمر لو أنّه فشل؟

يتملّكه الضّيق، فيدفع عنه الخواطر المحبطة، مع أنّ القوانين الإحصائية ليست في صالحه. اثنا عشر مرشّحا يتنافسون على مقعد واحد في دائرته. عليه أن يجمع قدرا من الأصوات يعادل ربع الناخبين على الأقل، وأن يكون ترتيبه الأول بين المتنافسين! لو أنّهم يدركون أهمّية المسألة بالنّسبة إليه، لو أنّهم يقدّرون ما تنطوي عليه تلك الخطوة من مخاطرة جسيمة.. هل يفسحون له المجال ويربّتون على كتفه مشجّعين؟ ارتفعت الدّماء إلى وجهه في سخط. وهل يريدها شفقة ورثاء؟ ما الفائدة آنذاك؟ هل يثبت شيئا أو يغيّر شيئا لو لم تكن حربه شرسة وحامية

الوطيـس؟

طرقـات عـلى البـاب تشـدّه مـن قطيـع الهواجـس الشـاردة. يرفـع عينيـه إلى الشـابة الماثلـة عنـد المدخـل، وفي عينيهـا نظـرة رجـاء. يقـول في جفـاء مـن دون أن يطيـل التحديـق بهـا:

- كيف وصلت إلى هنا؟ المكتب مغلق الآن.. عودي يوم الاثنين.

- أستاذ الشاوي، أليس كذلك؟

في صوتها رجفة تنذر ببكاء قريب، تمتزج بتصميم عجيب يثير فضوله.

- لقـد طرقـت أبوابـا كثـيرة في الأيـام الماضيـة.. وعُـدت خائبـة في كلّ مـرّة. لكـن حـين قـرأت اللافتـة في الخـارج، راودني الأمـل. لـن تـردّني مثـل غـيرك، أليـس كذلـك؟

يتأمّـل الآن هيئتهـا، وجـه طفـوليّ مسـتدير ينـمّ عـن بـراءة مغلّفـة بقـشرة هشّـة مـن القـوّة المسـتعارة. ربّمـا كانـت في بدايـة العشرينـات، يركّـز نظـره عـلى غطـاء رأسـها الـذي لا تتسـلّل منـه شـعرة واحـدة، وفسـتانها الطويـل الـذي ينسـدل حـتّى الأرض تحـت معطـف صـوفيّ ثقيـل. ليسـت تـدرأ عنهـا الـبرد وحسـب، بـل تعلـن انتمـاءً صارخـا. مـاذا كانـت تقصـد بشـأن اللافتـة؟ قـرأت اسـمه؟ هـل مـيّزت فيـه مرشّـح مجلـس النّـوّاب؟ لعلّهـا فعلـت، فصـوره عـلى كلّ شاشـات المدينـة المتصـدّرة للسّـاحات العامّـة مذيّلـة بإمضائـه وشـعاره الانتخـابي:

الوطن للجميع!

يتحفّـز، وقـد سـاوره الشـكّ. هـل هـو مقلـب، أم اختبـار مـا؟ يبحـث بعينين حذرتـين عـن عدسـة خفيّـة. هـل يختـبئ المصـوّر خلـف البـاب المـوارب، يلتقـط المشـهد مـن الشـقّ؟ أم تـراه نصـب كامـيرا معلّقـة مـن جهـة النافـذة؟ يفكّـر. شركاؤه، أتراهـم متواطئـين في الأمـر؟ تمـرّ ابتسـامة عابـرة عـلى زاويـة فمـه، بينمـا يشـحذ ذهنـه ويسـتحضر لباقتـه البديهيّـة. يـترك مـا بـين يديـه ويشـير إليهـا برأسـه:

- تفضلّي.

جلست، كأنّما انهارت على المقعد، وتدفّق الحديث من شفتيها متدافعا لاهثا:

- يريدون إخراجنا من بيتنا.. البيت الذي نعيش فيه منذ ثلاثين عاما. فيه ولدتُ وأخي، وكبرنا عاما بعد عام. الآن يريدون منّا أن نرحل! بحجّة أنّ المنطقة خاصّة بالـ«بيض»، وعلى العرب إخلاء بيوتهم والانتقال إلى الأحياء الخاصّة بهم.

كانت خارطة التوزيع الدّيمغرافي قد تغيّرت كثيرا في العشرين سنة الأخيرة، عمّا كانت عليه قبل ذلك. بدأ الأمر بحركة انسحاب طوعيّ للعائلات الفرنسيّة من أصول أوروبيّة، من الأحياء ذات الأغلبيّة العربيّة والإفريقيّة، تدريجيّا وتصاعديّا، بعد الأحداث الإرهابيّة لسنة ٢٠١٥ وما تلاها، وشغلت مساحاتها عائلات من أصول مهاجرة، طُردت أو انسحبت بدورها من أحياء ذات أغلبيّة «بيضاء». تلك المسمّيات ليست بتلك الحداثة. كان يجري العمل بها منذ عقود. بعض الأحياء في باريس وضواحيها تُحسب على جالية بعينها، باعتبار وفرة عدد الوافدين منها. لكنّ الوضع تفاقم في السّنوات التي تلت الهجمات الإرهابيّة. أصبحت «الهجرة» إلى حيّ أو منطقة تؤكد انتماءك، تدبيرا غريزيّا للحماية وضمانا هشّا لأمان موهوم.

سياسة الدّولة لم تفعل شيئا طيلة عقدين للحدّ من الظاهرة، بل لعلّها تواطأت ويسّرت المهمّة لكلّ من يبغي شدّ الرّحال والالتحاق بفئة أو أخرى، معزّزة الشقاق بين فئات المجتمع. بعد ذلك، قنّن الدّستور الفرنسيّ حركة الهجرة الدّاخلية، وأصبح لزاما على كلّ من يتقدّم جيرانه بشكوى بسبب اختلافه العرقيّ أن ينتقل من مسكنه، من دون حاجة إلى تبرير. وقد أصبح من اليسير اليوم التعرّف إلى خارطة واضحة المعالم، توضّح الأصول العرقيّة لسكّان كلّ منطقة. في النّهار، يتنقّل الفرنسيّون

والمهاجرون بأصولهم المختلفة عبر المدينة بحريّة تامّة. أمّا في المساء، فتغلق البوّابات الحديد الضخمة الفاصلة بين مناطق بعينها، ويقف رجال الأمن على حراستها، حتّى ينبلج فجر يوم جديد.

والحالات الشّاذة التي اختارت البقاء، تعتبر قليلة ونادرة. نوع من المقاومة العقيمة لاتّجاه أخذه المجتمع منذ زمن، وتجذّر في سماته الحديثة. كانت خارطة الدّوائر الانتخابيّة قد تغيّرت أيضا منذ ذلك الوقت. تمّ تقليص عدد المقاعد من ٥٧٧ مقعدا في مجلس النّوّاب إلى ١٩٣ فقط. كانت الدّوائر المتقاربة تُدمج في دائرة واحدة، ولهدف واضح. لم يكن يُراد لأيّ دائرة أن تكون حكرا على الفرنسيّين من أصول أجنبيّة، فينتهي الأمر بمرشّح منهم يحتلّ مقعدا في البرلمان! كان يجب أن تبقى القاعدة الشعبيّة غير الأصيلة مهمّشة وتابعة، حتّى وهي تُفرَز جانبا. وهذا يجعل المقعد أشدّ إثارة وبعدا عن المنال!

- الدّولة يمكنها أن تيسّر لكم الانتقال إلى مسكن جديد في وقت قصير..

قاطعت اقتراحه الوقح في شراسة:

- لكنّنا لا نريد الانتقال!

تراجع لاإراديّا متّقيا غضبتها، لكنّها سرعان ما استعادت هدوءها واستطردت:

- والدي رجل مسنّ فقد بصره منذ سنوات، وقد ألِفَ المكان، لديه علاماته الخاصّة التي يهتدي بها من دون مساعدة من أحد.. تعوّد على التحرّك في مجاله الخاصّ معتمدا على نفسه، واقتلاعه منه سيؤدي إلى انهيار معنويّاته وتأزّم نفسيّته. نريد فقط أن نبقى في منزلنا الذي احتضن حياتنا كلّها، بين جدرانه كلّ ذكرياتنا وأحلامنا، ولا نريد له بديلا.. هل هذا طلب مجحف؟ هل هو كثير على رجل أفنى عمره بين ماسورات المياه، يصلح القنوات؟

أحجم برهة عن الردّ. إمّا أنّهم أحسنوا انتقاء ممثلة بارعة.. وإمّا أن

تكـون كلماتهـا صادقـة ونابعـة مـن القلـب. لـم يكـن قـد قـرّر خطوتـه التّاليـة، حـين سـمع وقـع أقـدام جديـدة تعـبر الممـرّ بحماسـة.

- دانيال، عزيزي.. ما زلت تعمل؟

ظهـرت سـيلين، زوجتـه الفرنسـيّة، عنـد بـاب المكتـب، واندفعـت مريـم الصّغـيرة في اتّجاهــه لتعانقــه، غـير مباليـة بالضيفـة الـتي أخـذت ترقـب التجمّــع العائـليّ في شــحوب.

- بابا، ألن نذهب؟

ابتسـم وربّـت عـلى خصلاتهـا الشـقراء الشـبيهة بخصـلات أمّهـا وهمـس في حنـوّ:

- انتظراني قليلا.. دقائق وأكون في الأسفل.

- سننتظرك في السيّارة.

تنسـحب الخطـوات الـتي قاطعـت الحديـث، ويسـتمرّ الصّمـت لثـوان ثقيلـة. أتراهـا سـتقول شيئا، أم عليـه أن يكـون البـادئ؟ تفاجئـه بنـبرة حزينـة منكـسرة:

- ظننتك.. عربيّا!

آه، هـو ذاك إذن! اللافّتـة.. قـرأت الاسـم العـربيّ، فعوّلـت عـلى تعاطفـه؟ يجيـل بـصره مـرّة أخـرى، متخلّيـا عـن حـذره. ليـس هنـاك مـن كامـيرا؟ أم تراهـم أخفوهـا بحرفيّـة؟ مهمـا يكـن، عليـه أن يتقمّـص الـدّور ويكـون مقنعـا، سـواء كانـت الكامـيرا أم لـم تكـن. لـن يمسـكوا عليـه دليـلا واحـدا. عليـه أن يـردّ، ليـس كخليـل الشّـاوي الـذي يبغـض تذكـيره بكونـه مـن أصـل عـربيّ لا يسـعه إنـكاره، بـل كخليـل دانيـال الشـاوي، المرشّـح لمجلـس النّـوّاب عـن دائـرة «نـويي سـير سـين-Neuilly-sur-Seine» و«بيتـو- Puteaux» و«كولومـب-Colombes» البلديـة. يرسـم الابتسـامة المداهنـة ويضغـط عـلى مخـارج حروفـه مؤكـدا عـلى كل كلمـة:

- أنا فرنسيّ، آنستي! ولادة ونشأة وولاءً!

يلمح علامات الخذلان على محيّاها. لم يكن هذا ما توقّعته وانتظرته. ولا ما توقّعه هو وانتظره. لو كان مقلبا، فعليه أن ينتهي عند هذا الحدّ. يظهر المخرج من مخبئه، يهنئه على اجتياز الاختبار بنجاح ويصافحه بحرارة، ويتمنّى له التوفيق في معركة الانتخابات.

بدلا عن ذلك، تهمس الفتاة وهي تشدّ على حقيبتها:

- لن تساعدنا.. أليس كذلك؟

ينبري مبرّرا:

- هذه سياسة الدّولة الفرنسيّة. وعلى جميع المواطنين الانصياع. من المفترض بكم الانتقال بهدوء إلى مسكن جديد في حيّ مناسب.. ستوفّر لكم الدّولة مسكنا لائقا، يكون مماثلا في مواصفاته للمسكن القديم.. لن يقع عليكم أيّ ظلم.. أضمن لك ذلك!

تحرّك رأسها رافضة. لم يكن هذا ما جاءت من أجله.

- حاولوا إخراجنا عنوة، فتصدّى لهم شقيقي.. وتأزّم الوضع.. حتّى اعتدى على رجل أمن.. وهو الآن محتجز.

- آه، يا للعمل الأخرق! هل كان عليه أن يعطّل تنفيذ القانون؟

يتنامى ضيقه من القصّة برمّتها. يطالع ساعته، سيلين ومريم تنتظران في الأسفل. يقول محاولا إبداء بعض التعاطف، ومنهيا الحوار:

- سننظر في مسألة شقيقك.. لكن يوم الاثنين. لا شيء يمكن عمله مساء السّبت.

ينتعش الأمل في نظرتها. تتتبّع حركاته في لهفة، وهو يقف ليرتدي معطفه ويتناول مفاتيحه. ها هو يحاول طردها، بينما تستمرّ في رجاء:

- يجب أن يطلق سراحه في أقرب وقت.. إنّه عائلنا الوحيد.. أنا وأبي الكفيف..

- نعم، نعم.. سنفعل ما بوسعنا.

يسـير باتّجـاه المخـرج بخطـوات سريعـة، وتتبعـه بخطواتهـا الصغـيرة المتعـثّرة في الفسـتان الطويـل.

- عودي يوم الاثنين.

يزفـر وهـو يجلـس أمـام مقـود السـيّارة. كيـف يمكنـه أن يصرفهـا بلباقـة يـوم الاثنـين؟

*****

- أنـت تـولي المسـألة اهتمامـا أكـثر ممّـا تسـتحقّ. أعـط لعقلـك وجسـدك حقّـه مـن الرّاحـة!

نظـرة عتـاب وزمّـة شـفاه توحـي بعـدم الرضـا، ثـمّ صمـت مطبـق طـوال الطريـق.

لـم يسـتطع أن يطيـل العشـاء العائـليّ مـع أقـارب زوجتـه. كان شـاردا عـلى امتـداد الجلسـة، يـأكل قليـلا ويتكلّـم أقـلّ، حـتّى لاحـظ الجميـع غيابـه العقـليّ رغـم حضـور الجسـد. أرسـلوا بعـض الدّعابـات حـول الانتخابـات الـتي تلتهـم وقتـه وتمتـصّ تركـيزه، ثـمّ عقّبـوا بكلمـات تشـجيع فاتـرة.

لا يؤمنون بفرصه.

لا أحد منهم يفعل.

بعـد سـتّ سـنوات مـن زواجـه بابنتهـم، لا يـزال بعضهـم يعتـبره دخيـلا، أو غـير جديـر بهـا.

عـلى مقعـد السـيّارة الخلفـي، تسـتلقي مريـم ذات السـنوات الخمـس غائبـة في أحلامهـا. هـل يتبـنّى عقلهـا الصّغـير حلمـا بـأن يصبـح والدهـا عضـوا في البرلمـان؟ لعلّهـا لا تـدرك لذلـك معـنى يُذكـر! هـل تقـدّر سـيلين، المنزعجـة

مـن الانسـحاب المبكّـر مـن السّـهرة العائليّـة، حلـم زوجهـا؟ بالتأكيـد لا تفعـل. وصفتـه بالأمـر الـذي لا يسـتحقّ! ومـا الـذي يسـتحقّ إذن؟ أن يمـضي سـاعات في تبـادل أحاديـث سـمجة مـع أوغـاد لا يحترمونـه ويحقّـرون مـن شـأنه؟ سـيختلف كلّ ذلـك، حـين يصبـح عضـوا في البرلمـان. سـيقصدونه حينهـا ليقـضي حاجاتهـم ويتوسّـط لهـم! سـتختلف اللهجـة ويخفـت الاسـتهزاء.. سيرسـمون الابتسـامات المتزلّفـة، ويرسـلون الهدايـا والدّعـوات للولائـم. سـيتكلّمون بحمـاس، ويحنـون الـرّؤوس احترامـا.

عليه أن يضمن المقعد. أن يفعل أيّ شيء من أجل ذلك.

*****

خلـف جـدران «الفيـلا» الفاخـرة ذات الطابقـين في ضاحيـة «نـوبي سـير سـين» الرّاقيـة، أخـذ خليـل يـذرع غرفـة مكتبـه في خطـوات واسـعة متأنيـة، وقـد تدثّـر بـروب بيـتي ولاذ بنـيران مدفأتـه الكهربائيّـة. كان وحيـدا في غرفـة المكتـب. ومـع ذلـك، تـراه يشـير بكفيـه في حـركات وقـورة ويرتفـع حاجبـاه ويتعانقـان تماشـيا مـع تعابـير وجهـه الجـادّة، بينمـا تتمتـم شـفتاه بكلمـات خافتـة، كأنّمـا يحـادث شـخصا خفيّـا يشـاركه فضـاء الغرفـة بأمـر جلـل.

أيّام الأحد أصبحت مختلفة، منذ بدأت الانتخابات تشغل ذهنه.

لـم تعـد صباحاتهـا كسـولة، يمـضي معظمهـا في السّريـر، ثـمّ يتنـاول وجبـة «برانـش» عـلى السـاعة الحاديـة عـشرة، دامجـا وجبـتي الفطـور والغـداء. لـم يعـد يقـضي يومـه في عبـث طفـوليّ مـع صغيرتـه الحلـوة، يشـاركها ألعابهـا ويخـرج وإيّاهـا لنزهـة عـلى الأقـدام إلى الحديقـة القريبـة. لـم يعـد وقتـه وتفكـيره يتّسـعان لـشيء غـير الانتخابـات. يفتـح عينيـه مبكّـرا، بعـد ليلـة نـوم قلقـة تقطّعهـا الكوابيـس، يعـدّ كوبـا مـن القهـوة المـرّة تُجهـز عـلى بقايـا الخمـول وتدفـع النشـاط إلى أطرافـه وخلايـا دماغـه، ثـمّ يختـلي بملفّاتـه في

غرفـة المكتـب. قـد يمـضي كامـل اليـوم بـين جدرانـه مـن دون أن ينتابـه ملـل أو يشـعر بدبيـب الوقـت والسّـاعات تنسـحب واحـدة إثـر الأخـرى حـتّى تتوارى الشّـمس بالمغيـب.

هـذا يـوم أحـد آخـر يهـدره عـلى خطّتـه الانتخابيّـة، وخطـاب الحـوار التّلفـزيّ.

يتحـرّك في توتّـر في اتّجـاه طاولـة المكتـب، الّـتي اسـتقرّت عـلى سـطحها لوحـة إلكترونيّـة وقلـم رقمـي، تحتضـن مسـودّة خطابـه. يمـرّر سـبّابته عـلى الشاشـة إلى الأعـلى والأسـفل، يلقـي نظـرة سريعـة عـلى ملاحظاتـه، مثـل ممثّـل مـسرح ضاعـت منـه مفـردات السيناريو في أثنـاء اعتلائـه المنصّـة، ثـمّ يضفـي تعديـلات أو يـدوّن إضافـات، قبـل أن يتلبّسـه الـدّور الجـادّ الـذي كان يمثّلـه منـذ ثـوانٍ، فيسـتعيد جلسـته السّـالفة وقـد التقـط خيـط الأفـكار الـذي انقطـع.

ارتفـع رنـين جـرس البـاب فجـأة ليقطـع محادثتـه ذات الطـرف الواحـد. جرس لحـوح مزعـج، يفكّـر منـذ الأزل في تغيـير نغمتـه، لكنّـه لـم يفعـل. انتظـر لثـوان، وترقّـب أن يسـمع خطـوات أهـل البيـت متّجهـة نحـو البـاب.. لكـنّ ذلـك لـم يحصـل. نـادى في ضيـق:

- سيلين؟ مريم ؟

كانـت جلبـة أهلـه في الطابـق العلـويّ تتناهـى إليـه في صخـب مكتـوم عابـرة الدّعامـات الإسـمنتية الـتي رصفـت عليهـا أرضيّـة خشـب عتيقـة. ولـم يبـد أنّ أحـدا قـد انتبـه إلى الجـرس الـذي رنّ عنـد أذنيـه، حيـث غرفـة مكتبـه هـي الأقـرب إلى المدخـل.

تخـلّى عـن دوره مضطـرّا واتجّـه في خطـوات عصبيّـة إلى البـاب، وقـد أزعجتـه المقاطعـة. أشرع دفّـة السّـنديان الثقيلـة وتطلّـع في شـكّ إلى الشّـارع المقفـر في ذلـك الوقـت مـن اليـوم. أمـام عينيـه تجلّـت الطريـق الفرعيّـة الهادئـة الـتي قلّمـا تسـلكها سـيّارات عابـرة. عـدا عربـات السّـاكنين وزوّارهـم القلائـل، لـم

يلحظ أدنى حركة. مصابيح الشارع الباسقة وزينة الأشجار الزّاهية كانت تبدّد جزءا من عتمة الليل الذي هبط مبكّرا. هبّت نسمة شتويّة باردة، فتسلّل إليه حفيف ورق على مقربة. هناك عند قدميه، استقرّت لفافة صفراء سميكة، وقد تناثرت فوقها ندف ثلج خفيفة كانت قد شرعت في التّساقط للتّو. انحنى في ارتياب ليلتقطها. ورق؟ كم مضى من الوقت منذ لمح ورقة آخر مرّة؟ نظرة أخرى على الشّارع السّاكن، ثمّ عاد إلى الدّاخل بحمله الثقيل.

ألقى اللّفافة على المكتب في إهمال، وحاول أن يعود إلى مراجعة الخطاب الذي يستحوذ على تفكيره. منذ قدّم ترشّحه لعضويّة مجلس النّوّاب، والمواجهات الحواريّة المرتقبة تشغل ذهنه. محامٍ شابّ في بداية الثلاثينات، متزوّج بفرنسيّة وذو وضعيّة اجتماعيّة ومهنيّة مريحة ومستقرّة.. أصله العربيّ هو مربط الفرس. يمكنه أن يكون ميزة تستقطب النّاخبين أبناء الهجرة المغاربيّة، وإن شاء الإعلام جعل منه علّة إقصاء وتهمة وطنيّة هشّة.

زفر بقوّة محاولا طرد المخاوف، فالتقت عيناه بسطح المغلّف. انتبه إلى الحروف اللاتينيّة المتردّدة التي شكّلت اسمه. حروف متفرّقة متباعدة ليد مبتدئة تشكّلت فوقها بقع ماء رقيقة، بعد أن ذاب الثلج الذي تناثر على المغلف. خليل الشّاوي.. ولا شيء غير ذلك. مطّ شفتيه في شكّ واقترب ليقلّب المغلّف في اهتمام. ليس بريدا عاديّا. فضّ الختم وقد تملكّه الفضول، ثمّ أفرغ المحتوى على سطح المكتب. استقرّت أمام عينيه لفافات ورق يبدو عليها القِدم. قبل أن يتبيّن محتواها، استرعى انتباهه رنين معدنيّ لجسم صلب انزلق من الظرف وتدحرج تحت المكتب. انحنى ومدّ ذراعه إلى الرّكن المظلم، تلمّس الأرضيّة لبضع لحظات قبل أن تلتقط أصابعه قطعة أسطوانيّة ذات طرف مدبّب. فغر فاه وهو يتأمّلها في دهشة.

مقذوف رصاصة!

كان تركـيزه قـد تشـتّت بالكامـل. هـل هـي رسـائل تهديـد؟ غاضـت الدّمـاء مـن وجهـه وازدرد ريقـه بصعوبـة. جلـس إلى المكتـب وقـد انصبّ اهتمامـه الآن عـلى الأوراق الـتي وصلتـه للتـوّ. كانـت عبـارة عـن لفافتـين منفصلتـين. قلّب صفحـات الأولى، الأكـثر اكتنـازا. كانـت تحمـل كتابـة عربيّـة. مـيّز الحـروف الليّنة للغـة أبيـه وأجـداده. يعـرف تلـك الحـروف ويقرأهـا متفرّقـة. يسـترجع مـن دون وعـي ذكريـات مـن طفولتـه.. ألـف، أرنـب.. بـاء، بقـرة. لكـنّ معارفـه المحـدودة لـن تكـون كافيـة لفـكّ شـيفرة كومـة الـورق تلـك. وضعهـا جانبـا، وأمسـك بالثّانيـة. كانـت حروفهـا فرنسـيّة رقيقـة. خـطّ أنثـويّ ولا شـكّ. تنفّـس في ارتيـاح.. هـذه مفهومـة لا ريـب! قـرأ التاريـخ والملاحظـة الـتي تتصـدّر الرزمـة:

«مايو ٢٠٠٧،

عزيزي خليل،

هـذه رسـائل والـدك إليـك، جمعتهـا ورتبتهـا كمـا بـدا لي مناسـبا، فهـي كمـا سـترى ليسـت مؤرخـة. لا أريـد أن أتدخّـل في الحكايـة الـتي يرويهـا لـك، لذلـك تركـت الرّسـائل صافيـة مـن دون ملاحظـات مـنّي تتخللهـا وتفسـد تسلسـلها. سـتجد تعقيـبي في نهايتهـا، منفصـلا. لـكلّ منّـا رؤيتـه للأحـداث، ورؤيـة والـدك صادقـة حتمـا بالنسـبة إليـه، مـن وجهـة نظـره، لكـنّ الصّـورة تكتمـل حـين تجتمـع وجهـات النّظـر وتتضافـر. لا أريـدك أن تتحامـل عليـه أو تلومـه، فقـد فعـل مـا حسـبه خـيرا لـك.. وأنـا كذلـك فعلـت. حـين تنتهـي مـن روايتـه، اطلـع عـلى الرّزمـة الثانيـة الـتي كتبتهـا.

هــذا تاريخــك، ميراثــك.. احملــه عــلى عاتقــك وسر بــه في الطريــق الــذي تختــاره. لكــن لا تهملــه ولا تتخــلّ عنــه، فأنــت لا شيء مــن دون ماضيــك وجــذورك.

أمّك المحبّة.»

أمّه؟ ما هذه الدّعابة؟ ترك الورقة وتناول هاتفه:

- أمي.. كيف حالك؟ نعم.. الجميع بخير. لا تقلقي، سأكون مستعدّا...

أنصت إليها بصبر وهي تدعو له وتعبّر عن مدى فخرها به وبإنجازاته ومستقبله الزّاهر، قبل أن يتجرّأ على مقاطعتها:

- أمي.. حصل أمر غريب اليوم. وصلتني رسائل.. كميّة كبيرة منها.. جزء منها بالعربيّة وأخرى بالفرنسيّة. يقال إنّها من أبي وأمّي! هل تعلمين ما الذي يجري هنا؟

أجابه صمت المفاجأة على الطّرف الآخر. صمت رهيب مستمرّ. تساءل في قلق:

- أمي؟

تنفّسها المضطرب يصله بلا كلمات، ثمّ تنهيدة عميقة، تسبق صوتا مهزوزا لا يكاد يُسمع:

- ظننتها لن تظهر بعد كلّ هذا الوقت.. ظننتها ضاعت إلى الأبد..

- من تقصدين؟ هل تعلمين بأمر هذه الرّسائل؟ هل كتبتها حقّا؟

تجاهلت فيض التساؤلات المتدفّق عبر الهاتف وقالت متهالكة:

- هل.. أنت مشغول الآن؟ هل يمكنك أن تأتي؟

- بالتّأكيد.. هناك مسوّدة الحوار التلفزي.. أوشكت على الانتهاء منها.. لكن يمكنني المجيء، إن كان الأمر يستدعي ذلك.. أمّي، أنت بخير؟

زفرة أخرى تزيد من مقدار الحيرة ولا تشفي الغليل.

- أحضر الرّسائل.. لنقرأها معا. هل تفعل؟

*****

الرزمة الأولى

رسائل نادر الشاوي

«هل تعرف ما مشكلة هذه الحياة؟ أنّنا نعيشها مرّة واحدة!»

هـل تـدري كيـف يكـون إحسـاس ورقـة الشـجر في مهـبّ الرّيـح؟ لا هـي تمسّكت بغصنها الفتيّ وظلّت شامخة في عليائها، ولا هـي تهاوت إلى أديم الأرض، حيـث تجـفّ وتتحلّـل لتواصـل حيـاة أخـرى في بطـن الـتّراب. تظـلّ متأرجحـة، تتخبّـط في عجـز. لا تملـك مـن أمرهـا شيئا، وجـلّ مـا ترجـوه هـو أن تلفظها الرّيـح قريبـا علّها تحظـى ببعـض السـكينة.. ولـو في العـدم.

هل رأيت ذلك الإحساس يا ولدي؟

حـاول، افعـل مـا بوسـعك.. حـتّى لا تعرفـه أبـدا. فـكلّ مـا صنعتـه في مـاضيّ وحـاضري كان هدفـه الأوحـد ألا تجـرّب الضيـاع كمـا عرفتـه!

لـم أدرك معـنى الحيـاة في وقـت باكـر، فقـد مـرّت بي أزمنـة تسـاءلت فيهـا عـن جـدوى وجـودي عـلى سـطح البسـيطة. تشـابهت أيّامـي وتعاقبـت ليـاليّ عبثـا، حـتّى رأيـت المـوت بعيـنيّ. منـذ ذلـك الحـين، أصبحـت أعيـش كلّ لحظـة كأنّهـا الأخـيرة. لأنّـني تعلمـت أنّ المـوت أقـرب ممّـا أتوقـع. وإنّي أسـابق المـوت، وأرجـو أن أسـبقه، لعـلّ قـدري يمهلـني لأنهـي رسـائلي إليـك. فتعـرف عبرهـا مـن هـو أبـوك، كيـف عـاش ومـا كان عليـه.. أنـا ورقـة الشـجر في مهـبّ الرّيـح.

لعلـك تسـألني يـا بـنيّ، كيـف بـدأت الحكايـة. وإنّي لأتسـاءل إن كانـت هنـاك نقطـة بدايـة واضحـة في خـطّ الزّمـن. فكلّمـا غصـت في المـاضي، تعاظـم يقيـني بـأنّ القصّـة بـدأت قبـل ذلـك، قبـل أن أصـل إلى الأراضي الفرنسـيّة وقبـل أن أركـب زورق المـوت، بـل قبـل أن أدخـل كليّـة اللغـة العربيّـة وقبـل مقتـل جـدّك رحمـه اللـه. كلّ مـا حصـل معـي بعـد ذلـك ترتّـب عـن وقائـع سـحيقة البعـد لعـلي لا أذكـر ملامحهـا.. فـكلّ شيء متّصـل ومرتبـط بالسـببيّة الزّمنيّـة.. وإنّي الآن وأنـا أمسـك القلـم وأحـاول أن أخـطّ رسـالتي إليـك، لا أدري مـن أيـن

يجـب أن أبـدأ.. بالحـدث الأقـدم، أقـصى مـا يمكنـني تذكّـره، أم بالحـدث الأهـمّ، نقطـة التحـوّل الـتي صنعـت مسـاري.. ومسـارك مـن بعـدي؟ وإن كنـت لا أدرك الجـواب، فـإنّي لـن أفعـل هـذا ولا ذاك. سـأكتب الأفـكار كمـا تـراودني. سـأضمّن رسـائلي خلاصـة تجربـتي ولبّهـا. أعتـصر ذاكـرتي ومخلّفـات رحلـتي وأصبّهـا لـك عـلى الـورق.

أراه الآن بـين عينـيّ كأنّـني أعيـش اللحظـة مـن جديـد. الزّمـان، خريـف ٢٠٠٤. المـكان، قـارب صغـير يتهـادى فـوق الأمـواج، يتدافـع في كل شـبر مـن مساحته المحـدودة عـشرات الأشـخاص المتراصّـين. يتكـوّر كل منهـم عـلى نفسـه ويلـف متاعـه الزهيـد حولـه في حـرص. يتعـالى الـصّراخ حـين تـضرب موجـة عاتيـة، ويخفـت الأنـين وتنحـني الجـذوع حـين يأخـذ منهـم التعـب مأخـذه. مشـهد اعتيـاديّ لا تـكاد تختلـف تفاصيلـه كلّمـا جـازف أحـد «مراكـب المـوت» بعبـور المتوسّـط في فجـر يـوم خريفـيّ معتـم الجنبـات.

أغـوص الآن في مـكاني وتنتابـني الرّعشـة. تتداعـى الصّـور في مخيّلتي وتسترسـل بشـكل تلقـائيّ، تعيـد إليّ كلّ ذكـرى بـأدقّ تفاصيلهـا. تغمـرني تلـك الأحاسـيس القديمـة في نـوع مـن الاسـترجاع اللاشـعوريّ، كأنّـني هنـاك، الآن.. بـين ركّاب ذلـك المركـب، أخـوض نفـس الرّحلـة مجـدّدا.

في مؤخـرة القـارب الخشـب المتهالـك، جلسـت القرفصـاء بـين رفـاق رحلـتي، أنـا «نـادر الشـاوي» ذو السّـنوات الثلاثـين ونيـف، أسـناني تصطـك مـن الـبرد وأوصـالي ترتجـف خوفـا وفرقـا. لكـنّ الرحلـة طويلـة ممتـدّة، واليابسـة لا تلـوح في الأفـق، ولا حـتى مقـدار ذرّة. حـين غـادر المركـب شـواطئ عنابـة، كانـت السّـماء حالكـة السّـواد وقـد أرخـى الليـل سـتارته السّـميكة. ليلـة بـلا قمـر، تسّـترت عـلى المتسـلّلين الذيـن كنـت بينهـم، في غفلـة مـن أعـين حـرس الحـدود.

لـم يكـن هنـاك الكثـير لنفعلـه لتجزئـة الوقـت، نـدّت عـن جـار لي محاولـة تعـارف سرعـان مـا بُـترت. تبادلنـا بعـض الأحاديـث المتقطعـة الخاويـة. نرقـع

أشلاء عبارات ونكوّن بدايات جمل، ماذا تفعل، ومن أين أتيت، فتتشابه الإجابات وتتكرّر المعاناة. نحن جميعنا، نسخ منّا، نماذج متكرّرة لبطالة وفقر وسبل مسدودة. حكايات معادة عن يأس قديم جديد سلّم أصحابه إلى مصيرهم القاتم، أقرأ تفاصيلها في النظرات الذاهلة، الشاردة نحو الماء.. الماء ولا شيء غير الماء لأميال كثيرة حولنا.

أمّا حفل الشّواء الذي نشهده مضطرّين مع وصول الشمس إلى كبد السماء، فقد كان نوعا آخر من الاختبارات المنهكة. ارتفعت إلى العنان في بطء، وامتدّت أشعتها تدفئنا ابتداءً وتجفّف ثيابنا الرّطبة، ثمّ قست سطوتها حتّى كادت رؤوسنا تحترق، واقعا لا مجازا. نتقلّى على نيران هادئة في صمت ودعة مغريين بالهلوسة. بعضنا أصيب بضربة شمس، فراح يُفرغ أمعاءه الفاسدة بين أقدامنا. والعشرات، أرداهم دُوار البحر مثل خرق بالية. ثم يتسلل الظلام ليحجب الرؤية من حولنا، ساحبا في أذياله الهواجس والهلاوس. ونرجع إلى جحيمنا المتّصل، نرتشف جرعاته على مهل.

الليل مرتع مثاليّ للأفكار السّوداوية المتطفّلة. حين ينفرد كل منّا بقلبه وعقله، فيتقاذفانه بلا رحمة. ما الذي حملني على خوض هذه التجربة رغم ما أعرفه عن المخاطر المحدقة بها؟ ودّعت عائلتي منذ يومين ولا أعلم إن كنت سأراها مجدّدا.. خجلت من أمي التي لا تزال تنقدني مصروفي اليومي، ومن شقيقاتي البنات اللاتي أتسوّل منهن ثمن السّجائر. فأخفيت عن الجميع مشروع الفرار الذي عزمت عليه، وبقيت أخطّط لأكثر من سنتين.

كلّ شيء يبدأ على قارعة المقهى، حيث يجتمع شباب الحيّ من العاطلين، يتداولون باستمرار أخبار الرّفاق المحظوظين السّابقين إلى السّفر. نستند إلى جدار المقهى الخارجيّ، ونتابع المارّة بأعين فارغة، نلقي التحية على هذا ونعاكس تلك. ومع غياب أدنى خطط للمستقبل في الوطن، فإن أحاديثنا كانت تحوم حول الواقع المرير والأحلام الوردية.

حين تتوافر الرّزمة المكتنزة، تتفتّح أمامك أبواب الخلاص، مثل علي بابا يقول «افتح يا سمسم». فيغدو اقتفاء الأثر الذي تفوح رائحته قويّة نفّاذة، محض تسلية.

حين اكتمل المبلغ في جيبي، وجدت أحدهم يترصّدني عند المنعطف.

لم أكن أمتلك جواز سفر، ولم أكن لأحتاجه في سفرتي هذه. يسمّوننا «الحرّاقة»، لأنّنا نحرق أوراق ثبوتيتنا وجوازات سفرنا، حتّى لا يتمّ ترحيلنا وإعادتنا إلى نقطة البداية، إذا ما تمّ القبض علينا على الضفة الأخرى، ثمّ نواصل حرق كلّ القوانين والأعراف في سبيل لقمة العيش.. والأرجح هو أنّنا استحقينا التّسمية، لأنّنا نحرق قلوب أمّهاتنا علينا ونذرّي رمادها في عرض البحر من دون رحمة، ونحن نمضي في طريق يقف الموت شاهقا مترصّدا في أول منعطفاتها!

حين جاء الاتّصال المرتقب، وضّبت أغراضي في حقيبة رياضية سهلة الحمل. ثمّ تسلّلت ليلا بعد أن قبّلت جبين أمّي، ووعدتها بأن أرجع رجلا كما تشتهي. لم تردعني دمعتها وتجاعيد جبينها التي حُفرت أخاديد بين يوم وليلة. كنت قد عقدت العزم وانتهى الأمر. عند المنعطف، ترقّبت سيّارة النقل الجماعي. بعد دقائق من الانتظار، كنت أنضمّ إلى ركّابها السّتة المتحفّزة نظراتهم. ساعتان من الطريق المظلمة الوعرة، قبل أن يتوقّف ركبنا عند شاطئ منعزل ومقفر. أفرغت السيّارة حمولتها وانطلقت ناثرة خلفها غبارا ورملا. تابعنا السّير على الأقدام، نتبع دليلا، بين الحشائش العالية، حتّى كوخ صيّادين متوارٍ عن الأعين. حين فتح الباب المعدن الصدئ على مصراعيه، تراءى أمام أعيننا حجم المأساة. كان العشرات يتكوّرون على أنفسهم أو يقرفصون داخل جدران الكوخ، مثل صناديق مخزّنة بانتظار الشّحن.

هناك، انتظرنا. وانتظرنا. لعلّها مسألة ساعات. يوم. يومان. تأتينا الوجبات الباردة ملفوفة في ورق جرائد مع الأنباء. الأحوال الجويّة لا تسمح

بالإبحار، ربّما في الغد. لم يكن يُسمح لنا بالخروج أو التجوّل في الخارج. كنّا ثلاثين رجلا ربّما، نتقاسم دورة مياه واحدة، نجلس في العتمة وراء نوافذ غاب زجاجها خلف ورق الكرتون. نتقلّب في صمت على جمر القلق، ونتآلف مع القذارة والبرد وضيق المساحة التي سنكون في رفقتها حتّى نهاية الرّحلة.

قبيل منتصف الليلة الخامسة، جاء الفرج. تلقّينا الإشارة المرتقبة. سنبحر.

سرنا حتّى الشاطئ الصّخريّ، نتعثّر في الظلام وتنزلق خطواتنا. ثمّ خضنا في البحر. نتقدّم، فيغمرنا الماء وتلطمنا الأمواج، ويحثّنا المشرف بصوته الغليظ.. هيّا، هيّا. من بعيد، ترى سلسلة من الرؤوس البشرية يتبع بعضها بعضا نحو نقطة في عرض البحر. مركب الصّيد المتهالك. يفترض به أن يخرجنا من المياه الإقليمية، ثمّ ننتقل إلى سفينة شحن أكبر حجما وأمتن بناءً فتأخذنا إلى الضفة الأخرى بسلام.

بعد ظهيرة اليوم الثالث، لاح لنا شكل قاتم في الأفق. تبادل مع مركبنا إشارات ضوئية، كأنّها شيفرة «مورس»، ثمّ أخذ في الاقتراب وهو يتأرجح الهوينى. حين غدا على بعد بضعة أميال، تبيّن شكله شديدَ الشبه بمركبنا. لم يكن سفينة الشحن التي منّينا بلقياها أنفسنا. خلال دقائق، كان المركبان يتعانقان، وأعطى ربّاننا الإشارة بالانتقال إلى المركب الآخر. تبادلنا نظرات قلقة. المركب القادم مليء عن آخره بركاب أفارقة، قدموا ولا شك من بعض سواحل الأطلسي الشرقية. موريتانيا وغينيا ومالي. هاجم رجلان الرّبان في سخط، فتعاون على كلّ واحد منهما اثنان من مشرفي الرّحلة، أمسك كلّ بذراع وطوّحوا بهما في عرض البحر! سمعنا صرخة واحدة. ابتلعت الأمواج العجلى صدى الثانية. وخلال ثوان، استحال سطح الماء صافي الزرقة إلى لون دامٍ. اتّسعت بركة حمراء قاتمة أسفل مروحة المحرّك في مؤخرة المركب، وصاحَبَ أزيز متقطّع حركة الشفرات الحادّة التي أعملت تقطيعا في جسد بشريّ واتت سقطته مسارها. بعد

انقضاء الصّدمة، انحنى بعض الرجال على حافة المركب يفتشون عن ناجٍ. مرّت لحظات من الذعر، قبل أن ينشق السّطح عن رأس يشهق ويبصق وأطراف تتخبّط. امتدت أذرع كثيرة لتنتشل الرّجل وتعيده إلى السّفينة، بينما غاصت الجثّة المقطّعة بعيدا.

بعد ذلك، تحرّكنا من دون كلمة في اتجاه مركبنا الجديد. يلتصق الرّجال ويتلاحمون ليتركوا مجالا للوافدين. يجلس كلّ منّا وصدره على بعد سنتيمترات من ظهر جاره. ينزاح مقدار شبر إضافي كلّما ازداد عدد المسافرين نفرا. تختلط الأنفاس وتضيق الصّدور، وتختنق آهات الغضب بين الأسنان المكشرة. كأني أسمعك تقول يا بنيّ: أما بالإمكان التمرّد وأنتم كثرة وهم قلّة؟ لكنّنا كثرة عن ضعف وضيق حال، نحتاج إلى ربّان يأخذنا إلى البرّ، ولو تخلصنا من المشرفين لضعنا في عرض البحر حتى نهلك. لذلك تحمّلنا المعاملة السّيئة والظروف الكريهة علّ الرّحلة تنتهي بسلام.

بعد ساعتين من الانتقال إلى المركب الجديد، تمكّن الألم من ساقيّ المضمومتين تحتي. تلكزني مرافق جيراني السّمراء الخشنة كلّ حين وتسدّ أنفي الرّوائح العطنة. أكاد أفقد الإحساس بقدميّ، ترتجف شفتاي الجافتان، فأبتلع لعابي وأغمض عينيّ هربا إلى خيال أهنأ. ومع ذلك، فقد كنت أوفر حظا من تلك السيّدة النيجيريّة. لم نسمع لها تذمّرا هي الأخرى. داستها الأقدام واعتصرتها الأجساد المتدافعة، حدّ الاختناق. فارقتها الحياة في صمت. خرجت روحها من دون حشرجة، مثل تنهيدة خفيفة لا يُسمع لها صوت. وبقي الجسد المطحون مستندا إلى الأجسام المتخشّبة المحدقة به، حتّى شعر بعضها بثقله المتهاوي. أخرجت الجثّة من زحام الأجساد بصعوبة، وطوّح بها من دون تردّد خارج المركب، لتكون وليمة لأسماك البحر. هكذا، ببساطة. لم أقرأ في الأعين ذرّة ندم أو تقريع ضمير. كأنّ ما اقتُرف طبيعيّ ومشروع. كأنّ حرمة الجسد تندثر مع خوائه من نفس يتردّد. على متن مركب ضئيل يتهادى في فضاء البحر المتوسّط الرّحب،

العرف يقول: الحيّ أولى من الميّت.

هبّت ريح قوية جعلت المركب يهتزّ ويتأرجح بعنف. رفعت عينيّ إلى السّماء فرأيت غيمة سوداء قاتمة تشقّ الفضاء. تلتهم المسافات وتغذ الخطو في اتجاهنا منذرة بتغيّر وشيك للجوّ. وما لبث ربان السفينة أن صدّق حدسي وصرخ فينا:

- تمسكوا.. عاصفة آتية..

تحسّست بكفّ متجمّدة الحاجز الخشب المهترئ. هل يجدي التّمسك به؟ تلفتُّ حولي بنظرات جاحظة لألمح الهلع يطلّ من مئة عين وعين. ترتفع الأصوات بالدّعاء والابتهال. «يا الله!»، تسمعها من الشفاه المرتعشة وتلمح ظلالها في الأعين الضارعة. وما هي إلا لحظات حتى بدأت الأمطار بالهطول قويّة غزيرة.

- المركب يميل إلى اليمين... تحركوا إلى الجانب الآخر!

يعمّ الهرج بين الأجساد المتلاصقة. يحاول القابعون في الجانب الأيمن الانتقال إلى الجانب الآخر، لكنّ مساحة الحركة كانت ضئيلة. يزدادون التصاقا، ويتعثر بعضهم في أجساد بعض. ننطق بالشهادتين، وتلتحم الأذرع في عراك مزمجر ومجهد.. كلّ يحاول النجاة بحياته. لا وقت للتفكير في الآخرين. تزداد الأمطار قوّة، تجلد زخّاتها العنيفة ظهور ركاب رحلة الموت. أغوص في موقعي علّني أحمي وجهي من الصّفعات العشوائية التي تكيلها الأجساد المتخبطة بعضها لبعض، فأفاجأ بمستوى الماء الذي ارتفع حتى ابتل نصفي الأسفل إلى وسطي. صرخت منبها:

- الماء يرتفع.. سنغرق.. سنغرق..

لكنّ صوتي ضاع في جلبة العاصفة. غطى دويّ الرّعد على نداء البشر. ارتجفنا، ونحن شبّان ورجال خُطّت منهم الشوارب وخالط شعورهم الشيب، وقد أيقنّا ضآلة شأننا. أدركنا بمحض غريزة أنّنا هالكون لا محالة، إن لم يكن غرقا، فبفعل الصّواعق التي كانت تضرب البحر واحدة

تلو الأخرى مثل الشهب. وبينما نحن نحدّق في هلع إلى تحوّلات السّماء، ارتفعت موجة مثل طود هائل من ورائنا، فرفعت القارب عشرات الأمتار في الهواء، عابثة بكلّ محاولات التوازن التي سعى البحّارة إلى تحقيقها.

صرخت، بكلّ الرعب المتراكم طبقات داخلي مذ كنت طفلا تخيفه الظلال على الجدار، صرخت، وأنا أرى الرّكاب يتساقطون من المركب مثل دُماي القديمة التي أقذفها بلا وجهة في نوبات غضب طفوليّ، ليبتلعهم الموج في غمضة عين. تشبّثت بأجمع كفيّ مستنفرا كلّ قوتي المتبقية في جسد أنهكته المقاومة، وتلك الكامنة في أعماق سحيقة لم أكتشفها بعد، استجديتها لتكسر القمقم وتفصح عن نفسها.. فما من فرصة أوتى من هذه! ثمّ أغمضت عينيّ بعد أن أيقنت أنّ كلّ قوى العالم لن تمنع عنّي شيئا قد كتبه الله عليّ، فابتهلت إليه سبحانه أن ينقذني من موت يكاد شبحه يلتهمني. لم تكن علاقتي بالله موصولة قبل ذلك.. بل كثيرا ما تقطّعت وتباعدت، فلا أقبل عليه إلاّ عند حاجتي إليه. وكثيرا ما تعاتبني أمّي لإهمالي الصلاة. أؤخرها عن وقتها، وأحيانا أنام عنها، أنساها أو أتناساها ثم أقول «الله غفور رحيم». في تلك اللحظات، مرّت أمام عينيّ حياتي كلها، تسحب بعض مشاهدها بعضا، كشريط سريع من الصّور. أبحث في خضمها عن عمل صالح واحد أسأل الله به أن ينجيني. لكن ذاكرتي عدمت الجواب.. فبكيت بحرقة وحسرة. وحده وجه أمي باكية وهي تودّعني ليلة رحيلي ظل ثابتا في ذهني، فألهمني الله دعاء أخيرا: اللهم ارحمني من أجلها.

ثمّ شعرت بجسدي يرتفع عن الأرض في مسار عشوائيّ، ويحلّق في الهواء مع انقلاب المركب. واحد من قطع الصلصال الكثيرة التي تلهو بها الريح في معرض هبوبها. طوفان من المياه المالحة اجتاح فمي وأنفي وأشبع رئتيّ. ظلام مبهم غمر حواسّي، وضباب كثيف غلّف وعيي.. في حين بدأ جسدي رحلة تهاوٍ إلى أغوار سحيقة البعد.

*****

النهاية يا ولدي ليست ملك البشر. لسنا المتصرّفين في حياتنا. حين يقول الله «كُنْ»، تكون من العدم! جبال الأمواج التي قلبت المركب، والملوحة اللاذعة التي أحَسَّتْ بلسعها شفتاي المتشققتان وحلقي الملتهب، كل ذلك لم يكن حلما.. رحلة الغوص اللانهائيّة إلى القعر، والصّرخات المتسرّبة من الجحيم لأرواح تودّع الدّنيا.. كان ذلك واقعا محضا.

كان هناك ظلام كثيف، وبرودة لاذعة، ولطمات ترمي بي في كلّ اتّجاه. وذراعي تتشبّث بلوح عريض تشظّى عن المركب الذي حطّمته العاصفة. من حسن طالع أبيك يا بنيّ أنّ بنيته متينة ونفَسه طويل، فراحت أطرافي تتخبّط واستمرّ جسدي يقاوم متمسّكا برمق الحياة الذي أوشك أن يغادره. كنت أحسن السباحة وغريزة البقاء كانت قوية في داخلي. لكنّ المعركة طالت، وعزيمتي فترت. كان عليّ أن أستسلم أخيرا. لم يكن هناك مفرّ.. بدا أنّني سأقضي، من دون جنّتي. فهل ما زال لي أمل في جنّة الله؟ أكذب إن قلت إنّني فكّرت في الجنّة والنّار في تلك الآونة. كلّ ما شغلني هو موتي المرتقب، وتبخّر أحلامي الأوروبيّة إلى غير رجعة.

لكنّني لم أمت. من لطف الله بي أني لم أمت.

هل مررت يا بنيّ، بذلك النوع من اللحظات؟ لحظة واحدة قصيرة هيّنة لا اعتبار لسنّها في تعداد الأحداث، لكنّك تشعر بها بكلّ جوارحك وتتمثّلها دهرا، فتحياها ببطء وتؤدة، كأنّ كلّ حواسّك قد احتشدت وجُنّدت لتمتصّ تلك اللحظة وتخزّنها في الذّاكرة.. فتسترجعها في ما بعد كأنّك تعيشها من جديد؟ هكذا عشت لحظة «قيامتي» من عالم الأموات.

استسلمت للأذرع التي انتشلت جسدي المنهك وقد استوعبت عملية التنفس كل تركيزي، أستمع للهواء الذي يعبر فتحات أنفي حفيفا رقيقا.

أحسّ بانسيابه عبر المسارات الهوائية لينتشر عبر الأنسجة ويحمل الحياة إلى كل الخلايا التي كانت في سبات. أحسست بدفقات الأكسجين تصل إلى أطرافي، وكل قطعة من جسدي تستيقظ من موت مؤقت. حين اطمأننت إلى عودتي إلى الحياة، تسرّبت أوجاع رهيبة إلى دماغي. صداع يشقّ رأسي نصفين. انتبهت حينها إلى الضمادة العريضة التي أحاطت جبيني. كنت قد تعرّضت لإصابة بليغة في أثناء صراعي مع الموج.

لعلّك تسألني، كيف نجوت؟ لكنّ ذاكرتي قاصرة عن استحضار وقائع جليّة. لعلّي حين استسلمت، كنت على مقربة من السّفينة العابرة؟ أو لعلّ سعار الموج هدأ أخيرا فطفوت؟ حين انتشلتني السّفينة الفرنسيّة، كنت فاقدا للوعي، أطفو على لوح خشب في بقعة مقفرة من امتداد البحر الشاسع، بعد أن أخذني الموج مسافة أميال بعيدا عن موقع المركب الغارق.

لم أكن الناجي الوحيد الذي أنقذته السّفينة الفرنسيّة. كان هناك ثلاثة عراقيين وسودانيّ واحد. لم يكن أحدهم من رفاق رحلتي الأولى. حكى لي أحدهم تفاصيل مغامرتهم. انطلق مركبهم من ضفاف قبرص قبل أسبوع كامل. مضوا ينتقلون من مركب إلى مركب. غيّروا الرّاحلة ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة كان الحجم أصغر وعدد الرّكاب يتزايد. المشرفون الموزّعون على مرافئ التهريب يتعاونون مشكلين شبكة تغطي سواحل المتوسّط. مراكب صيد قديمة تنطلق من الميناء بحمولة معقولة، تتواعد مع مراكب أخرى على اللقاء في عرض البحر، تفرغ حمولتها ثمّ تعود أدراجها لتأخذ حمولة أخرى.. وهكذا. حين غدا المركب الأخير غاصّا إلى درجة لا تحتمل، أقدم الرّكاب على التمرّد. رفضوا الانتقال إلى المركب الرّابع. عندئذ، عمد الريّان إلى صدم القاربين أحدهما بالآخر! صنع الاصطدام ثقبا عملاقا تدفّقت منه المياه إلى داخل المركب الأوّل وأغرقته خلال دقائق قليلة. أمّا المركب الثاني، فقد كثر فيه الهرج: الرّجل يقفز من المركب المنكوب فيحطّ على رجلين من المركب الناجي، فيدفع بهما معه إلى الماء، ويهلك

جميعهـم! يتمسّـك واحـد بآخـر فيغـرق الاثنـان! البعـض تشـبّث بعـوارض خشـب محطّمـة تناثـرت قطعهـا المهشـمة عـلى سـطح المـاء، والبعـض الآخـر بأطـواق نجـاة انفلتـت وطفـت، بينمـا غـاص الجـزء الأكـبر مـن السـفينة إلى الأعمـاق. في الأثنـاء، ابتعـد المركـب السّـليم عـلى جنـاح اللهفـة وقـد صـار إنقـاذ الغارقـين عبئًـا لا يمكـن احتمالـه.

كان صاحـبي مـن الذيـن سـقطوا في البحـر. تشـارك طـوق نجـاة مـع ثمانيـة أشـخاص، كلّ يتعلّـق بـذراع واحـدة. بعـد سـاعات مـن الانتظـار لنجـدة لا تـأتي، تراخـت العضـلات وتخلّـت عـن الأطـواق طواعيـة، فمـا عـادت بهـا طاقـة ولا أمـل للنجـاة. كانـت الأجسـاد تتهـاوى واحـدا إثـر الآخـر، وتغيـب في المـاء بـلا رجعـة. شـاهدهم ينهـارون في مزيـج مـن الخـوف والطمـع. كل ذراع تستسـلم تـترك مسـاحة خاليـة سرعـان مـا يتنافـس الصّامـدون للاسـتحواذ عليهـا مـن دون الآخريـن! كانـت لحظـات تـتردّى فيهـا النفـس البشريّـة إلى أدنى منازلهـا، فتتجـلّى وحشـيّة بهيميّـة، همّهـا الأوحـد الاسـتمرار والبقـاء. حـين وصلـت السـفينة الفرنسـيّة إلى مكان الحادثـة، كان أربعتهـم آخـر الصامديـن.. كتـب لهـم عمـر جديـد. يتسـاءل محـدّثي في شـماتة لا يـكاد يواريهـا عـن القـارب الـذي خلّفهـم في عـرض البحـر.. هـل تـرى ركّابـه قـد نجـوا أم أنّ العاصفـة حصدتهـم عـن آخرهـم؟ كان مـن حظّـه ورفاقـه أن تـمّ إنقاذهـم قبـل أن تهـبّ ريـاح الشـمال.

حين سألني ربّان السّفينة من أين أتيت، أجبت من دون تردّد: العراق!

العـراقيّ يمكنـه طلـب اللجـوء، الإنسـانيّ أو السّـياسيّ، بينمـا لا مسـوّغ للجزائـري! العـدوان الأمريـكي عـلى العـراق كان حديـث العهـد في ذلـك الوقت، وقـد تواصـل توافـد العراقيـين بـرّا وجـوّا وبحـرا إلى فرنسـا وألمانيا بعـد الموقف المـشرّف الـذي اتخذتـه قيـادات البلديـن تجـاه تدخّـل دوليّ في بلادهـم، وكان تهديـد الرئيـس الفرنـسيّ باسـتعمال حـقّ «الفيتـو» لمنـع التدخّـل أمـرا يجلّـه العراقيّـون بشـكل خـاصّ، لمسـته في حـرارة الصـوت وابتهـاج القسـمات حـين يـرد ذكـر فرنسـا في أحاديثنـا العابـرة. وقـد كان وقوعهـم عـلى سـفينة فرنسـيّة

حسن طالع لا شك فيه، فقد كانوا يمضون إليها على كلّ حال. لذلك قرّرت الاندساس بينهم والبقاء برفقتهم إلى أن يقضي الله أمرا.

خلال بقيّة الرّحلة، استمريت في الدّردشة مع رفاقي الذين قرّرت أن أشاركهم المصير. استمعت طويلا إلى حكاياتهم عن الحرب والويلات التي فرّوا منها، بعد أن أصبح موطنهم جحيما لا يطاق. أعرف الحرب جيّدا.. عشريّة بلادي السوداء إرث أحفظه بإخلاص في ثنايا ذاكرتي. تتدفّق الكلمات على ألسنتهم بسخاء وتفيض على مسامعي، الدّماء والجثث والقنّاصة.. أتمثّلها في ذهني، وتتماهى الصّور بين واقعي وروايتهم.. النّساء والشيوخ والأطفال، الثكالى واليتامى.. وأولئك الفارون من جحيم المحتلّ، تغصّ بهم المرافئ.. فما أدراك بجحيم الوطن، حين ينهش أبناؤه بعضهم بعضا؟

أسمع حكايات عن مراكب ضاعت في عرض البحر، والتقمها القراصنة.. وأخرى نفد منها الوقود، فقطّع ركابها ثيابهم وأحذيتهم وأحرقوها في الخزّانات لتواصل الرّحلة، قبل أن تعثر عليهم دوريات حرس الحدود وتقودهم إلى برّ النّجاة. أمّا الغرق، والغرق، والغرق.. فأمر متكرّر بشكل مفجع. عشرات الأشخاص يقضون كلّ يوم، وتضيق أسماك البحر بالدّخلاء فتدفع الأمواج إلى لفظ الأشلاء على الشواطئ المقفرة.. حيث يعثر عليها بعد ردح من الزّمن.

بعد ساعتين من وصول السفينة إلى المرفأ، سمح لنا بمغادرتها باتجاه مركز مفوّضيّة اللاجئين. رافقتنا حراسة لصيقة، إلى حيث أجريت علينا فحوصات روتينية شاملة. فحص للأذنين، العينين، الحنجرة، والصّدر.. تحليل للدّم وصور أشعة. وطلب لي على نحو خاصّ صورة مقطعيّة للجمجمة، نظرا للإصابة العميقة التي نالت من جانب رأسي. كان احتمال حصول ارتجاج دماغيّ واردا، بعد العاصفة التي عبرتها. ثمّ نقلنا إلى مساكننا المؤقتة. كان العراقيّون يحظون بمعاملة مميّزة، والتّوصية بشأنهم جليّة. أقمت في شقة واحدة مع العراقيّين الذين لقيتهم في السفينة.

تقاسم كلّ اثنين غرفة وحماما، وتشاركنا قاعة الجلوس الفسيحة ومطبخها المفتوح. من شرفتنا، كناّ نطلّ على الجانب الآخر من السّور الشّائك، حيث يتكدّس مغاربة وأفارقة بأعداد وفيرة داخل مساكن أشبه بالزّنازين، يطاردهم الحرس ويسوقونهم دخولا وخروجا كالبهائم، فتنهال الهراوات وأعقاب البنادق على جنوبهم وظهورهم حين يتلكؤون.

بعد الفحوصات التي خضعنا لها، تم استدعاؤنا إلى المركز الطبي مرّة ثانية. بعد دقائق طويلة من الانتظار، ظهر الطبيب بوجه متجهّم. سلّم كلّ منّا ملفه الطبيّ، ثمّ أشار إليّ وحدي أن أتبعه! تحرّكت وراءه وقد غمرني الشك. هل تكون صورة الجمجمة قد أعلنت عن إصابة ما؟

جلس الطبيب وراء مكتبه وأخرج صور الأشعة من الظرف. تكلّم بصوت شديد الوضوح كأنّه يتهجى المقاطع:

- هل تفـهم الفرنـسية؟

هززت رأسي بعلامة الإيجاب في حركة سريعة متكرّرة.

- هنا..

أشار إلى شكل مخروطي مدبّب الطرف يظهر في الصّورة المقطعيّة لجمجمتي.

- منذ متى وهذه الرّصاصة هنا؟

توقّف الزّمن في تلك اللحظة، وظهرت علامات البله على وجهي. أحاول جاهدا أن أصل الألفاظ بالمعاني المناسبة.. فلا أفلح. رصاصة؟ في رأسي؟ أصابتني رصاصة؟ ولم أمت؟ متى؟ كيف؟ أحاول استرجاع صور من ذاكرتي، ولا أرى إلا صفحة بيضاء. دماغي يعجز عن لفّ الشّريط إلى الوراء. متى بالله عليكم أصابتني رصاصة؟ في الجزائر؟ في السّفينة؟ في البحر؟ أزيز متواصل يشغل الموجة.. أربط في لحظة إلهام بين نوبات صرع كانت تصيبني قديما والرّصاصة. منذ متى.. تلك النّوبات؟ يتعطل تفكيري ويكاد خافقي يعزف عن ضخّ الدّماء إلى رأسي، بينما تشرع شاشة الذاكرة في

عـرض مشـهد مـن ملفاتهـا القديمـة.

أراني، محتميـا بالبـاب المـوارب، متعـرّق الكفّـين نـديّ الجبـين.. وأسـمع صـوت الضابـط يرتفـع في الخـارج مهـدّدا:

- أين تخبئ الإرهابيين؟

- لا أحد هنا! لا أخبّئ أحدا!

هـذا أبي يتحـدّى القـوّة العسـكريّة. يقـف شـامخا في شرفـة المـنزل قاطعـا الطريـق عـلى المقتحمـين. أعجـب بـه في تلـك اللحظـة، وأفخـر بشـجاعته. أبي كان مقداما منـذ شبابه، عـرف الحـروب والنوائـب ورأى الكثير في حياتـه. وقـد بقـي في صوتـه شيء مـن الشـدّة رغـم سـنواته السـتين ونيـف. زعيـق الضابـط يرتفـع مجـدّدا، يشـتم ويتوعّـد، وأبي يرفـض التنحـي أمامـه:

- هناك حريم بالدّاخل!

في الغرفـة الدّاخليّـة تختـبئ أمّـي وأخـواتي مذعـورات، وأنـا لا دخلـت الغرفـة معهـنّ - حـتّى لا أبـدو مثـل الحريم - ولا وقفـت في ثبات إلى جوار أبي لاسـتقبال رجـال الجيـش المقتحمـين. أقـف في منتصـف المسـافة، يفصلـني بـاب خشـب عـن سـاحة المعركـة. ينتابـني خـزي مـن جُبـني. مـن فرجـة البـاب الضيّقـة، ألمح البـدلات العسـكرية القاتمـة، وأبقـى متواريـا عـن الأعـين. يغمـرني عـاري، وتتصاعـد موجـة نخـوة إلى رأسي. أنـا المراهـق ذا الخمسـة عـشر عامـا.. كان يجـب أن أبقـى واقفـا إلى جـوار أبي. أنـا ولـده الوحيـد وعضـده.. كيـف أختـبئ مثـل الحريـم؟ في الثانيـة الـتي غلبـت فيهـا الشـجاعة، حرّكـت دفّـة البـاب أهـمّ بفتحـه والـبروز.. لتُفتـح نـيران جهنّـم في الخـارج.

في المستشفى الفرنسيّ، يواصل الطبيب شرحه وأنا في شبه غياب:

- هنـاك كتلـة ورميّـة تكوّنـت في محيـط الرّصاصـة، وقـد غـدت نهاياتهـا قريبـة مـن مركـز البـصر، ومحاولـة إخراجهـا قـد تتسـبّب في فقدانـك للحاسّـة.

في ذاكـرتي، أسـمع ولولـة أمّـي وعويلهـا، وأنـا ممـدّد عـلى الأسـفلت البـارد، تبقيـني برودتـه واعيـا، بعـد أن تلقيـت ضربـة مجهولـة المصـدر في مؤخـرة

رأسي. ألمح من زاويتي الضيّقة جسد أبي مسجّى غير بعيد عني، وبركة دماء تتسّع تحته. وابل رصاص أصابه في صدره ورأسه وأرداه قتيلا على الفور.. بينما اخترق سرب من الرصّاص الباب واستقرّ على الأرض من حولي. لعلّ رصاصة واحدة وجدت طريقها إلى رأسي؟ عبرت الحاجز الخشب الذي أبطأ سرعتها وخفّف أثرها، فنفذت إلى الدّاخل ولم تحدث ضررا باديا للأعين؟ لا شكّ أنّ ذلك ما حدث. أمّي وأخواتي انشغلن بفقيدهنّ، في حين جلست أفرك مؤخرة رأسي في وجع، وألم الفقد قد غطّى على ألم الجسد. لم يكن هناك ساعتها دم كثير عليّ.. لطخة ضئيلة، مقارنة ببركة أبي، مسحتها على عجل واستويت واقفا، كرجل البيت الجديد. لم أعرف أن رصاصة قد أصابتني.. ولم يعرف أحد من حولي. رجال الجيش انسحبوا مكتفين بما أحدثوه من فوضى، وأنا نهضت لأشيّع جثمان أبي الذي قتلته شجاعتي المتأخّرة. لم أخبر أحدا عن تفاصيل ما جرى. قلت إنّني فقدت الوعي مبكّرا.

كادت تنتابني نوبة ضحك هستيري. رصاصة أبناء وطني، خائنة ولو بعد حين !

- من الأفضل أن يراك الطبيب المختصّ.. سيحدّد بشكل أدقّ ما يمكن فعله بشأن الرّصاصة.

خرجت من الزّيارة الطبّية وقد ازداد رأسي ثقلا على حين غرّة.. تخيّلت نفسي على طريق العودة من فرنسا، لا بخفي حنين، بل برصاصة صدئة وعصا مكفوفين!

بتُّ تلك الليلة في سكن المفوّضيّة، في انتظار أن يُنظر في أمر طلبي اللجوء. بدا كلّ شيء سرياليا تلك الليلة.. السكن الفاخر والأكل الأفخر، ورصاصة علمت بعد خمسة عشر عاما أنّها كانت تساكنني! انشغلت عن التّرف المادّي المحيط بي بتجاربي العمليّة: أميل رأسي إلى اليمين ببطء فتقترب أذني من كتفي، أختبر إن كانت الرّصاصة ستتحرّك مع حركتي..

ثـم أديـر عنقـي بسرعـة مثـل المخبـول، علّي أسـمع رنينهـا أو شقشـقتها! أتلمّس بأصابعي موضع جرح قديم قد اندمل في مؤخرة رأسي.. أحاول أن أدسّ أصابعي بين خصلاتي الكثيفة، أتخيل ثقبا مخروطيا يمتدّ إلى موضع الجسم المعدن، ربّما هو بسمك إصبعي! عبثا حاولت أن أميّز لوجودها أثرا حسيّا يعرّفني بمكانها. كنت أستعجل ما سيحصل في ما بعد، تدريجيا وتصاعديّا.. لأعيش جحيما أتمنى معه الموت!

*****

بعد يومين، تمّ اقتيادنا إلى المركز مرّة أخرى، حيث ستجرى معنا لقاءات شخصيّة للتعرّف على دوافعنا ومسوّغات طلبنا اللجوء. كنت أحسب لذلك اللقاء ألف حساب.. فهو الموعد الذي سيُفضح فيه أمري! كنت واثقا أنّ كذبتي ستكشف عاجلا غير آجل. هي مسألة أيام، حتى يتبيّن الاسم الذي قدّمته مزيّفا، والهويّة التي أدّعيها مختلقة. سيكتشف الموظّف سريعا أنّني لا أعرف شيئا عن تفاصيل الشأن العراقيّ وظروف الحياة اليوميّة في ذلك البلد القصيّ، الذي لم أفكر يوما في زيارته، وسيهتمّ ولا شكّ في تمحيص شأني أكثر من الآخرين. وإذا ما جلس قبالتي مترجم يتقن اللهجة العراقيّة، فسيسقط القناع عنّي منذ الكلمة الأولى.

أخذت طوال فترة الانتظار التي سبقت أشحذ ذهني وأسترجع تفاصيل نشرات الأخبار، التي غالبا ما شاهدتها في سرحان! لشهور خلت، كانت الفضائيات تعرض على مدار اليوم صور سقوط بغداد والغزو الأمريكي للبلاد.. لكن ما شأني أنا بأخبار العالم؟

كانت قاعة الانتظار فضاء مفتوحا. من مجلسي ألمح موظفي الإدارة يسعون في كلّ الاتجاهات وبين أذرعهم ملفات مختلفة. الحرس يتحرّكون، يرافقون رهائنهم المؤقتة، فإذا ما صدر بشأنهم السّماح والسّراح،

خلّفوهـم عـلى العتبـات أحـرارا. حرسـنا يقفـون عنـد المدخـل، فقـد كنـت والعراقيـون الثلاثـة نعتـبر زمـرة واحـدة. أرقبهـم مـن طـرف خفـيّ وأتسـاءل مـتى تتراخـى أعينهـم السّـاهرة فأجـد فرصـة النّجـاة. ولـم أكـن أتخيّـل أن تسـاق إليّ الفرصـة بذلـك اليـسر.. لكـنّ اللـه قـدّر وفعـل.

صاحبنـا السّـودانيّ الـذي لـم يملـك حضـور بديهـتي في الادّعـاء، صـدر بشـأنه حكـم الترحيـل الفـوريّ. انقـضى لقـاؤه الشـخصيّ بسرعـة الـبرق، واقتيـد خارجـا مـع ملـف الترحيـل، والقيـود في معصميـه. رأيتـه يتملّـص مـن حارسـه ويتخبّـط عـلى الأرض محدثـا فـوضى عارمـة عنـد الاسـتقبال. كان ضخـم الجثّـة قـويّ العضـد، فمـا تمكّـن الحـارس مـن تثبيتـه منفـردا.. هتـف طالبـا المـآزرة، فانـدفـع حـرّاس آخـرون لنجدتـه. رأيـت أحـد الحارسـين عـلى بابنـا يبتعـد في خطـى ثابتـة، في حـين انشـغل الآخـر بمراقبـة مـا يجـري.. كنّـا هادئـين ومسـالمين وفـرص قبولنـا وافـرة، لذلـك لـم يبـد مـن الخطـر أن نوهـب مسـاحة مـن الحريّـة.

لـم يكـن هنـاك مجـال للتـردّد. كان عـليّ أن أتحـرّك عـلى الفـور قبـل فـوات الأوان. إن لـم أتحـرّك حينهـا فقـد لا تهـدي إليّ الظـروف فرصـة مماثلـة مجدّدا. بحركـة حـادّة انطلقـت عـدوا في اتجـاه المخـرج وسـاقاي تسـابقان الرّيـح. خـلال ثـوان كنـت قـد عـبرت الأمتـار القليلـة الـتي تفصلـني عـن بـاب الحجـرة وتجـاوزت الحـرس. لـم تعـد تفصلـني عـن الشـارع إلا مسـافة قصـيرة. حانـت مـنّي التفاتـة إلى الـوراء. كان الحـارس قـد انتبـه إليّ متأخّـرا.. وهـبّ في عقـبي. لكنّـني كنـت قـد حصلـت عـلى الأسـبقية، ولـم أكـن أحتـاج إلى أكـثر مـن إثـارة الموقـف الرّاهـن لأنطلـق بـأسرع ممـا تسـمح بـه أطـرافي الكسـولة.

لـم ألتفـت مـرّة أخـرى. عـبر الشـوارع المزدحمـة بالخلـق، ركضـت مـن دون أن أتوقـف أو أسـتردّ أنفـاسي. لدقائـق عـدّة، اسـتمريت في عـدوي المحمـوم تـذكي حماسـتي غريـزة البقـاء. حـين توقفـت أخـيرا لأسـتجمع قـواي، كنـت قـد ابتعـدت بضـع مئـات مـن الأمتـار عـن مبـنى المركـز.. اسـتندت إلى جـدار قريـب وأخـذت ألهـث بشـدّة. التفـتُّ إلى الشـارع الخـالي وأنصـتُّ في انتبـاه.

لـم أكـن متبوعـا. تنهـدت وأنـا أجلـس عـلى الأرض وأمـدّ سـاقيّ في إعيـاء. لقـد نجحـت في الفـرار. تنفّسـت بعمـق وأغمضـت عيـنيّ لبضـع ثـوان، ثـم انفجـرت ضاحـكا بصـوت ردّدت الأزقـة الخاليـة صـداه.

كنت حرّا طليقا في شوارع مرسيليا.

*****

الأحد ١٦ ديسمبر ٢٠٣٥، السّاعة الحادية عشرة ليلا،

سكتت أمّ خليل، ووضعت الرسائل جانبا لترشف من كوب الماء على مهل. لثلاث ساعات متواصلة، استمرّت تقرأ وتترجم، متوخّية ما أمكنها من الدّقة. تُشكل عليها بعض العبارات التي تتجاوز معجمها اللّغوي المحدود، فتقاربها بما تجود به قريحتها من بدائل، وتشحذ الذّاكرة لتستحضر معنى لفظ مرّ عليها منذ زمن طويل وسقط من دفاترها، لتقادم عهدها باللغة العربيّة قراءة وممارسة. بلّلت ريقها وأذهبت جفاف شفتيها، ثمّ حانت منها التفاتة إلى خليل الذي يجلس قبالتها، يُنصت في انتباه. هذا الاكتشاف المتأخّر لتاريخ أبيه، أيّ أثر يتركه في نفسه؟ نشأ طفلا وحيدا، في كنف أمّ رقيقة يغلب حنوّها على حزمها. لا يذكر كيف كان حضور أبيه في حياته، في تلك الطفولة البعيدة، لكنّه كان مكتفيا بعاطفة أمّه وحدها.. مثل كلّ الأمور التي تجهلها، فلا يسعك افتقادها.

قال خليل بعد ثوانٍ من الصّمت، متجاوزا ذهولا مؤقتا سيطر عليه مع السّطور الأخيرة:

- الرّصاصة.. إنّها تلك التي وصلت مع الظّرف؟

هزّت أمّه رأسها مؤيّدة، فزفر في شبه ارتياح. فكّر أن يسأل، كيف خرجت من رأسه ومتى، وما كانت التّبعات.. لكنّه أحجم. جوابها لن يتغيّر مع كلّ مقاطعة واستفسار. انتظر وستعرف. يتمنّى أن يستعجلها ويعبر المراحل كلّها بقفزة إلى خطّ النّهاية، لكنّها تبدو متأنيّة مترفّقة، كأنّما تخشى أن يُفلت حرف واحد من ترجمتها، فتكون قد خانت النصّ!

أطرق وقد طُبع الوجوم على ملامحه. إذن هذا هو أبوه.. واحد من أولئك الذين عبروا حدود الموت. جزء من ذاكرة البحر المتوسّط التي تدوّن سجّلات العابرين، الغرق منهم، والنّاجين والمفقودين الذين قُدّموا

وليمـة للأسـماك.. كأنّهـم قربـان أو إتـاوة يفرضهـا البحـر ليسـمح لآخريـن بالوصـول سـالمين، ليسـتقرّوا عـلى ضفـاف العـذاب!

للمـرّة الخامسـة ربّمـا، تظهـر إشـارة ضوئيّـة متكـسّرة عـلى شاشـة هاتفـه. سـيلين تتّصـل.

- عليك أن تردّ.. إنّها قلقة.

يهـزّ رأسـه بحركـة آليّـة، ولا يـردّ. ليـس في مـزاج يسـمح بالحديـث. يسـتمرّ الصّمـت حـتّى تخفـت الإشـارة وتـلاشى. بينمـا ترقبـه أمّـه في قلـق. ألـم تُخـفِ عنـه الحقائـق رحمـة بـه؟ ألـم تؤجّـل المكاشـفة خوفـا عليـه؟ صـار رجـلا الآن، يسـتعدّ لمعركـة البرلمـان. رجـل مـن طينتـه لـن تكسره مجـرّد رسـائل.. ليسـت إلّا فسـحة عـبر التّاريـخ، سـيعود بعدهـا ليسـتكمل مهامّـه. لقـد حمتـه مـن تأثـير المـاضي في وعيـه وتفكـيره. فنشـأ كمـا تريـد.. لـمَ القلـق الآن؟

- تأخّـر الوقـت.. يجـب أن ترجـع إلى بيتـك حـتّى لا تقلـق سـيلين. نسـتكمل القـراءة صبـاح الغـد.. مـا رأيـك؟

راقبهـا خليـل متمعّنـا. كان شيء غريـب يمـلأ نظرتهـا وحركاتهـا. لقـد أخفـت عنـه كلّ تلـك الحكايـات المؤلمـة، لكنّهـا اليـوم تبدو متّقـدة الحيويّة، منتعشـة بشـكل لا يفهمـه. كلّمـا قـرأت، تدفّـق الـدّم في وجنتيهـا وغـدت أكـثر نضـارة. كأنّمـا تحـرّرت مـن ثقـل كان يكبّـل أطرافهـا ويلجـم ضحكتهـا. لـم تنـس. رغـم تسـتّرها وكتمانهـا، لـم تنـس. كانـت الذّكريـات تعيـش داخلهـا، والآن وهـي تبـوح وتنـشر خبايـا روحهـا تبـدو منطلقـة ومتفتّحـة. للحظـة، أشـفق عليهـا. تراجـع عـن فكـرة خرقـاء بإلقـاء الرّسـائل إلى النّـيران. كانـت تلـك القـراءة المرهقـة شـفاءً لهـا.. وربّمـا كان فيهـا شـفاء لـه أيضـا، مـن تسـاؤلات كثـيرة تشـغله مـذ كان مراهقـا؟ مـن يـدري، لعـلّ توطيـد معرفتـه بـأب لـم يعرفـه إلا في صـورة وحيـدة تتصـدّر صالـة الشّـقة القديمـة الـتي لـم تغادرهـا أمّـه منـذ ثلاثـين سـنة، يخفّـف شـيئا مـن مرارتـه؟ ربّمـا وجـب أن ينتظـر.. ليعـرف النّهايـة. لعـلّ الأمـور آلـت إلى غـير مـا بـدأت عليـه؟

هـزّ رأسـه موافقـا. كان ذلـك مناسـبا. وليذهـب الخطـاب إلى النّسـيان حـتّى إشـعار آخـر. كان عليـه أن يجتـاز تجربـة المـاضي حـتّى يقـف عـلى عتبـات المسـتقبل بثبـات ووضـوح رؤيـة.

ركـب سيّارته وقـاد عـبر الشّـوارع المقفـرة حـتّى منزلـه ذي السّـقف القرميـديّ الدّاكـن في ضاحيـة باريـس الغربيّـة. ارتقـى السّـلم الخشـب ودلـف إلى غرفـة ابنتـه مريـم عـلى أطـراف أصابعـه. كانـت الصّغـيرة تغـطّ في النّـوم، ومصباحها الزّهـريّ ذو النقـوش يرسـل إضـاءة باهتـة تؤنـس وحدتهـا. تنـام قريـرة العـين مـن دون أن يسـاورها أدنى ريـب في حقيقـة مـاضي جدّهـا. رفـع الغطـاء الـذي دفعتـه عنهـا في شـقلباتها الليليّـة وطبـع قبلـة حانيـة عـلى جبينهـا، ثـمّ تسـلّل باتّجـاه غرفـة نومـه.

زفـر مهمومـا وفـكّ أزرار قميصـه. ارتـدى منامتـه عـلى عجـل ثـمّ انـدسّ إلى جـوار سـيلين في السّريـر الـدّافئ. تقلّبـت وفتحـت عينيهـا، ثـمّ اسـتقامت لتواجهـه بنظـرة عتـاب قاسـية:

- أين كنت؟ لماذا لا تردّ على اتّصالاتي؟

طبع قبلة سريعة على خدّها وقال متحاشيا نظراتها:

- أنا متعب الآن.. ما رأيك في أن نتحدّث صباحا؟

رمقتـه في غـير رضـا وهـو يولّيهـا ظهـره ويرفـع الغطـاء حـتّى كتفيـه، ثـمّ نفخـت في تسـليم وعـادت إلى نومهـا. وسرعـان مـا غرقـت في النّعـاس كأنّمـا لـم تسـتيقظ البتّـة.

أغمـض خليـل عينيـه وتنفّـس بانتظـام متوسّـلا نومـا عميقـا وسريعـا. لكـنّ جفونـه اليقظـة لـم تسـعفه. حـدّق في الظـلام وقـد سـكنه شـيطان الرّسـائل. بعـد سـاعات مـن السّـهاد، ران الكـرى عـلى عينيـه، فـراح في سـبات متقطّـع تتخلّلـه الكوابيـس. حـينَ تسـلّلت خيـوط الفجـر الأولى عـبر السّـتائر المسـدلة، بـارح سريـره وقـد قـرّر ألا خـير يُرجـى مـن محاولاتـه العبثيّـة تلـك. كان الإرهـاق يثقـل عينيـه، والتّسـاؤلات تمـلأ رأسـه. وقـد غلـب توقُـه إلى معرفـة المزيـد

حاجتَـه إلى الرّاحـة.

عـلى السّـاعة السّـابعة صباحـا، وصلـت سيّارته عنـد البنايـة القديمـة الـتي تقطنهـا والدتـه. ركنهـا كيفمـا اتّفـق، وهـرول في اتّجـاه المصعـد. لـم تتأخّـر أمّ خليـل مـع رنّـة الجـرس الأولى. رنـت إلى ولدهـا بابتسـامة صغـيرة:

- لم تنم كثيرا؟

- ولا أنت.

كان الإجهـاد ظاهـرا عـلى سـحنتها الباهتـة. تنهّـدت حـين جمعهمـا الصّالـون الصغـير في ركـن المطبـخ الـدّافئ. كانـت قـد جهّـزت القهـوة وقطـع التوسـت، وآثـار دمـع قريـب تبلّـل رموشـها. ومـن دون مقدّمـات أو اسـتطرادات لا طائـل مـن ورائهـا، أمسـكت الرّسـالة التاليـة واسترسـلت في مهمّـة الأمـس.

*****

أن يكـون بلـدك «عميـد» المسـتعمرات الفرنسـيّة، فذلـك يعـني أنّـك تملـك حقـا مشروعـا في قصاصـك مـن فرنسـا. هـو ثـأر تقـرّه لنفسـك وتـبرّر بـه نزعتـك الأنانيّـة إلى هجـران أرضـك وأهلـك إلى غـير رجعـة. كأنّـه ليـس مـن معـنيّ بالثـأر سـواك، وكأنّ نعيمـك بجنّـة فرنسـا سيسـدّد شـيئا مـن دينهـا تجـاه قومـك أجمعـين، وتتشـدّق بذلـك وأنـت تضـع قنـاع الفـارس المغـوار.

وإنّي يا فرنسا قد جئتك فاتحا!

تسـكعت في شـوارع مرسـيليا مـن دون وجهـة طيلـة الليـل. مشـيت في اعتـداد وغـرور، كأنّي ملـك يتفقّـد ربـوع مملكتـه. أتبخـتر في ثيـابي الرّثـة متناسـيا أزمـتي الماليـة، بعـد أن ذهـب كيـس نقـودي - مـع السـترة الـتي نزعـت عـنّي عـلى متـن السـفينة واسـتبدلت بهـا أخـرى جافـة - أدراج الرّيـاح! لكنّـني كنـت ثمـلا برحيـق الحريّـة، أرمـق بأعـين حالمـة قـوس قـزح وهميّـا يزيّـن سـمائي، وعصافـير سـحريّة تزقـزق في صفـاء، فـلا يسـمع لحنهـا غـيري! حـين أنهكـني التعـب، تمـدّدت عـلى الأرض وراء شـجيرات كثيفـة في حديقـة عامّـة ونمـت عميقـا حـتى الصّبـاح. حـين قرصـني الجـوع، فتحـت عيـنيّ. كنـت قـد أخـذت كفايـتي مـن النّـوم فاسـتلمت معـدتي المشـعل. تجنّبـت المينـاء ومركـز المفوّضيّـة حيـث يمكـن أن أقـع عـلى أعـين تعرفـني، وتوغلـت في الاتجـاه المعاكـس، فقادتـني قدمـاي إلى أحـد الأحيـاء الشـعبية القصيّـة عـن وسـط المدينـة.

هل جرّبت أن تتخيّل الجنّة؟

هنـاك جنّـة.. وجنّـة. جَنّـة اللـه الـتي أعدّهـا لعبـاده المؤمنـين، مـا لا عـين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر عـلى قلـب بـشر. وجنّـة البـشر عـلى الأرض. في خيـالي وخيـال شـبّان حـيّي العاطلـين، كانـت أوروبـا هـي الجنّـة. فألقينـا بأجسـادنا في اليـمّ نـروم المـوت، لعـلّ المـوج يلفظنـا، فنُبعـث عـلى شـواطئ

شـمال المتوسّـط، في الجنّـة الـتي نبغـي. الجنّـة الآن. فهـل كانـت؟

حـين كنـت أتهيّـأ للسّـفر، جمّعـت عـددا مـن أرقـام الهواتـف، خيـوط تواصـل مـع مـن سـبقني مـن الجـيرة ورفـاق البطالـة. كان مـن المفـترض أن أجد ملجـأ مؤقتـا عنـد أحدهـم لـدى وصـولي، فـلا أضطـرّ إلى مرحلـة التيـه تلـك. لكـنّ القائمـة ضاعـت مـع بـاقي الحاجيـات الـتي ابتلعتهـا العاصفـة، فتبخّـرت الحلـول الجاهـزة، وصـار مـن المحتّـم الارتجـال!

وأنـا أتسـلق متمهـلا الرّبـوة المطلـة مـن علٍ عـلى الميـناء والأبنيـة القديمـة، كنـت أكتشـف مشـهدا جديـدا لـم يخطـر ببـالي عـلى الإطـلاق. ذابـت الصّـور المشرقـة الـتي رسـمتها في ذهـني للحضـارة الغربيـة تحـت أشـعة الشـمس، حالمـا التقطـت عينـاي أكـوام الأوسـاخ والأتربـة المكدّسـة عـلى حاشـية الطريـق، وتوقفـت نظـراتي عـلى الجـدران الـتي تسـاقط طلاؤهـا الأصـلي، وتشـوّهت مسـاحاتها برسـوم ثائـرة متمـرّدة صاخبـة الألـوان، والتقـط أنفـي الروائـح العطنـة. خلـف واجهـة المدينـة السّـياحيّة الناصعـة، اكتشـفت بؤسـا مدقعـا لـم أكـن أتوقـع وجـوده عـلى الضفـة الأخـرى مـن المتوسّـط.

ولـم يكـن ذلـك كلّ شيء. انحـسرت الأحـلام أكـثر حـين طالعتـني وجـوه الصّبيـان الدّاكنـة وهـم يتحلقـون في جماعـات أمـام مداخـل العمـارات. وجـوه مشـتتة ضائعـة تشـبه كثـيرا الوجـوه الكئيبـة المحفـورة في ذاكـرتي. وجـوه الفقـر. وجـوه الجـوع. الوجـوه الـتي فـررت مـن عنّابـة حـتى لا ألمحهـا مجـدّدا، فـإذا بهـا تحـاصرني هنـا! تحـدّق فيّ بأعـين زائغـة عدائيـة تسـتغرب توغـلي في ثنايـا عالمهـا. تراقصـت في رأسي صـور بعيـدة قريبـة لشـبان أنصـاف عـراة يقرفصـون عـلى ناصيـة الشـارع في عـزّ ظهـيرة الصّيـف، أو يمـدّون سـيقانهم النحيلـة خـارج حـدود المقاهـي في تكاسـل ولا مبـالاة مسـتفزة. لمـاذا أتذكـر شـباب حـيّ بهـذا الإلحـاح؟ أليـس الشـبه واضحـا؟ وهـل يتسـكع في وضـح نهـار عمـل طبيعـي غـير العاطلـين؟

أرّقـني أن أواجـه الفاقـة وأنـا أقصـد هـذه البـلاد طالبـا الـرزق. تطلعـت

إلى المزيج العرقي الغريب الذي تمثل في الوجوه الملونة من الحنطة إلى الأبنوس. أفارقة ومغاربة وأوروبيّون. قبل أن تبدر عنّي أيّ محاولة تواصل، وجدت أحدهم يبرز أمامي، بين أصابعه مدية حادّة، يلهو بها في نزق، يديرها بين أصابعه في رشاقة لا تخلو من تهديد، ويهتف في غلظة:

- أيها الغريب، ماذا تريد؟

لم أكن أجهل غربتي حتّى يذكرني بها.

- ارحل من هنا.. إن كنت لا تريد أن تتأذى.

بينما أخذت في التراجع في ارتباك، ظهرت دراجة نارية تهدر من آخر الشارع. خلال ثوان قليلة، صار راكبها قبالتي. تلفظ بكلمات فاحشة، قبل أن يرفع العجلة الأمامية لدراجته في الهواء ثم يدور حول نفسه في حركة استعراضيّة لم يخف عليّ الغرض منها. حثثت الخطى نحو الشارع الرئيسي لا ألوي على شيء، وحاشية من الصبية العابثين ترافقني على بعد أمتار قليلة، كأنما يطمئنون إلى خروجي من مجالهم الأرضي. ركضت لمسافة كافية وأنا لا أكفّ عن التلفت في جزع، وإحساسي بالغربة يتنامى داخلي مع كل خطوة.

لاحقا، وأنا أراقب حركة السير من أعلى الجسر في شرود، حدّثني أحد المتشردين -الذين أصبحت أقاسمهم الفضاءات العمومية للنوم وقضاء الحاجات- عن حقيقة الوضع. تبيّن لي أنّ تلك الأحياء الشعبية -«الغيتو»- سجون مغلقة على أهلها. عفوا، سجون؟ بل هي حصون منيعة تحمي أهلها، مغلقة في وجه الغرباء والدّخلاء. أغلب سكانها من المهاجرين أو الفرنسيين من الطبقة الكادحة. لا أحد يتجرّأ على دخولها من دون «حماية». والحماية لا يمكن الحصول عليها إلا من سكان الحيّ أنفسهم. حتّى رجال الشرطة لا يجرؤون على اقتحامها لا ليلا ولا نهارا. ومن يغامر منهم بالترجل عن سيارته عند مشارف الحيّ، فإنه يلقى ترحيبا من نوع خاص لا يفكر بعده في تثنية الزيارة.

حين تبتعد عن الأحياء الراقية وتتوغّل في المنطقة الشعبية، تكون قد عبرت الحدود نحو مرسيليا أخرى لا يأتي الإعلام الرّسمي على ذكرها إلا لماما، وبكثير من التحفّظ. كل حيّ تحكمه المافيا الخاصّة به، تصفي حساباتها بنفسها. تنصب المحاكم وتنفذ الأحكام من دون أيّ تدخل خارجي. قد يُسمع في سكون الليل دويّ رصاص حيّ يعلن تنفيذ حكم ما بالإعدام. حكم تمّ إيقاف العمل به في فرنسا منذ ١٩٨١ من قبل الرئيس «فرانسوا ميتيران»، وما زال ساري المفعول في غياهب الشوارع القاتمة. المهنة السّائدة في تلك المنطقة هي تجارة الأسلحة والمخدّرات بأنواعها. ومن لم يتورط في القذارة حتى النخاع فهو يشارك في الجريمة بالحراسة أو التسويق، أو على الأقل بالصّمت والتّستر. طبعا، من بينهم أفراد يتوقون إلى حياة شريفة، لكنّهم يدفعون ثمن نشأتهم في ذلك الجحيم كلّ يوم. يمشون ملتصقين بالجدران ويعانون ليدفعوا عن أنفسهم وصمة جرم اقترن بهم من دون ذنب. حين يرزح ربع سكان المدينة تحت خطّ الفقر، يصبح الخبز اليومي أهمّ من الفضيلة.

في تلك الليلة، حين أرحت رأسي أخيرا طالبا بعض النوم، ظللت مفتوح العينين لبرهة أتساءل في مرارة. ما الذي جئت أفعله في هذه البلاد؟

*****

قضيت بضع ليال في العراء، أتكوّر على نفسي تحت جسر يحمل طريقا سيّارة. لم يكن الوقت شتاءً بعد، لكنّ البرد يشتدّ في المساء حين يهبّ نسيم البحر اللاذع على المدينة السّاحلية، منذرا بفصل صقيع باكر، وفي سويعات الصّباح الأولى، قبل أن تمدّ الشمس خيوط النّجاة المشبعة بالحرارة.

أمّا مأكلي ومشربي، فقد انتحيت من أجلهما المسار الأقسى. كنت مثل

فـأر المخـازن، أتسـلّل إلى محـلّات المـواد الغذائيّـة. أتـوارى بـين الرّفـوف أو خلـف الـبرّادات، أتقـصّى الزّوايـا الـتي لا تطالهـا عـين كامـيرا المراقبـة، وأفـكّ بأصابـع مرتعشـة مغلّفـات الخـبز المقطّـع إلى شرائـح، ألـواح الشـيكولاتة أو قطـع البسـكويت، أقضـم فيهـا بشراهـة المحـروم وفوضويّـة المطـارد اللذيـن كنتهمـا، حـتّى تنطفـئ لهفـتي. أتلفّـت في قلـق محمـوم، وأتحـرّك في عجلـة مضطربـة. يمـوت فيّ الضمـير كلّ يـوم مقـدار شـعرة، حـتّى تـلاشى صوتـه تمامـا بعـد مـضيّ شـهر مـن العبـث والضّيـاع. بعـد شـهر مـن وصـولي إلى الأراضي الفرنسـيّة، كنـت لا أزال ألبـس الثيـاب ذاتهـا، أجـترّ الألـم ذاتـه، وينمـو بداخـلي حقـد مدمّـر عـلى الدّنيـا والظـروف والآخريـن الذيـن ينعمـون بالهـدوء وراحـة البـال.

ها قد عبرت المتوسّط، فأين الجنّة؟

غـير بعيـد عـن ملجـئي أسـفل الجـسر، كانـت مجموعـة مـن المشرّديـن تسـهر كل ليلـة. ألمحهـم بطـرف عيـني تحـت ضـوء فانـوس الشـارع الخافـت. قواريـر المشروبـات الكحوليـة لا تنفـد في مخازنهـم، وحناجرهـم تنطلـق بالضحـك والغنـاء في كل سـاعة.. كأنّهـم لا يحملـون هـمّ شيء في الدنيـا. يكفيهـم مـا يجـود بـه عليهـم بعـض المـارّة مـن قطـع نقديـة وبقايـا الأطعمـة. أمّـا البقايـا فيقتاتـون بهـا ويطعمـون الـكلاب الـتي تعيـش بينهـم كأنهـا بعـض أهلهـم، وأمـا النقـود فهـي للمشروبـات والسـجائر، وحـين تُفـرج تضـاف إليها الحشـائش المخـدّرة الـتي تلهيهـم عـن العالـم بـأسره!

أجلـس عـلى مسـافة منهـم بحيـث تصلـني أصواتهـم وأسـتأنس بحركتهـم، لكنّـني أبيـت الاختـلاط بهـم ومشـاركتهم المأدبـة. عجـوز أشـيب وصديقتـه المسـنة، يجوبـان المينـاء للاسـتجداء، وكلبهمـا الكبـير المترهّـل لا يفارقهمـا. تتقاطـع طرقنـا في أثنـاء النهـار، حـين ينطلـق كل منـا للبحـث عـن رزقـه. وعـلى الجانـب الآخـر مـن الرّصيـف، كهـل قـد اقـترب مـن الخمسـين. آلـة الأكورديـون لا تفـارق ذراعـه. يطـوف السـاحات ليجمـع بعـض القطـع النقديـة مـن المـارة نظـير المعزوفـات الـتي يقدّمهـا بسلاسـة المحـترف.. نفـس تلـك المعزوفـات

الـتي يؤديهـا ليـلا أمـام رفـاق سـهرته، مـن دون مقابـل. هـو الآخـر يصحـب كلبـا ضئيـلا قصـير السّـيقان، لا يفـارق قدميـه حـتى في أثنـاء النـوم.

كنـت أجـوب الشـوارع كل صبـاح عـلى غـير وجهـة. لا أدري مـن أيـن أبـدأ. تسـاءلت، كيـف تـصرّف الآخـرون، وقـرّرت أن أسـتعير تفكـير أحدهـم، علّـه يسـعفني بطـوق النجـاة. كلّ شيء كان سـهلا في خيـالي. ورش البنـاء والأسـواق والمطاعـم، كلهـا وجهـات كان مـن المفـترض أن تتوافـر فيهـا مواطـن شـغل كثـيرة بأجـور ذهبيـة. لكنّـني أينمـا توجهّـت كنـت أقابـل بالرفـض والطـرد، وأحيانـا كنـت أسـمع أقـذع السّـباب. كنـت أشـعث ومتسـخا وذا هيئـة باليـة. يـراد مـنّي أن أكـون في هيئـة محترمة حـتى أحصـل عـلى عمـل.. وأنـا أحتـاج إلى العمـل حـتى أغتسـل وأشـتري ثيابـا نظيفـة. وجـدت نفسي عاجـزا أمـام تلـك الحلقـة المفرغـة.

مـا هـي السّـبل المتاحـة إذن للمشرّديـن أمثـالي؟ حسـن، هنـاك التسـوّل طبعـا. وهـو أمـر أفضّـل المـوت جوعـا عـلى اقترافـه، فضـلا عـن نظـرات الاحتقـار الـتي لا أتحمّلهـا. مـاذا إذن؟ حـتى لا نبالـغ، فلنقـل إنّ هنـاك بضعـة خيـارات أخـرى.. شركات الأدويـة مثـلا! نعـم، شركات الأدويـة توظـف المشرّديـن.. لاختبـار عقاراتهـا قبـل طرحهـا في الأسـواق! بعـد التّجـارب المخبرية عـلى الفـئران البيضـاء، تعتمـد الـشركات الخاصّـة عـلى المشرّديـن والمعدمـين. يوقعـون عـلى تصريـح يخـلي الشركـة مـن كلّ مسـؤولية، فتنقدهـم أجـرة تُسـيل اللعـاب، ثـم تتابـع تجرّعهـم لسـموم لـم تثبـت نجاعتهـا.. وقـد لا تثبـت أبـدا! عـازف الأكورديـون، دفـع الثمـن فادحـا، حـين أخـذت أصابعـه تخذلـه بارتعـاش مزمـن، بعـد أن جـرّب حبوبـا لمـرضى القلـب. كان محظوظـا.. البعـض يقـضي في صمـت. يعـثر عليـه منظفـو البلديـة صباحـا متكـوّرا وقـد تقيّـأ دمًـا.

ثـمّ هنـاك فرصـة العمـل كمخـبر سريّ لصالـح الشرطـة! تراقـب ليـلا محـورا معيّنـا حـتى يتمكـن الضابـط المعـني بـه مـن الغـط في النـوم مـلء جفونـه. تبلّـغ عـن حـوادث السّرقـة والخطـف وتشـهد بمـا رأيـت بمـا يفيـد في

التحقيقات الجارية.. وتتجسّس على بعض المحلّات أو الأشخاص. طبعا لم أكن مرشّحا صالحا لمثل هذا العمل.. وأنا الذي فررت من الحرس! ماتيو «الأجرب» يفعل ذلك.. و«الأجرب» صفة أطلقها عليه بقيّة سكّان الشّوارع من المشرّدين، نفورا منه واحتقارا. فكرامة المتشرّد لا تسمح له بالعمالة للشرطة!

أما الطّريق الأيسر والتي استمرّت تراودني في إلحاح، فهي طريق الانحراف. إن أردت أن تتردّى في مسالك غير شريفة، فستجد من يغريك ويرشدك! كان بيدرو الإسبانيّ يظهر في المساءات السّاكنة التي تخفّ الحركة خلالها. يتسلّل في رشاقة قطّ، يقفز عبر الأسوار وينطّ في الحديقة العامّة التي يجتمع في أركانها المظلمة بعملائه. كانوا مشرّدين، مهاجرين مثلي، أميّزهم من بشرتهم شديدة الحمرة التي تفضح حفلات الشواء التي تعرّضوا لها على متن مراكب الموت، أو فرنسيّين خانتهم الفرص في وطنهم. وكان يزوّدهم بالمخدّرات. هيروين وكوكايين وحشيش، لائحة متكاملة من الخيارات تناسب ذوق كلّ مستهلك. كان ضميري في النّزع الأخير في تلك الفترة، وكنت أتوقّع وفاته بين لحظة وأخرى. لذلك لم يكن من الصّعب أن أستسلم للإغراء، لأصبح واحدا من عملاء بيدرو وموزّعيه.

ترّقبته تلك الليلة عند بوّابة الحديقة. رمقني بنظرة شاملة، ثمّ تصافحنا علامة الاتّفاق. خلال لحظات، أحطت علما بآليات العمل وحفظت القواعد. في الغد، سيسلّمني كميّتي الأولى. شطارتي في تسويقها ستحدّد العمولة والمكافآت. كان يجب أن يجرّبني قبل أن يضبط الأرقام ويحدّد أسس الحسابات بيننا. بتّ متيقّظا، مفتوح العينين. أزن تبعات قراري بموازين المصلحة والمخاطر. لم تراودني هواجس أخلاقيّة. لم أكن نفسي. كنت ذاتا أخرى غاضبة تخلّقت في رحم الغربة.

في تلك الليلة، كان غناء جاري العجوز يصل إلى مسامعي متقطعا. صوته فيه بحّة أعرفها. سببها تدخين مكثف لسنوات طويلة. أبي كانت لديه البحّة نفسها. ينقطع الغناء حين يداهمه سعال مضن يرتجّ له

جسـده الهزيـل ارتجاجـا. فجـأة، تناهـى إلى مسـامعي صـوت فرملـة سـيارة مندفعــة، تلتهـا صرخــة مكتومــة وارتطــام عنيــف. فتحــت عيــنيّ في ذهــول والتفـتّ إلى حيـث كانـت المجموعـة المرحـة. في لحظـات، لـم يعـد للمـرح أثـر في المـكان. رأيـت مقدّمـة سـيارة سـوداء رياضيّـة وقـد توغلـت في الرصيـف مـن دون اسـتئذان، حـتى داهمـت عمـود الإنـارة وطـوت قائمتـه في مسـتوى القاعـدة. تحـت الإضـاءة الخفيفـة الـتي يبعثهـا مـا تبقـى مـن الفانـوس بعـد الحادثـة، رأيـت جسـدا مسـجى بـلا حـراك تحـت العجـلات. سـمعت العويـل الـذي أطلقتـه المشرّدة المسنّة وهـي تهـوي بقبضتهـا الضّعيفـة عـلى مقدّمـة السـيارة، تلاهـا هديـر محـرّك السـيارة ذاتهـا وعجلاتهـا الأماميـة تـدور عـلى محورهـا في ضراوة، منتهكـة بـلا رحمـة حرمـة الجسـد الـذي داسـته للتـوّ.. نـدّت عـنّي صرخــة فــزع وجريــت باتجــاه موقــع الحادثــة وقــد اســتفقت عنــوة مــن ذهــول أصابــني، ونويــت إجبــار الســائق عــلى الــنزول. لكــنّ العربــة تحركــت قبـل وصـولي وتجـاوزت جسـد الرجـل العجـوز بعـد أن تداولـت عـلى فرمـه العجـلات الأماميـة والخلفيـة، وانطلقـت مجـدّدا بأقـصى سرعتهـا. انتبهـت في الوقـت المناسـب وقفـزت لأبتعـد عـن مسـارها متحاشـيا حادثـة ثانيـة. تركتهـا تفلـت وتابعتهـا ببـصري حـتى اختفـت خلـف المنعطـف في حـسرة. لـم يكـن أمامـي شيء أفعلـه.. لـم يكـن بإمـكاني إنقـاذ حيـاة الرجـل أو إيقـاف السـائق المجنـون. كنـت بـلا حـول ولا قـوة وأنـا أسـمع أنـين المـرأة منحنيـة الجـذع فـوق جثـة رفيقهـا الـتي فارقتهـا الحيـاة. سـمعت صـوت عـازف الأكورديـون وهـو يركـض في اتجـاه الشـارع القريـب ثـم يوقـف سـيارة عابـرة وهـو يهتـف:

- اطلبوا الإسعاف.. اطلبوا الشرطة..

لـم أسـتطع أن أدفـع نظـراتي عـن بركـة الدّمـاء القاتمـة، الـتي ظهـرت تحـت رأس الجثـة وأخـذت في الاتسـاع. رأيـت المـوت كثـيرا منـذ بـدأت رحلـتي. رأيـت أشـخاصا يموتـون أمـام عيـنيّ في البحـر مـن دون أن يبـكي عليهـم أحـد. وهـذا الرجـل أيضـا، لـن يبـكي عليـه الكثـيرون. لـو كان هنـاك مـن يهتـمّ لشـأنه لمـا عـاش مـشرّدا في الشـوارع.. لمـا مـات وحيـدا هكـذا. انتابـني جـزع مفاجـئ. كنـت

شريكا له في الوحدة والتشرّد. تخيّلتني أقضي من الجوع أو البرد ذات ليلة، متكوّرا على نفسي على قارعة الطريق، لا أحمل أيّ ورقة ثبوتيّة. قد يمضي زمن طويل قبل أن يصل نعيي إلى الجزائر..

ارتفعت أصوات صافرات الشرطة وأخذت في الاقتراب. أخيرا قام أحد المارة بالاتصال بالأمن. لكن ما الفائدة؟ السّيارة فرّت من المكان ونجا القاتل بجريمته. لم أتمكن من تسجيل رقم لوحة السّيارة، فالظلام كان حالكا والإضاءة رديئة. ما فائدة الشرطة؟ انتبهت فجأة وقد عاد إليّ تركيزي. الشرطة! كان عليّ أن أختفي قبل وصولها. إن تقدّمت للشهادة على الحادثة فسيتم القبض عليّ لا محالة. أتاني صوت العازف وهو يقترب من موقفي:

- أنت هناك.. هل رأيت لوحة السيارة؟

استدرت بحركة مفاجئة وانطلقت أعدو في الاتجاه الآخر، تتبعني شتائم العازف البذيئة ولعناته الحانقة.

- أين ماتيو الأجرب؟ ألا يمكنه أن يكون مفيدا مرّة واحدة؟!

تابع وصلته الفرديّة بلا مجيب، بينما كنت أركض كالمحموم بلا وجهة. في تلك اللحظة، غدت الجنّة المرجوّة مجرّد البقاء على قيد الحياة.

*****

هـل جرّبـت أن تركـب قطـارا لا تعـرف وجهتـه؟ أنـا فعلـت. راقتـني فكـرة أن أتـرك لقـدري اختيـار وجهـة عـني. لـم أكـن أتـوق إلى زيـارة مـكان محـدّد، ولـم أكـن أملـك تـرف التخطيـط لمسـار مـا لحيـاتي. ركبـت القطـار في الصّبـاح الباكـر. تسـلّلت إلى المحطـة تحـت سـتار الظـلام، وانتظـرت في ركـن رطـب وعفـن حـتّى بـدأ المسـافرون في التّوافـد. حـين امتـلأت المحطّـة بالحيـاة، حـشرت جسـدي بـين الأجسـاد المترقبـة وانتظـرت القطـار.

دخلـت عربـة الدّرجـة الأولى مـن دون أن أدري. انتبهـت إلى ذلـك حـين لامـس كفـيّ مسـند المقعـد الجلـد، ووقعـت عينـاي عـلى ربطـات العنـق المتأنقـة المتصـدّرة للمشـهد عـلى معظـم الياقـات المحيطـة بي. بحثـت بعيـنيّ عـن مـكان شـاغر، فانتبهـت إلى فتـاة شـابة تضـع حقيبتهـا عـلى المقعـد المجـاور. جولـة أخـرى في أرجـاء العربـة أنبأتـني بأنـه المـكان الوحيـد المتبقّـي، فتقدّمـت بـتردّد:

- من فضلك.. هل يمكنني الجلوس هنا؟

رفعـت نظراتهـا إليّ في عجـب، ثـمّ رأيتهـا تنكمـش وتـنزوي قريبـا مـن النافـذة بعـد أن أزاحـت حقيبتهـا عـلى مضـض. أسـمالي الباليـة الـتي لـم أغيّرهـا منـذ دهـر أثـارت نفـور جـارتي. أحسسـت بنظراتهـا ترقبـني خلسـة فحاولـت -عبثـا- السّـيطرة عـلى اضطـرابي لأبـدو طبيعيّـا. رأيتهـا تشـيح عـنّي وتنغمـس في مطالعـة جريدتهـا، فـرارا مـن رائحـتي المزريـة حتمـا. تشـمّمت كـمّ سـترتي متفقّـدا فتراجـع رأسي مـن هـول مـا وجـدت. لـم أكـن قـد خالطـت العالـم المتحـضّر منـذ فـترة!

بعـد أن اسـتقرّ بي المقـام في العربـة، وتحـرّك القطـار مغـادرا المحطـة، انتابـني فضـول بمعرفـة وجهـتي. تلفّـتُّ مـن حـولي علّـني ألمـح لافتـة مـا أو

لوحة إعلامية، بلا جدوى. استدرت حينها تجاه جارتي وتجاسرت على مقاطعة تركيزها المزعوم على الجريدة.

- معذرة.. إلى أين يتجه القطار؟

رفعت إليّ وجها شاحبا. رمقتني بنظرة مستنكرة، ثم قالت في حذر:

- إلى باريس.. ألم تحجز مكانا قبل الصعود؟

هززت رأسي نافيا وقد انتابني التوجّس. ها إنّ سؤالي قد زاد الطين بلّة. رأيتها تتراجع في صمت حتى التصقت بالنافذة أو كادت، وزاغت نظراتها عبر الزجاج. إنّها تفكّر الآن بهويّة الرّجل الجالس إلى جوارها، رثّ الثّياب، في مقصورة الدّرجة الأولى، من دون تذكرة سفر، ومن دون معرفة لوجهة القطار! إنّها تقلّب الاحتمالات في رأسها. أسوأها حتما. أيكون من قطاع الطرق؟ أو لعله سجين هارب؟ استشعرت عن بعد دقات قلبها المتسارعة، كأنها تضرب صدري أنا، وراقبت عنقها المتصلّب وهي تزدرد ريقها بصعوبة بالغة. لقد أثرت رعبها في تلك الدقائق القليلة، وخمّنت أنّها قد تنهض لتغيّر المقعد والعربة في أيّ لحظة.. لولا أنّ القطار كان مزدحما ذلك الصّباح.

حاولت النّوم فرارا من إحساس غريب بالذنب تجاه جارتي المسكينة التي أقلقت راحتها. كنت أنوي أخذ قسط من الرّاحة لأستيقظ مع وصول القطار إلى المحطة النهائية. أغمضت عينيّ وتفكّرت في مزيج عجيب من الحسرة والارتياح في موعدي مع بيدرو الذي فوّتُّه. إذن لم يكن ضميري قد رقد رقدته الأخيرة بعد. ولم يكن مقدّرا أن أنحرف بتلك السّرعة. لم يكن قد غلبني النعاس بعد حين، سمعت صوتا قويا يعلن مع دخوله العربة:

- سيداتي، سادتي، صباح الخير! سنقوم الآن بعملية المراقبة.. لذلك الرجاء إظهار بطاقات السفر.

نزلت الكلمات على رأسي كالصاعقة. انتهى أمري! هل فررت من أمن

المفوّضيّـة وشرطـة مرسيليا لأقـع لقمـة سـائغة بـين فـكيّ مراقـبي التذاكـر؟ تكـوّرت في مـكاني متوتّـرا أقلّـب الإمكانيـات المتاحـة. هـل أتظاهـر بالنـوم؟ لكـنّ المراقـب سـيوقظني لا محالـة. لـم يكـن بـين يـديّ مـن حـلّ إلا ملازمـة الصّمت. لـن أتكلـم. حانـت مـنّي التفاتـة إلى جـارتي الشـابة.. لقـد تحدّثـت معهـا منـذ قليـل، ولعـلّ غيرهـا مـن الـركاب قـد سـمعني. هـل يكشـفون أمـري؟

- سيدي، تذكرة السفر من فضلك.

استـدرت ببـطء لأواجـه المراقـب بابتسـامة مهـتزّة مـن دون أن أتفـوّه بكلمـة واحـدة.

- سيدي، التذكرة.

هززت كتفيّ كأنّني لا أفهم أو لا أسمع، ولم أردّ.

أخذ المراقب يتفرّس في هيئتي وقد بدأت الشكوك بشأني تساوره.

- سيدي، هويتك!

بنفس البلادة، استمررت أطالعه بابتسامة متشنجة.

رفـع المراقـب صوتـه وهـو يشـير بسـبابته إلى بطاقـة هويتـه الـتي علقهـا عـلى صـدره:

- هل لديك بطاقة مثل هذه تحمل اسمك؟ ما هو عنوانك؟

حـين لـم يأتـه ردّ هـذه المـرّة، نـادى زميلـه الـذي كان قـد تقـدّم لمراقبـة تذاكـر بقيـة المسـافرين:

- لسـت أدري إن كان أصمـا أم مـشردا أم مجنونـا.. لكنـه لا يجيـب، ولا يحمـل تذكـرة أو بطاقـة هويـة. سـأقف هنـا إلى حـين وصـول أمـن القطـار.

هزّ الآخر رأسه متفهما وابتعد في اتجاه العربة التالية.

جلسـت في صمـت أنتظـر مـا سـتؤول إليـه الأمـور. أرقـب في قلـق جـارتي الـتي وصلـت علامـات التوتّـر عـلى وجههـا أقـصى مسـتوياتها، ومراقـب التذاكـر الـذي يتّصـل عـبر لاسـلكيّه كل فـترة لاسـتعجال أمـن القطـار. تنحـدر قطـرات

العرق على جانب وجهه المكتنز وتتحرّك أصابعه بشكل لاإراديّ واشية باضطرابه. لم أكن وحدي أعاني وقتا عصيبا.

«بعد دقائق قليلة سيتوقف القطار في محطة ليون».

جاء النداء عبر مكبّرات الصوت ليحمل الفرج لكل منّا. كنت صاحب الفكرة ومنفّذها. انتظرت اللحظة المواتية، حين اهتزّ القطار فترنّح المراقب الذي أنهكه الوقوف في مكانه لدقائق طويلة. رأيته يدوس على قدم أحد المسافرين فينحني ليعتذر وقد تزايد منسوب عرقه. لحظات قليلة ابتعدت خلالها نظراته عنّي، فوقفت في هدوء وتسلّلت مبتعدا قبل أن ينتبه إليّ. قطعت الأمتار المعدودة التي تفصلني عن باب النزول بخطوات واسعة وأنا أبتهل إلى الله أن يكون الحظّ حليفي مرّة أخرى. حين رفع المراقب رأسه، كان الممرّ مكتظا مع استعداد الرّكاب للنزول. كان زحام القطار ذلك الصّباح من حسن طالعي. سمعته يصرخ في غيظ:

- من فضلكم، دعوني أمرّ..

حشر جسده الممتلئ في الفراغات بين المسافرين وهو يحاول اللحاق بي. الثواني تنقضي وأنا أقف أمام باب القطار المغلق وأنتظر توقّفه في المحطة. لم يكن الحظ ليواتيني أكثر ممّا فعل. المسافة بيننا تتقلّص والقطار ما زال يتحرّك. فلأصنع حظي بنفسي إذن. حرّكت مقبض الطوارئ وشددت على الباب بكل ما أوتيت من قوّة حتّى فتحته. هبّت ريح من خلال الفتحة مذكية حسّ المغامرة داخلي. الباب مفتوح. القطار يتحرّك مبطئا مع اقترابه من المحطة، كفّ المراقب تمتدّ باتجاهي لتمسك بتلابيبي. أقفز. أقفز ملقيا بجسدي إلى الفراغ. تتماهى الصّور في ذهني. أمواج البحر والمركب المنقلب، والقطار بسعيه الحثيث على سكة الحديد، وموج الحصى الذي حططت فوقه متعثّرا متكوّرا. أتدحرج بعشوائيّة وتخز حبّات الحصى جلدي فأستفيق من خيالاتي. لعلّ الماء كان أكثر طراوة، لكنّ أمواجه لم تكن أرفق.

أقـف عـلى قدمـيّ وقـد لقيـت مـا لقيـت مـن سـقطتي الحـرّة عـلى فـراش الحـصى. القطـار يمـضي ووجـه المراقـب المربـدّ يطـلّ مـن البـاب في سـخط. لـم يجـرؤ عـلى القفـز ورائي. ألمـح قطـاري يتوقـف عنـد المحطـة بعـد بضـع مئـات مـن الأمتـار، فأحـثّ الخطـى مبتعـدا، أبحـث عـن حظـي الـذي واعدتـه عـلى اللقـاء في هـذه الأرض الجديـدة.

وإنّي يا ليون قد وصلتك صدفة!

*****

الاثنين ١٧ ديسمبر ٢٠٣٥، العاشرة صباحا،

كانـت جفـون خليـل مثقلـة بالإرهـاق، وهـو يتوسّـد كفّـه ويتابـع التفاصيـل الـتي واصلـت أمّـه سردهـا. تجـلّى التعـب في سـحنتها هـي الأخـرى، وفي فتـور شـفتيها وهـي تتعـثّر في الترجمـة، وتتوقـف لثـوان بـين جملـة وجملـة. لـم يحـظَ أحدهمـا بنـوم كافٍ، وبـدت المهمّـة المسـتأنفة مجهـدة أكـثر ممّـا توقّعـا. تثـاءب بعـد أن فشـلت القهـوة في تعديـل مزاجـه الخامـل، وقـال في تثاقـل:

- هـذا لا ينفـع.. سـآخذ الرّسـائل إلى مترجـم محـترف، وسـتكون جاهـزة خـلال يومين.

- لا!

كانــت شــاحبة في رفضهــا القاطــع، كأنّمــا هــي طفلــة لا تريــد أن تفــرّط في لعبتهــا الأثــيرة.

- اذهــب إلى مكتبــك، وســأعمل عــلى التّرجمــة في غيابــك، فتكــون القــراءة سلســة مســاءً. مــا رأيــك؟

بــدا عليهــا التّصميــم، والرّجــاء. لــن تــترك المهمّــة لأحــد. يهمّهــا أن تقــضي أطـول سـاعات ممكنـة في حـضرة رسـائل الـزّوج الغائـب. لعلّهـا تطـرد الملـل عـن سـاعات يومهـا الرّتيبـة. فكّـر أنّـه ليـس مـن حقّـه أن يحرمهـا مـن متعتهـا الـتي جـاءت بعـد سـنوات مـن الجفـاف العاطفـيّ.

- لك ذلك.

دخــل مكتبــه بعــد أن اجتــاز بمشــقّة دوّامــة الزّحــام الصّباحــيّ. السّــاعة تشـير إلى الحاديـة عـشر صباحـا، والحركـة فاتـرة مثـل أيّـام الاثنـين الاعتياديّـة. تنهّـد، وبوابـة المصعـد تغلـق مصراعيهـا خلفـه. هـل يمكنـه التّركيـز الآن عـلى مشـاغله الأخـرى؟ سيغوص تدريجيّـا في قضايـاه المعلّقـة، حـتّى تصـل الأعمال

إلى ذروتها على قرابة الثانية بعد الظهر. نبّهته رنّة المصعد مع وصوله إلى الطّابق الرّابع. ما أن تجاوز العتبة حتّى لمح الفتاة عينها، تجلس في قاعة الانتظار وعيناها ترقبان المدخل في صبر. لقد نسي أمرها! تجاوزها مسرعا في اتّجاه غرفة مكتبه، من دون نظرة عابرة حتّى. يتصرّف مثل شخص مهمّ، محامٍ مشغول أو مرشّح برلمان تعوّد على ابتزاز العامّة.

دخلت السكرتيرة بعد لحظات، وضعت كوب قهوة ساخنة على سطح المكتب، وقالت في لامبالاة وهي تهمّ بالمغادرة:

- الآنسة تنتظر منذ ساعتين.

لم يكن ينقصه غيرها هذا الصّباح! تلكّأ وهو يفتح أجهزته، يتفقّد ملفّاته، يرتشف قهوته ببطء وسرحان. بعد نصف ساعة، قال عبر الهاتف الدّاخلي: دعيها تدخل.

رغم سلوكها الصّبور، فقد تراءت في عينيها غلالة ضيق وغضب. ربّما تتجاوز عن ساعتي الانتظار قبل وصوله إلى المكتب، لكن الدّقائق الثلاثين التي تلت كانت إذلالا متعمّدا. لم يكلّف نفسه غير ابتسامة مداهنة وهو يقول بنبرة جافة لم تبلغها ذرة ندم:

- آسف لجعلك تنتظرين..

كانت نظرتها حادّة، ولم تبد عليها أدنى رغبة في البكاء. كأنّما ازدادت صلابة عمّا كانت عليه مساء السّبت، وهي تكاد تستجديه المرافعة في قضيّتها. هل فعلت؟ تبدو ذكرياته مشوّشة، بعد نهاية الأسبوع غير الاعتياديّة هذه. يحصل معه ذلك غالبا حين يشاهد شريطا بأبعاد خمسة، فيتقمّص الدّور ويعيش الأحداث، فيصعب عليه بعد الفراغ منه أن يستوعب أبعاد الحياة الحقيقيّة لبضعة دقائق. لكنّ ما اختبره ليس شريطا خياليّا.. بل تاريخا يخصّه.

- ذكّريني، ما الذي نحن بصدده؟

- البيت، يحاولون طردنا منه.. وشقيقي محتجز بعد صدامه مع رجال

الأمـن.

مختـصر وجـيز للقضيّـة، بصـوت يـكاد يكـون لامباليـا. لحظـات مـن الصّمـت. حـاول أن يقيّـم الوضـع. هـل يمكنـه أن يعتـذر الآن ويطلـب منهـا أن تقصـد غـيره؟ هـل سـيبدو ذلـك مجحفـا في حقّهـا بعـد سـاعتين ونصـف السـاعة مـن الانتظـار؟ ربّمـا لـو كانـت نبرتهـا ذليلـة ونظرتهـا منكسرة، لشـعر بنفسـه محاصرا وراغبـا في التملّـص مـن مسـؤوليّة لا يريدهـا. لكـن هـذا الـبرود المتباعـد يدعـو إلى الشـكّ، كأنّمـا ليسـت القضيّـة قضيّتهـا! كأنّمـا لـم يعـد الأمـر يهمّهـا. يثـير الأمـر فضولـه بشـكل لا يقـاوم، يـكاد يسـألها، مـا الـذي حـلّ بهـا يـوم الأحـد؟

- لا أظـنّ أنّ هنـاك الكثـير لعملـه بالنّسـبة إلى البيـت. وشـقيقك.. حسـن، لـم يكـن عليـه التهـوّر بمجابهـة رجـال الأمـن.. ومـع ذلـك، أتوقّـع أن يتـمّ إخـلاء سـبيله خـلال وقـت قصـير. لـن يحتـاج الأمـر إلى جهـود محامـي جنايـات. أنـت تفهمـين؟

ظهرت ابتسامة ساخرة على شفتيها وقالت بنبرة متعالية:

- طبعا.. فهمت.

ثـمّ وقفـت مغـادرة مـن دون كلمـة احتجاج واحـدة. تسـاءل في حـيرة إن كانت حقّـا الفتـاة نفسـها؟ هـل تكـون شـقيقتها؟ شـبيهة لهـا؟ كلّهـن يتشـابهن حـين يغطـين رؤوسـهن. بعـد دقائـق مـن انصرافهـا، كان لا يـزال مبهوتـا ومشـتّتا. هـل كان عليـه حقّـا أن يرفـض القضيّـة؟ بالتّأكيـد، لـن يـورّط نفسـه والمكتـب في قضيّـة تعطيـل لمسـار القانـون وهـو يتأهّـب للمعركـة الحاسـمة. عـاد إلى مطالعـة ملفّاتـه مـن دون تركـيز. تسـاءل بعـد برهـة، هـل كان ليقبـل بهـا في ظـروف أخـرى؟ لـم يكـن واثقـا.

ليست قضيّة تعنيه.

بلى، تعنيه، ولكنّه ينكر.

مـاذا لـو كانـت أمّـه تواجـه موقفـا مماثـلا؟ مـاذا لـو رفـع جيرانهـا شـكوى وطالبـوا بطردهـا مـن الحـيّ الـذي لا تنتمـي إلى أهلـه عرقـا وثقافـة؟ هـل كان

ليدافع عنها؟ أم لعلّه سيحثّها على الاستجابة في صمت؟ إنّها مجرّد سيّدة عجوز مسالمة لا تكاد تغادر شقّتها في كلّ الأحوال. هل ستشكّل مصدر ضيق لأحد؟

لم يدر كم دام شروده حين اقتحمت السكرتيرة المكتب في حالة فزع قصوى.

- أستاذ دانيال، الحافظة الإلكترونية اختفت! لا أجد لها أثرا!

وقف في اهتمام وقال مهدئا من روعها:

- هل بحثت جيّدا؟ لا شكّ أنّها في مكان ما.

- إنّها محفوظة على الدّوام في درج المكتب العلويّ، وهو مغلق دائما والمفتاح معي. لكنّها ليست هناك الآن!

- متى رأيتها آخر مرّة؟

- هذا الصّباح. أخرجتها قبل وصولك، وقمت بتحديث الملفّات وتصنيفها كما تعوّدت دائما. عملت عليها قرابة السّاعة قبل وصول الزّبائن، لم يكن هناك غير...

توقّفت فجأة وقد تذكّرت الزّائرة الصّباحيّة التي أمضت ساعتين ونصف السّاعة في قاعة الانتظار.

- تلك الفتاة! لقد غادرتُ المكتب لدقائق قليلة، حين أدخلت إليك القهوة! إنّه وقت كاف لتفتح الدّرج وتأخذ الحافظة ثمّ تخفيها في حقيبتها من دون أن أنتبه! لا شكّ أنّ ذلك ما حصل!

- دعينا لا نتسرّع في الاستنتاج.. سنبحث عنها معا في كلّ أرجاء المكتب. قد تكونين نقلتها من موضعها ونسيت الأمر.

بعد نصف ساعة من التفتيش الدّقيق، كان احتمال السّرقة قد راح يتّخذ معنى واقعيا. راجع في ذهنه نبرتها وسلوكها. لامبالاتها، كانت توحي بشيء ما لم يستطع التكهّن به. انتقمت لنفسها؟ حافظة ملفّاته، إنّها أثمن ما

يمتلكه المحامي. من دونها، يقف في قاعة المحكمة خالي الوفاض، مقفر الذّهن من التحليلات والمعطيات التي تصنع مرافعته وتنسج خيوطها. لقد أحسنت انتقاء وسيلة الانتقام.

قال في شحوب وهو ينفض يديه بعد رحلة البحث الفاشلة:

- هل أخذت بياناتها؟

سارعت السكرتيرة إلى جهاز التّسجيل الذي يدوّن عليه المراجعون هويّاتهم وعناوينهم، ثمّ ما لبثت أن رجعت ممتقعة الوجه وهمست في خيبة:

- لقد تركت هويّة وهميّة! دوّنت اسم رجل!

رفع حاجبيه في شكّ. اسم رجل؟ لو كانت تقصد هويّة وهميّة، لماذا لم تختر اسم أنثى؟ لماذا قد تدوّن اسم رجل؟ هتف في اهتمام:

- أريد الاسم والعنوان.. حالا.

تناول معطفه وهرول إلى الخارج من دون أن تستوعب السكريتيرة شيئا. ما أن استقرّ أمام عجلة القيادة، حتّى رنّ الهاتف معلنا عن رسالة. طالع البيانات. الاسم، محمد رستم. وعنوان في قلب باريس، الدّائرة السّابعة. أدخل العنوان على جهاز الملاحة الخاصّ بالسيّارة وانطلق. لو كان توقّعه صحيحا، فهي ليست هيّنة أبدا. ما كان عليه أن يستهين بها.

رنّة أخرى على الهاتف أعلنت وصول رسالة أخرى. رقم والدته. ملف صوتي! وصل الهاتف بجهاز البثّ الخاصّ بالسيّارة وأخذ يستمع إلى صوتها الهادئ في اهتمام. ابتسم وهو ينعطف عبر شوارع باريس في اتّجاه بغيته. لقد أحسنت استثمار صباحها، بينما يزداد هو تشتّتا وضياعا.

*****

ليتـك رأيتـه معـي.. ظهـر أمامـي فجـأة، كأنّمـا نبـت مـن الجـدار، مـن العـدم. كنـت منهـكا أكاد أمـوت مـن الجـوع، فنزلـت عـلى عينـيّ غشـاوة مـن الضّبـاب غالبـا مـا تسـبق الإغمـاء. خـلال المشـاهد المهـتزّة، ظهـر ذلـك الرّجـل ذو السـاق الواحـدة، والـذراع الواحـدة، والعـين الواحـدة! بعينـه السّـليمة، حدجـني بنظـرة جانبيـة مشـبعة بـالازدراء، وقـال بالفرنسـيّة:

- مثير للشفقة.

لـم أعـترض. كنـت مثـيرا للشـفقة بالفعـل. لبثـت أرقـب في تشـوّش النهايـات الاصطناعيّـة الـتي تكمّـل مـا نقـص مـن أطرافـه البشريـة، السـاق الخشـب، المخطـاف المعـدن، والرّقعـة السـوداء الـتي تتـدلّى عـلى جانـب وجهـه مخفيـة عينـه العـوراء. شـكل القرصـان طبـق الأصـل مـن أفـلام الكرتـون! مـع كومـة مـن الثيـاب المهلهلـة غـير المتناسـقة، تخفـي بقيّـة جسـده. زمجـر شيء ضخـم غـير بعيـد عنـه، فالتفـتُّ ناحيتـه. لـم يكـن قرصـاني يصطحـب ببغـاء أو طائـرا مـا، بـل كلبـا مخيفـا كثيـف الشـعر متلبّـده. نظـرت مبـاشرة في عيـني الحيـوان المحمـرّة، فزمجـر مـن جديـد.

- اتبعني.

لـم أمـيّز في البدايـة إن كان يخاطبـني أم يخاطـب كلبـه. رأيتـه يبتعـد، يجـرّ سـاقه الخشـب، والكلـب يحاذيـه. اسـتدار ليقـول مـرّة أخـرى في نفـاد صـبر.

- ألن تأتي؟

لـم تكـن دعـوة لبقـة. لكنّـني وقفـت مـن دون تـردّد. مـا الـذي جعلـني أستجيب لطلبـه؟ سرت وراءه عـلى مهـل وهـو يسـبقني بحـوالي متريـن. أسـتند عـلى الجـدران مقاومـا ضعفـي. أرفـع رأسي كلّ حـين لأتأكـد مـن بقائـه في مجـال بـصري. «زومـبي» يقتفـي أثـر قرصـان، يسـيران بتـؤدة بـين البـشر، ولا أحـد

يهتمّ بالمشهد! لا أدري كم مشينا على تلك الوتيرة. كنت على قدر من الاضطراب حال بين إدراكي حدود الزمان والمكان. انتهينا بعد برهة إلى زقاق ضيّق ومظلم. اختفى الرّجل عبره وغاب عن ناظريّ. تبعته متلمّسا طريقي في السّواد، حتّى لاحت ذؤابة خافتة في نهاية الممرّ. حين وصلنا، ارتفعت رؤوس صغيرة كثيرة من انهماكها وتطلعت إلينا. أعداد غفيرة من أطفال الشوارع، لم أملك حصرها، مجتمعون على وليمة من بقايا المطاعم، يتقاسمونها فيما بينهم ويتخاطفون قطع العظام التي علق بها قليل من اللحم. تتطاير القطع من كفّ الصّبيّ المكلّف بالقسمة، فيلتقطونها بخفّة وينهشونها بأسنانهم الصغيرة في لحظات.

ازدردت لعابي الذي سال قدر منه على جانب فمي، وأقعيت إلى جوار الكلب، متلهفا لنصيبي من المأدبة. حالما طارت قطعة الخبز باتجاهي، عادت الدّماء إلى وجهي، فتلقفتها بكلتا يدي، كأنّي أخشى تسرّبها من بين أصابعي، وطفقت أمضغ لقماتها في صمت ورع. الجوع كافر يا ولدي. ما من آفة تورث الإنسان ذلا وهوانا أشدّ منه، ولا توحّشا وحيوانيّة أكثر منه، حين تتعارك البطون الخاوية على كسرة لا تسدّ الرّمق. كان من حسن حظّي أنّ المأدبة كفت الجميع.

نمت بعد ذلك نوما عميقا. تكوّرت على الأرض، في وضعيّة الجنين، وغلبني النّعاس. حين أفقت، لم يكن هناك أحد. القرصان، الأطفال، الكلب، كلهم اختفوا.

في الصباح، سرت في الطّرقات على غير هدى. أمرّ بين النّاس، فلا يرونني، كأنّ جسدي شفاف خفيّ. على قارعة الطرقات وعند إشارات المرور، يتوزّع أشخاص على شاكلتي، يفترشون الرّصيف ويتسوّلون اللقمة. وقفت في زاوية بين شارعين وراقبت المشهد. يمرّ بهم النّاس مسرعي الخطو، لا يكادون يلمحونهم. قد تمتدّ كفّ من حين إلى آخر، تندسّ في جيب سترة وتخرج قطعة نقدية أو اثنتين، تلقي بها إلى المتشرّد وتمضي من دون أن تتخلّى الخطوات عن نسقها السّريع. كأنّ البشر ينقسمون إلى عالمين، عالم

طبيعيّ يعيش حياته في ضوء الشمس، ينساب في حركيّة شديدة، وعالم موازٍ يزحف في الظل، يجرّ أقدامه في ترهل لا تسعفه القوى، يقتات على فتات العالم الأوّل ويستهلك بقاياه.

حين بدأ الظلام في الهبوط، عدت إلى الزّقاق الذي قادني إليه القرصان بالأمس. جلست القرفصاء في زاوية قصيّة ولبثت أنتظر. أنتظر. كانت الساعات تمرّ والضجيج في الشارع الرّئيسي يخفت معلنا نهاية نهار حافل، ورفاق الأمس لا يظهرون. فتحت عينيّ بعد غفلة قصيرة، فألفيت الزقاق مكتظا! كيف ومتى جاؤوا؟ كانوا هناك، متفرّقين على الأسفلت في فوضى منسجمة، وموزّع الحصص في نفس مكان الأمس، يرمي بقطع البقايا فتطير فوق الرؤوس حتى تستقرّ في وجهتها.

- أخيرا استيقظت.

بادرني القرصان بغلظة، ثمّ انحنى ليلقي بين كفيّ عظمة دجاج التصقت بها نتف لحم، كان يلوك قضمة منها. تلقيتها بلهفة، فقد كنت أترقّب تلك اللقمة طوال النهار.

- ما الذي تجيد فعله؟

بادرني على حين غرّة بعد أن فرغت من قطعة اللحم الهزيلة وكسرتي خبز جافّتين. فكّرت للحظات في ما أمتلكه من مواهب. أحسبني قادرا على التواصل مع الآخر، ملمّا بالأساليب البيداغوجية. متحصّل على الأستاذية في اللغة العربيّة، لكنّني أجيد الفرنسيّة، ويمكنني مثلا أن ألقّن هؤلاء الأولاد أبجديّات النحو والصّرف...

- الشحاذة أم النشل؟

بترت عبارته أفكاري الجامحة. لم أكن أفكّر في المواهب المناسبة.

- قف، أرني ما يمكنك فعله.

وقفت في ارتباك. لم أدر ما المطلوب منّي بالضبط. فتطوّع أحد الأولاد وقدّم عرضا توضيحيا. طوى ذراعه وألصقها بعضده ليلامس كفه

كتفه، ثم حشر كوعه داخل كمّ القميص من دون صعوبة تذكر، وربط قماش الكمّ عند نهاية الطرف المطويّ لتبدو ذراعه مقطوعة! ثمّ قام آخر بالشيّء نفسه مع ساقه. نزع البنطلون وبقي في سرواله الدّاخلي، ثمّ طوى الساق إلى الوراء في ليونة وحشر ركبته في ساق البنطلون! كانوا يفعلون ذلك بسلاسة ومرونة، كأنّهم اعتادوا تلك الحركات منذ الأزل، ثمّ مضوا يتحرّكون كأنّ تغييرا في أجسادهم لم يكن! عدت أحدّق في القرصان وقد صرت أرمق عاهاته بشكل مختلف. ما أدراني بأنّه قد فقد ساقا أو ذراعا؟ ما أدراني بعينه المختفية خلف القناع، لعلّها تكون سليمة؟

تخبّطت محاولا دسّ كوعي في كمّ قميصي، لكنّ الكمّ تمزّق قبل أن أفلح. لم أجرّب الأمر مع ساقي، فقد كان الوقوف على ساق واحدة معضلة لم أستطع تجاوزها. استسلمت بعد دقائق من المحاولة. لم أكن بالمرونة المطلوبة.

- النشل إذن.

قالها القرصان بلهجة من يعلن قرارا. إن كنت أريد أن أقتات من موارد المجموعة فعليّ أن أقدّم مشاركة ما. راقبت الأولاد وهم يتقدّمون تباعا ليفرغوا محتويات جيوبهم المكتنزة في جراب القرصان، وتساءلت، هل تستحقّ وليمة البقايا تلك أن يتنازل كلّ منهم طواعية عن محصول يومه؟ تراكمت القطع النقدية في الكيس محدثة رنينا معدنيّا محبّبا اشتقت إليه. لم يقم القرصان بعدّها، بل اكتفى بجسّ الكيس من الخارج في حركة تقييميّة، ثمّ ابتسم في رضا. ربح وافر.

- حاول أن تأخذ مني الكيس، وتركض.

ابتعد عنّي مقدار ثلاث خطوات، ثمّ راح يمشي مأرجحا الكيس إلى جانب ساقه في لامبالاة. تردّدت لحظة، ثمّ اندفعت. لوهلة خامرتني فكرة شديدة الجرأة. أن أختطف الكيس وأعدو بكل قوتي حتى أختفي عن الأنظار.. فينطلق جيش من الفئران الصغيرة بقيادة القرصان خلفي، فيُنهش لحمي

حيّـا! فقـدت الفكـرة معناهـا بعـد ذلـك مبـاشرة. قفـزت لأمسـك بالكيـس، فتحـرّك القرصـان بخفّـة ليرفعـه بعيـدًا عـن متنـاول يـدي. كـدت أسـقط.

- مرّة أخرى.

تكـرّرت المحاولـة، وفشـلت في كلّ مـرّة. وفي غمـرة انغمـاسي في تنفيـذ أوامـر القرصـان مـن دون مقاومـة، انتبـه ضمـيري فجـأة وتسـاءلت عـن جـدوى مـا أقـوم بـه. هـل يمكنـني أنـا نـادر الشـاوي أن أقـدم عـلى السّرقـة؟ اختـلاس مـا يسـدّ الرّمـق مـن محـلّ أغذيـة شيء، ونشـل المـارّة وسـلبهم أرزاقهـم شيء آخـر تأبـاه عـزّة نفـسي وأنفـتي. إن كان للأمـوات أن يتعذبـوا لمـا يفعلـه الأحيـاء، لـكان أبي يتقلّـب في قـبره حـسرة وكمـدا، وربّمـا يشـنق عمّـي نفسـه أعلى شـجرة، هربـا مـن العـار الـذي سيلحقه ويلحـق العائلـة كلهـا!

ولـدت، يـا بـنيّ، في عائلـة زاخـرة بالإنـاث. أبي وعمّـي كانـا ذوي ذريّـة وافـرة لا ذكَـر فيهـا. أبي الأخ الأكـبر، أنجـب ثـلاث بنـات قبـل أن أجـيء إلى الوجـود. أمّـا عمّـي، فقـد كانـت بناتـه الخمـس كلّ أثـره في الدّنيـا. امتنـع عـن الـزّواج بعـد أن قضـت زوجتـه وهـي تضـع ابنتهـا الخامسـة. أعـرض عـن كلّ التحريضـات عـلى زواج ثـانٍ يمنحـه الذكـر المنشـود، ورضي بمـا قسـمه اللـه لـه، وربّى بناتـه وحيـدا. لذلـك، حـين جئـت إلى الدّنيـا، هـام أبي وعمّـي بي حبّـا، وسـمّياني بـ«نـادر»، فقـد كنـت النطفـة النـادرة الـتي سـتضمن اسـتمرار نسـل عائلـة «الشـاوي». وحـتّى تكتمـل الفرحـة، فقـد عاهـد أبي عمّـي في مشـهد مؤثـر مـا زالـت أمّـي تذكّـرني بـه كلّ حـين، عـلى أن يـزوّج ابنـه بكـبرى بنـات أخيـه «عاليـة». كان الأمـر يفـوق مجـرّد اتفـاق بـين الكبـار، يذرّيـه الصّغـار مـع الرّيـح حالمـا يشـبّون عـن الطـوق، أو اتباعـا أعمـى للعـادات سرعـان مـا يتـلاشى مـع اقتحـام مظاهـر المدنيّـة لبلدتنـا الجبليّـة. كان يمثّـل بالنسـبة إلى الأخويـن أغـلى عطيّـة قـد يقدّمهـا الأخ لأخيـه، ابـن مـن غـير صلبـه يحمـل اسـم أجـداده ويـربّي أحفـاده. وكان عـليّ أن أفي بالعهـد وأحقّـق الوعـد.

لكنّني في تلك اللحظة، كنت كأبعد ما يكون عن تحقيق آمال العائلة.

- حسن. هذا كاف.

أوقف القرصان محاولاتي البائسة بإشارة من مخطافه المعدن، وظننت أنّ توظيفي في سلك النشل انتهى عند ذلك الحدّ. لكنّ ما تلا من أحداث أثبت كم كنت مخطئا في تقديري.

اكتشفت لاحقا في كثير من الدّهشة، أنّ عصابة القرصان مجتمع اقتصاديّ مصغّر يخضع لتنظيم وقواعد شديدة الاحترافيّة. فيشغل كلّ فرد الوظيفة التي يبرع فيها أكثر من غيرها، بما يفيد المجموعة ككلّ. فهناك فرقة النشالين وفرقة الشحاذين، اللتان تعملان بتخطيط واضح. تتقاسمان الفضاءات العموميّة بالتداول، فلا تتعدّى إحداهما على مجال الأخرى بطريقة قد تثير الرّيبة أو تعطل سير العمل! ثمّ هناك فرقة الموارد الغذائيّة وخبرتها منقطعة النظير في التعامل مع حاويات المطاعم وفرزها بدقّة في وقت قصير، وفرقة الموارد الكسائيّة التي تتعامل مع دور الرّعاية لتوفير الملبس المناسب لكلّ فرد، بما يلائم الطقس الحاليّ. وفي النهاية، هناك فرقة التصرّف المالي التي يرأسها القرصان بنفسه ومعه خاصّة الخاصّة من أعضاء العصابة. ما دام اختار كلّ فرد أن يعيش في كنف المجموعة، فعليه أن يلتزم بتسليم كلّ ما يجنيه من النشل أو الشحاذة إلى الخزينة الجماعيّة. فتكون بمثابة صندوق احتياطيّ.

*****

بين أصدقاء الزقاق، كانت هناك الصغيرة كارمن. فتاة بكماء في الحادية عشرة من عمرها، فقدت صوتها بعد أن أصيبت بصدمة الافتراق عن والديها في أثناء رحلة هجرتهم غير الشرعية من الشيشان للعمل على الأراضي الفرنسيّة. لم تكن تجيد حديث الإشارات لحداثة إصابتها بالبكم، لكنّ ابتسامتها الوضّاءة كانت أبلغ من كل الكلمات. وجدتني أنشدّ إليها وإلى رفقتها في الأوقات التي تجتمع فيها العصابة في نهاية الزّقاق، نتبادل

الأحاديث، أنا بالكلام وهي بالرّسم والكتابة بطرف إصبعها على تراب الأرضية. لم تكن تجيد الفرنسيّة بشكل كامل. فقد تعلّمت مفرداتها بالسّماع. كانت تمضي ساعات يومها مقرفصة في مدخل نفق المترو، تتسوّل.. وتصغي إلى كل همسة من حولها. يتطلّب منا تبادل عبارتين من قبيل «هل أعجبك الطعام؟» و«ما زلت جائعة»، قرابة الدّقائق العشر، بين كلمات شفهيّة مبعثرة ورسم على التّراب. لكن الوقت كان متاحا أمامنا، فما من داع للعجلة.

لم تكن الشيشان مرغوبا فيها في الاتحاد الأوروبي، لذلك كانت معظم حالات الهجرة إلى بلدان أوروبا الغربيّة غير قانونيّة. كارمن كانت كبرى إخوتها الأربعة. قرّرت عائلتها الهجرة بعد أن فاض بهم اليأس مع التضييق الشيوعي والتنكيل بالمسلمين في بلدها. عرفت على صغر سنّها حربين داميتين، الحرب الشيشانية الأولى والثانية اللتين شنتهما روسيا على خصم غير مكافئ. الدّمار الذي أحاق بالبلاد أدّى إلى حركات هجرة وتهجير مستمرّة منذ ١٩٩٤. بعد عشر سنوات، وصلت كارمن إلى فرنسا.

مع الممارسة، اكتسبنا بعض الخبرة، هي في فهم اللغة وأنا في التعامل مع رسومها، ما سمح بقدر أوفر من التّبادل في وقت أقصر. فتجرّأت على سؤالها عن والديها وهجرتها. فهمت من رسمها وإشاراتها أنّ أفراد عائلتها «ناموا تحت عجلات شاحنة». ظننت في البداية أنّها عنت تعرّضهم لحادثة سير إذ داستهم شاحنة، فلما رأت أجسادهم الميتة حسبتهم نائمين.. لكن بعد توضيح وتقصّ تبيّن أنّها كانت شديدة الدّقة في وصفها. كانت العائلة قد هاجرت في نهاية الخريف وبداية شتاء العام الماضي. قطعوا مسافات طويلة سيرا على الأقدام. فقد كانت الخطة تقتضي توفير كلّ قرش لمستلزمات الفترة الأولى من الغربة.

كان من الصعب عليهم إيجاد سيّارات تقلّهم لكثرة عددهم. لكن بعض سائقي شاحنات البضائع الضخمة كانوا يتكرّمون عليهم بتوصيلهم لمسافة ما. وحين يتوقّف السائق للنوم والراحة، ينامون على الأرض

-توفيرا لكلفة الفندق- تحت الشاحنات، ذات القاع المرتفع والعجلات الهائلة، بحثا عن الدّفء قرب محرّكاتها وعوادمها! في ذلك الصّباح، لم ينتبه السّائق إلى العائلة التي افترشت الأسفلت وجعلت شاحنته سقفا لها، يقيها من الثلج الذي تساقط طوال الليل، فتحرّك إلى الوراء على حين غفلة ليدهس الأم والأب وأبناءهم الثلاثة في لحظة واحدة. وحدها كارمن كانت مستلقية في الفراغ بين العجلتين الخلفيتين. انتبهت مع أزيز العجلات وهي تسحق عظام عائلتها. أطلقت صرخة، ثمّ سكتت مرّة واحدة.

كارمن وصلت الأراضي الفرنسيّة بمفردها، بعد أن دفنت جثث أفراد عائلتها في الثلوج في مكان ما قرب حدود ألمانيا والنمسا. طفلة يانعة مثل فلقة القمر، كبرت سنوات في لحظات، وغدت مسؤولة عن قوتها ومستقبلها. لم تكن تدرك بعد أنّ عصابة القرصان تحميها من أقسى ما قد يواجه طفلا يتيما في أرض غريبة.. العنصريّة.

في ذلك الوقت، كانت العنصريّة تجاه السّود والعرب قد أضحت موضة قديمة. مع تزايد أعدادهم بشكل يمثل قرابة خُمس سكان البلاد، لم يعد وجودهم يلفت الانتباه كثيرا، وإن كانت مظاهر العنصريّة ما زالت قائمة في المفاضلة أمام فرص العمل أو عقود الإيجار.. لكنّ قضاياهم ومشكلاتهم كانت تغفل -بقصد أو من دون قصد- كأنّ حضورهم في المشهد الفرنسيّ قد بات أمرا مسلّما به والحديث به غير مجد. لذلك فإنّ سهام العنصريّة توجّه الآن إلى الموضة الجديدة، الأحدث فالأحدث. في الفترة الأخيرة، بدا أنّ المهاجرين الصّينيين والشرق أوروبيّين يجلبون الانتباه إليهم أكثر. وإن كان وجود الصينيين محبّبا، أولا لأنّ قدومهم مرتبط بالدّراسة أو العمل في البحث العلميّ، ثمّ لأنّ وجوههم المستديرة وأعينهم الضيّقة تثير الفضول، فإنّ المهاجرين من رومانيا وبلغاريا وبقية بلدان شرق أوروبا وقعوا في مصيدة العنصريّة.

*****

لـوكا، الولـد المسـؤول عـن توزيـع وجبـات الطعـام، لـم يحبّـني قـط. في الحقيقـة ألتمـس لـه العـذر، فعـدا كـوني العـربي الوحيـد في المجموعـة، فقـد كنـت عالـة عليهـم. لـم أفلـح في تعلّـم أسـاليب النشـل أو الشـحاذة، لكـنّ القرصـان قـضى ببقـائي ضمـن العصابـة والاسـتفادة مـن مواردهـا. كلّمـا جـاء موعـد توزيـع الوجبـات، لمحـت نظـرة غيـظ وحقـد في عينيـه، يعـبّر عنهـا برميـة شـديدة القـوّة تجعـل نصيـبي يسـقط أرضـا أو يصيـب رأسي، مـع أنّـه يحسـن التسـديد غالبـا.

عرفـت لاحقـا أنّـه ولـد لقيـط. تركتـه أمّـه عنـد مدخـل ملجـأ للأيتـام، فكـبر هنـاك حـتّى سـنّ السّادسـة. ثـمّ هـرب مـن الملجـأ. كان بداخلـه نفـس ثـوريّ عصامـيّ منـذ طفولتـه. تـشرّد باختيـاره وفضّـل عيـش الشـوارع عـلى ميتـم تسـتباح في جنباتـه كرامتـه بكلمـات أو إيحـاءات. في الشـارع لا أحـد يذكّـره بكونـه لقيطـا أو يتيمـا أو منبـوذا مـن طـرف عائلتـه، فالـكل كذلـك. لكـنّ رفاقـه يشـيدون بحذقـه للمهـارات الحسـابيّة وتفوّقـه في تنظيـم الغـارات الخاطفـة عـلى حاويـات المطاعـم.. وجـد كيانـه في الشـارع. وبعـد خـبرة أكـثر مـن عـشر سـنوات، يقـترب موعـد تقاعـده مـن الخدمـة. خـلال أيـام قليلـة يبلـغ السـابعة عـشرة، فيتسّـلم نصيبـه مـن المدّخـرات، وينطلـق في اتجـاه مسـتقبل جديـد.

لـم أظـنّ أنّـني سـأبكي، لكنـني فعلـت. حـين وقـف لـوكا في الزّقـاق، يشـدّ عـلى أيـدي أفـراد العصابـة واحـدا واحـدا، يحتضـن بعضهـم ويكتفـي بمصافحـة آخريـن، يمسـك دمعـه بمكابـرة طفـل تـربّى عـلى الجلـد، وعـلى ألا يـذرف عـبرة أمـام الغربـاء. لكنّـني بكيـت. بكيـت بحرقـة كأنّـني أودّع بعـض أفـراد عائلـتي. لم أدرك حينهـا إن كنـت بكيـت مـن أجلـه، أم عـلى نفـسي. لـوكا اللقيـط المـشرّد العصامـيّ ذو السـبعة عـشر عامـا، سيتسـلّم حصّتـه وينطلـق. سـيتمكّن مـن الاغتسـال واشـتراء ملابـس جديـدة ونظيفـة، ثـمّ قـد يجـد وظيفـة لائقـة في مطعـم أو حرفـة في سـوق، يسـتأجر شـقّة وينـام عـلى فـراش ناعـم وثـير، يـأكل وجبـات دسـمة ومتوازنـة.. وأنـا، نـادر الشـاوي، الجامعـيّ ذو الشـهادة،

قـد بلغـت الثلاثـين عامـا ونيـف، ولا شيء في الأفـق يوحـي بـأنّ مسـتقبلي سـيكون أكـثر إشراقـا.

بعـض الأطفـال ينضجـون قبـل الأوان، تمرّسـهم الخطـوب وتسـبغ عليهـم التجربـة رداء الوقـار.. في حـين يشـيب بعـض الرّجـال عـلى غفلـة ويرحلـون عـن الدّنيـا بصحائـف بيضـاء مـن ذرة حكمـة.

*****

الاثنين ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة ظهرا،

هـذا ممتـاز. مذهـل حقّـا. والـده يتعلّـم النّشـل مـع عصابـة مشرّديـن، وهـذه العربيّـة اللّعينـة تـسرق حافظـة ملفّاتـه الثمينـة لتبـتزّه! لا يمكـن ليَوْمِـه أن يكـون أكـثر روعـة وإلهامـا!

ترجّـل عنـد العنـوان الـذي يومـض عـلى شاشـته. هـذا هـو. قـرأ اللافتـة العريضـة الـتي تتصدّر البنايـة: السّـجن المـدني. لا عجـب أنّ العنـوان بـدا لـه مألوفـا. سـار في اتّجـاه مكتـب الاسـتقبال ذي الكـوّة الخارجيّـة الضيّقـة، وقـال في ثقـة مخاطبـا الموظّـف:

- محمّد رستم. أنا محاميه.

أخـذ الموظّـف عنـه بطاقتـه المهنيّـة ومرّرهـا عـبر القـارئ الآليّ، ثـمّ انفتـح الحاجـز المعـدن بشـكل تلقـائيّ وسُـمح لـه بالعبـور إلى داخـل المبـنى. بعـد إجـراءات روتينيّـة أخـرى في مكتـب آخـر بالدّاخـل، دُعـي إلى غرفـة الزّيـارات الواقعـة في قبـو المبـنى. مـرّت دقائـق مـن الانتظـار والترقّـب قبـل أن يُفتـح البـاب عـلى القـادم الجديـد. دفـع السـجّان ولـدا مكبّـل المعصمـين، ثـمّ انسـحب وقـد أوصـد الغرفـة مـن الخـارج. اسـتدار خليـل في اتّجاهـه، ثـم حـدّق فيـه مبهوتـا. بعـد فـترة صمـت مرتبكـة سـأله متشـكّكا:

- أنت محمّد رستم؟

هزّ الولد رأسه علامة الإيجاب، فبادره على الفور:

- كم عمرك؟

- ثمانية عشر عاما.

- وأنت تعيل والدك وشقيقتك؟

هزّ محمّد رأسه مرّة أخرى، ثم قال موضّحا:

- اضطررت إلى ترك الدّراسة حين فقد والدي بصره. انفجرت في وجهه ماسورة مياه، فأصابت عينيه شظايا المعدن. وشقيقتي، لا يمكنها أن تعمل، بسبب...

أكمل خليل عنه وهو يرسم دائرة وهميّة بالسبّابة حول وجهه:

- نعم، بسبب غطاء رأسها! وهذا مبرّر لتترك ولدا مثلك يضيّع مستقبله ويترك دراسته؟

- كلّا لم تفعل، لقد حاولت مرارا أن تجد عملا لا يتطلّب التواصل المباشر، لكنّ المسألة متعثّرة، وما تجنيه غير كافٍ.. وكان عليها أن توافق على عملي مضطرّة لا مخيّرة..

- مؤكّد. مع أنّ الحلّ بيدها. ماذا لو تركت عنها غطاء رأسها ساعات العمل، هل ستهلك بذلك؟

هتف محمّد محذّرا:

- أرجوك، لا تطرح هذا الاقتراح أمامها، فإنّها قادرة على قتلك بسببه!

ندّت عن خليل ضحكة ساخرة، في حين لم يبد على محمّد أدنى أثر للمزاح. راقب خليل ملامحه الجادّة، ثم تنحنح وهو يقول مستعيدا هدوءه:

- شكرا لتنبيهي!

أومأ محمّد برأسه ثمّ هتف بلهجة مشحونة بالامتنان:

- شكرا لقبولك القضيّة! لا تدري كم عانينا طوال شهرين من أجل أن نجد محاميا، من دون جدوى!

- الشّكر لشقيقتك! لقد فعلت ما بوسعها لتكسب موافقتي!

لم ينتبه محمّد إلى نبرة التهكّم في صوته، فاستطرد في رجاء:

- ما الذي سنفعله الآن؟

ما الذي سنفعله؟ كان سؤالا منطقيّا ومحوريّا. أوّلا يسترجع حافظته

الإلكترونيّة، ثمّ.. لا يدري بعد. لقد أربكه سنّ الولد الذي يخاله الناظر مراهقا في المدرسة الإعداديّة. ما الذي يمكن أن يعمله ولد في مثل سنّه؟ همّ بسؤاله ثمّ أحجم. لا يودّ أن يتورّط عاطفيّا مع هذه العائلة. ستفلت الأمور من السّيطرة لو نجح الولد في استدرار شفقته. لفتت انتباهه كتابات تملأ ظهر كفّه وذراعيه، لعلّها معادلات حسابيّة، بقلم جاف أزرق.. مثل ذاك الذي كان يستعمل منذ عقد من الزّمن. لم يعد استعماله منتشرا مثل ذي قبل.. لعلّ الورق والقلم قد أصبحا حكرا على الطبقة الكادحة، حتّى إنّه لم يلمس ورقة واحدة منذ سنوات، قبل أن تصله تلك الرّسائل. رغم فضوله، تجاهل الخربشات المبهمة وسأله بشكل مباشر:

- أحتاج عنوان منزلك. شقيقتك لم تترك وسيلة للتواصل.

دوّن العنوان ورقم الهاتف اللّذيْن ذكرهما محمد ثمّ اعتذر. كان من العبث أن يمضي مزيدا من الوقت مع صبيّ ظريف يرقّ له القلب، بينما حافظته المسروقة مع شقيقته! لم يكن قلقا بشأن الحافظة. لم يكن من الحكمة أن تتلفها أو تعبث بمحتوياتها، إن كانت تطمع في تعاون منه بشأن القضيّة. ما أن أصبح في سيّارته حتّى بادر بالاتصال بوالدته. رغم مزاجه السّيئ وساعات صباحه الضائعة، وجد نفسه يهتف مشاكسا ما أن بلغه صوتها:

- لا أدري حقّا.. كيف أمكنك الزّواج برجل بمثل هذه التّعاسة؟

ضحكت، رغم الدّهشة التي اعترتها، وكان ردّها سكونا طويلا. تمثّلها مضرّجة الوجنتين بحمرة حييّة، تعود شابّة في العشرينات مرّة أخرى، وتسترجع ذكريات وأحاسيس عفا عليها الزمن. زوى ما بين حاجبيه وهتف عابسا:

- غيّرت رأيي. لا أريد أن أعرف!

ضحكت من جديد، وقالت مترفّقة:

- لم أكن أنوي أن أقول شيئا.. الرّسائل ستقول ما تحتاج أن تعرفه.

لكنّه لم يكن تعسا طوال الوقت. كانت له أيّام مشرقة أيضا.. تستحقّ أن تقرأ عنها.

- أرجو ذلك!

كان يدفع بالسّخرية إحساسا آخر لازمه منذ الصّفحات الأولى. كلّ الآلام التي تنضح بها الكلمات المكتوبة والمترجمة، كانت تترك بصمات داكنة في قلبه. ما كان ذلك الشعور المرّ الذي يسكن أقصى حلقه؟ لم يكن تعاطفا مع صاحب الرّسائل وذكرياته المضمّخة بالوجع، بقدر ما كان ضيقا وغضبا! ها إنّ الماضي المستور برداء النّسيان والتّناسي يكشف عن نفسه في أسوأ توقيت ممكن. تخيّل أنّ يد أحدهم تقع على تلك الرّسائل، فيواجهه بها في الحوار التّلفزي. كيف يردّ حينئذ إذا ما وُصف بالانتهازيّ والدّخيل والمواطن من الدّرجة الثانية؟ ألم يكن والده مهاجرا غير شرعيّ، دخل البلاد خلسة، سرق وتسوّل وتسكّع مع المشرّدين؟ أيّ تاريخ مجيد يواجه به الناخبين والمنافسين!

أصيبت كرامته في مقتل.

زفر، مثقلا بالهموم التي تحيق به من كلّ جانب هذه الأيّام، وتمنّى حقّا أن تحمل الرّسائل شيئا مشرقا، فتدفعه إلى التّفاؤل بشأن الأسابيع المقبلة. استفسرت في اهتمام لانطفاء مرحه:

- تبدو قلقا.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

- إنّها حافظة ملفّاتي.. لقد أضعتها.

- هل بحثت جيّدا في المكتب؟ لا شكّ أن السّكرتيرة غيّرت مكانها..

- معك حقّ، لعلّها فعلت ذلك.

آثر ألا يقحمها في تفاصيل لا صلة لها بها، فأغفل ذكر قضيّة الأخوين. على كلّ حال، هو في طريقه لاسترجاع الحافظة، وسيعود كلّ شيء إلى وضعه المعتاد. فاجأته بهتافها المبتهج:

- لقد أنهيت تسجيلا آخر.. دقائق وأرسله. أرجو أن يكون أكثر متعة من سابقه.

ابتسم متهكّما. من الصّعب أن يتخيّل شيئا أكثر تعاسة ممّا استمع إليه ظهر ذلك اليوم.

- هذا ممتاز. سأستمع إليه وأنا في طريقي لرؤية بعض العملاء..

*****

بعـد رحيـل لـوكا، كانـت هنـاك محاولـة لدمجـي ضمـن وحـدة المـوارد الغذائيـة، لأسـدّ بعـض الفـراغ الـذي خلّفـه زعيـم الوحـدة، ليـس باحتـلال مكانـه -إطلاقـا!- إنّمـا بتعزيـز المجموعـة بكفّـين إضافيّتـين تساعدان عـلى جمـع المخلّفـات الصالحـة وحملهـا إلى الزّقـاق. أمّـا الزّعامـة فقـد تولتهـا صبيّـة بلغاريّـة، اسمها تينـا. إذن فقد عملت تحـت إشراف تينـا الـتي لـم تكـن تحبّـني أكـثر مـن لـوكا، لكنّهـا قبلـت تأطـيري وتدريـبي عـلى المهمّـة المحفوفـة بالمخاطـر.

الجديـر بالذكـر هـو أنّ أصحـاب المطاعـم الفاخـرة -والـتي غالبـا مـا تحتـوي حاوياتهـا عـلى قـدر أكـبر مـن البقايـا، بعكـس المطاعـم الشـعبيّة الـتي يكـون روّادهـا شـبه معدمـين مـن الطبقـة الكادحـة الذيـن لا تختلـف حياتهـم عـن حياتنـا كثـيرا- يفضّلـون أن ترمـى بقاياهـم إلى الـكلاب أو في مكّبـات النّفايـات عـلى أن تسـلّم إلى المشرّديـن أمثالنـا! لذلـك فقـد كانـت السّرعـة والدّقـة عاملـين شـديدي الأهميّـة، إضافـة إلى تجنّـب لفـت الانتبـاه حـين نتسـلّل مـن المداخـل الخلفيّـة للنبـش في أكيـاس القمامـة.

لكنّـني رغـم التدريـب، كنـت بطيئـا وفوضويّـا! تفلـت أغطيـة الحاويـات مـن يـدي فتسـقط محدثـة قرقعـة مخيفـة تنبّـه موظفـي المطعـم إلى وجودنـا، فنهـرب عـلى الفـور مـن دون أن تحـوي أكياسـنا شـيئا. وأسـأل في كلّ لحظـة في ارتبـاك وتـردّد «هـل تنفـع هـذه القطعـة»؟ بشـكل يثـير تحامـل رفـاقي ونفـاد صبرهـم مـني! وقـد أنـسى عـلى عـين المـكان كيسـا ممـا جمعنـاه، متسـبّبا في أضرار جسـيمة للمجموعـة الـتي تتقلّـص حصّتهـا في وجبـة المسـاء.. لذلـك، بعـد ثلاثـة أيّـام مـن العمـل الميـدانيّ، اشـتكتني تينـا إلى القرصـان.

أعلـن القرصـان اسـتجابة لاحتجـاج تينـا ورفاقهـا، أنّـني يجـب أن أجـرّب

نشاطا آخر حتى أنفع في شيء ما، ولو اقتضى الأمر أن أمرّ على وحدات العمل كلها واحدة إثر الأخرى. لذلك، خرج معي بنفسه ذلك الصّباح وقد قرّر أنّني يجب أن أتعلّم النشل! من دون كلّ المهام الممكنة، كانت السّرقة أبغضها إلى قلبي، أنا نادر الشاوي، الجامعي المحترم، سليل القبيلة العريقة والعائلة المحترمة، محطّ آمال الآباء والأجداد، والذكر القادر على حفظ تاريخ العائلة وتخليد اسمها.. كتب عليّ أن أخوض غمار التجربة، مكرها، وفي النفس ذلة وهوان.

نقطة البداية كانت محطة المترو. أدخل القبو المليء بالخلق وأدسّ جسدي في الزّحام. أقف بين المسافرين مخفيا كفيّ المتّسختين في جيوب سروالي. أطرق برأسي متجنّبا الأعين. كان القرصان قد تدبّر لي ثيابا نظيفة لا تثير الرّيبة، ثياب عمل. راودني تردّد كاد يدفعني إلى الانسحاب والفرار. لكنّ القرصان الملازم لي مثل ظلي في دورتي التدريبيّة الأولى، استمرّ يهمس في أذني بتعليماته. انظر إلى هذا، راقب حركاته، جيوب بنطاله الخلفية تحوي محفظة جلدية، لو كان طرفها بارزا من الأعلى لسهل التقاطها. تلزمك موسى حادّة لقطع جانب الجيب في هدوء. تلك السّيدة.. حقيبتها تتدلّى في إهمال، يمكنك أن تدسّ كفك عبر الفتحة في خفّة.

لم نفعل شيئا طوال الصباح عدا المراقبة والتحليل. لا يمكن لمبتدئ مثلي أن يبادر من دون قدر محترم من التكوين. لكن تبقى النظرية شيئا والتنفيذ شيئا آخر. ثمّ جاء دوري لأحلّل وأقرّر. أجيل بصري عبر المكان، بكلّ ما أمكن من حذر، فجلب الانتباه إلينا يعني النزول من العربة واستئناف الصيد في عربة أخرى. أراقب المسافرين بعين واحدة، حسب تقنية معلّمي، وأتعرّف إلى الضحايا المناسبين. لم يسلم ضميري من وخزات متباعدة، سرعان ما تلاشت مع ارتفاع نداء معدتي في نهاية النهار، فقد أعلن القرصان أنّني لن أشارك في المأدبة ما لم أرجع بصيد ما.

في تلك الظروف، شاء القدر أن ألتقي الدكتور عمر. واحد من الأشخاص الذين تركوا بصمة في حياتي. كان الشاهد الأول على انحداري الأخلاقي،

وأوّل مـن خجلـت مـن نفـسي أمـام نظـرة احتقـار منـه كنـت أسـتحقها. كنـت قـد انتظـرت أن تمتـلئ المحطـة بالمسـافرين في وقـت الـذروة، بحثـت عـن الفريسـة المناسـبة، ومـا أن حـدّدت موقعهـا حـتى رحـت أتتبعهـا في سـكينة وحـذر. سـيّدة عجـوز تهتـزّ ركبتاهـا فتنـوءان بحملهمـا، تمسـك حقيبـة يـد جلـدا في تـراخ يخلـو مـن كلّ حـرص. سـيمرّ كل شيء بسرعـة. التنفيـذ بـين محطتـين. حـين يصـل المـترو إلى المحطـة التاليـة، أنقـضّ عـلى هـدفي وأطلـق سـاقيّ للريـح.. الآن.

قفـزت وأنـا أضـمّ غنيمـتي تحـت ذراعـي وتجـاوزت بـاب المـترو الـذي كان مفتوحـا عـلى مصراعيـه، وقـد تدافـع المسـافرون للـنزول بعـد أن تملـك الفـزع معظمهـم. أحـاول أن أشـقّ طريقـي في الزّحـام. أتلفّـت حـولي فـلا أرى القرصـان. لـم يكـن ذلـك مهمّـا. القاعـدة الأولى، وقـت الهـرب كلّ ينفـد بجلـده. لـم أنتبـه إلى الرّجـل الـذي اندفـع ورائي مـن بـين كلّ الـركّاب السـلبيين الذيـن أفسـحوا لي الطريـق مـن دون تـردّد، ونظراتهـم المرتعبـة تعبّر عـن شيء واحـد.. نفـسي نفـسي، إذا سـلمتُ فليحمـل الطوفـان الآخريـن! وحـده الدكتـور عمـر اقتفـى أثـري في إصرار، كأنّـه يقـول: قـف، فلقاؤنـا مقـدّر. تعطّلـت حركـتي عـلى الرّصيـف فتمكّـن في لحظـات مـن اللحـاق بي. رأيتـه يقفـز في الهـواء وينقـضّ عـليّ ليطيـح بي أرضـا ويسـقط فـوقي. ارتطـم جسـدي بـالأرض في خبطـة عنيفـة، ووجدتـني مقيّـد اليديـن فجـأة. كان الدكتـور عمـر قـد اسـتعاد توازنـه بسرعـة وأقعـى عـلى ركبتيـه فـوقي مكبـلا معصمـيّ وراء ظهـري، مثبتـا إيـاي عـلى الرصيـف ووجهـي إلى الأسـفلت. جلـس فـوق ظهـري يسـتردّ أنفاسـه، فتناهـى إليّ لهاثـه. كنـت مشـلول الحركـة لا محالـة، فلـم أحـاول المقاومـة. أفلـتُّ الحقيبـة المسروقـة طواعيّـة وقـد أدركـت هزيمـتي. القرصـان اختفـى. بينمـا اقتربـت صاحبـة الحقيبـة الـتي كانـت قـد نزلـت مـن المـترو عـلى أثرنـا بأوصـال مرتجفـة. بادرهـا عمـر وهـو يقـدم إليهـا حاجتهـا:

- سيدتي، خذي حذرك في المرّة المقبلة.

أخذتهـا منـه ولسـانها يلهـج بكلمـات شـكر مرتبكـة، في حـين كان نصيـبي

معـين شـتائم لا ينضـب. سـمعته يقـول:

- سأسلمه بنفسي إلى الشرطة..

وقـف وشـدّني بغلظـة ليجـبرني عـلى الوقـوف. أمسـكني مـن ياقـة قميـصي بكـفّ وسـحبني إلى خـارج المحطـة، بينمـا حافظـت الكـفّ الأخـرى عـلى معصمـيّ مقيّديـن. الشرطـة؟ تلـك الكلمـة كانـت تثـير رعـبي إلى الدّرجـة القصـوى. مهاجـر بصفـة غـير شرعيـة، هـرب مـن أمـن المستشـفى ثـم مـن أمـن القطـار.. والآن حـاول سرقـة حقيبـة امـرأة عجـوز. هـل مـن المتوقـع أن أسـتبشر بذكـر الشرطـة؟ محاولـتي الأولى للنشـل بـاءت بفشـل ذريـع. لعـلّي لم أخلـق لأنحـرف وأسرق. لعـلّ مـن المقـدّر لي أن أكـون شريفـا بعـد كل شيء؟ لعـلّ الدكتـور عمـر كان مسخّرا مـن اللـه تعـالى ليبعـدني عـن الطريـق الخطـأ قبـل أن أتمـادى وأنجـرف مـع التيّـار؟ انتابـني أمـل غريـب في تلـك الظـروف. مـاذا لـو كان لقـائي بـه خـيرا؟ نظـرت في وجـه جلادي/منقـذي في ضـوء النهـار -لـم تكـن صفتـه قـد تحـدّدت بعـد في ذهـني- فتبيّنـت ملامحـه العربيّـة. كلمتـه بلغتنـا المشـتركة في توسّـل:

- أنت عربي أليس كذلك؟

التفت إليّ فرأيت الشرر يتطاير من عينيه، وهتف في ازدراء:

- أنـا عـربي، ولا أتـشرّف بالعـرب أمثالـك! مرّغتـم رؤوسـنا في الوحـل بتصرفاتكـم غـير المسـؤولة! بعضنـا يجاهـد ليشـق طريقـه بـشرف وكرامـة، في حـين أن البعـض مـن أمثالـك يسـيؤون إلى العروبـة والإسـلام كل يـوم.. يعطـون فرصـة إلى كل مـن يريـد الطعـن في عزّتنـا وفي ديننـا ويغـذون الكراهيـة والاحتقـار تجـاه المهاجريـن العـرب! لذلـك لا تخاطبـني باسـم عروبتـك المزعومـة!

أطرقـت في ألـم. لمـس بكلماتـه عـين الحقيقـة. نعـم أنـا كذلـك. كنـت عالـة عـلى والـدتي في وطـني، عاطـلا عـن العمـل وعديـم الفائـدة، وعالـة حـتّى عـلى عصابـة القرصـان المتـشرّدة. لـم أصنـع شـيئا في حيـاتي يسـتحقّ الفخـر، ولعـلّي

لن أفعل في القريب وكلّ خطوة تقرّبني أكثر من الهاوية. كنت وصمة عار إضافيّة على وجه كل عربي ومسلم شريف، ولا شيء غير ذلك.

انفجرت باكيًا فجأة، وقد اجتمع كلّ احتقاري لنفسي قطرات احتقنت في غددي الدّمعيّة ثمّ أفرجت عن نفسها من دون استئذان. انتابتني رجفة هزّت جسدي الهزيل كله. كأنّ قدميّ لم تعودا قادرتين على حملي، انهرت على الرّصيف وقد ازداد نحيبي قوّة وقد شغلت برثاء لنفسي عن كلّ ما حولي. كان الدكتور عمر قد ترك معصمي ووقف يرقبني في ارتباك، ثم ما لبث أن قرفص إلى جواري على الرّصيف. قلت أخيرًا بعد أن سكبت أقداحا من الدّمع:

- لم أرد أن أكون كذلك. لم أرد أن أسيء إلى أحد. أعيش على الفضلات وبقايا المطاعم منذ أكثر من أسبوعين.. أنام في العراء، من دون لحاف أو فراش. أشرب من المياه الآسنة ومن النافورات العمومية.. كيف يمكنني أن أعيش من دون أن أسرق أو أخطف؟ هل أنتظر الموت على قارعة الطريق؟

استأنفت البكاء بقوّة أكبر، وقد هيّج وصف حالي بالكلمات مشاعري. لقد كنت بائسا، أقصى ما يمكن أن يصيب الإنسان من البؤس.. أو هكذا ظننت حينها. طبعا، لم أشر بكلمة إلى القرصان وعصابته. القاعدة الثانية، إذا قبض عليك أو أمسكت متلبسا، تحمّل مسؤوليتك كاملة. أنت بريء من العصابة والعصابة بريئة منك.

ساد الصّمت لبرهة، لم يسمع خلالها غير نشيجي المتقطع حتى تمالكت نفسي واستعدت إدراكي بما حولي. كان الرّجل لا يزال جالسا إلى جواري يرقبني برأفة ورقة. قال بصوت هادئ:

- حسن.. لن آخذك إلى الشرطة. لكن عدني بألا تعاود الكرّة.

التفتُّ إليه في دهشة وأنا لا أصدّق أذنيّ، وهمست بصوت مخنوق من التأثر:

- أعدك.

وقف عمر ونفض كفيه ثم وضعهما عند خصره. جال ببصره في المكان وهو يزمّ شفتيه. ثم قال بلهجة آمرة:

- حسن.. اتبعني.

رفعت رأسي إليه في دهشة ولم أتحرّك. انتابتني نفس البلادة التي ظهرت حين طلب منّي القرصان أن أتبعه في المرة الأولى. لكن لهجة الدكتور عمر كانت مطمئنة خالية من كل عجرفة:

- أنا ذاهب إلى المسجد.. تعالَ معي.

حين وصلنا إلى المسجد لم تكن الشمس قد اختفت بالكامل وراء الأفق. كنّا قد توقّفنا في الطريق لتناول وجبة ساخنة بطعم الجنّة، نزلت على معدتي الخاوية فأشاعت الدفء في أوصالي في دفقة واحدة. بعد أسابيع من الطعام البارد الكريه، كان الأمر بمثابة حلم. جلت ببصري في المكان أستكشفه. لماذا لم يخطر ببالي منذ البداية أن ألجأ إلى المسجد؟ بيت الله هو بيت المسلمين جميعا. كنت لأجد فيه يد المعونة حتما مثلما وجدتها من الدكتور عمر الذي جاء بي إلى هنا. أو هذا ما حسبته في لحظة سذاجة مفرطة. غسلت أطرافي بالماء البارد وتوضأت كما لم أتوضأ من قبل، ثم دخلت قاعة الصلاة. جلست على الأرض في خشوع وسكينة. يا الله، لماذا لم ألجأ إليك منذ البداية؟ أنت رحمتني وأنقذتني من موت محتم في عرض البحر، أنت الأرحم بعبادك من الأم الحانية على فلذة كبدها.. لماذا سهوت عن دعائك؟ مع ارتفاع صوت الأذان في باحة المسجد، ارتفعت شهقاتي الباكية من جديد. لم أكن قد صليت صلاة واحدة منذ مغادرتي أرض الجزائر.

كانت صلاة المغرب قد قضيت منذ دقائق، لكنّني لم أغادر مكاني. لبثت مطرقا في استسلام غريب. أحسّ بارتياح نفسي مهيب لا عهد لي به منذ بدأت هذه الرّحلة. رفعت رأسي بهدوء، فلمحت عمر وقد جلس

يتحدّث إلى شيخين طاعنين في السن. أحدهما كان الإمام الذي صلى بنا الجماعة منذ حين. أتراه يحدّثهما بأمري؟ راقبتهم للحظات علّني أستشف شيئا من حديثهم، لكنّني لم أفلح. فاكتفيت بالانتظار في صمت. بعد حين، لمحت الدّكتور عمر يتقدّم باتجاهي وقد بدا عليه التفكير. تسارعت نبضاتي وتعلّقت عيناي بشفتيه، كأنّ مصيري مرتبط بكلمة منه.

- قم بنا. ستبيت عندي الليلة.

وقفت على الفور وتبعته من دون تردّد وأنا أخفي غبطتي. استجاب الله لدعائي مرة أخرى.

لعلك تتساءل يا بني كيف تبعت الرّجل طواعيّة، كأنّني لم أتعلّم من تجربتي السّابقة مع القرصان؟ لكنّ الدكتور عمر كان شخصا مختلفا. نظرة واحدة إلى محيّاه تورث بداخلك ارتياحا عميقا. ينتمي إلى ذلك النّوع النادر من الأشخاص الذين يحملون هموم الآخرين. في الغربة، اللقاءات الطيبة نادرة وثمينة.. لكنها استثناء، فلا تعوّل عليها كقاعدة. كان هو من تكبّد الجزء الأكبر من المغامرة حين أخذني معه. فإنّ أسوأ ما قد يحصل معه هو أن يُدخل لصّا إلى مسكنه. فما بالك بأن يترك لصّا في شقته ويخرج مطمئنا إلى عمله!

تلك الليلة في مسكن الدّكتور عمر كانت واحدة من أهنأ لياليّ زمن الغربة. حين فتحت عينيّ في الصّباح، كانت الابتسامة ولأوّل مرّة منذ زمن بعيد، تملأ وجهي. ابتسامة حالمة.. بطعم الأحلام الزاهية التي راودتني في المنام. تمطيت وأنا لا أزال مستلقيا على ظهري وظللت محدّقا في السقف لبرهة قبل أن ألفّ الغطاء على جسدي من جديد. تساءلت حينها، هل صار بإمكاني أن أتفاءل بمستقبل أقلّ قتامة؟ هل صار بإمكاني أن أعيش.. وقد حسبت الموت يتربص بي عند كل منعطف، كأنني فريسته القادمة وضالته الوحيدة؟

شكرت في سرّي صادقا الرجل الذي أهداني الأمل. وتمنّيت لو أمكنني

أن أردّ جميله ولو بقدر ما. كانت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء وغمرت أشعتها الغرفة عبر النافذة التي أزيحت ستائرها. كنت قد نمت طويلا. استويت جالسا وتلفّتّ حولي. رأيت السرير القريب مرتبا فتيقنت من أنّ صاحب الشقة قد انصرف إلى عمله. تثاءبت في تكاسل ثم قمت من مكاني متثاقلا. رتّبت فراشي بدوري، احتراما لمضيفي، وأنا الذي لم أفعل ذلك يوما في منزل والديّ. والآن، أين المطبخ؟ أحتاج إلى وجبة دسمة لأتأكد أنني لا أحلم. لم تكن الشقة كبيرة. تتكوّن من غرفة واحدة واسعة تحتوي سريرا ومكتبا من جهة، وأريكة وجهاز تلفاز من الجهة الأخرى. سرت باتجاه المدخل حيث كان بابان إضافيان، أحدهما يفضي إلى المطبخ والثاني إلى الحمام.

توجهت إلى المطبخ رأسا، وإلى الثلاجة بالتحديد. لكنّ نظرة جانبيّة خاطفة جعلتني أتوقف بغتة كأنّ مسّا كهربائيّا أصابني. سجادة الصلاة المفروشة على الأرض في اتّجاه القبلة كانت تناديني. ألم أكن قد عزمت على المواظبة على الصلاة؟ تحولت وجهتي إلى الحمام لأتوضأ. يكفيني أنّي قد نمت عن صلاة الفجر.. وهو أمر دارج واعتياديّ في حياتي السّابقة، لكن ولسبب غريب أحسست له تأنيبا من ضميري الذي استفاق فجأة. تراءت صور أمام عيني. هل حاول عمر إيقاظي؟ كانت صورا باهتة كأنها جزء من الحلم. لا أستبعد أن أكون قد رميته بالوسادة ليتركني أنام في سلام.. تماما كما كنت أفعل في الماضي، حين تحاول إحدى شقيقاتي إيقاظي. ابتسمت لتلك الذكرى البعيدة. كل شيء يدعوني إلى الابتسام ذلك الصباح. صليت صلواتي الفائتة بسرعة -والمقصود بالفائتة هو الفجر والظهر، باعتبار توبتي الحديثة في المساء السابق- ثم قمت وفي داخلي الكثير من الارتياح. يمكنني الآن أن أبدأ يومي في اطمئنان ما دمت قد أدّيت حق ربّي عليّ.

قبل أن أتوجه إلى المطبخ من جديد، توقفت نظراتي عند جهاز الهاتف المستقرّ على المنضدة. تسارعت نبضاتي بشدّة وتوجهت إليه بخطوات

مضطربـة. مـن دون تفكـير كثـير أمسـكت سـماعة الهاتـف بلهفـة وأخـذت أكـوّن رقمـا أحفظـه عـن ظهـر قلـب. أدركـت حينهـا أنـه حـين لا أكـون عـلى وشـك المـوت مـن الجـوع، هنـاك أشـياء كثـيرة قـد تشـغلني عـن التفكـير في الطعـام. لـن يعاتبـني عمـر عـلى اسـتعمال الهاتـف مـن دون إذنـه، أليـس كذلـك؟ انتظـرت في انتبـاه وتوتـر أن يأتيـني ردّ مـن الطـرف الآخـر. يـا إلهـي، كـم بـدت تلـك الثـواني الوجـيزة ثقيلـة ومنهكـة. أمسـكت أنفـاسي حـين جـاءني صوتهـا:

- ألو...

لـم أسـتطع أن أتكلـم. اختنـق صـوتي مـع تناثـر العـبرات مـن عيـنيّ تباعـا. أردفـت في نفـاد صـبر:

- من هناك؟

فقلت بصوت متهدّج خشية أن تقطع الاتصال:

- أمي...

ساد الصمت للحظات قليلة قبل أن تهتف المرأة في عدم تصديق:

- نادر؟ هذا أنت يا بني؟

- هذا أنا يا أمي.

أحسست بالدموع تملأ صوتها. وارتفع النشيج من الجانبين.

- لمـاذا تركتـني في حـيرة كل هـذا الوقـت؟ لمـاذا لـم تتصـل قبـل الآن؟ ظننتـك.. ظننتـك..

انقطعت كلماتها مع احتباس أنفاسها. فأغمضت عينيّ في ألم:

- أنـا آسـف يـا غاليـة.. لكنـني لـم أسـتطع أن أتصـل قبـل الآن.. الظـروف صعبـة..

«يا ميمتي الغالية.. يا عين من عينيا..

مشتاق لك مشتاق.. مشتاق لك مشتاق..»

في الخلفيّـة، يتناهـى إليّ صـوت شريـط تضعـه في المسـجّل. أغنيـة شـعبيّة

تونسيّة أعرف إدمانها لها منذ رحيل جدّتي في تونس من دون أن يتسنّى لها وداعها. لعلّها تصغي إليها اليوم لأسباب أخرى. تعدّدت المآسي، والفقد واحد. تساءلت، كم مرّة في اليوم تعيد لفّ الشريط لتكرّر الأغنية نفسها؟

«بعدك يا عزيزة عليّ.. الأيام لعبت بيّ..

وكواني الفراق.. وكواني الفراق..»

- بني.. أنت بخير؟ لم يصبك شيء؟

لا شك أن أخبار المراكب التي تحطمت في عرض البحر قد وصلت أصداؤها إلى البلدة. ولا شك أن عائلات الكثيرين من رفاق سفري قد تلقت نعيهم منذ فترة ليست بالقصيرة. قلت مطمئنا:

- أنا بخير.. بخير. آكل جيدا وأنام جيدا.. وتعرفت على أشخاص جيدين ساعدوني.

لم أكن أكذب. أكلت جيدا مساء أمس ونمت على فراش مريح أيضا. لا حاجة إلى سرد تفاصيل الأسابيع الماضية. وحدها الأخبار السعيدة يجب أن تقال في الاتصالات مع العائلة.

«طال غيابي طال.. تعبني الترحال..

ندمت على هالحال.. دمعة سخية..

وحرّاقة الأشواق.. وحرّاقة الأشواق..»

- لماذا تركتنا في قلق كل هذا الوقت؟ لماذا تركت الهواجس تلعب بنا؟

- العمل يا أمي.. العمل كثير. والاتصالات الهاتفية مكلفة جدا..

كتمت تنهيدة حرّى ضاق بها صدري. كان يجب أن أكذب هذه المرّة. لكن لا بأس، إحساسي يخبرني بأنّ الأوضاع ستتحسن من الآن فصاعدا. سأجد عملا، وسأتمكن من الاتصال باستمرار. هكذا ظننت في اندفاع ساذج.

- يجب أن أذهب الآن.. العمل ينتظرني..

أغمضت عينيّ بقوّة حتى أوقف سيل العبرات، وأنا أستمع إلى الدّعاء الذي أخذ لسانها يلهج به من دون توقف. تنهّدت في حرارة بعد أن أنهيت المكالمة. كم كنت في حاجة إلى دعائها. كم كنت في حاجة إلى شحنة المشاعر الدافئة تلك. وقفت من مكاني وتوجهت إلى المطبخ مدندنا ببقيّة كلمات الأغنية، بصوت حزين ذابل.

«مكتوب لي في كتابي.. يامّه نذوق عذابي..

خايف غصن شبابي يشيح في يديا.. وتذبلي الأوراق..

لو تعرفي آش نقاسي.. مع ناس ماهم ناسي..

وآش رات عيني أغيار.. وآش رات عيني أغيار..»

*****

الاثنين ١٧ ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة ظهرا،

وهـو يعـبر ممـشى الحديقـة المـؤدّي إلى مـنزل عائلـة رسـتم في الضّاحيـة الجنوبيّـة، فكّـر خليـل في شـكّ.. هـل يمكـن أن يحملـه بـكاء الفتـاة واسـتعطافها إلى العفـو والصّفـح، كمـا صفـح الدّكتـور عمـر عـن أبيـه؟ لعلّـه يتفهّـم يأسـها وقلّـة حيلتهـا، لكنّـه لا يستسـيغ عـلى الإطـلاق أسـلوب الابـتزاز وليّ الـذراع.

بعـد رنّتـين للجـرس، انفـرج البـاب، ليطالعـه وجههـا. مـرّت لحظـات متوتّرة، تجلّـت خلالهـا أمـارات الصّدمـة عـلى ملامحهـا، ثـمّ مـا لبثـت أن اسـتفاقت وهتفـت غـير مصدّقـة:

- يـا إلهـي، لقـد وصلـتَ إلى هنـا.. إذن فقـد ذهبـت لرؤيتـه! كيـف هـو؟ أخـبرني أرجـوك، كيـف حالـه؟ هـل يبـدو بصحّـة جيّـدة؟

تجاهل لهفتها لمعرفة أخبار شقيقها وقال في جفاف:

- أليس هذا ما أردته، حين كتبت اسمه وعنوان السّجن في السّجلّ؟

امتقع وجهها وقالت في مرارة:

- وضعـت اسـم أخـي وعنـوان سـجنه، لأنّهـا المعطيـات الوحيـدة الثّابتـة. كلّ ليلـة، نبيـت ونحـن لا نـدري إن كانـت شـمس النّهـار سـتطلع علينـا في هـذا المـنزل.. أم في غـيره!

حبـس أنفاسـه. هـا قـد عـادت إلى اسـتدرار عطفـه، هـي وأخوهـا! قـال مسـتعجلا:

- دعك من هذا الآن. أين الحافظة؟

- عفوا؟ أيّ حافظة؟

- حافظتي الإلكترونيّة. ملفّات المكتب. تلك التي سرقتها!

- ماذا؟!

صرخت في استنكار شديد أمام اتّهامه المباشر، في حين حدّق فيها غير مصدّق. هل ستنكر الآن؟ لعلّها لم تحقّق أهدافها بعدُ وتريد الاحتفاظ بها لوقت أطول لتضمن تعاونه؟ تغضّنت ملامحه وهمّ بالتلفّظ بكلمات عنيفة، حين قاطعه نداء من الدّاخل:

- مريم.. من بالباب؟

- إنّه المحامي!

ظهر في نهاية الممرّ كهل في نهاية الخمسينات، يمشي ببطء ويتحسّس الجدران في طريقه.

- لماذا هو بالباب؟ فليتفضل..

كان خليل يهمّ بالكلام، حين التقت عيناه بنظراتها الصّارمة والرّاجية في آن. مريم. اسمها مثل اسم ابنته. ونظرتها المعتدّة المشحونة بالكبرياء لا تدع له مجالا للاعتراض. ليس الآن، سيؤجّل حسابه معها احتراما للرّجل الكفيف.

- لم أصدّق حين بلّغتني مريم يوم السّبت أنّها وجدت محاميا قبل بتولّي القضيّة! فضل منك أن تشرّفنا في منزلنا المتواضع..

قال الرّجل بعد أن استقرّ بهما المقام في غرفة المعيشة المؤثثة بنمط شرقيّ للغاية.

- إنّه منزل جميل.

قال خليل وهو يكتشف بعينين مبهورتين النّقوش الدّقيقة على خشب الأرائك، والألوان المتموّجة التي تزخر بها المفروشات والسّتائر. لم تكن تشبه في شيء الفخامة الغربيّة التي تعتمد الحدّ الأدنى من الزّخرفة، لكنّها حميميّة ودافئة. ربّما تحمل على كاهلها عشرات السّنين من التعايش مع هذه الجدران، ومع أنفاس السّكان وبصماتهم، لكنّها تحتفظ برونق فريد، مثل القطع القديمة في المتاحف.. على أنّها قريبة المنال. لوهلة، تخيّل نفسه مسافرا إلى الشّرق العربيّ، قبل أن يقطع تأمّلاته صوتها،

مريم، بنكهة مرّة أفسدت متعة الرّحلة:

- شكرا لتعزيتك.. ما دمنا سنفقده عمّا قريب!

- مريم.. حضّري لنا الشّاي رجاء.

انسحبت إلى الدّاخل بخطوات عصبيّة، بينما اعتذر الرّجل بابتسامة باهتة.

- لديك أولاد؟

- ابنة واحدة. اسمها مريم أيضا.

- آه! هذا فأل طيّب! فأل طيّب!

لم يقاوم رغبة خفيّة في مشاركة لحظة وجدانيّة صادقة مع الكهل المنهك. ينتبه في كلّ مرّة إلى قواسم مشتركة مع هذه العائلة الغريبة. يتساءل لماذا سمّاها مريم، اسم السيّدة العذراء عند العرب؟ لماذا لم تكن ماري؟ يذكر الآن أنّ سيلين اقترحت الاسم. صارت موضة عند الفرنسيين أن يهبوا أولادهم أسماء شرقيّة. نوع من مواكبة العولمة وتحطيم للحدود الجغرافيّة التي تصرّ دولتهم على حمايتها بأسلاك شائكة. غزت الأسماء الهنديّة والكوريّة والتركيّة أسماء المواليد الجدد، فما عادت الأسماء المألوفة ترضي الآباء الشباب.

على أنّ اسم ابنته يُنطق «ميغيام» على الطّريقة الفرنسية، بينما يحتفظ لها والدها بليونة الرّاء رغم الفرنسيّة الصّرفة التي يتبادلان مفرداتها. يُدرك فجأة أنّه يتقدّم خلال حقل ألغام لا يدري إن كان سينفجر في وجهه في أيّ لحظة. بارحه هوس الكاميرا والمقلب الخفيّ الذي راوده يوم السّبت، لكنّه ما زال يخشى تبعات الألفة التي تتحرّك داخله تجاه العائلة وقضيّتها. قاوم بعنت. ليست هناك أيّ ألفة، إنّها شفقة عابرة. سينهض الآن من مكانه، يعتذر عن سوء الفهم، لأنّه لا ينوي أبدا استلام القضيّة، ثمّ ينسى الأمر برمّته.

مهلا، سيحدث ذلك بعد أن يستعيد حافظته.

- أخشى أنّني لم أكن أبا جيّدا للولدين..

كانـت كفّـه تحتضـن كـوب الشّـاي النحـاس الـذي قدمتـه مريـم وانصرفـت، بينمـا تتـلألأ في عينيـه الخاويتـين عـبرات نديّـة. تابـع خليـل الرجفـة الـتي ألمّـت بأصابعـه النحيلـة المتغضّنـة بينمـا واصـل نجـواه:

- مريـم كانـت دومـا أمّـا لأخيهـا، بعـد أن رحلـت عنّـا أمّهـا مبكّـرة.. والآن هـي تحمـل عـبء أبيهـا أيضـا، بـدل أن أحمـل عنهـا همومهـا وأكـون لهـا عونـا ورفيقـا. إنّهـا مجـرّد فتـاة في الثالثـة والعشريـن، لكنّهـا تعلّمـت كيـف تكـون صلبـة وقويّـة. ومحمّـد.. ذلـك الولـد الشـقيّ، هـل تصـدّق أنّ طفـلا مثلـه يـترك مقاعـد الدّراسـة ليغسـل الصّحـون في مطابـخ المطاعـم، ويحمّـل الصّناديـق في مخـازن المحـلّات؟ بينمـا يجلـس والـده عالـة عليـه، لا يسـعه أن يفعـل شـيئا ليهـوّن عليـه مصيبتـه؟!

أطـرق خليـل في صمـت. لـم تكـن هنـاك مـن كلمـات تـواسي الأب الموجـوع في عـزّة نفسـه وكرامتـه. فكّـر للحظـة. لـو كان والـده موجـودا الآن، هـل كان ليشـبه هـذا الكهـل الخمسـيني الكفيـف؟

- شكرا على الشاي.

نهـض بعـد أن أفـرغ المـشروب الـدّافئ في جوفـه، فصافحـه الرّجـل بحـرارة وهـو يشـدّ عـلى ذراعـه.

- أملنا فيك، من بعد الله سبحانه وتعالى!

مطّـت مريـم شـفتيها ورفعـت عينيهـا إلى السّـقف في حركـة هازئـة وهـي تتابـع المشـهد المسرحـيّ المؤثّـر، في حـين تمتـم خليـل ببضـع كلمـات مجاملـة قبـل أن يعـبر الممـرّ في اتّجـاه المخـرج. تبعتـه مريـم بخطـوات بطيئـة. وقـف موليّـا إياهـا ظهـره أسـفل الـدّرج المـؤدي إلى الحديقـة، وكفّـاه في جيوبـه. كان عليـه أن يتّخـذ قـرارا فوريّـا، أن يحسـم بـين عقلـه ذي المنهجيّـة العلميّـة الثابتـة والدّقيقـة، وعاطفـة غبيّـة لا تُطعـم خـبزا ولا تصنـع مسـتقبلا. لـم يـدم تـردّده طويـلا. اسـتدار عـلى حـين غـرّة ليواجههـا وهمـس بفحيـح حـادّ

وخفيض حرص على ألا يصل إلى مسامع أبيها:

- أمامك أربع وعشرون ساعة لتكون الحافظة على مكتبي! هل هذا واضح؟

لم ينتظر ردّها، واندفع باتّجاه السيّارة. إن كانت تفكّر في الإنكار، فعليها أن تعيد النّظر، لأنّ بيده الكثير ليفعله، ولن يكون في صالحها وصالح عائلتها. أدار المحرّك وانطلق عبر الشّوارع على غير هدى. لم تكن به رغبة في العودة إلى المكتب. كلّ شيء يبدو كئيبا في عينيه، ويزداد كآبة كلّ لحظة. هام على وجهه حتّى الرّابعة عصرا.. موعد اجتماع الشّركاء. كان يجب أن يرجع من أجل هذا على الأقلّ. رنّ الهاتف، وجاء صوت السّكرتيرة قلقا:

- أستاذ دانيال، الشّركاء يسألون عنك. هل ستتأخّر؟

- أنا في طريقي إلى المكتب.

بعد دقائق، كان يتنهد وهو يتأمّل سحنته المتعبة في مرآة المصعد. بعض الهمّة. إن لم يكن مقنعا أمام الشّركاء، فهل سيكون أمام جمهور النّاخبين العريض؟ مرّن شفتيه على الابتسامة المحترفة، ومسّد صدغيه لإزالة بقايا التّوتّر ثمّ خطا في اتّجاه غرفة الاجتماعات.

- ها قد وصل مرشّحنا الفذّ!

صافح زملاءه الذين استقبلوه بابتسامات مرحة وتربيتات قويّة على الظهر والعضد، ثمّ استقرّ بينهم حول طاولتهم المستديرة. كلّ شيء بدأ حول هذه الطاولة نفسها منذ أسابيع قليلة. جاءت تلك الفكرة العابرة، ألقاها زميله برونو بلا مبالاة تامّة في إحدى الأمسيات التي جمعت شلّة الشركاء لمناقشة خطة إستراتيجيّة لتطوير المكتب. «ليست هناك دعاية لنا أفضل من دخول أحدنا البرلمان!». ضجّوا بالضحك، كأنّما ألقيت على أسماعهم نادرة. لكنّ الفكرة شغلت خليل، حتّى أصبحت هاجسه الدّائم. سيسعى إلى دخول البرلمان!

إذن هـذا كلّ مـا في الأمـر. دعايـة للمكتـب، تحقيـق سـمعة وتسـليط ضـوء عـلى شـخصه.

لا.. لـم يكـن ذلـك مقصـده. كان يثبـت لنفسـه أنّـه نـدّ لهـم، أولئـك الذيـن يتربّعـون عـلى المقاعـد الوثـيرة، ويتحكّمـون في مصائـر النّـاس. يمكنـه أن يكـون منهـم، ولـن يكـون الاسـم عقبـة مـدى الحيـاة. مـا بـدأ عـلى سـبيل الدّعابـة، انتهـى في منتهـى الجـدّ. حملـة انتخابيّـة وتحديـد رؤيـة سياسـيّة، أهـداف وإنجـازات يرمـي إلى تحقيقهـا مـن خـلال صوتـه في المجلـس.

- هل خطابك جاهز من أجل السبت المقبل؟

- تقريبا..

غمغـم في غمـوض والابتسـامة ذاتهـا لا تفـارق محيّـاه. لـم يتقـدّم خطـوة واحـدة منـذ وصلتـه رسـائل والـده. ويـوم عملـه الأقـلّ ضغطـا ذهـب هبـاء بسـبب قضيّـة تافهـة لـن تـدرّ عـلى المكتـب نفعـا. لكنّـه سـيكون جاهـزا في الموعـد. سـيضطر إلى بعـض السّـهر والمزيـد مـن الوقـت المقتطـع مـن نصيـب العائلـة مـن حضـوره. لكـنّ الظـروف تفـرض ذلـك. سـيلين سـتقدّر. ومريـم.. لعلّهـا لـن تتفهّـم بسـهولة.

- هــل رأيــت اللافتــات الجديــدة الــتي صمّمتهــا مارغريــت؟ إنّهــا آيــة في الإبــداع.

- نعم إنّها كذلك..

يعتمـد عـلى المكتـب بشـكل كامـل لتمويـل حملتـه الانتخابيّـة. كلّ الإعلانـات الــتي تشــغل شاشــات المدينــة تحمــل توقيــع «مكتــب دوبــون Dupont وشركائـه للمحامـاة». مـا زال الاسـم النّبيـل يثـير اهتمـام العامّـة ويسـتجلب ثقتهـم رغـم إلغـاء الملكيّـة منـذ قـرون طويلـة. بـل لعلّـه لـم يكـن يومـا أكـثر أهميّـة وموضـع حسـد ممّـا هـو عليـه اليـوم، في زمـن أصبـح فيـه الانتمـاء الفرنـسيّ الحـقّ والأصيـل مـيزة لا يسـتهان بهـا، فمـا بالـك بمـن انتمـى أسـلافه إلى طبقـة النبـلاء ذات الحضـوة؟ لذلـك لـم يعـترض أحدهـم عـلى اختيـار

اسـم زميلهـم «دويـون» ليتصـدّر لافتـة المكتـب ويكـون اسـم شـهرته، لأنّ النّفـع سـيعود عليهـم جميعـا. وقـد أدرك خليـل دانيـال الشـاوي، أنّ مصـير اسـمه أن يُكتـب إلى الأبـد بخـطّ دقيـق أسـفل اللافتـات.. كان ذلـك قبـل أن يترشّـح لمنصـب عـامّ.

- أستاذ دانيال.. معذرة على المقاطعة.

التفـت إلى السّـكرتيرة الـتي اقتحمـت الاجتمـاع وعلامـات الاضطـراب واضحـة عـلى وجههـا.

- ما الأمر؟

- هل يمكنك الخروج إلى هنا.. لحظة واحدة؟

اعتـذر مـن زملائـه ولحقهـا إلى الممـرّ. كانـت تقـف مرتعشـة كأنّ أمـرا جلـلا قـد وقـع.

- أنا آسفة جدّا.. لا أدري كيف أمكن لهذا أن يحصل.. أنا مرتبكة للغاية..

- ما الأمر جانيت، تكلّمي؟

أخذت نفسا ثمّ قالت في نبرة اعتذار:

- الحافظة، لقد عثرت عليها..

- ماذا؟! أين؟

- دخلـت إلى المطبـخ لأحـضّر القهـوة مـن أجـل الاجتمـاع، فوجدتهـا هنـاك عـلى الطاولـة. لا أدري كيـف حصـل ذلـك، أنـا لا آخذهـا معـي إلى أيّ مـكان، لا تغـادر الـدّرج أو المكتـب.. لكـن يبـدو أنّـني أخذتهـا بيـدي اليـوم حـين حـضّرت قهوتـك في الصّبـاح.. ونسـيتها هنـاك!

- حسن.. هذا جيّد.. جيّد أنّنا وجدناها.

- سأكون أكثر انتباها أستاذ دانيال، أعدك.. لن تضيع منّي مرّة أخرى.

- لا بأس جانيت.. عودي إلى عملك.

ابتعـدت خطـوات السـكرتيرة حـتّى اختفـت داخـل مكتبهـا، بينمـا تسـمّر

مكانـه في شرود، ثـمّ زفـر بقـوّة. كان ينبغـي أن يكـون أكـثر ارتياحـا الآن وقـد عـادت الحافظـة. لكنّـه ليـس كذلـك.

دام الاجتمـاع قرابـة السّـاعتين، وشـغل موضـوع الانتخابـات الحـيّز الأكـبر منـه. لـم يكـن مسـموحا لـه بالكثـير مـن الحريّـة في انتقـاء مفرداتـه وخططـه المعلنـة ضمـن البرنامـج الانتخـابيّ. سـيكون عليـه التقيّـد بالبنـود الـتي يحدّدهـا المكتـب، لأنّ المصلحـة العامّـة للمكتـب تبقـى الأولويّـة الكـبرى. مـن الممنـوع التحـيّز في المواضيـع الشّـائكة، عليـه أن يبقـى فضفاضـا وغامضـا مـا أمكنـه ذلـك. فليركّـز عـلى الثوابـت الـتي تدغـدغ الحـواسّ وتضمـن الأمـان. إن لـم يعجبـه سـؤال المحـاورة التلفزيّـة، يمكنـه أن يلقـي نكتـة أو يتظاهـر بالتّعقيـب عـلى نقطـة سابقة. مـن أجـل ذلـك، عليـه أن يعـدّ سـلّة مـن الإجابـات الجاهـزة والمراوغـة الـتي يمكنـه أن يسـتظهر بإحداهـا وقـت الحاجـة. أمّـا الخطـاب، فينبغـي أن تعـرض النّسـخة المبدئيـة منـه عـلى الـشّركاء ليضعـوا التعديـلات والتنقيحـات المناسـبة.

حـين غـادر المكتـب، تفقّـد هاتفـه. لـم يكـن قـد وصلـه أيّ تسـجيل صـوتيّ آخـر. مـن الطبيعـي أن تصـاب أمّـه ببعـض الوهـن بعـد سـاعات قضّتهـا في الترجمـة. فكّـر أنّ بإمكانـه زيارتهـا وإمضـاء جـزء مـن السّـهرة معهـا. هـل هـو فضـول لمعرفـة المزيـد عـن أبيـه، أم ضيـق مـن تسـاؤلات سـيلين الـتي لـن يجـد ردّا عليهـا في الوقـت الحـالي؟

سـجّل رسـالة صوتيـة لأمّـه «أنـا قـادم»، وأخـرى لسـيلين «سـأمرّ عـلى أمّـي. لا تنتظريـني عـلى العشـاء». فكّـر أنّ عليـه إرسـال رسـالة اعتـذار أخـرى، لتلـك الفتـاة الـتي اتّهمهـا بالسّرقـة. لكـنّ مزاجـه لـم يكـن مناسـبا. سـيؤجّل النّظـر في الأمـر إلى الغـد.

*****

طـوال سـنواتي الاثنتـين والثلاثـين، كانـت حيـاتي عاديّـة جـدا. بعـد تحصيـل روتيـني عـلى مقاعـد المـدارس الابتدائيـة والثانويـة، حظيـت بمجمـوع متوسّـط مكّنـني مـن الالتحـاق بقسـم اللغـة العربيّـة. كان مـن الطبيعـي أن أنتقـل بعـد الجامعـة مـن مقاعـد الدراسـة إلى مقاعـد المقاهـي. فقـد كان عـدد مـدرّسي اللغـة العربيّـة يفيـض عـن الحاجـة. كان كل شيء بـاردا وخاليـا مـن الإثـارة حـتى تلـك اللحظـة الـتي قـرّرت فيهـا التمـرّد عـلى مسـاري المحبـط وصنـع شيء خـارق يحـرّرني مـن جحيـم الفـراغ. منـذ وضعـت قدمـي اليمـنى في القـارب الخشـب المتراقـص عـلى الشـاطئ في ليليـة خريفيّـة غـاب قمرهـا، أصبحـت حيـاتي تتابعـا مرتجـلا لحـالات اسـتثنائية. خضت المغامـرة تلو الأخـرى وعرّضت حيـاتي للخطـر أكـثر مـن مـرّة. اقتربـت مـن حـدود المـوت غرقـا، جعلـت نفسي طريـد العدالـة، وكـدت أنحـدر إلى عالـم الجريمـة. وجدتـني مـرارا أتمـنّى لـو عـدت إلى حيـاتي الرتيبـة الخاليـة مـن الإثـارة. خفـت أن أمـوت وحيـدا وشريـدا في ركـن منـسيّ.

خفت أن أكون قد قايضت حياتي العاديّة باللاشيء!

اسـتمرّت إقامـتي عنـد عمـر أكـثر مـن أسـبوع، لـم أحـاول خلالـه أن أفكّـر في حـلّ بديـل أو أن أناقـش الوضـع مـع مضيّفـي. كان التدبـير القائـم قـد راقـني. يـا للعجـب، أن يكـون أقـصى طموحـي في تلـك الفـترة سـقفا يؤويـني وطعامـا يشـبعني! ألـم أكـن أحظـى بذلـك وأنـا آمـن مطمـئن إلى جـوار أمّـي؟ لكـن إغـراء الجنّـة الأوروبيـة الوهميّـة كان مـا يـزال يدغدغـني، ونفـسي تحدّثـني بـأني أحتـاج قسـطا مـن الرّاحـة بعـد مغامـرة التشرّد، قبـل اسـتئناف غـزوتي!

كان لذلـك الوضـع أن يسـتمرّ - مـا لـم يطـردني عمـر- لـولا الأحـداث غـير المتوقعـة الـتي تلـت. في تلـك الأمسـية الدافئـة وأنـا أمـدّ سـاقيّ فـوق الطاولـة

المنخفضة وأسترخي على الأريكة المريحة، كنت أفكّر للمرّة الأولى منذ مغادرتي عنّابة في الحديث الطويل الذي سأقصّه على رفاقي حين أعود إلى الوطن. حين شعرت بالأمان أخيرا، أصبحت عذابات الأيام الماضية مادّة غنيّة لأقاصيص مثيرة قد أحكيها وأنا أقف عند ناصية الشارع أو أتربّع في شرفة المقهى، محاطا بجمهور من الشباب المحروم المتعطّش للمغامرة. وحدهم العائدون يمكنهم فعل ذلك. وقد بدأ أمل يحدوني منذ أيّام قليلة بأنني لن أكون في عداد المفقودين.. في عرض البحر أو في أعماق المجاري الموحلة.

في تلك الليلة، لم يعد عمر إلى الشقة في الوقت المعتاد. لم أكن قد عرفته إلا منذ وقت قصير، لكنّني قلقت بشأنه وشغلني التفكير في سبب تأخره. لم يكن من النوع الذي يسهر في الحانات أو العلب الليلية. لعلّه كان على موعد للسهر ونسي أن يخبرني؟

في حوالي الساعة التاسعة، أحسست برجّة أرضيّة خفيفة تزامنت مع انفجار مفزع. لوهلة، ظنّنته نوعا من الألعاب النّارية.. لكن الشرر المتطاير الذي أضاء سماء ليون كان يوحي بشيء مختلف. لم يدم اهتمامي بالأمر إلا بضع دقائق، فلم أكن ألمح شيئا من نافذة الشقة، والنيران التي ظهرت اختفت بعد لحظات ليعود الظلام الدّامس بالخارج. ما حدث -مهما كان- كان بعيدا عن موقعي.

سيمرّ عليّ يومان وحيدا في الشّقة من دون أن يظهر صاحبها.

قضيت الوقت ممدّدا على الأريكة في ملل. كنت قد استوفيت كل الأنشطة الممكنة في فضاء الشّقة الضيّق. أعدّ الوجبات، أنظّف المطبخ وأكنس أرضيّة الغرفة، أمسح الغبار عن قطع الأثاث القليلة، ثم أجلس بقية النهار أشاهد برامج تلفزيّة سمجة. من حسن حظي أنّ عمر ترك ما يكفي من المؤونة في الثلاجة وعلى رفوف المطبخ، لذلك لم أحتج إلى مغادرة الشقة. كل شيء كان متوافرا. لم أكن أشكو من شيء. لكنّ قلقي

مـن غيـاب صاحـب الشـقة غـير المـبرّر كان يتنامـى. بالتأكيـد هنـاك خطـب مـا.

وفي اليـوم الثالـث، تعالـت فجـأة دقـات قويـة عـلى بـاب الشـقة جعلتـني أنتفـض واقفـا.

- عمر، هل هذا أنت؟

أُطـلّ بحـذر مـن العـين السّـحرية فألمـح رجلـين متجهّمـين يقفـان في صلابـة عزّزتهـا الـبزّات الرّسـميّة. جـاء صـوت أحدهمـا وهـو يـصرخ مرافقـا الدّقـات العنيفـة:

- افتح... نحن من الشرطة.

تراجعـت إلى الخلـف في فـزع كأنّمـا أصابـني مـسّ كهربـائي. يا للهـول، الشرطة! كيـف علمـوا بأمـري؟ مسـتحيل، لا يمكـن أن يكـون عمـر قـد أبلـغ عـنّي. مـاذا عـن تلـك العجـوز الـتي حاولـت خطـف حقيبـة يدهـا؟ لا يمكـن أن تعـرف مكان الشـقة. كلّ مـا فكـرت بـه هـو أنّهـم قدمـوا مـن أجـل القبـض عـليّ. ابتعـدت عـن البـاب عـلى أطـراف أصابعـي وأنـا أفكـر بسرعـة واضطـراب. كأنّ إخفـاء وقـع خطـواتي سـيرجع الزّمـن إلى الـوراء ويسـحب نـدائي إلى أعمـاق حلقـي! تلفـتُّ حـولي في توتـر، ثـم توجهـت مسيّرا إلى النافـذة. فتحتهـا عـلى مصراعيهـا وأطللـت بـرأسي نحـو الأسـفل. كانـت الشـقة واقعـة في الطابـق الثـاني، عـلى ارتفـاع سـتة أو سـبعة أمتـار عـن الأرض. لـم تكـن هنـاك حراسـة عـلى المدخـل الخلفـي. لـم أكـن قـد حسـمت أمـري بعـد حـين ارتفـع صـوت رجـال الشرطـة مـن جديـد.

- إن لم تفتح سنكسر الباب..

قلـبي يقفـز خلـف جـدار صـدري في ضربـات موجعـة. يمـلأ صـدى نبضاتـه أذنيّ فأنعـزل عـن بقيّـة الأصـوات في قوقعـة مغلقـة عمادهـا الأفـكار. جنـون مـا فكّـرت بـه في تلـك اللحظـة. وهـل سـيغيّر جنـون إضـافيّ مـن حقيقـة كلّ الجنـون الـذي خضتـه في رحلـتي منـذ عنّابـة؟ التقطـتُ حقيبـة ظهـر كانـت لعمـر. نفضـت مـا في جوفهـا مـن أوراق بحركـة عشـوائيّة، وركضـت في هسـتيريا

نحو المطبخ. فتحت الثلاجة وأخذت في إفراغ محتوياتها في الحقيبة من دون تمييز. خضراوات طازجة وفواكه، طعام معلّب، عصائر ومشروبات غازية. أيّ شيء سيفي بالغرض، حتى لا أموت جوعا في الأيام المقبلة. في الأثناء كانت الضربات تتابع على الباب محاولة تحطيمه. تحركت وأنا ألهث. أخذت سترة إضافية لعمر وزوجا من الأحذية ثم عدت إلى النافذة. تسلّقت الحاجز بصعوبة لأجلس على الإفريز المطل على الشارع وحملي بين يديّ. ألقيت نظرة مستطلعة نحو الأسفل. يجب أن أقفز. يجب أن أقفز.

فجأة ظهرت أمامي.. كارمن!

رأيتها تقف عند المنعطف، وتشير إليّ بكفّها أن: اقفز! هل كنت في حاجة إلى تحريضها؟ في تلك اللحظة، سمعت تكّة معدنيّة تؤذن بانكسار القفل. التفتُّ لألمح ذراع رجل تظهر من الفرجة وتعالج القفل لتنهي فتح الباب. لم يعد أمامي خيار.

قفزت.

مع اندفاع رجال الشرطة داخل الشقة، كنت أعرج مبتعدا عن المبنى بكلّ السّرعة التي تتيحها قدمي المصابة على إثر الهبوط الكارثي.

*****

حين وصلت إلى مأمن، تذكرت كارمن. هل كانت أسفل البناية حقا؟ هل أشارت إليّ بكفها تحرّضني على القفز، أم أنّني تخيّلتها؟ تلك الصغيرة، لشدّ ما فكرت بأمرها منذ منّ الله عليّ بلقاء عمر. كنت قد اتخذت قرارا بأن آخذها تحت جناحي وأحميها حين تفرج الأمور. بأيّ صفة؟ لم أعاين المسألة ولم أكترث. إن وافقت على مرافقتي، فسأعتبرها ابنتي، أختي الصغرى، أيّ شيء. لكنّني لن أترك صبيّة يتيمة في براءتها تواصل

التشرّد إلى الأبد. كأنّني أسدّد دين عمر بتلك الطريقة.

ذلك المساء، سرت بلا هوادة، أجرّ رجلي المصابة وأفتش عن زقاقي القديم، بلا جدوى! لم أعد أدري في أيّ قسم من المدينة هو. كنت قد ركبت المترو مع عمر وانتقلت إلى حيّ جديد، فما عاد بإمكاني أن أرجع على عقبيّ! ضاع كلّ شيء. الشقة والزقاق. فما أفعل من دونهما؟ بعد انسحاب الأدرينالين وعودته إلى مستواه الطبيعي، بانقضاء الإثارة وركوني إلى إحساس مؤقت بالأمان، اشتعلت قطعة من العذاب على مستوى كاحلي الأيمن. كنت متأكّدا من حصول كسر أو تمزّق ما.

انهرت داخل زقاق منعزل، وغلبتني الحمّى. سأغيب عن الوعي ليومين، لا أكاد أميّز شيئا من حولي. أفتح عينيّ على رؤية ضبابيّة لكارمن، ثمّ أنغمس في هلاوسي. حتّى انحسرت الحمّى أخيرا. حين انقشعت الغيوم وفتحت عينيّ بثبات لا لُبس فيه، رأيت أوّل ما رأيت ابتسامة كارمن الوضّاءة التي عهدتها والفرحة في عينيها. حكت لي برسمها وإشاراتها كيف لازمتني في غيبوبتي، تكمّد جبيني وتسقيني الماء. كنت مدينا لها بحياة جديدة كُتبت لي. هي، مجرّد طفلة في العاشرة، تعلّمت في سنة تشرّدها ما يعادل عمرا كاملا لأمثالي.

أخرجتُ ما في حوزتي من طعام من حقيبة عمر، وتقاسمت معها قطع الفاكهة. التهمت حصّتي على عجل لأطفئ جوع معدة لم تستقبل طعاما منذ يومين، ثمّ قصصت عليها ما جدّ بشأني. سألتها في حذر عن القرصان وعصابته. اكفهرّ وجهها وأظلمت قسماتها وهي تشيح بنظراتها. شرحت لي بصعوبة وضيق أنّها قد تركت العصابة! كانت قد اقتفت أثري والدكتور عمر يوم الحادثة. كانت تتسوّل عند مدخل النفق كعادتها ذلك اليوم، لكنني لم أنتبه لوجودها لاضطرابي وقد وقعت متلبّسا. سارت وراءنا في حذر، إلى المطعم والمسجد وحتى الشقة! عجبت لاهتمامها، فسألت في شك:

- هل طلب منك القرصان ذلك؟

هزت رأسها بقوة لتنفي شكوكي. رسمت قاطعا ومقطوعا على الأرض في غضب. لم تعد لها علاقة بالقرصان. عجبت للأمر وحاولت الاستفسار منها، لكنها احتفظت بأسبابها في إصرار غريب، كأنّ سرّا ما في الأمر تحاول حمايته باستماتة. سلّمت بالأمر ولم ألحّ، لكنّني أيقنت بأنّ العودة إلى العصابة الآن لم تعد ممكنة.

حياتنا في الأيّام التالية اعتمدت على ما يلقيه إلينا المارّة من قطع نقديّة، وعلى مخزون المعلّبات الذي أخذته من شقة عمر. استمررنا نفترش الأرض في المساء، ونتقاسم مع مشرّدين آخرين مدخل النفق. نطرد منه على الساعة الواحدة والنصف، حين تغلق المحطة في وجه المسافرين، ونتسلّل إليه كالكلاب الضّالة ملتمسين الدّفء، حين تفتح البوابات المعدن على مصراعيها مع الساعة الخامسة، لاستقبال يوم جديد.

وفي إحدى الليالي، بعد أن طردنا من محطّة المترو تسكّعت وكارمن عبر الشوارع الهادئة. كنت قد ربطت كاحلي بإحكام بخرقة سميكة لأتحمّل مسافات السّير التي كثيرا ما نضطرّ إليها دفعا للتجمّد بردا. كانت السّاعة قد تجاوزت الثانية صباحا، حين خطر لي الأمر. لم تكن خطوة طائشة. ولا مدروسة. كانت محاولة بائسة تحت وطأة اليأس والمرارة. عبرنا أمام بناية ذات سور قليل الارتفاع. كان من الممكن أن ألمح النوافذ الخشب القديمة للطابق الأرضي خلف الباب المعدن للسّور. وصلنا إلى نهاية الشارع، ثمّ أشرت إلى كارمن بالعودة أدراجنا. مررت هذه المرّة متمهّلا، أقيّم دفاعات الشبابيك ودرجة مقاومتها لمحاولة خلع ما. نظرت إلى عيني كارمن، أستشيرها في صمت. كانت هادئة، وعيناها الصافيتان الناعستان تحثّانني على المبادرة. نظرة حذرة إلى الجوار الخالي، ثمّ قفزة واسعة لأتسوّر الجدار وأصبح من الناحية الأخرى، صاحبها ألم مميت في قدمي. لكنّ الجائزة كانت تستحقّ. كان الأمر أيسر ممّا توقعت. هزّتان يتيمتان

مـن ذراعـي الصلبـة، وانهـارت نافـذة المطبـخ في قبضـتي. التفـتُّ صـوب كارمـن الـتي التصقـت بثقـوب البـاب المعـدن ترقبـني وطلبـت انتظارهـا ريثمـا ألقـي نظـرة عـلى داخـل الشـقّة.

تجوّلـت عـلى أطـراف أصابعـي بـين الغـرف الثـلاث، المطبـخ والحمّـام. لـم يكـن هنـاك أحـد. عـدت أدراجـي إلى النافـذة، ورفعـت إبهامـي علامـة النجـاح، فلحقـت بي كارمـن في لحظـات. خـلال دقائـق، كنّـا نتربّـع عـلى الأريكـة العريضـة يتدثّـر كلّ منّـا بغطـاء سـميك، والمدفـأة الكهربائيّـة تبثّنـا موجـات دفء غامـرة، ونغـرق في ضحـك هسـتيريّ. خـلال أسـبوعين تليـا، سـتكون تلـك الشـقة الخاليـة مـأواي وكارمـن، نلـوذ بهـا حـين يهبـط الليـل وتسـكن المدينـة. نتسـلّل إلى مخبئنـا الهـادئ مـن دون جلبـة، فأتحامـل مـا اسـتطعت عـلى ألمـي الممـضّ إبّـان اعتـلاء السّـور، ونركـن إلى زاويتنـا المريحـة في غرفـة المعيشـة. لـم نجـرؤ عـلى فتـح الخزانـات أو تفتيـش الأغـراض. لـم تكـن السّرقـة هدفـا في ذاتـه، بـل المـأوى. نحـضر معنـا مـن الشـارع قوتنـا ثـم نغسـل عنّـا تـراب الأزقّـة، ونـأوي إلى نـوم هـادئ تهدهـده الأحـلام الناعمـة. نسـتمتع بإحسـاس النظافـة المنعـش والفـراش الوثـير، ثـمّ ننـتزع أنفسـنا قـسرا خارجـا قبـل أن تـدبّ الحيـاة في الشـارع. مـا عـدا تلـك المـرّات الـتي نوفّـر فيهـا مؤونـة كافيـة لأيّـام عـدّة، فقـد كان علينـا طلـب الـرّزق بالأسـاليب المعتـادة في مداخـل أنفـاق المـترو. ولـم نكـن لنغامـر بـأن يلمحنـا بعـض الجـيران ونحـن ندخـل أو نخـرج في وضـح النهـار.

وفي إحـدى الصّباحـات الـتي آثرنـا فيهـا إطالـة متعـة الاسـتغراق في المـرح، تعالـت طرقـات عـلى بـاب الـدار. كان ضجيجنـا قـد أثـار انتبـاه الجـيران. تحرّكنـا في هلـع نحـو شـبّاك المطبـخ الـذي تسـلّلنا منـه دائمـا، وخـلال ثـوانٍ كنّـا نعـبر الحاجـز ونلهـث مبتعديـن. وسرعـان مـا ابتلعتنـا زحمـة الشـارع اليقـظ، ورجعنـا نهيـم في الشـوارع مثـل الأيـام السّـالفة.

*****

جـدّك رحمـه اللـه خـاض غمـار الحـرب العالميـة الثانيـة وهـو فـتى غـرّ لـم يتجـاوز الثامنـة عـشرة. تطـوّع اختيـارا علّـه يعـثر عـلى ذاتـه في خضـم المعركـة. مـع أنّ الحـرب ليسـت خـيرا مطلقـا، فإنّهـا لـم تكـن شرّا مطلقـا أيضـا.. أو هكـذا تبـدو غالـب الأمـر للمنتـصر. جـدّك عـاش تجربـة الحـرب بطيـش الشـباب ونزقـه، كأنّـه لا يبـالي بحياتـه مـن موتـه. مـضى بقدميـه إلى الهـلاك ورجـع سـالما. لـم تقتلـه جيـوش الحلفـاء أو المحـور.. لكنّـه قـضى عـلى أيـدي أبنـاء بلـده والحـسرة في قلبـه.

كان أبيـض البـشرة، أزرق العينـين، مشربـا بحمـرة ونضـارة تجعـل الناظـر يتـوه في أصلـه وانتمائـه. وقـد اسـتغلّ مظهـره الحسـن أيّمـا اسـتغلال في تلـك الظـروف الحالكـة. كانـت وجبـات الطعـام الـتي تقـدّم إلى المتطوّعـين والمهجّريـن العـرب والأفارقـة كريهـة غـير مستسـاغة. يملـؤون بهـا البطـون كرهـا كمـا تمـلأ الأكيـاس بقطـع الحجـر، حـتى لا يغـشى عليهـم مـن الجـوع. وكان جـدّك يتسـلّل خلسـة إلى طابـور المقاتلـين الأوروبيّـين، حيـث الوجبـات الدسـمة الشـهيّة. ينـدسّ بـين الأوكرانيـين والـصرب والكرواتيـين، فـلا يمـيّز مـن بينهـم. يلتهـم أكلـة سـاخنة تسـيل اللعـاب، بينمـا يرقبـه الجزائريّـون والمغاربة والتونسـيون والسـنغاليّون بأعـين الحسـد، وصـل بهـا الحـدّ إلى الحقـد. فقـد سـعى بعضهـم إلى الوشـاية بـه إلى قائـد فرقـة المشـاة.

وصـل القائـد عـلى حـين غـرّة في فـترة توزيـع الطعـام، سـار بـين الصّفـوف مفتّشـا والـشرر يتطايـر مـن عينيـه، ومـا لبـث أن عـثر عـلى جـدّك. أمسـك بتلابيبـه وجـرّه أمـام نظـرات الجنـود المدهوشـة. أرداه أرضـا وسـحق وجهـه بحذائـه العسـكريّ الغليـظ، ثـمّ اسـتلّ مديـة حـادّة وغرسـها بـكلّ قوّتـه في سـاق جـدّك الملقـى مـن دون مقاومـة، ثـمّ خلخـل النصـل بعنـف ليتّسـع

الجرح قدر الإمكان، قبل أن يسلّ المدية. مسح الدّم العالق بها في سترة جدّك ببرود، ثم أعادها إلى غمده وصاح في شماتة:

- هذا سيكون عقاب كلّ من تسوّل له نفسه السّخرية من أسياده.

يحكي جدّك أنّه وقف من مكانه من دون مساعدة، ومشى يجرّ ساقه من دون أن يطلق صرخة ألم واحدة، والدّماء التي ملأت الحذاء العسكريّ ذا السّاق العالية تبقبق مع كلّ حركة. فحتّى تلك الإصابة العميقة في العظم التي تسبّبت في عرجه الدائم لم يكن سببها الحرب في حدّ ذاتها، إنّما دسيسة مؤذية من أبناء جلدته.. وقد كنت رغم ذلك أبحث عن الإحسان في أبناء وطني، وأفترض الخير في من يحمل ماضيا يشبه مستقبلي.

وهكذا، ورثت عرج أبي، كما ورثت جينات المغامرة!

*****

لوقت غير قصير، حسبت نفسي منسيّا من رحمة الله. الرّزق يوزّع على البشر، ولا أنال نصيبي منه. كأنّي ما عدت آدميّا.. حتّى الطيور والسّباع والشّوارد من الدّواب رزقها على الله.. تغدو خماصا وتروح بطانا! وأنا أفترش الأرض وألتحف السّماء، وقد نسيتني الأرض ومن عليها. لم يكن بي سخط أو تمرّد، بل مرارة لا حدود لها، ويأس ألصقني بالأرض ونكّس رأسي حتّى ما عدت أرفع عينيّ إلى وجوه المارّة. غمرني قنوط مميت، أذهب كلّ الطمأنينة المؤقتة التي عرفتها في شقة عمر.

لم أفكّر مطلقا في تلك الفترة أن أقصد بيتا من بيوت الله، فقد رأيت بعينيّ كيف ردّ الشيخ طلب عمر! ولم أشأ أن أجرّب حظي في مسجد آخر.. كأنّي قد قنعت بكوني منبوذا، مطرودا.. منسيّا من رحمة الله والبشر. ولم أرفع يديّ بالدّعاء مرّة واحدة! كما أنّي بعد أن عاهدت نفسي على عدم ترك الصّلاة لم أسجد لله سجدة واحدة في مرحلة التشرّد

الجديـدة. مسـوّغات كثـيرة كانـت تـبرّر جحـودي.. المـاء، لـم أكـن أعـثر عـلى الكثـير منـه.. ومـا يتوافـر، جـوفي أولى بـه! والنافـورات العموميّـة، مـا أدراني بطهـارة مائهـا؟ أمّـا التيمّـم، فلـم أكـن أعلـم كيـف يبـدأ وكيـف ينتهـي! وأيـن أجـد الصّعيـد الطيّـب، والـكلاب تلفـظ فضلاتهـا عـلى قارعـة الطّريـق؟ أرأيـت كـم كنـت متشـدّدا في التنقيـب عـن الأعـذار! وهـب أنّي بعـد جهـد متكـرّر خمـس مـرّات في اليـوم، تطهّـرت.. فأيـن أصـلّي؟ وكيـف سـيكون شـكلي في ثيـابي المهلهلـة تلـك، وأنـا أقـف في الشّـارع أركـع وأسـجد؟ طبعـا هنـاك نوعـان مـن المـبرّرات كلاهمـا وجيـه، أولهمـا شـخصيّ.. إعـلاني انتمـائي الدّيـني في بـلاد تعـلي مـن شـأن اللائكيّـة سـيقلّص حظوظـي في الحصـول عـلى لقمـة تسـدّ رمقـي.. وثانيهمـا جمعـيّ يبلـغ مصلحـة الأمّـة! لـم أكـن «السـفير» المناسـب للتعريـف بالإسـلام.. كنـت لأسـبّب حرجـا للمسـلمين قاطبـة إذا رآني الشـعب الفرنـسي أصـلّي! مشـهد مـشرّد يسـجد في الطّريـق العامّـة هـو أفضـل دعايـة للإسـلاموفوبيا!

إلى أن واتـت تلـك اللحظـة الـتي رفعـت فيهـا رأسي إلى السـماء بعـد طـول تنكيـس، وقلـت بشـكل لاشـعوريّ: يـا ربّ! وتركـت صـدري ينفّـس عـن آهـة عصيّـة أثقلتـه.

يقـول تعـالى ﴿فَاذْكُـرُونِي أَذْكُـرْكُمْ﴾، ومـع أنّي ذكـرت اللـه بلسـان غافـل لا يفقـه مـا يقـول، فقـد أراني في التّـوّ واللحظـة عجائـب قدرتـه. أرسـل إليّ فرجـا لـم أكـن أرجـوه. لكنّـه كان نبـذة محتشـمة، لمحـة خفيفـة.. ترضيـة واعـدة بالكثـير، إن أنـا رطّبـت لسـاني بذكـر اللـه وعرفـت طريقـه.. لكـن أنّى لقلـبي اللاهـي أن يـدرك الرّسـالة!

مـا أن خفضـت بـصري حـتّى وجدتـه يقـف عـلى مقربـة مـنّي، كأنّـه جنـديّ مـن جنـد اللـه، يترقّـب تلـك الهمسـة السّـاهية مـن شـفتيّ ليمـدّ كفّـه باتجاهـي، بأمـر مـن اللـه وحـده. لقيتـه عنـد محطـة المـترو، حيـث أتربّـع بـلا حـول ولا قـوّة معظـم الوقـت. لـم يكـن شـكلي مغناطيسـا جاذبـا للصّدقـات أو التعاطـف، لكـنّ الرّجـل انحـنى عـليّ فجـأة وقـال بعربيّـة واضحـة:

- يا أخي، ما الذي تفعله هنا؟

لعلّه لمحني بشكل متكرّر، في تلك البقعة، مطأطئ الرّأس مخذول الحواس، فدنا منّي بعد طول مراقبة. قال من دون اندفاع، بلهجة من سبق له دراسة الاقتراح بتروّ:

- تعال معي.

سرت وراءه بلا تفكير، فاقد الإرادة.. كأنّني غدوت أسير كلّ من يمدّ إليّ كفّ الإحسان. حين ابتعدت مسافة كافية لأستفيق من غيبوبة الأمل، تذكرتها. كارمن! لقد تركتها مرّة أخرى وحيدة في الشارع. توقّفت، واستدرت إلى الخلف. أخذت أتلفّت في اضطراب، لعلّي ألمحها، والرّجل يستحثّني في عجب.

- هل أضعتَ شيئا؟

- انتظر.

قلت، وأنا أعرج في الاتّجاه المعاكس. قطعت عشرة أمتار، ثمّ التفتُّ إلى الرّجل الذي وقف يضرب كفّا بكفّ متحيّرا. رأيته يواصل سيره، وقد زهد في أمري، فركضت في اتّجاهه.

- رويدك، لا تذهب!

كان يجب أن أتبعه. الفرص لا تأتي مرّتين. إن تجاهلتها مرّة فلن تمكث مكانها تنتظر منك الرّضا. لكن كارمن، كيف لي أن أرحل من دونها؟ علّلت نفسي بأنّني أعرف مكانها. يمكنني أن أرجع من أجلها. ستكون في مدخل النفق، مثل عادتها. سأجدها. بقناعة مهزوزة وضمير مكمّم، تبعت جابر، المحسن الجديد. سأستوثق من الأمر ثم أعود.

لم يكن جابر دكتورا مثل عمر، ولا موظفا مستقرّا، بل بناءً بأجر يوميّ، يكدح اثنتي عشرة ساعة في اليوم، حين يجد مُشغِّلا! جزائريّ مثلي، كهل قد اقترب من الخمسين، تقرّحت كفّاه من سنوات الكفاح المضنية. أفنى عمره في تشييد بيوت لن يسكنها ورفع أسوار سيُمنع من اجتيازها.

تبعتـه إلى القبـو المظلـم الـذي يتخـذه مـأوى مـع نفـر مـن العمّـال الأجانـب. تونسـيّون ومغاربـة وجزائريّـون أيضـا. غرفـة صغـيرة مسـاحتها تسـعة أمتـار مربّعـة، يتقاسـمها سـتة رجـال، أنـا سـابعهم! قـبر رطـب تكتسـحه الظلمـة، ربّمـا كانـت زنازيـن السّـجون الفرنسـيّة أوفـر منـه راحـة. بالـكاد يتّسـع فضـاؤه ليفـرد الرّجـل منـا طولـه ويتمـدّد عـلى بعـد شـبر مـن جـاره الأقـرب، حـتى يسـتوعب الجـزء الآخـر مـن الغرفـة الأمتعـة القليلـة الـتي تـتراصّ في غـير نظـام، وتختلـط مـع أدوات صنـع الشـاي وأطبـاق الأكل المتسـخة.

كانت ظروفا مختلفة كل الاختلاف عن الإقامة في شقة عمر.

وضّـح لي جابـر القانـون الجـاري العمـل بـه. لـن تكـون الإقامـة مـن بـاب الإحسـان. إيجـار القبـو يكلّـف خمسـمئة يـورو، يتقاسـمها الشـباب باليـورو والسـنتيم! نصيـبي في الإيجـار والمصاريـف اليوميـة سـيكون دينـا في رقبـتي أسـدّده حالمـا يتوافـر مـورد الـرّزق. فهمـت في مـا بعـد أن سـاكنا سـابقا قـد ارتحـل منـذ أيّـام، مـا تسـبّب في اختـلال ميزانيـة كلّ منهـم.. ودوري هـو أن أعيـد التّـوازن! لـم يكـن في الأمـر مجاملـة أو مداهنـة. هكـذا هـو الوضـع، فـلا داعـي لتجميلـه.

كانـت هنـاك مسـألة إصابـتي الـتي يجـدر بي النّظـر في أمرهـا قبـل التفكـير في إيجـاد مـورد رزق. عايـن جابـر قدمـي المتورّمـة ثـمّ زمّ شـفتيه مـن دون تعليـق، وفعـل مـن بعـده عـزّوز وبـركات وسـمير وعبـد الحفيـظ وقاسـم نفـس الـشيء. لـم يكـن التمريـض مـن مهـارات أحدهـم. قـال بـركات بعـد حـين:

- اقصـد مركـز الرّعايـة.. لديهـم طبيـب يقـدّم استشـارات مجّانيـة يـوم الأربعـاء!

ففعلت.

كان مركـز الرّعايـة عبـارة عـن شـقّة صغـيرة في عمـارة سـكنيّة قديمـة، يتقاطـر عليهـا المتـشرّدون يوميّـا للحصـول عـلى وجبـة سـاخنة، ملابـس شـتويّة دافئـة، وخدمـات أخـرى تخـصّ النظافـة الشـخصيّة والرّعايـة الصحيّـة. لـم يكـن هنـاك

مكان للمبيت. على السّاعة الثالثة ظهرا، ينفضّ الزوّار وتغلق الشقة أمام روّادها. كنت مرتبكا في زيارتي الأولى، وتساءلت، كيف لم أعرف بشأن هذا المركز منذ البداية؟ كان ليخفّف عنّي قسطا من عذابات الأيّام الماضية. فكّرت. يجدر بي إحضار كارمن إلى هنا. سيهتمّون بها، يسرّحون شعرها الذي استطالت خصلاته المشعثة، ويضعون لها أشرطة ملوّنة وأقراطا لامعة. ليتها تستردّ طفولتها الضائعة.

انتظرت في طابور طويل ليفحصني الطبيب. كانت عيادته المرتجلة طاولة صغيرة وكرسيّا خشبا في ركن مكتب المشرفة على المركز. ورغم الزّحام، فقد حافظت المشرفة على النظام ووفرت لكلّ منّا قدرا من الخصوصيّة إبّان الفحص. كانت سيّدة ربّما في السّتينات من عمرها. سيّدة مجتمع كما ينبغي أن تكون، لا تفارق ابتسامة ودودة تعابير وجهها. لعلّها أفنت عمرها في وظيفة حكوميّة مرموقة وتقاعدت منذ سنوات قليلة، ثمّ اختارت ألا تقتل حيويّتها بخلود إلى الرّاحة، بل استمرّت تخدم المجتمع بتفانٍ، حتّى لو اقتضى الأمر أن تخالط أراذل النّاس الذين يستنكف غيرها مجرّد النّظر إليهم.

حين جاء دوري، جلست على استحياء، أرقب بعين الفضول والامتنان وجه الطبيب الشاب الذي اختار أن يقضي صباح استراحته الأسبوعيّة بين أتعس خلق الله، من دون مقابل. شرخ في العظم. هذا ما كان قد لحق بكاحلي إثر القفزة المتهوّرة. لفّ الطّبيب قدمي وكاحلي بضمادة مشبعة بالكحول، كحلّ مبدئيّ. وفي زيارة ثانية، أحضر المعدّات اللازمة لدعم العظم. راقبته بعين مبهورة وهو يحيط كاحلي بجبيرة بيضاء ناصعة، ثمّ مكّنني من عصا بلاستيك أتوكّأ عليها. خرجت من عنده وإحساس غريب منعش يملؤني، مثل طفل صغير تدهشه القطعة الجديدة التي ألحقت بجسده فتنسيه ألم الإصابة وأذاها.

*****

بعد شهر واحد من الرّاحة القسريّة، بدأ مشوار البحث عن عمل. كان كاحلي قد تعافى في الأثناء، وتخلّصت من الجبيرة. وفي تلك الفترة، اعتمدت على مركز الرّعاية بشكلّ كلّيّ، حتى لا أكون عالة على رفاق السّكن. تبخّر الحياء والارتباك، وأصبحت من روّاد المركز المعروفين. كنت أدخل من دون استئذان، وألقي التحيّة على موظّفة الاستقبال. صرت أعرف مسبقا من ستكون وراء المكتب في كلّ يوم. بيريت أو كلودين أو كريستين. كلّهنّ من السيّدات المسنّات المتطوّعات. كنّ يسمحن لي من حين إلى آخر باستخدام الهاتف، للاطمئنان على أمّي، ومكتبة الروايات والأقراص المضغوطة تحت يدي في كلّ حين. أمضي ساعات في القراءة والمشاهدة، حتّى يحين موعد الغداء، فأنضمّ إلى مائدة «عائلة المركز»، ثمّ أنسحب قبيل إغلاق الأبواب لأقضي ساعات أخرى من الفراغ حتى إياب العملة من ورشاتهم.

ولم يمض يوم لم أفكّر فيه بكارمن. أتمنّى أن أصادفها على قارعة الطّريق فأبشّرها بما جدّ وآخذ بيدها إلى مركز الرّعاية. لكنّها كانت قد اختفت. لعلّها كانت تجدّ في البحث عنّي هي الأخرى. لعلّها ابتعدت عن موقعنا السّالف حتّى تاهت عنه؟ أو لعلّها عادت إلى عصابة القرصان بعد أن يئست من العثور عليّ؟ أو لعلّها حسبتني تخلّيت عنها ومضيت فمضت في حال سبيلها؟ آلمني التفكير في كلّ الاحتمالات الممكنة. لكنّني لم أيأس. كانت قد غدت بالنّسبة إليّ أكثر من طفلة يتيمة صادف تشرّدي تشرّدها، بل رفيقة كفاح من نوع مختلف. صديقة يُعتمد عليها. وكان جزء منّي يؤمن بأنّ قصّتي معها لن تنتهي عند ذلك الحدّ. كان يجب أن أجدها.. يوما ما.

مثل كلّ جيراني في السّكن، بدا من البديهيّ أن أبحث عن وظيفة في ورشة بناء. فتلك المهنة الوحيدة التي يمكنهم تقديم النصح والمشورة بشأنها. لأسابيع ثلاث، استمريت في الخروج كلّ صباح مع زمرة العمّال لنحتلّ السّاحة الخلفيّة لأكبر محلّ يبيع مواد البناء في المنطقة. مع

بعض جيراني أولا، ثمّ منفردا. هناك، ومنذ ساعات الصّباح الأولى، يحتشد رجال بيض وملوّنو البشرة، رؤوسهم محشورة في قلنسوات صوف وشالات خشنة تحجب أنصاف وجوههم، في حين تكشف القمصان مثنية الأكمام عن أذرع نافرة العروق مفتولة العضلات، غطّت مساحات بعضها وشوم خضراء مبهمة. كأنّ الرّجل منهم يقول في صمت: لا تنظر إلى شكلي ولوني، بل عاين قوّة ساعدي وما أنا قادر على إنجازه من عمل!

يقول لي جابر في مرارة:

- ولّى زمن اليد العاملة المتطلّبة. لم يعد ربّ العمل يجوب الشّوارع يتصيّد العمّال.. الآن، يتقرّب العامل من صاحب العمل، يتمسّح به ويكاد يستجديه، من أجل عمل قد يدوم أيّاما قليلة.. ثمّ يرجع ليقف في السّاحة ويستجدي عملا آخر.

جيل أبي وعمّي عرف معاملة مختلفة، ولعل جابر وصل متأخّرا عن العصر الذهبيّ لليد العاملة. في وقت ما من منتصف القرن الماضي، كانت الشّركات الكبرى ترسل مندوبيها إلى المستعمرات لاستيراد اليد العاملة البخسة. يوقع الواحد منهم عقد الخدمة في وطنه – المحتلّ – ويسافر على جناح الرّاحة حيث عمل جديد ينتظره. لكنّ اليد العاملة اليوم تسعى على رجليها، تعبر البحار، وتراوغ السلطات، وتقف في القرّ والحرّ تتوسّل عملا.

كل بضعة أيّام، يظهر ديميتري، كهل روسيّ مكتنز، في بداية الأربعينيات من عمره، كثّ اللحية والشاربين أشقرهما، فكّاه عريضان صارمان، تفوق وشومه المرعبة - كخلقته- في امتدادها ودقتها كلّ الوشوم التي سبق أن رأيتها في حياتي! عرفت من الرّفاق أنّه جنديّ سابق في الجيش الرّوسي، نجا بأعجوبة بعد أن أصيب بطلقة في صدره، في حرب الشيشان الأخيرة. حين وصل إلى فرنسا منذ خمس سنوات، بدأ مشواره أسفل السّلم كعامل بسيط. استأجر عربة نوم متنقلة من بعض الغجر لقاء ثلاثمئة يورو في

الشهر واتخذها مسكنا، وتمرّس على المهنة تحت رعاية معلّم إيطالي.

يوقف شاحنته عند المدخل ويتهادى في مشيته متفحّصا الوجوه القديمة والجديدة، فأتمثّله في خيالي سفّاحا يبطش بكارمن الصّغيرة. من دون وعي منّي، تنفر من عينيّ نزعة عدائيّة لا أملك احتجازها داخلي، فأشيح برأسي عنه كأنّي لا أهتمّ بحضوره من عدمه!

لوقت طويل، ظلّ يمرّ بي غير عابئ، لا يلقي عليّ نظرة واحدة، كأنّنا نتناصب عداءً خفيّا لا يعرف له أحدنا مسوّغا يذكر.. غير كوني عربيّا بلا فائدة، وكونه روسيّا وحشيّا مسؤولا عن مجازر لم أشهدها! رغم أنّني لم أتعوّد العمل الشّاق أو أتمرّس على البناء والتحميل، فقد كنت قويّ القبضة متين البنية. مثل سائر شباب جيلي، كنت قد دأبت لسنوات خلت على تمارين الرّفع والضغط التي كان من شأنها أن تصقل عضلات عضدي وتبرز حسن تكوينها. كنّا نربّي العضلات كما تربى الحيوانات الأليفة، ونتباهى فيما بيننا بحجمها وارتفاعها عند الشدّ. كنت أوفر صحة وأكثر متانة من معظم الواقفين في السّاحة. لكنّ هيئتي لم تكن مقنعة. تنسدل على ذراعيّ أكمام القميص الدّافئ متجنّبا لسعة البرد الصبّاحي، وتفضح نظرتي المرتبكة ثقة مضعضعة الأركان. لم أكن الرّجل الصّلب الذي قد يتحمّل أيّ شيء من أجل لقمة العيش.

بعد أيّام، كان جابر ورفاقه قد انخرطوا في ورشات البناء، وصرت أسعى وحيدا إلى ساحة التجنيد. حصلت المعجزة بعد أسبوعين، حين توقّف ديمتري أمامي ونظراته تستوعبني وتعتصرني. أشار إليّ بكفّه فاقتربت. انتحى بي جانبا وسألني بلهجة الخبير:

- للحصول على طبقة تغليف بسمك سنتيمتر واحد، ماذا تستعمل؟

- الخرسانة.. لا، الإسمنت!

- ولخلط كيس إسمنت يزن خمسة وثلاثين كيلوغراما، كم دلو رمل تحتاج؟

- دلوان.. لا، ثلاثة؟

جاءت إجاباتي متلعثمة مرتجّة. حدجني بنظرة سحقتني مكاني:

- ثمانية!

ثمّ خطا مبتعدا معلنا فشلي في اختبار التشغيل الأوّل. اقترب من كهل أوكرانيّ يظهر في السّاحة للمرّة الأولى، وأشار إليه أن يتبعه من دون أن يعرّضه لاختباري السّريع. خلال لحظات، كانت الشاحنة تبتعد مخلّفة إيّاي على القارعة، بينما ارتفع صوت كلوديو الرومانيّ يضحك منّي ملء شدقيه: «أنهيت البناء إذن؟».

كان ديمتري يعتبر أحد المشغّلين المعتبرين. لم تكن لديه ورشته الخّاصّة، لكنّه مزوّد محترف، يتقصّى احتياجات المقاولين ويتعهّد بتوفيرها. غالبا ما يتعامل مع ورشات مقاولات ضخمة تمتدّ لأسابيع أو شهور، ما يضمن دخلا مستقرّا لفترة طويلة، وهو ما يأمله كلّ عامل يقف في السّاحة. إذا حظيت برضا ديمتري، فقد وفّرت أيّاما وأسابيع من البطالة. لكنّه كروسيّ أصيل، يفضّل الأوكرانيين والرّومانيين والمولدوفيين.. فإذا ما انعدم هؤلاء، كان البرتغاليون من يلونهم في الحظوة، ثمّ بلدان شمال إفريقيا، في حين يأتي مواطنو إفريقيا السّوداء في المراتب الأخيرة. وغالبا، كان لكلّ جنسيّة اختصاص تعرف به. فالأوروبيون يعملون في مواقع الإشراف، والمغاربة في البناء، بينما تعهد الأعمال الشاقة إلى الأفارقة.

لم يكن ديمتري المشغّل الوحيد. كان هناك أرباب العمل من الخواصّ، وهؤلاء لم تكن لديهم خبرة الرّوسي ولا اختباراته الخاطفة لتمييز الغرّ من المحنّك، ومتعهدو ورشات ذوو احتياجات مختلفة ومتنوّعة، لا تهمّهم كثيرا التّجربة والمهارات الحرفيّة.. لولاهم كنت بقيت في السّاحة بقيّة عمري بلا أمل في تحصيل عمل ما! في الأثناء، كانت ديوني لدى جابر ورفاقه تتضخّم، وما من سبيل لتسديدها من دون عمل.

خلال الشهر الذي شهد بحثي الحثيث عن مورد رزق، كنت ألمح رجال

الشرطة يحومون حول المكان باستمرار. كانت البزّة الرّسميّة الزرقاء لا تزال تثير قشعريرة تنتصب من جرّائها كلّ شعرة تغطي جلدي. لكنّهم يغمضون أعينهم عنّا حين تكون عروض الشّغل متوافرة، فلا يعيقون أصحاب الورش الذين يرغبون في استخدامنا. حين تترك الشاحنات المواقف واحدة إثر الأخرى مع اقتراب منتصف النّهار، يصبح من الضروري أن ينفضّ جمعنا حتّى لا نجبرهم على التّدخل. لم يقتربوا منّا إلا مرّتين. في المرّة الأولى، ظهرت سيّارة الشرطة عند مدخل المحلّ، ونزل منها ثلاثة رجال شرطة. على وقع تقدّمهم في السّاحة تراجعت مجموعتنا بخطى سريعة نحو البوابة الخلفيّة وانفرط عقدنا عبر المنعطفات القريبة. لم يطاردنا أحد. طاردتنا مخاوفنا وهواجسنا. بعد دقائق، كنّا نستعيد مراكزنا.. بحذر في البداية، ثمّ بثقة متنامية. تنتفخ الصّدور من جديد، وتتندّر الألسن بلحظة الفزع السّابقة في خلوّ بال.

في المرّة الثانية، كان كلوديو، الشّاب الرّوماني أكثرنا شجاعة. أشار إلينا بغمزة من عينه أن اطمئنوا، واقترب من رجل الأمن الذي توغّل عبر السّاحة حتّى كاد يصل إلينا. تابعنا بنظرات قلقة صديقنا كلوديو وهو يحاور الرّجل بلكنته الشّرقية:

- هل يمكننا البقاء هنا؟ نحن لا نفعل شيئا سيّئا.. نبحث عمّن يستخدمنا لا غير..

ولم ينس في عرض الحديث أن يحدّد كونه «أوروبي» الجنسيّة. لكنّ الرّجل كان عدائيّا بشكل غير متوقّع، كأنّما ينفّس عن ضيق ألمّ به بعد شجار مع زوجته أو تأنيب من رئيسه! فكّ قنبلة مسيلة للدموع من حزامه وأشهرها في اتجاهنا:

- لا يهمني ما تفعلونه.. انفضّوا وحسب!

تفرّقنا من دون تأخير، بينما وقع كلوديو المسكين في المصيدة. كبّله الشرطيّ بعد أن دفعه ناحية الجدار وأخضعه لتفتيش دقيق، ثمّ

اصطحبه إلى مركز الشرطة حيث ترك في زنزانة الحجز مدّة ساعة واحدة. حين ظهر في الغد في السّاحة، صافحه الرّفاق بحرارة تحيّة لشجاعته، بينما تعلّقت بشفتيه ابتسامة بلهاء.

حصلت معجزة أخرى، حقيقية هذه المرّة، حين وقع عليّ اختيار متعهّد إسباني، كان يحتاج إلى عدد من العمّال للتحميل بشكل خاص، وفي هذه المهمّة لا اعتبار للخبرة والمهارة. وقف في السّاحة وألقى نظرة صارمة، ثمّ أشار بسبّابته آمرا: أنت وأنت وأنت.. تخيّر الشّباب الذين تبدو عليهم العافية، وكنت من بينهم. ارتجف خافقي في صدري، ولم أصدّق. مشيت مبهور الأنفاس وتسلّقت حاجز الشاحنة الخلفيّ لأحشر نفسي بين عمّال آخرين سبقوني إلى الصّندوق. لبثت أهتزّ في مكاني من الإثارة والحماسة وابتسامتي الواسعة البليدة تفضح خبلي في تلك اللحظة.

بعد ثوان كنت قد أفقت من نشوتي وبدأت أهتم بالتفاصيل، فهمست مخاطبا جاري الأقرب:

- كم يدفعون لكم من الأجرة؟

- عشرون يورو في اليوم.. إضافة إلى وجبتين. العمل كامل أيام الأسبوع من السابعة صباحا حتى السابعة مساء.

ابتسمت في سرور، كأنّ صاحبي يزفّ لي أخبارا تدعو إلى البهجة. طعام نظيف يسدّ رمقي، وعمل كريم يمتصّ طاقتي وأوراق نقدية تملأ جيوبي.. وهل كنت أطمح إلى أكثر من هذا؟ لم أهتم إلى شروط العمل المجحفة ولا إلى الأجرة الزهيدة التي لا تتجاوز نصف الأجر الذي يدفعه ديميتري لعمّاله. تلك الشروط تمكن مستخدمي، المتعهد الإيطالي والمقاول الذي وكّله، وصاحب المشروع، من تقليص المصاريف وتوفير كلفة اليد العاملة بما يفوق النصف. فليكن. لكنها تمكنني من العمل أخيرا.. ومن عيش يقترب من الكرامة. وهذا يكفيني.

*****

لـم أكـن أتقـن شـيئا مـن أعمـال البنـاء، لذلـك اقتـصرت مهمـتي عـلى التحميـل والنقـل مـن مـكان إلى آخـر. أسـتاذية العربيّـة تجلّـت مـن دون فائـدة تذكـر في مغامـرتي الفرنسـيّة. لـم يكـن لـديّ شـكّ في ذلـك منـذ البدايـة، فآخـر مـا قـد يحتـاج إليـه الفرنسـيّون هـو تعلـم العربيّـة! لكـنّ المؤهـلات المطلوبـة في سـوق الشـغل كانـت صادمـة ومربكـة.. ولعلـه كان مـن حسـن حظـي أن مـررت مـن «مهـارات النشـل» إلى «مهـارات البنـاء»، فهـذه الأخـيرة لـم يكـن هنـاك مـن حاجـز نفـسيّ يجعلـني أسـتنكف تعلمهـا. بينمـا أنحـني لألتقـط كيـس الإسـمنت الثقيـل وأرميـه فـوق كتفـي ثـمّ أتقـدّم بجهـد إلى داخـل الورشـة، أراقـب مـن طـرف خفـيّ العمـال المكلفـين بغربلـة الرّمـل وخلـط الإسـمنت وترصيـف الآجـر ليرتفـع جـدارا، أحـاول استشـفاف أسرار المهنـة.. فـإذا مـا وجدتـني أقـف في سـاحة التجنيـد مـن جديـد، انتقيـت منهـا مـا يسـهل عـليّ ممارسـته ويخفـف عـن ظهـري حملـه القاصـم!

غريـب أمـر تلـك الحـرف الـتي كنـت أترفـع عـلى مزاولتهـا في بلـدي وبـين أهـلي بأنفـة، لأنّهـا لا تليـق بشـابّ جامعـيّ مثـلي، لكنّـني أتلهّـف عليهـا وأتـوق إلى إتقانهـا في بـلاد الاغـتراب كأنّهـا سـترفعني إلى قـدر أعـلى! فهـل بلغـت مـن الانحطـاط الـدّرك الأسـفل حـتى غـدت مهنـة «عامـل البنـاء» منتهـى أمـلي؟ بـين خبطـة وخبطـة مـن خبطـات الزمـن الـذي يهـوى صفعـي في الفـترة الأخـيرة، أقـف متدبّـرا أمـري.. هـل كان اليـأس أم الطمـع أم الملـل مـا دفعـني إلى التخـلّي عـن حيـاة الدّعـة والاسـتقرار بـين أهـلي، لأخـوض المهالـك وروحـي عـلى كفّـي في بلـد لا تعرفـني ولا أعرفهـا؟ أم لعلّـه الجهـل، أصـل كلّ داء، مـا حـدا بي إلى أن أسـتبدل بمـا هـو دنيء مـا هـو أدنى؟

قبـل طلـوع الشـمس أبـدأ بإفـراغ أكيـاس الإسـمنت مـن الشـاحنات، ثـمّ أنقـل الأعمـدة الحديـد وقطـع الآجـر الأحمـر أو الحجـارة البيضـاء إلى أسـفل البنايـة، أرصفهـا عـلى الحامـلات الخشـب ثـم أشـدّ الحبـال لأرفعهـا إلى الطوابـق العليـا، وفي أوقـات أخـرى أدفـع العربـات ذات العجلـة الواحـدة

المحمّلة بالرّمل أو الحصى الصغير.. أستمرّ على تلك الوتيرة كامل النّهار من دون انقطاع. فترة استراحتي الوحيدة كانت حين يدخل علينا مشرف الورشة صاحب الكرش، ينادي الجميع بـ«مامادو» على اختلاف أصولهم، ويوزّع شطائر هزيلة نلتهمها في ثوان قليلة ثم يصرخ فينا ليعلن انتهاء القيلولة.

في المساء أعود أدراجي إلى القبو الكئيب، فأجد بعض الرّفاق قد سبقوني، ويتوافد الباقون واحدا إثر الآخر.. فنتهالك على الفرش القديمة المتّسخة في استسلام. يكون تعب النهار قد أخذ كل طاقتنا فما عادت بنا قدرة على احتجاج أو تذمّر. في تلك الظروف، لم تكن الصداقات تنشأ بسهولة. رغم المشاركة في المحنة، وهو ما يصنع عادة نوعا من التآلف، لم ألمس اللحمة التي توقعتها بين المهاجرين. القانون السائد من دون منازع هو «كلّ لنفسه»، و«هاك نصيبك من العذاب»! الكلّ يتوق إلى رؤيتك تمرّ بعذاباته ومآزقه، كأنّ بينك وبينه ثأرا قديما. أو كأنّ القادم الجديد سيفتك جزءا من حظوظ الآخرين في تحقيق «الحلم الفرنسي». من يقدر على التوسّع في مجال نوم جاره لن يتردّد، ومن تسنح له الفرصة لافتكاك لقمة إضافية فسيفعل أيضا. كان عالما بغيضا من التّنافس القذر، حيث تحاصرك النظرات المترصّدة وينضح العداء من أدنى الحركات. لم تكن هناك قوانين للّعبة، ولم يكن هناك دستور يحمي المستضعفين. كنت أحتاج إلى القوّة والسطوة لأجد لي مكانا في ذلك الوسط، بين رجال جعلتهم الفاقة أكثر توحّشا وأقلّ رحمة. ولم يفتني أنّ حذائي الجديد وسترتي الجلد الدافئة يسيلان لعاب أكثر من واحد.

لكنّ جابر وضعني تحت جناحه منذ اليوم الأول وأعلن أنّني تحت حمايته، ويعلم الله كم كنت أحتاج تلك الحماية، مع أنها لن تكون حماية مجانيّة! سأدفع له جزءا من أجرتي اليوميّة مقابل ضمانه لمكان نظيف ودافئ في القبو ولن أتعرّض للسّرقة أو المضايقة، وهما أمران يتكرّران بشكل أكبر مع الوافدين الجدد، قبل أن يستقرّ بهم المقام.

هكـذا كان الاتّفـاق.

جابـر مثـل أغلـب العمّـال كان مهاجـرا بصفـة غـير شرعيّـة. مـضى عـلى وصولـه إلى فرنسـا عـشر سـنوات كاملـة. لـم يرجـع خلالهـا إلى الجزائـر إلا مرّتـين اثنتـين منـذ أن حصـل عـلى الإقامـة القانونيـة. كان متزوّجـا ولـه طفـلان يبلـغ أصغرهمـا الثانيـة عـشرة مـن عمـره. وكان يحتـاج إلى العمـل مـن دون هـوادة ليواصـل إعالـة عائلتـه الصغـيرة، أو هكـذا يوهـم نفسـه. لـم يكـن يبقـي شيئا يذكـر لحاجتـه الشـخصية ويرسـل كل مـا يجنيـه إلى أهلـه. يعلـم أن زوجتـه تخونـه. يعلـم ذلـك مـن دون يقـين، لكنـه يشـعر بـه كمـا يشـمّ القـطّ رائحـة اللّحـم النّـيّئ. ويعلـم أن أولاده بالـكاد يتعرّفـون عليـه. لكنـه يتعلّـق بذلـك العمـل البائـس كأن لا حيـاة لـه مـن دونـه. حـين أنهـى اعترافاتـه الكئيبـة، أوصـاني بصـوت يقطـر مـرارة:

- لا تترك خلفك يوما امرأة ولا ولدا.. خذهم معك، أو مت إلى جوارهم!

فتذكرت كارمن، ابنتي التي تبنيّتها شياعا، وتخلّيت عنها!

عرفـت في مـا بعـد أن معظـم الرجـال مـن حـولي هـم أربـاب عائـلات. لـم يكـن وضـع جابـر شـاذّا، بـل يـكاد يكـون القاعـدة. ومع ذلـك فمعظمهـم يرفض أن ترافقـه عائلتـه إلى فرنسـا حـتّى بعـد حصولـه عـلى الأوراق القانونيـة، لأنـه لا يريـد أن يغـيّر نمـط حياتـه باسـتئجار شـقة مكلفـة تؤويـه وعائلتـه ويفضّـل توفـير المبلـغ لمسـتقبل لا يـدري إن كان سـيتمتّع بـه يومـا، أو لخوفـه عـلى زوجتـه وأولاده مـن فتنـة بـلاد الغـرب وخشـيته مـن تأثرهـم بهـا وانبهارهـم بترفهـا الـذي لا تطالـه يـداه. القلّـة القليلـة ممّـن اسـتقرّوا مـع عائلاتهـم في مسـاكن نظيفـة ومسـتقلّة هـم مـن ضحـك القـدر في وجوههـم وحصلـوا عـلى عمـل محـترم، بعـد أن خضعـوا لتدريـب في السـبّاكة أو الحـدادة..

- وما يمنعك أن تحذو حذوهم؟

أسأله في حيرة، فيردّ في تشتّت.

- لـم تعـد سنّي تتحمّـل تعليمـا مـن جديـد.. هـذا أنـا، عشـت بنّـاءً وسأموت

بنّاءً.

في كل مـرّة رجـع فيهـا جابـر إلى أهلـه، كان يضـع ثيابـا جديـدة ونظيفـة، يشـتري بدلتـين أو ثلاثـا ليظهـر بهـا أمـام أقاربـه وجيرانـه، يمـلأ حقائبـه ثيابـا وألعابـا وهدايـا لزوجتـه وولديـه. يمـرّ شـهر الإجـازة كل مـرّة بلمـح البـصر. يتربّع في مقهـى الحـيّ نافخـا ريشـه ويقـصّ حكايـا تسـيل لعـاب الشـباب الغافـل عـن حياتـه في أوروبـا. حكايـا بعضهـا مختلـق، وبعضهـا الآخـر سـمع عنـه مـن زميـل مـا أو شـاهده بـأمّ عينيـه في أوقـات راحتـه القليلـة. وكانـت السلسـلة الذهبيـة الـتي تتـدلى عـلى صـدره أبلـغ تأثـيرا مـن أيّ قصّـة.

وفي كلّ مـرّة رجـع فيهـا إلى أهلـه، كانـت زوجتـه تتعلّـق بأسـتاره وتترجّـاه باكيـة ألا يسـافر مـن جديـد. لكنـه كان يفعـل. ورغـم شـكه المزمـن في سـلوكها فإنـه يشـهد لهـا بالأمانـة. لـم تمـرّغ سـمعته في الوحـل، بـل حرصـت عـلى أن يكـون ذكـره ناصعـا بـين الرجـال. كان يلحـظ مـسرورا أنّهـا لـم تبـذر الأمـوال الـتي دأب عـلى إرسـالها إليهـا كلّ شـهر. رمّمـت المـنزل القديـم وشـيّدت غرفـا إضافيـة لـلأولاد وجهّزتهـا بأثـاث جديـد. والحقيقـة أن بلدتـه الصغـيرة كانـت مليئـة بنسـاء مجاهـدات مثلهـا. حـين يسـافر الرّجـل إلى بـلاد بعيـدة مـن أجـل الـرّزق، تصبـح المـرأة رجـل العائلـة وحاميهـا، تصبـح الأمّ الحانيـة والأب الحـازم لأبنائهـا، تصبـح بطـلا منسـيّا مدحـورا وغـير ذي شـأن.

أعـرف جيّـدا ذلـك النـوع مـن النسـاء. بعـد مقتـل أبي رحمـه اللـه تحمّلـت جدّتـك مسـؤوليتي وشـقيقاتي بصـبر وجلـد كبيريـن. لـم يكـن معـاش والـدي كافيـا، فاضطـرت إلى أعمـال الخياطـة والتّطريـز لترفـع المدخـول الشّـهريّ. وفي المسـاء حـين يهبـط اللّيـل، كانـت ترصـف أمـام المدخـل أحذيـة جـدّك القديمـة الـتي دأبـت عـلى تلميعهـا حـتى بعـد وفاتـه، لتوهـم كل مـن تحدّثـه نفسـه بأذيّـة أهـل البيـت بـأن للـدّار رجـلا يحميهـا. حـين حاولـت تـرك مقاعـد الدّراسـة والعمـل في دكّان الحـلاق، وقفـت لي بالمرصـاد واعترضـت بشـدّة. أصرّت عـلى أن أنهـي تعليمـي وأدخـل الجامعـة. لـم تـرض أن يشـاركها حملهـا أحـد، ويعلـم اللـه كـم مـرّت بهـا مـن ليـال مسـهدة وهـي تفكّـر كيـف توفّـر

إيجـار سـكني الجامعـيّ في العاصمـة ومـصروفي اليومـيّ، أو كيـف تنهـي جهـاز شـقيقاتي وتزوّجهـن. مـلأت عقـلي بالأحـلام والطّموحـات حـتّى مـا عـاد دكّان الحـلاّق يرضيـني وأنـا صاحـب الشـهادة الجامعيّة. لكـن النّتيجـة خيّبـت آمالهـا جميعـا.

سألت جابر على استحياء:

- أليس لديك حلم، تنهي غربتك حين تحققه؟

ضحك ملء شدقيه، وامتلأت عيناه بذكريات بعيدة:

- كان لي حلـم.. محـلّ بيـع أثـاث قديـم أفتتحـه في قريـتي، وأقـف خلـف مكتـب الاسـتقبال أعقـد الصّفقـات. أجّلتـه باسـتمرار حـتّى مـا عـاد لـه معـنى، إلا في قامـوس الأمـاني! الآن لـم أعـد أريـد غـير تقاعـد مبكّـر، وشـيخوخة وديعـة مسـالمة..

حـين اسـتقرّت الأوراق النقديّـة الأولى في جيـبي بعـد انتهـاء أسـبوع العمـل الأول، سرت إلى البيـت كأنّي أطـير، لا أكاد أشـعر بـالأرض تحـت قدمـيّ، أحلّـق وحـالي حـال مـن ملـك الدّنيـا وكنوزهـا. كان يومـا تاريخيـا، في حيـاة نـادر الشـاوي. أن أقبـض للمـرّة الأولى مـالا كسـبته بعـرق جبيـني. طـوال الطّريـق، كنـت أتحسّـس الورقـات ذات الملمـس المميّز، كأنّي أخـشى تبخّرهـا، كأنّهـا قـد تسـتحيل رمـادا إذا غفلـت عنهـا لحظـة، أو تتحـوّل ورق كتابـة أو ورق تغليـف! لعـلّي بـدوت أحمـق يسـير عـلى الطريـق، ولعـلّ جابـر وجيرانـه رأفـوا بحـالي وأنـا أعـدّ أمامهـم الوريقـات وأعيـد في حـرص محمـوم.. لعـلّي كنـت مثـيرا للشـفقة، لكـنّي كنـت رجـلا شريفـا يكسـب قوتـه بكـدّ ذراعـه.. وفخـورا بذلـك.

*****

في فرنسا، وخلال أسابيع قليلة من وصولي، عشت أولى تجارب الدّيمقراطية: خرجت في مظاهرة! لم أكن قد شهدت مظاهرة واحدة في بلدي.. وحتى تلك التي تطالعنا مرّة في السّنة، فهي أشبه بمسرحيّة هزليّة من إخراج الدّاخليّة، ليس الغرض منها الاحتجاج أبدا، بل مباركة شعبية للسّياسة الحكيمة لرئاسة الجمهورية! لكنّ الأمر مختلف في بلد الحقوق والحريّات. فالمظاهرات رياضة وطنيّة يمارسها الفرنسيّون -وضيوف البلاد أيضا تأسّيا بثقافة مضيّفيهم- بضع مرّات في الشهر، وتعدّ مقياسا لوعي الشّعب بواجب المواطنة.. إن لم تحتجّ فأنت حتما لا تتابع الشّأن العام ولا تهتمّ للصحّة السّياسية لبلادك!

لكن دعنا من الفرنسيّين، فتلك المظاهرة لم تكن تهمّهم. خرجت في مظاهرة للمهاجرين غير الشرعيين! هل سمعت بوقاحة كهذه؟ في فرنسا، هناك جمعيّات تُعنى بالدّفاع عن حقوق المقيمين من دون أوراق رسميّة، تضغط على الدّولة لتسوية وضعيّاتهم القانونية، وإن لم ترض الجهات المعنيّة، تخرج المظاهرات!

إن شئت الصّراحة، القانون الفرنسيّ ملتبس جدّا، في ما يخصّنا نحن المتسلّلين عبر الحدود. أنت لا تملك حقوق المواطن والمقيم، لكنك تخضع لواجباتهم. أنت تدفع مساهمات لصندوق الضمان الاجتماعي، لكنك لا تتمتع بحق العلاج في المستشفيات العمومية، أو باسترجاع المصاريف! أنت تدفع مساهمة لصندوق التقاعد، مع أنّه لا يحقّ لك التمتع بمنحة التقاعد! بل أدهى، أنت تدفع ضريبة على المداخيل، لكن لا يحقّ لك العمل، وإن قُبض عليك متلبسا بجريمة العمل، فسيتمّ الزجّ بك خلف القضبان! والمفارقة، هي أنّه سيسمح لك بالعمل داخل السّجن، باعتبار أنّ قوانين الإقامة لا تنطبق على الزنازين.. فتجد نفسك تصنع بطاقات جولان السّيّارات، أو تطلي جدران السّجن، لقاء بضع يوروات في اليوم!

جابر أقام في السّجن مرّتين. في كلّ مرّة، كان يقضي أسبوعا أو أقلّ، ثمّ

يُفرج عنه من دون أيّ ضمانات أو تعهدات. لم يكن هناك الكثير ليفعله. يستمرّ في لعبة الاختباء مع رجال الشّرطة، فتهجر ساحة محلّ أدوات البناء لبضع دقائق حين تتوقف سيّارة الأمن عند المدخل، ثمّ تعمر بسكّانها من جديد حين يختفي طيف الشرطة عند المنعطف. يستظهر ببطاقة إقامة زميل حين تشنّ حملة تفتيش مفاجئة في الورشة، ويسير ملتصقا بالجدران في الشوارع متجنّبا المراقبة العشوائيّة للأجانب. حين استجابت السلطات أخيرا لطلبه المتعلق بتسوية وضعيته القانونية، كان يوم عيد حقيقي، احتفل به سكان القبو جميعا، كأنهم معنيّون شخصيا، فقد غذى في نفوسهم أملا كانوا على وشك نسيانه.

تلك البطاقة الزهرية المغلفة بشريط بلاستيك شفاف، هي منتهى آمال كلّ من سلك مسلك الاغتراب الطائش. حين تستقرّ البطاقة في حافظة أوراقك، تصبح الأماكن العامّة والشّوارع المزدحمة والأسواق مناطق آمنة، يمكنك التّجوال عبرها بحريّة. تصبح إنسانا. فمن لا يملك أوراقا قانونية، نصف إنسان.. أما النّصف الآخر فلا أدري ما طبيعته! حتّى الحيوان في فرنسا يحظى بحقوق تضاهي حقوق البشر.. أما أنت.. أنا.. أيّها المشرّد المنتهك لقانون البلاد، لست إلا رقما في تعداد المتجاوزين!

أمّا المظاهرة يا ولدي، فتجربة فريدة جديرة بالعيش! صفوف متلاصقة من الرّجال الشعث الغبر، تتعانق أكفهم بقوّة، وتتقدّم خطواتهم على نسق محموم. وأنا وسطهم مبهور الأنفاس، غائم النظرات، تتصاعد الحماسة في داخلي، وأتخيلني أصرخ ببعض الشعارات المؤثرة.. «تحيا فلسطين» أو «يسقط المحتلّ»! لكنّ المسيرة تتقدّم في صمت، ووقع الأقدام وحده يدير الأعناق باتجاهنا. كنا بضع مئات.. ربما ألفا. معظمنا من الأفارقة والمغاربة، لوّحت وجوهنا سمرة داكنة من جرّاء العمل في الأماكن المكشوفة من شروق الشمس إلى غروبها. نحتفظ بأصواتنا الغليظة سجينة حناجرنا، حتى لا نتّهم بإثارة الشغب. كانت تلك تعليمات الجمعيّة الصّارمة. سرعان ما تحفّ بنا سيّارات الشّرطة ورجال الأمن.. يسيرون

بمحاذاتنـا عـلى أهبـة الاسـتعداد، متسـلّحين بالهـراوات، وفي الموقـع الـذي يتخيّرونـه مناسـبا لفـضّ جمعنـا، يسـدّون الطريـق ويجهّـزون قنابـل الغـاز.. وحـين يقـرّرون أنّـا احتججنـا بالقـدر الـكافي، يطلقونهـا فتتفـرّق سـبلنا.

بكيت يومها من دون مواربة، انتابني إحساس بأني غدوت شبيها بالبشر!

*****

الثلاثاء، ١٨ ديسمبر ٢٠٣٥، الواحدة صباحا،

بينما يندمج نادر الشّاوي في مجتمعه الجديد ويتلمّس طريقه نحو حياة كريمة، يغرق خليل دانيال الشّاوي في إحساس مفزع بأنّ أيّامه السّهلة المطمئنّة قد ولّت إلى الأبد.

حين أنهت أمّه ترجمة الرّسالة التي بين يديها، قبّل جبينها ونفض سترته المجعّدة، ومضى من دون نقاش. كان مجهدا. زفر مهموما حين اختلى بنفسه في سيّارته. في البيت، ستكون سيلين متسلّحة بنظرات الخصام. لم تكن به رغبة في نقاشها أو الاستماع إلى عتابها، بعد أن أهدر عطلة يوم الأحد وغاب عن السّهرات واحدة إثر الأخرى. ليست سيلين وحدها من يخاصمه. إنّه يخاصم نفسه من أجل ذاكرة يأبى أن يتقبّلها جزءا منه. لم تحاول أن تتصل به اليوم. خفّف عنه غياب إلحاحها بعض الضغط، لكنّه يشعر بالقلق الآن وهو يقود السيّارة عبر الشوارع المقفرة. إعراضها يعني أكثر من مجرّد خصام.

هل يمكنها أن تتفهّم ما يمرّ به؟

مسّد بأصابع متوتّرة تعرّجات تجاعيد مبكّرة تعلو حاجبيه، ومرقت في ذهنه فكرة عبقريّة وليدة اللحظة. هل يمكن لجذوره العائليّة المكتشفة أن تكون ذات فائدة انتخابيّة؟ يحاول أن يرى الفرصة في تلافيف كلّ حدث. وتعود تفاصيل خطاب الحصّة التلفزيّة لتشغل حيّزا من تفكيره.

يراجع كلّ الإجابات الملتوية التي درسها وصاغ عباراتها ردّا على السّؤال المتوقّع: هل تمثّل بترشّحك كلّ الفرنسيّين أم العربَ فقط؟ فحوى الرّسائل التي وصلته يدفعه بحماس إلى مسح كلّ الرّدود التي سبق له تخيّلها والتدرّب عليها، والعمل على إستراتيجيّة جديدة. يتخيّل نفسه وهو يدسّ كفّه في جيبه ويخرج الرّصاصة! ثمّ يشرع في خطاب مؤثر

عن الوحدة الوطنية رغم اختلاف الأصول والتوجّهات، وعن المآسي التي تصيب أبناء الوطن الواحد حين ينسون قاسمهم المشترك ويركّزون على الاختلافات.. كم سيكون خطابا مؤثرا! ستدمع عينا مقدّمة البرنامج، وسيبكي الحاضرون، وسيذرف هو نفسه دمعات سخيّة في ذكرى أبيه، ضحيّة الحرب الأهليّة.

مرّة أخرى، يتسلّل إلى منزله على أطراف الأصابع. كأنّما يخشى إيقاظ الوحش النائم. ألقى نظرة على غرفة نومه، ثمّ انصرف إلى غرفة ابنته. مرّة أخرى، كانت مريم قد أوت إلى سريرها حين عودته. يشتاق إليها بحرارة. من عادته أن يعوّضها في عطلة الأحد عن احتجابه عنها أيّام الأسبوع، بسبب ساعات العمل الممتدّة إلى ساعة متأخرة في المكتب. لكنّ طبقة إضافيّة من المشاغل ألغت كلّ التخطيطات المزمعة. نزع سترته وفكّ ربطة عنقه، ثمّ استلقى إلى جوارها. تململت الصّغيرة وفتحت عينيها. دهشة مبتهجة ظهرت في نظرتها حين اكتشفت زائرها الليلي. أحاطت عنقه بذراعيها ثمّ غفت من جديد. استكان إلى عناقها المريح، وما لبث أن غطّ في النّوم بدوره.

حين استيقظ صباحا، كان ألم شديد يفتك بمؤخرة عنقه. تمطّى في كسل، ثمّ همس لمريم التي تنام ملتصقة به:

- صغيرتي.. حان وقت المدرسة.

ووقت عمله أيضا.

انضمّ إلى سيلين ذات السّحنة العابسة في المطبخ، بعد أن اغتسل وغيّر ملابسه. قبّل وجنتها سريعا وتمتم ببضع كلمات اعتذار، لا يظنّها أقنعته أو أقنعتها، ثمّ جلس يتناول إفطاره في صمت. لم يكن من عادته ألا يحدّثها بما يؤرقه، لكنّه موسم الصّباحات غير العاديّة. حين يرجع إلى صوابه ويتعرّف من جديد إلى نفسه في المرآة، سيكون بوسعه أن يرصف أفكاره أمامها بعناية. أمّا الآن، فليبتلع غصّة روحه ويلذ بالسّكون.

بعـد دقائـق، كانـت تركـب سـيّارتها برفقـة مريـم. توصلهـا إلى مدرسـتها ثـمّ تلتحـق بمكتبهـا. لـوّح لهمـا بمـا اسـتطاع مـن مـرح، ثـمّ توجّـه إلى عملـه بـدوره.

أمـضى سـاعات الصّبـاح في قاعـة المحكمـة. الثلاثـاء يومـه الأكـثر غـزارة مـن حيـث منسـوب الـكلام المتدفّـق مـن فيـه! ورغـم سـاعات السّـهر الطويلـة والمرهقـة، والمسـامرة مـع تاريـخ والـده البديـع، فقـد أدّى مرافعاتـه بحماسـته المعتـادة وأكـثر. لعلّـه كان أكـثر حـدّة وأمـضى لسـانا؟

حـين أنهـى دوامـه في قاعـة المحكمـة، ابتسـم للرّسـالة الصوتيّـة الـتي كانـت في انتظـاره. أصبحـت تلـك الرّسـائل ترسـم مسـار يومـه، تتحكّـم في مزاجـه، تسـتنفد طاقتـه أو تبثّـه مخزونـا منهـا، حسـب محتواهـا. وقـد كان في حاجـة إلى دفعـة منهـا وقـد اسـتنزفته مرافعـات الصّبـاح.

*****

لـم أنـس كارمـن حـتى مـع انهمـاكي الشـديد في العمـل، وكنـت أتحـيّن فرصة مواتيـة للتسلل خـارج القبـو والبحـث عنهـا. حـين يرخـي الليـل ستارته السـميكة، أنسـحب خلسـة تـاركا جـيراني غارقـين في عميـق النـوم.

أقول لم أنسها.. لكنّي نسيتها!

ألـم أمـض مـن دونهـا حـين امتـدّت إليّ كـفّ جابـر وقـد غيّبتهـا عـني فـورة الأمـل المفاجئـة؟ ألـم أتكاسـل عـن البحـث عنهـا متعلّـلا بإصابـتي؟ كلّ ليلـة، أتسـكّع في الشّـوارع محدّقـا في الوجـوه، أبحـث عـن وجههـا. أتفـرّس في معالـم الشـوارع وأحفـظ خارطـة المدينـة. حـين توشـك الشـمس عـلى الطلـوع أعـود أدراجـي خائبـا. ألـم أكـن أحتـاج قسـطا مـن النّـوم؟ بـلى كنـت! لكـنّ صداعـا مريـرا أصبـح يلازمـني في الأسـابيع الأخـيرة.. وقـد كنـت أدرك جيّـدا مأتـاه.

في هـدأة ليـالي القبـو، بـدأت أستشـعر ذلـك الوجـود الدّخيـل بداخـلي. كان الجسـم المخروطـي المعـدن قـد اسـتيقظ مـن سبات سـنوات. في رأسي رصاصـة.. لا بـل عـشر رصاصـات. أصبحـت أسـمع طنينهـا مـن حـين لآخـر، وشقشـقتها حين أهـزّ رأسي. لقـد أعلنـت عـن نفسـها أخـيرا! وحـين أضـع رأسي باحثـا عـن النّعـاس، تنشـط حركتهـا فجـأة، تمثّلهـا لي تهيـؤاتي دودة تحفـر في تلافيـف دماغـي وتتجـوّل في ثنايـا جمجمـتي! وكلّمـا انكفـأت عـلى نفـسي أكـثر كلّمـا تزايـد إحسـاسي بحضورهـا المقيـت.. مؤلمـة حـدّ الخـدر، مزعجـة حـدّ الجنـون. كان الهـدوء صديقهـا الحميـم. في حضـوره تغـدو يقظـة ونشـطة. لذلـك كنـت مضطـرا إلى حركـة مسـتمرّة بالليـل والنّهـار.. والبحـث عـن كارمـن كان ذريعـة مناسـبة. عنـد الفجـر، أجـرّ قدمـيّ حـتى القبـو الذيـن غـطّ سـكانه في نـوم أصحـاب الكهـف. أوسّـع لجسـدي المنهـك مكانـا بـين الأجسـاد المسجّاة كأنّ الحيـاة قـد فارقتهـا، وأنهـار مثـل القتيـل. أغيـب لسـاعتين، بـلا أحـلام أو

رصاصة.. ثمّ أفيق لأستقبل نهار عمل جديد.

دأبت على الخروج كل ليلة، حتّى تعوّدت على شوارع المدينة وألفتها، وما عدت أتوه بسهولة. وألفت سكون الليل وكرهته، فأختصر ساعاته بالتّسكع حتّى تدبّ الحياة في شوارع ليون. عرفت طريق محطة المترو، فصرت أقصد كل مرّة محطة مختلفة، علني أعثر على كارمن متكوّرة على نفسها مثل جرو صغير في مدخل أحد الأنفاق المظلمة. لكن الخيبة كانت حليفي لوقت طويل.

في عتمة شوارع ليون، تراني هائما على وجهي.. مثل شبح بعينين غائرتين وهالات سوداء محفورة تحفّها، وسحنة رماديّة قاتمة. خلايا دماغي تصرخ طالبة راحة لم أكن لأطالها! نظام حياتي لم يعد بشريّا.. بل قصاصة من حكايا الرّعب التي أدمنتها مراهقا. ألم أكن أريد أن تشرّفني الرّصاصة بحضورها؟ فها إنّها قد كفت ووفّت!

وفي إحدى الليالي، بينما كنت أسير في الشارع على غير وجهة، ظهر أمامي وجهه على حين غرة. القرصان! كان الوجه وجهه، النظرة نظرته، العين اليمنى ترمش في توتر كعادتها، أما العين اليسرى، فسليمة معافاة تحدّق فيّ على غير عادتها! طالعته لبرهة متفرسا. كان يلبس بذلة أنيقة وربطة عنق، وأطرافه كاملة تتحرّك في رشاقة. كدت أجزم بأنه شبيه أو توأم، لولا نظرة المفاجأة التي ارتسمت على ملامحه وحسمت الشك باليقين. كنت أمام الوجه الآخر للقرصان. وجه يشع عافية، يتأبط ذراع فتاة تلبس كعبا عاليا وفستانا قصيرا ضيقا يكشف عن مفاتنها. لم أتعرّف عليها للوهلة الأولى، وقد شكّلت لها الأصباغ وجها غير الذي عرفته.. كارمن!

في لحظة، تبدّت لي الحقيقة واضحة كعين الشمس. كارمن الصغيرة البريئة كانت الضحية التالية لمشاريع القرصان الليلية. كانت المادة الخام المناسبة، عذراء مرتبكة، بكماء متفتحة الأنوثة. أسبل عليها لباس الإغراء

ومضى بها إلى حيث ينتظرها زبون ما. هذا ما كانت تخفيه الصغيرة ولا تجرؤ على البوح به. فرّت من مكمن العصابة حين تجلّت لها نواياه تجاهها، لكنه ما لبث أن عثر عليها بعد أن غفلتُ عنها ومضيت باحثا عن رزقي من دونها. فارت الدماء في رأسي وتملكتني الحميّة، كأنّ الصبيّة بعض أهلي. انقضضت على القرصان - الذي لم يعد قرصانا - في غيظ، ألكمه وأركله.

تصارعت مع الرّجل برهة من الزّمن وقد أبدى مقاومة وبأسا لا يستهان بهما. لم يلفت مشهدنا انتباه أحد في الشّارع. نتدافع ونتجاذب ثمّ نسقط على الأسفلت وترتطم أطرافنا بالجدران أو بقبضات بعضنا البعض، ولا أحد يحاول إيقاف مشاحنتنا الضارية، كأنّنا بعض السّكارى المتهوّرين.. لا تثير حفيظة أحد أو اهتمامه. في ظروف عاديّة، كنت لأصمد وأمنّي خصمي بهزيمة نكراء.. لكنّني كنت قد غدوت مجرّد بقايا، أشلاء رجل تذوي شعلته خلال ساعات عمل طاحنة، وليل يقظ لا نصيب فيه للرّاحة. على حين غفلة، عاجلني بضربة قاصمة كادت تقسم ظهري نصفين. هويت على الأرض أتلوّى، ورأيته يقف عنّي متراجعا، يمسح ما سال من دماء وجهه وكرامته. لقد كُشف أمره ولم يعد من الآمن له الوجود في الجوار. زمجر محذرا:

- إن كانت الفتاة تهمّك، خذها.. وحذار أن أرى وجهك مجدّدا..

لمحته بطرف عيني المتورّمة ينسحب مبتعدا، في حين انحنت عليّ كارمن باكية، من دون صوت. ابتسمت مهوّنا، متجاهلا أنين عظامي المسحوقة. لقد أنقذت الصّغيرة، وهذا كافٍ. ساعدتني على الوقوف بكفيّها الصغيرتين وسارت تسندني بقامتها النحيلة. كانت أطول ممّا عهدتها.. الكعب العالي كان يجعل رأسها يصل إلى كتفي. بعد بضع خطوات، وقفت متردّدا.. ما الذي سأفعله بها؟ أين يمكنني أن آخذها؟ لم يعد من الممكن أن أخلّفها في الشارع، بشكلها المغري ذاك، فتنهشها الكلاب البشرية، ولم يكن واردا أيضا أن آخذها معي إلى القبو، حيث رجال لم تدخل عليهم أنثى منذ

دهـر! شـعرت الفتـاة بحـيرتي فشرعَـت فجـأة بالبـكاء. لـم تكـن ترغـب حتمـا في البقـاء وحدهـا مجـدّدا.

- لا تبكي.. لن أتخلى عنك!

أقعينـا مثـل جرويـن عنـد نافـورة عامّـة.. أنـا أغسـل جراحـي وهـي تغسـل أصباغهـا. ثـمّ نثرنـا رذاذ المـاء في شـغب. تأمّلتهـا مأخـوذا وهـي تعـود طفلـة، بعـد أن تجلّـت امـرأة لبعـض الوقـت وهـي تتأبـط ذراع القرصـان. مـن دون تفكـير، نزعـت عـنّي السـترة الجلـد الـتي لـم أكـن أتركهـا قـط في نومـي ويقظـتي، وألقيتهـا عليهـا. فكّـرت أنّ عمـر لـو كان حـاضرا معنـا لـكان فعـل الـشيء نفسـه. كنـت راضيـا عـن نفسـي، وأنـا أراهـا تضمّهـا حـول جسـدها الضئيـل وتسـتعيد ابتسـامتها. جلسـت بعـد ذلـك عـلى الأرض وقـد ثقـل رأسي فجـأة. أسـندته إلى جـدار النافـورة المنخفـض وأغمضـت عيـنيّ لوهلـة.. أفكّـر في مـا سـأفعله، ثـمّ غفـوت.

حـين فتحـت عيـني، لـم يكـن هنـاك أثـر لكارمـن. كنـت قـد نمـت لوقـت طويـل.. طويـل جـدّا.. أطـول ممّـا فعلـت الأسـبوع المـاضي كامـلا! حـتّى رصاصـتي لـم تحـدث ليلتهـا طنينـا يسـلبني النّعـاس. وكانـت تلـك الصغـيرة الشـقية قـد اختفـت مـن دون أن تعلمـني بمكانهـا مـن جديـد.

*****

تماسـكت ليومـين.. ثـمّ عـادت الأعـراض السّـالفة. الرّصاصـة، ذلـك الكائـن الطفيـلي السّـاكن فيّ.. كانـت آلامهـا تفاجئـني مـن حـين إلى آخـر. ألـم ملـحّ مثـل أزيـز يقطـع التيّـار عـن أطـرافي، فتستسـلم فجـأة وتنهـار بـلا حركـة، ليقـع مـا بـين يـديّ في الحـال، سـواء كان كيـس رمـل أو إسـمنت أو قطعـة آجـر! وتخونـني رجـلاي فـلا أقـوى عـلى الاسـتمرار واقفـا.. فأتربّـع عـلى الأرض في قلـة حيلـة حـتّى تنقـضي النّوبـة.

وكلّما تهاويت، كان المشرف السّمين يظهر من خلفي على حين غفلة مثل مارد القمقم، يصرخ ويعنّف:

- تحرّك يا حمار! تحرّك يا بغل!

أتمالك نفسي، وأجبر أطرافي على لملمة خلاياها العصبيّة، وأتحامل لأبدو كتلة واحدة لم تتقطّع أوصالها. أطبق أسناني بقوّة لأطرد الألم، وأهزّ رأسي علّ الأشواك التي غرزت في جنباته تفلته! خارطة الألم تختلف حسب وقت النّهار.. تبدأ أعلى العنق في الصّباح، ثمّ تسرح مثل دبيب النمل، لتغمر فروة الرأس كاملة، وفي آخر النهار تأخذ في الحفر عميقا نحو تلافيف الدّماغ، تتقدّم وتنهش، مثل قارض يلتهم رأسي! لو كتبت جملة واحدة لأصف كلّ ساعة ألم مرّت بي، لتكدّست الأوراق إلى ما لانهاية! ولمللت أنت من سيمفونيّة الألم التي تمضي على لحنها حكايتي.. ولست ألومك! فحديث الألم مقيت حتّى عند قارئه.. وحديث الألم لن يخفّف شيئا من عذاب صاحبه.

في ذلك اليوم، هوى رأسي من عليائه ولم أقو على رفعه مرّة أخرى. ملأ فمي مذاق التّراب وسالت قطرات دم مالح من جرح شفتي. كنت أسمع حفيف الإسمنت وهو ينهمر في سخاء من ثقب الكيس الورق الذي تمزّق مع سقطتي، ووقع الخطوات المضطربة التي تتحرّك حولي، أصوات بعيدة عميقة تنادي باسمي، والمشرف يرعد ويزبد في سخط لا حدود له:

- ماذا فعلت يا غبي؟ ستدفع ثمن الإسمنت المهدور!

ثم فقدت الوعي.

*****

بعـد أن فقـدت الوعـي بلحظـات، فقـدت عمـلي! المـشرف أعلـن وأنـا في غيـاب كامـل أنّي لسـت صالحـا للتحميـل، ومـن الأفضـل ألا أطـأ أرض الورشـة مجـدّدا. تعـاون بعـض العمّـال عـلى نقـلي جثـة هامـدة مـن مـكان الحادثـة، وحاولـوا بشـتّى السّـبل إيقاظـي مـن غفـوتي.. حـتّى صحـوت عـلى أزيـز يشـغل موجـة أذنيّ. جمعـت شـتاتي ومضيـت إلى القبـو مطـرودا. قبعـت لصـق الجـدار أنتظـر المـوت، أو رفـاق السّـكن، أيّهمـا يصـل أوّلا!

استمرّت رصاصـتي تؤنـس وحـدتي بنفـس عنتهـا الصّفيـق، يطغـى وجودهـا عـلى كلّ حـواسّي. هـزت رأسي بقـوّة محـاولا صرف حضورهـا الدّخيـل، مـن دون جـدوى. احتضنـت رأسي بـين كفـي وأخـذت أدلكـه بأطـراف أصابعـي في حركـة دائريـة. سـاورني بعـض الارتيـاح حـين تسـلل الخـدر إلى فـروة رأسي بفعـل التدليـك المسـتمرّ. لكـن مـا أن اسـتقرّت حركـة أصابعـي، حـتى شرعـت الرّصاصـة في الانتقـام! أشرعـت مخالبهـا في دماغـي وراحـت تنهـش بـضراوة. فقـدت عقـلي، وسـيطر عـليّ هـوس فتـح جمجمـتي وإخراجهـا! قـد أمـوت، لكنّـني سـأخرجها أوّلا! فلأمـت إذا كان المـوت هـو سـبيل الخـلاص الوحيـد! أخـذت أضرب جبهـتي عـلى الجـدار بقـوة مطّـردة، حـتّى شججته، ومـا همّـني مشـهد الدّمـاء الـتي سـالت حـتّى مـلأت وجهـي وأغشـت عيـنيّ!

دخل عليّ جابر وعزّوز وقاسم وأنا على تلك الحال المفجعة.

- ما باله؟ هل جنّ؟

طوّقتـني الأذرع وأبعدتـني عـن الجـدار ولـم تهـدأ نوبـة جنـوني العنيفـة. كنـت أهـزّ رأسي في جميـع الاتجاهـات وألهـث مثـل كلـب مسـعور. وصـوت جابـر يعلـو بالـصّراخ ولا يتسـرّب شيء مـن كلماتـه إلى فهمـي! ثـمّ قبـض عـلى فـكّي ليوسـع مـا بـين لحـييّ، ودسّ حبّـة بيضـاء دائريّـة وأطبـق عليهـا لتـذوب عـلى لسـاني.. بعـد لحظـات، كنـت أهـدأ وأغـرق في عالـم النّـوم.

- هل تشعر بتحسّن؟

بعـد بضـع سـاعات، كنـت أفتـح عيـنيّ، حيّـا.. وقـد اسـتعدت شـكلي الآدمـيّ.

كان جابر قد مسح دمائي وضمّد جرحي. التفتّ إلى مصدر الصّوت، لأميّز في الظلام وجه عزّوز. شابّ تونسيّ يكبرني ببضع سنوات. هززت رأسي علامة الإيجاب، وتنهّدت.. ثمّ ران الصّمت من جديد. سكت الرجل قليلا ثم همس:

- الحبوب المنوّمة ليست حلّا.. يجب أن تدرك مكمن الدّاء وتعالجه..

لم أعلّق. كنت أدرك مكمن الدّاء جيّدا.

- ربّما تكون ممسوسا؟

نعم، أنا كذلك. لقد مسّني الضّرّ.. لكن ليس بالمعنى الذي قصده صاحبي.

- هل رأيت كيف كنت تتخبّط بجنون؟ أكاد أجزم أنّ ما بك مسّ.. أعرف شخصا قد يساعدك. شيخ يعالج بالقرآن الكريم، يسافر إليه الناس من كل مكان.. هو الوحيد القادر على شفائك.

هززت رأسي من دون أن أعلّق.

منذ سنوات خلت، كانت تفاجئني من حين إلى آخر نوبات صرع. أهتزّ على الأرض وتتخبّط أطرافي، وتتسرّب رغوة بيضاء من جانب فمي، وأكاد أفقد الوعي. ثمّ أهدأ تدريجيّا وتذهب عنّي الرّعشة. وفي كلّ مرّة، كانت أمّي تأخذني إلى شيخ البلدة، فيرقيني ويتلو القرآن بينما أجلس عند قدميه. ثمّ تغيب النّوبة شهورا، وربّما سنوات.. قبل أن تعاود الظهور على نفس الهيئة والتّفاصيل. قال الشّيخ إنّ صدمة مقتل أبي أمام عينيّ بلبلت روحي.

لكنّني بتُّ أعتقد الآن أنّ الرّصاصة قد فعلت.

*****

أدمنت الحبوب المخدّرة.

كنت مدمن سجائر في سابق أيامي. أدخّنها بشراهة، مثل مدفأة قديمة تلتهم الحطب طوال الليل، فلا تبقي ولا تذر. أفني كلّ ما تطاله يدي من نقود في سبيلها. اكتشفت منذ أيام الغربة الأولى كم كان من السّهل الإقلاع عنها في غيابها. كلّ الأمور الصّغيرة التي بدا لي سابقا أنّ حياتي تتوقّف عليها، أثور وأعربد إذا ما استعصى حضورها، أصرخ في وجه أمّي وأعتزل أخواتي، حتّى يرضخن ويقتطعن من مصروف بيوتهن لأنال مطلبي، أنا رجل البيت المدلّل.. كم كانت ثانوية وضئيلة الشّأن في لحظات الألم التي تتساوى فيها الحياة بالجحيم.

حصلت على علبة حبوب من جابر. كان يستعملها بشكل متقطّع، كلّما جافاه النّعاس.. لكنّني لم أكن مقتصدا في استهلاكها. حبّة وأحيانا اثنتان مع كلّ وجبة. حين تدحرجت الحبة الأخيرة حتى استقرّت في راحة يدي تملّكني الفزع، لم يبق معي غيرها! يجب أن أحصل على المزيد. لم أكن قد دفعت ثمن العلبة بعد، لكنّني استنفدتها بسرعة رهيبة.

- أريد الحبوب..

عاجلته في لهفة ما أن ظهر خياله عند مدخل القبو.

- أيّ حبوب؟ لقد أعطيتك كل ما عندي. وأذكرك بأنك لم تدفع ثمنها بعد!

- سأدفع.. سأدفع.. لكنني أحتاجها.. أحتاجها الآن!

زفر جابر في نفاد صبر ثم قال وهو يخرج علبة من جيبه:

- أنت تسير نحو الإدمان. سأعطيك حبتين الآن، لكنها ستكون المرّة الأخيرة.

وضع الحبتين في كفّي فحملتها إلى شفتيّ على الفور وابتلعتها من دون انتظار.

- لا يمكنني أن أعطيك غيرها بعد الآن.. لا تعتمد عليّ.

تنهّدت ما أن خلوت بنفسي. لم تعد الحبوب تنفع. الألم غدا أكبر وأعتى من بضع حبوب مخدّرة. كان عليّ إجراء الجراحة التي قد تفقدني البصر. بين فقدان بصري وفقدان حياتي، كانت الكفّة ترجح بسهولة.. بدت حياة الكفيف فجأة مغرية بشكل لم يخطر لي ببال من قبل! لكن حتّى ذاك الخيار ما عاد متوافرا.. من أين لي بتكلفة العمليّة؟ كان عليّ أن أغتنم الفرصة وأنا في مركز المفوّضية. لم أكن أدرك حينها أنّ الأمور قد تسوء بهذا القدر.

هل تعرف ما مشكلة هذه الحياة؟ أنّنا نعيشها مرّة واحدة! أخطاؤك وهفواتك، سقطاتك وذنوبك.. قد تكرّرها عن غباء وسفاهة أو تكبّر وجهل.. لكنّك لا تملك الرجوع إلى الوراء في خطّ الزّمن لتمحوها وتغيّر أثرها. آلة الزّمن حلم راود البشرية منذ عقود. لم يكتب له التحقق في زماني.. ربّما يكون جيلك أوفر حظا!

الفرج لاح على غير موعد، حين كرّر عزّوز اقتراحه ذاك المساء:

- الشيخ المختار طيّب القلب، سخيّ مع الغرباء.. بيته عامر ورزقه وافر. سيؤويك حتّى ينتهي علاجك.. وقد يعالجك مجانا بعد أن تتبيّن له حقيقة حالك..

لم يخف عليّ أنّي قد غدوت عالة على رفاق السّكن من جديد. ما أن سدّدت الدّيون القديمة، حتّى بدأت الدّيون الجديدة تتراكم.. والفرص ضئيلة هذه المرّة في تدبّر أمر العمل. كان لا بدّ من أن أرحل.. مهما كانت الوجهة. برقت الفكرة في رأسي. الشيخ.. لعلّه لن يشفيني من مسّ موهوم، لكنّه قد يدفع كلفة عمليّة استئصال الرّصاصة! وماذا بعد أن أغدو كفيف البصر؟ أقصد الحرس مستسلما ليتمّ ترحيلي إلى وطني؟ غمرني التفكير بالكآبة.

*****

الثلاثاء ١٨ ديسمبر ٢٠٣٥، الثانية بعد الظهر.

دلـف خليـل إلى المكتـب بخطـوات متثاقلـة، وأفـكار منهكـة تتوغّـل في عقلـه وتشـغل وعيـه. نـادر الشـاوي يهـوي نحـو منحـدر جديـد، ومـزاج خليـل الشّـاوي يُفلـت مـن السّـيطرة. كان في حاجـة إلى شيء يرفـع معنويّاتـه وينعـش يومـه. ليـس هـذا! ليـس هـذا! هـا إنّ الرّجـل قـد خـسر وظيفتـه، وعـاد إلى خانـة البدايـة. أليـس هنـاك مـن أمـل تزفّـه إليـه هـذه الرّسـائل؟ حالمـا لمـح الحافظـة بـين يـدي السـكريتيرة، تذكّـر أمـر الفتـاة. مريـم. عبـس وهـو يتجاوزهـا في اتّجـاه مكتبـه. ليـس مسـتعدّا للاعتـذار.

- أستاذ دانيال.. وصل أوّل موعد.

رنّ صوت جانيت عبر الهاتف الدّاخلي.

- نعم، دعيه يدخل.

ينغمـس في الأعمـال الـتي يجيدهـا ويألفهـا، ويشـغل ذهنـه عـن هواجسـه الجديـدة. مضـت سـاعات الظّهـيرة عـلى الوتـيرة المعتـادة ذاتهـا، مقابلـة العمـلاء وتحضـير المرافعـات، اتّصـالات مـع الفنّيـين والخـبراء. أكـثر مـن مـرّة، في فـترات خلـوّ المكتـب مـن الـزوّار، كان يتوقّـف عمّـا يفعلـه ويتأمّـل الرّقـم المـدوّن عـلى الشاشـة، يفكّـر في الاتّصـال، ثـمّ سرعـان مـا ينحّـي الفكـرة مـن رأسـه بـإصرار. لقـد جلبـت الشّـكوك لنفسـها بتصرّفهـا المتغطـرس وهويّتهـا المزيّفـة. ثـمّ مـا الـذي سيعنيه اتّصالـه؟ هـل سـيكون عليـه التكفـير عـن سـوء ظنّـه وقبـول القضيّـة؟ يعلـم أنّ اتّصالـه سيورّطه في أكـثر مـن مجـرّد اعتـذار. سـتجد الكلمـات المناسـبة لتغرقـه في إحسـاس مقيـت بالذّنـب، فيرضـخ لابتزازهـا العاطفـيّ!

لـم تصلـه أيّ رسـائل صوتيّـة إضافيّـة. تسـاءل إن كانـت أمّـه قـد زهـدت في التّرجمـة، أم أنّ الإنهـاك قـد نـال منهـا أخـيرا بعـد أيّـام مـن العمـل الحثيـث

علـى الرّسـائل؟

زفـر حـين أنهـى الموعـد الأخـير، ارتـدى معطفـه وسـار باتّجـاه صالـة الاسـتقبال، مبكّـرا عـلى غـير عادتـه. رمقتـه جانيـت في دهشـة.

- أنت بخير أستاذ دانيال؟

- أعاني من بعض الإرهاق.. سأنصرف مبكّرا اليوم.

أومأت في تفهّم، بينما توجّه إلى المصعد في وجوم.

*****

تحرّكـت أمّ خليـل أمـام موقدهـا، تحـضّر وجبـة العشـاء الـتي لـن تتناولهـا منفـردة هـذا المسـاء أيضـا، بينمـا انغمـس خليـل في تدويـن كلمـات مطمئنـة لسـيلين الـتي -لا شـكّ- تتقـد غضبـا مـن سـلوكه الغامـض والمتباعـد هـذه الأيّـام. سـهرة أخـرى يمضيهـا خـارج البيـت. نمّـق الرّسـالة بمـا أمكنـه مـن عبـارات الـودّ، علّهـا تخفّـف ثورتهـا.

«عزيزتي.. سأتأخّر عند أمّي.. لا تقلقي بشأني.. أحبّك».

وقـف مـن مكانـه، وألقـى نظـرة عـلى أمّـه الـتي تعمـل بهمّـة في مطبخهـا. نـدّت عنـه تنهيـدة عفويّـة مـن دون انتبـاه، فالتفتـت إليـه بنظـرة مجهـدة. تسـاءل، هـل كانـت تشـعر مثلـه، بتجويـف في الـرّأس، يرتـع عـبر مسـاحته مقـذوف رصاصـة مـا؟ كان مأخـوذا بتلـك الفكـرة، رصاصـة نائمـة لا يـراودك أدنى شـكّ في وجودهـا، ثـمّ تسـتيقظ يومـا عـلى أصواتهـا الصّاخبـة! أيّ جحيـم هـذا؟

مـاذا الآن؟ هـل تحـرّك تعاطفـه أخـيرا مـع هـذا الأب المنكـوب؟ يـزمّ شـفتيه فاصـلا بـين خيـوط المشـاعر المتضاربـة الـتي تتنازعـه. لـو كان النـصّ يخـصّ شـخصا آخـر، أيّ شـخص كان، فإنّـه لا شـكّ يثـير الشـفقة ويسـتدرّ الدّمـع.

فلمـاذا يضـنّ عـلى رجـل مـن المفـترض أنّـه سـبب وجـوده في هـذا العالـم بمشـاعر مماثلـة، أو بالقليـل منهـا؟

يـشرع في ترتيـب الأفـكار في ذهنـه بدقّـة ووضـوح، كمـا يفعـل في قضايـاه: قـد تكـون الهجـرة غـير الشرعيّـة ومـا تبعهـا مـن تجـاوزات محـلّ لـوم.. لكـن تلـك الرّصاصـة الغـادرة، لا ذنـب لـه فيهـا. ثـمّ مـاذا لـو لـم يعـبر المتوسـط ولـم يخـض تلـك المجازفـة، هـل كان هـو ليصـل إلى الضّفـة الأخـرى؟ هـل كان ليعيـش الحيـاة المرفّهـة نفسـها؟ يمتهـن المحامـاة، يفتتـح مكتبـا ويترشّـح لانتخابـات البرلمـان الفرنـسيّ؟ أم كان لـيرث تعاسـة أب قابـع عـلى ناصيـة المقهـى وتُزيّـن شـهادة جامعيّـة بـلا قيمـة جـدران حياتـه؟ يُسـكت الأصـوات الـتي تُديـن قسـوته، ويـردّ عليهـا بـضراوة: كان ليعيـش حيـاة متّسـقة مـع نفسـها، تتمـاشى فيهـا هويّتـه مـع محيطـه وظروفـه. لـم يكـن ليتسـاءل لمـاذا يحمـل هـذا الاسـم المختلـف، ويُسـأل باسـتمرار عـن «أصلـه» كأنّـه فرنـسيّ مزيّـف!

- أدرك كيف تشعر.

يلتفت إليها غير قادر على قمع انفعاله وردّه إلى داخله. ينفجر:

- أحقّـا تُدركـين؟ لأنّـني لا أعـرف مـا الـذي أشـعر بـه الآن حقّـا! أعلـم أنّ العالـم لا يُحكـم بالعـدل. هنـاك أشـخاص تُعسـاء يعيشـون في جنـوب الكـرة الأرضيّـة.. بينهـم حـروب أهليّـة وحياتهـم دمـار.. وأنـاس في شـمالها، مسـتقرّون وهانئـو البـال. وأنـا لا أعـرف إلى أيّهـم أنتمـي! لقـد عشـت طيلـة حيـاتي أحـاول أن أجـد لي مكانـا بـين أهـل الشّـمال، متجاهـلا الجـذور الـتي تشـدّني إلى الجنـوب. كنـت أقنـع نفـسي بـأنّ الخيـط الـذي يربطـني بذلـك الأصـل قـد انقطـع وتـلاشى. أنـا فرنـسيّ كمـا يجـب أن يكـون الفرنـسيّ الحـقّ.. ثـمّ تأتـين بعـد كلّ هـذه السّـنوات، لتقـولي لا. أنـت لسـت كذلـك. جـذورك حقيقـة. معانـاة أبيـك، حربـه الأهليّـة، هجرتـه وتـشرّده، كلّ هـذا ميراثـك الـذي لا فـكاك منـه! ومـا الـذي أفعلـه بهـذا المـيراث، هـاه؟ أعلّقـه في صالـة المكتـب؟

أؤلـف بشـأنه شـعرا ونـثرا؟ هـل يختلـف إحسـاسي بمـن أكـون حـين أعـرف أنّ أبي كان عـلى غـير مـا ظننـت؟

سكت مـن دون أن تهـدأ الثـورة في عينيـه. لـم تكـن إلا البدايـة، ومـا يختفـي في الأعمـاق أعظـم.

- أعلم فيمَ تفكّر..

رفع كفّيه إلى السّماء غير مصدّق. مرّة أخرى. إنّها تعلم، هاه!

- أنـت لا تصـدّق، ولكنّـني أعلـم. سـتدرك أنّـني أعلـم.. حـين ننتهـي مـن الرّسـائل كلّهـا. أمّـا مـا سـتفعله بميراثـك وتاريخـك.. فهـذا مـا سـتقرّره أنـت. لـن يكـون الأمـر هيّنـا. ليسـت شـكّة دبّـوس تتـلاشى خـلال ثـوان. لكـنّ شيئا مـا بداخلـك سـيدفعك باتّجـاه مـا.. سـينبعث الطريـق مـن تلقـاء نفسـه ويشـدّك إليـه. لا تنظـر إليّ هكـذا.. لقـد عشـت تجربـة مشـابهة، وقـد كان هنـاك صـوت وشـوش في أذني، فاتّبعـت الطريـق. حصـل ذلـك مـرّات عـدّة. وفي كلّ مـرة كان هنـاك اختيـار جديـد. حـتّى وصلـت إلى هنـا، إلى هـذه الجلسـة بيـني وبينـك، ونحـن نقـرأ رسـائل عمرهـا ثلاثـون سـنة.

تنهّـد. لـم يكـن يفهـم. لكنّـه سيحاول أن يصـل إلى مرحلـة الفهـم في نهايـة الرّحلـة. تنـاول الهاتـف وسـجّل رسـالة جديـدة لسـيلين. «سـأبيت عنـد أمّـي الليلـة، إنّهـا متعبـة قليـلا. أحبّـك». ثـمّ التفـت إلى أمّـه الـتي راقبتـه مشـدوهة وقـال في تصميـم:

- فلننه هذه الرّسائل اللّيلة، ما رأيك؟

*****

أراني مجــدّدا، أتّخـذ مجلسـا نائيـا في نهايـة الحافلـة الخاصّـة الصغـيرة وقـد أجلسـت كارمـن إلى جـواري في حـرص. كانـت الطفلـة قـد ظهـرت ليلـة رحيـلي، كأنّمـا أدركـت بغريـزة مـا أنّـه الوقـت المناسـب. حـين خرجـت ذلـك المسـاء أقتفـي أثـرا ممكنـا لمرورهـا، انبثقـت في الظـلام وشـدّت كـمّ قميـصي. فانضممـت وإيّاهـا في عتمـة الليـل إلى سرب الطيـور المهاجـرة خلسـة في اتّجـاه الشـمال.

حـين اسـتقرّ ركاب الحافلـة العـشرة في مقاعدهـم، ضغـط السّـائق عـلى دوّاسـة الوقـود. سنسـافر طـوال الليـل، كأننـا نفـرّ عـلى غفلـة مـن الأعين. يشـقّ عـليّ ذاك الرّحيـل الشـبيه بالطـرد! رحيـلي يعـني نهايـة العمـل في الورشـات وتفريطـا لا رجعـة فيـه في مسـكن القبـو. وتبـدّى لي القبـو العفـن الـذي آواني في الشـهور الماضيـة نعمـة غاليـة في تلـك اللحظـة.. نعمـة لـم أسـتطع المحافظـة عليهـا!

حـين طلبـت مـن عـزّوز أن يدلّـني عـلى الشـيخ المعالـج، أخـبرني بأمـر الحافلـة الخاصّـة الـتي يؤمّـن صاحبهـا رحـلات دوريّـة إلى المـكان المقصـود. لـم يشـكّل فرقـا أنّ يكـون الرّجـل مهرّبـا محترفـا، لا يعنيـه الترخيـص الحكومـيّ وزبائنـه عـلى شـاكلته، يتجنّبـون خطـوط السـفر المبـاشرة تفاديـا لدوريّـات الشرطـة! وكان ذلـك يناسـبني.. فكلّنـا في مراوغـة القانـون سواسـية.

فتحـت عيـنيّ عـلى ملمـس كـفّ كارمـن وهـي تشـدّ أصابعـي في إلحـاح. كانـت الحافلـة قـد قطعـت مسـافة لا بـأس بهـا وشـارفت عـلى الوصـول إلى وجهتهـا النهائيّـة. كنـت متوتـرا ومرهـق الأعصـاب، لكـن الآلام كانـت خفيفـة وحفيـف الرّصاصـة فاتـرا تلـك الليلـة. نظـرت مـن النّافـذة الجانبيـة حيـث أشـارت كارمن. كان ضـوء النهـار قـد بـدأ يتسـلل وأخـذت معالـم المبـاني الـتي تحـفّ الطريـق

تتضح. تعلقت عيناي بلافتة عريضة تعلو الطريق السيّارة التي تقطعها الحافلة. باريس. لم تمرّ دقائق قليلة حتى سمعت صوت السائق الأجش وهو يوقظ الركاب:

- وصلنا إلى باريس. وصلنا يا أهل الخير.

ومع ارتفاع الشمس ببطء في الأفق، دبّت الحياة في ركّاب الحافلة ثم بدؤوا النّزول تباعا، كل في العنوان الذي يريد.

عندما توقفت الحافلة في محطتها النّهائية، تبعت السّائق إلى خارجها، أحمل متاعي القليل الذي استقر في بطن حقيبة عمر السوداء، تتبعني كارمن بخطواتها الخجولة. قطعنا الشارع ثم مشينا واحدا إثر الآخر، عبر حديقة نضرة تحفها بنايات قديمة متطاولة. كانت مظاهر الحياة العائليّة اليومية قد أخذت تدبّ في المكان بشكل ممتع لعينيّ، وقد كدت أنسى أنّ هناك مجتمعا يعيش ويتنفّس خارج أسوار الورشة وفوق غياهب القبو. أطفال رضّع يتسلّل صياحهم عبر الأبواب المغلقة، وحبال غسيل ما زالت تقطر ماء في شرفات الشقق المرتفعة، وروائح الخبز المحمّص والقهوة السّاخنة تعبق من مطابخ أرباب عائلات يستعدّون لبدء نهار عمل جديد. شعرت بكفّ كارمن تمتدّ لتتشبّث بذراعي. استدرت لتطالعني بابتسامة جذلة. كانت سعيدة بما ترى هي الأخرى.

عند مداخل البنايات، لمحت مجموعات من الشبّاب والمراهقين العاطلين، يتجمّعون في تلك السّاعة الصباحيّة لتدخين سيجارة ولعب الورق.. هالات أعينهم توحي بأنّ أحدهم لم يأو إلى فراشه تلك الليلة. راقبتهم في حذر وأنا أتذكّر اقتحامي السّابق للحيّ الشعبيّ في مرسيليا. لم يطاردنا أحدهم بالسّباب هذه المرّة ولم يحاول أيّ منهم إخافتنا بحركة أو إشارة. بل بدرت عنهم تحيّات مسالمة ونظرات متواطئة تبادلوها مع مرشدي. حين وصلنا إلى العمارة الأخيرة في آخر الحديقة، قادنا الرّجل إلى مدخل خلفي يفضي إلى سلّم حجري ينزل تحت الأرض وقال:

- هذا هو المكان.

وقفت لبرهة متردّدا بعد أن انصرف الرّجل. لم أقدر على مواجهة عيني كارمن، لكنها فهمت تردّدي. أشارت إلى الغابة الكثيفة التي ترتفع حشائشها مشرفة على سور المجمع السكنيّ، ففهمت مقصدها. ستختبئ هناك ريثما أخاطب الشّيخ. تمنيت أن أملك القدرة على ثنيها عن عزمها، لكنّني عجزت. فكّرت أنّ اقتراحها مناسب للوضع. فلتختبئ في الغابة لبعض الوقت، حيث يمكنني أن أجدها وأمدّها بوجباتها خلسة، ريثما أمهّد للأمر مع الشّيخ.. إن لمست منه كرما وسماحة حدّثته بشأنها، وإلا فلتكن الأولوية لرصاصتي!

لوّحت لي كارمن بكفّها الصغيرة بعد أن رفعتها فوق الجدار، ثمّ قفزت إلى الجانب الآخر لتغيب في الظلال. التصقت بالجدار وإحساس بالذنب ينهشني. طرقت الحائط بقبضتي، فردّت الطرقات من الجانب الآخر تطمئنني.. إنّها متعوّدة على حياة الشارع. تستطيع الاهتمام بنفسها. همست راجيا:

- لا تذهبي بعيدا.. ابقيْ عند الجدار. سأعود قريبا.

ردّت عليّ بطرقتين خفيفتين.

لقائي بالشيخ المختار كان من اللحظات النورانيّة النّادرة.. أن تلقى شخصا يضيء وجهه بكلّ تلك السّماحة وتنطوي نظراته على كلّ ذلك الحبّ والعطف تجاه البشريّة، كان أمرا استثنائيا. أدخلني عليه أبو أحمد، ناظر أملاكه والقائم بشؤون زوّاره، من دون استئذان. كان بابه مفتوحا لقضاء حاجات النّاس كلّ صباح من الفجر حتّى صلاة الظهر. أجلسني على الحصير المتقشف الذي فرشت به الغرفة. لم يكن بها من مريدين غيري. كنت قد وصلت مبكرا جدا.

على بصيص المصباح الخافت التقت عيناي بتلك السّحنة الهادئة والهيئة المعمّمة. كان الشيخ يقرأ في مصحفه غير عابئ بالعتمة، ولحيّته

الكتّة المشوبة بعروق بياض تتخلّلها تهتزّ مع تمتمته غير المسموعة. لعلّ الإضاءة الضعيفة كانت تمنحه مناخا مناسبا للتأمل وتصفية الذهن. حين أنهى ورده أخيرا، عاين بنظرة أبويّة شكلي الأشعث ثمّ سألني:

- هل أنت قادم من سفر؟

فرنسيّته مشوبة بلكنة شرقيّة، ربّما كان أصيل اليمن، أو الحبشة، أو ما جاورهما. بشرته ذات سمرة خفيفة وملامحه دقيقة قريبة من القلب، وابتسامته دواء للنفوس السّقيمة. قلت في ارتباك وفرائصي ترتعد دونما سبب أعيه:

- سافرت ليلا من ليون...

- إن لم تكن بك حاجة ملحّة، فخذ نصيبا من الرّاحة ثمّ ننظر في حاجتك.

احترت هل أقبل ضيافته مؤجلا طلبي، أم أعجّل بالطلب مغامرا بضياع الضّيافة؟ قبل أن أتكلّم، انحنى الشيخ حتّى لامست كفّه ركبتي فتوقف جسدي عن الارتجاف على الفور.

- أنت تتألم.

قالها بلهجة المتيقّن، فتخدّرت حواسي. هل أدرك بلمسة مكمن دائي؟ وهل شفيت بتلك اللمسة؟ كان صوت الشيخ العميق الرقيق يتسلل إلى قلبي دونما مقاومة مني ويشدّ نظراتي إلى وجهه كالمغناطيس. كان في حضوره سحر ما.

- لا تخف، لقد وصلت إلى برّ الأمان.

لم أنبس ببنت شفة، بينما واصل الشيخ تشخيصه لحالتي. وضع كفّه على رأسي، كأنه قد أدرك بطريقة أجهلها أن الألم هناك، ثم أخذ يتمتم بصوت خافت كأنه يرتل ما يشبه الآيات القرآنية. أغمضت عينيّ في سكينة تاركا جسدي بين يديه. حين فتحتهما مجدّدا، كان الشيخ يمدّ إليّ بوعاء يحوي مستخلصا من الأعشاب.

- أنت متعب يا بني. اشرب هذا واخلد إلى النّوم. يا عليّ...

فتح الباب فجأة وظهر شاب يصغرني سنّا، كأنّما كان يتنصّت عند الباب، أو يلتقط بحاسّة سابعة همسات الشيخ مثل جنيّ ما. وقف في تأدب منتظرا أوامر صاحبه.

- خذ أخانا إلى شقة الضيافة ليرتاح قليلا.

تجرّعت المشروب الدافئ بجرعات كبيرة متلهّفة، غير مبال بالبقبقة المزعجة التي أصدرتها، ثمّ مسحت شفتيّ بكمّ ثوبي، وانتظرت المعجزة. كلّ ما يحيط بي كان يوحي بأنّها ستحصل لا محالة. الجوّ الروحاني، وحضرة الشيخ المهيبة، والهمسات القرآنية، والمذاق العسليّ الصّافي.. كانت علامات شفاء صدّقتها. خلت للحظة أنّني ممسوس فعلا، ونسيت أمر الرّصاصة مصدر بلائي! أو لعلّي حسبت لمسة الشيخ ومشروبه العجيب قادرين على إذابتها فينسال المعدن المصهور من أذني مثل الصديد.. كنت قادرا على تصديق أيّ شيء في تلك اللحظة!

غادرت الشيخ برفقة عليّ حتى دخلت الشقة المعنيّة. كان الخدر قد سرى في أوصالي المتشنّجة حتّى تمكّن منّي بالكليّة، فاستسلمت للنّعاس على سرير فرديّ في ركن الغرفة وكلّي تفاؤل وانبساط.

حين فتحت عينيّ، كانت الغرفة غارقة في الظلام. تحسّست المكان من حولي متعرّفا، لكنّ حركاتي المرتبكة جعلتني أتعثّر بقطع الأثاث وأحدث جلبة مزعجة. امتدّت يد من العدم وأزاحت الستائر السميكة عن النّافذة فتبدّدت الظلمة. ظهر عندئذ وجه عليّ الذي جاء بي إلى الشقة منذ ساعات خلت، وقد غلب الودّ في ملامحه على الجدّية التي كسته في حضور الشيخ. كان رقيق العود، يسبح في قميصه الأبيض الواسع الذي يصل إلى ركبته، ويخلّل لحيته القصيرة النابتة بأصابعه وهو يتكلّم، كأنّما يهمّه أن تبدو أطول ممّا هي عليه.

- أخيرا استيقظت! لقد برد الطعام.. سأقوم بتسخينه بينما تقضي

الصلـوات الفائتـة.

لـم يكـن استفسـارا بقـدر مـا هـو إقـرار لمـا يجـب عـليّ فعلـه، فانصعـت دونمـا تـردّد وسرت في اتّجـاه الحمّـام الـذي أشـار عـليّ إلى موقعـه مـن الشـقّة. حـين تخطّيـت عتبـة الغرفـة انتبهـت إلى أزواج الأعـين الـتي كانـت ترقبـني. ربّمـا كان عـليّ يجلـس إلى أصحابـه في انتظـار صحـوتي. حيّيتهـم بإشـارة محتشـمة فألقـوا عـليّ السلام في نغمـة موحّـدة. أدّيـت صلـواتي كيفمـا اتّفـق وأنا أتسـاءل عـن آخـر مـرّة صلّيـت فيهـا فرضـا. انقطعـت عنهـا منـذ عـدت إلى التـشرّد ولـم يكـن جحيـم الورشـات والقبـو وآلام الرّصاصـة رادعـا كافيـا لأجـدّد توبـتي!

رحم الله أيام الدكتور عمر.. تهت من بعده قلبا وقالبا.

حـين عـدت إلى المجلـس بعـد الصّلاة، كان بقيّـة الشـبّاب قـد انصرفـوا ولـم يبـق سـوى عـليّ ينتظـرني مـع صحـن شـوربة حـارّة يتصاعـد بخارهـا. غطّـى جوعـي عـلى خجـلي فجلسـت عـلى الأرض المفروشـة مـن دون تـردّد، وأخـذت أغـترف الملعقـة إثـر الأخـرى حـتى قضيـت عـلى الشـوربة كلّهـا، تحـت نظـرات عـليّ الراضيـة.

- أعجبتك؟

هــزرت رأسي علامــة الإيجــاب، وأنــا أشــكر مضيّفــي بابتســامة تخالطهــا العـبرة. أن يطبـخ أحـد مـا وجبـة منزليّـة مـن أجـلي، يعيـد إليّ بإلحـاح ذكريـات مـنزل العائلـة وطبخـات أمّـي الـتي لا تضاهـى! إنّ الأطعمـة الـتي نـتربّى عليهـا في صغرنــا تصبــح في أعيننــا -حــين فقدهــا- ألــذّ مــن موائــد أشــهر الطهــاة العالميّـين. بـل هـي الجنّـة ذاتهـا، وإن بـدا طعمهـا عاديّـا أو قليـل النكهـة عنـد متـذوّق آخـر! فالطعـم الـذي تلتقطـه موجـات القلـب خـارج عـن نطـاق حليمـات اللسـان، ومتّصـل بينابيـع الذكريـات الـتي تتفجّـر مياههـا حلـوة تملأنـا مـن الدّاخـل إلى حافّـة البـكاء، حـين ينجـح الطعـم في فـكّ شـيفرة الحنـين. وقـد غلبـني الحنـين وأنـا أتـذوّق شـوربة عـليّ، حـتّى دمعـت عينـاي عـلى مـرأى مـن نظراتـه الحائـرة.

- والآن أخبرني ما قصّتك؟

أضاف بلهجة مطمئنة تسلقت أسوار ريبتي وعبرتها إلى الضّفة الأخرى:

- يبدو أنّك قادم من بلاد بعيدة وقد تبقى بيننا لفترة حتّى تتعالج.. لذلك نحتاج معرفة ظروفك حتّى نساعدك.

أوجزت حكايتي منذ وصولي إلى الأراضي الفرنسيّة، متجاوزا فقرة لقائي بعمر، وعلاقتي بعصابة القرصان، ولم آت أيضا على ذكر كارمن. حين انتهيت إلى نوبات الألم التي وأدت أحلامي وطموحاتي الفرنسيّة في المهد، هتف عليّ بلهجة أحسبها صادقة:

- أبشر يا أخي! اعتبر نفسك منذ اليوم ضيفا علينا وفي حماية الشيخ المختار شخصيّا، ولعلّك لا تعلم ما تعنيه حماية هذا الرّجل المبارك؟ إنّه لا يتوانى عن تقديم يد المساعدة إلى كلّ من يحتاجها وله شأن عند العباد وربّ العباد بإذن الله -ولا نزكّي على الله أحدا- وانظر كيف وكّلني بأمرك وهو لا يدري عن قصّتك شيئا؟ رجل مبارك ولا شكّ! أنت منذ اليوم ضيف عندنا في هذه الشّقة، والغرفة التي استقبلت متاعك غرفتك الخّاصّة!

لم أتمالك نفسي من فرط التأثّر، فقمت من فوري أقبّل رأس عليّ وأشكر فضل الشيخ المختار، ثمّ حمدت الله كثيرا وقد تعاظم في داخلي يقين بأنّ مشكلاتي كلّها ستحلّ على يد الشيخ المبارك!

*****

في اليوم التالي، أرسل المختار في طلبي. ناولني المشروب الدّافئ ذاته، فتسلّمته في امتنان. كنت أدرك أنّ له تأثيرا بالغا على جسدي. في الليلة الماضية نمت هانئ البال، ولم تظهر الرّصاصة في منطقة الوعي لحظة واحدة. كدت أنساها. حين رأى الشيخ أنّني أهمّ بتجرّعه دفعة واحدة،

أشـار إليّ مبتسـما وقـال:

- ترشّفه على مهل.. ولنتحدّث قليلا..

أومأت في خجل، وأبقيت الكأس بين كفيّ، أمتّعهما بدفئها.

- أخبرني عليّ بشأن إصابتك.. إنّه لأمر محزن.

حرّكـت رأسي وهمهمـت بكلمـات شـكر متداخلـة، كأنّي لا أجـد في معجمـي لفظـا يفـي فضلـه حـقّ الامتنـان، فواصـل المختـار:

- أنـت الآن بـين أهلـك يـا ولـدي.. سـنهتمّ بأمـرك. تدبّرنـا أمـر سـكنك بحمـد اللـه.. وسـنجد لـك وظيفـة تكسـب بهـا عيشـك. خـبّرني، مـا الـذي تجيـده؟

تداعـت في خيـالي ذكريـات لمشـاهد مماثلـة.. القرصـان وهـو يسـألني عـن خـبرتي في النشـل والشـحاذة، وديميـتري يسـتجوبني بشـأن البنـاء. تلعثمـت وارتبكـت.. أيّ الخصـال يقصـد الشـيخ الجليـل؟ قلـت بعـد برهـة:

- عملت في ورشة بناء بعض الوقت...

توقّعـت أنّ الشـيخ لـن يكـون مهتمّـا بـدورتي التدريبيّـة مـع عصابـة القرصان. رأيتـه يقطّـب حاجبيـه تقطيبـة خفيفـة، فخمّنـت أنّ ردّي لـم يـسرّه. سـألني بشـكل غـير متوقـع:

- كيف هو مستواك في اللغة العربيّة؟

اتّسـعت عينـاي في غـير تصديـق. هـل يعقـل أن يطـرح عـليّ هـذا السّـؤال بالـذّات؟ هتفـت في لهفـة:

- أنا مجاز في اللغة العربيّة يا سيّدي!

- ممتـاز! لمـاذا لـم تبـدأ بهـذا إذن؟ جمعيّتنـا المحلّيّـة في حاجـة إلى علمـك ومعرفتـك.. معظـم الشّـباب هنـا يحتاجـون تعلّـم العربيّـة، وحـتّى المسـنّون. بعضهـم أسـلم حديثـا، والبعـض الآخـر ذو أصـول عربيّـة لكنّـه نشـأ في فرنسـا منـذ نعومـة أظفـاره ولـم يهتـمّ والـداه بتلقينـه اللغـة الفصيحـة.. والمدرّسـون قلّة..

اشـتعل وجهـي حماسـا وقـد عـثرت أخـيرا عـلى مهنـة تناسـبني وتثمّـن شـهادتي الجامعيّـة الـتي أضنيـت أمّـي مـن أجلهـا. شرح لي المختـار بسرعـة نوعيـة العمـل ومواعيـده والأجـر المترتّـب، ثـمّ تصافحنـا في حـرارة معلنـين الاتّفـاق. حـين وقـف الرّجـل مؤذنـا بانتهـاء اللقـاء، كنـت سـعيدا ومسـتبشرا، وفاتـني أنّـه لـم يـأت عـلى ذكـر العمليّـة الجراحيّـة.

ولم يفعل خلال لقاءات كثيرة تلت.

*****

مـرّت الأيـام التّاليـة هادئـة رتيبـة. حافظـت عـلى موعـدي الصّباحـيّ مـع الشيخ المختـار. فأنـال نصيـبي مـن الأذكار وتـلاوة القـرآن، ثـمّ أزدرد المحلـول العجيـب الـذي لـه عـليّ مفعـول المخـدّر، فأسـتغرق في النـوم حـتى الظهـيرة، قبـل أن يفـد عـليّ مـن عملـه فيقاسـمني غـداءه. أمّـا كارمـن، فقـد فقـدت أثرهـا مـذ فارقتهـا عنـد الجـدار. كنـت أتسـلّل يوميّـا إلى حـدود الغابـة، أتسـلّق حـتّى أبلـغ أعـلى الحائـط وأمسـح بنظـرة شـاملة مسـاحة الأشـجار الممتـدّة إلى الأفـق، ثـمّ أتنهّـد. أحيانـا، أجلـس هنـاك مقرفصـا، أتفكّـر وأنتظـر، علّهـا تظهـر مـن دون موعـد. وغالبـا مـا كنـت ألقـي نظـرة عابـرة وأمـضي متعجّـلا، حـتى لا يضبطـني حـرّاس المختـار بجـرم لا أدري نـوع العقـاب الـذي يسـتحقّه. التزمـت بالعهـد الـذي قطعتـه عـلى نفسـي بحفـظ نصيـب مـن وجبـتي مـن أجـل الصغـيرة. ألفّهـا جيّـدا في ورق الجرائـد وأتـرك اللفافـة تنزلـق بلطـف إلى الجهـة الأخـرى أسـفل السّـور، علّهـا تجدهـا وتقتـات عليهـا. لكنّهـا لـم تـردّ قـط عـلى طرقـاتي. وقـد آثـرت أن ألومهـا عـلى تجاهلهـا تعليمـاتي بعـدم الابتعـاد عـن الجـدار، عـلى أن أعـترف بفشـلي الذريـع في أن أكـون أبـا بديـلا!

أمـا في فـترة مـا بعـد الظهـر، فقـد كنـت أدخـل قاعـة الـدّرس، أمسـك قطـع الطباشـير الأبيـض والملـوّن، أرسـم عـلى السّـبّورة خطوطـا متعرّجـة ونقاطـا..

وأشرح لرجال ينافسونني في القامة وغزارة الشارين أبجديّات اللغة العربيّة. وقد وجدت في ذلك متعة لا تضاهى!

أقول، ويكرّرون خلفي: خاء.. خخخخ.. خاااء.. من أعماق الحلق.

فتخرج منهم: غغغغ.. مثل بقبقة غريق!

أقول: خخ.. مثل «فخنسي» (كلمة «فرنسي» بالفرنسيّة).

فتتهلل الأسارير وتستجيب الألسن وتعوجّ لتعثر على درجة الصّوت المناسبة. فأصفّق لهم ويشاركونني التّصفيق.

- المشكلة هنا.. في الرّأس، أمّا اللّسان فمطواع قادر على النطق بما يأمره الدّماغ به.

أشير إلى رأسي بسبّابتي، كأنّني أخاطب رصاصتي. أتحدّى كلّ أسباب العجز وأمارس حياة طبيعية أو تكاد.

بعد ساعتين من الدّرس، أقف أوّدعهم عند باب القبو تحت الأرضي الذي يستقبل فصلنا، فيصافحونني بامتنان. لا يدركون أنّني الممتنّ لحضورهم.. وإعطائهم معنى لحياتي. شقيقان تركيّان، وعدد من الفرنسيين حديثي الإسلام إضافة إلى شيخ مغربيّ طاعن في السّنّ يتمنّى أن يفكّ شيفرة مصحفه ويتعرّف إلى مقاطعه، يكتب على لوحة مدرسيّة بدل الورقة لضعف بصره، ويناديني بـ«سيّدي» كما ينادي طلاب المدارس معلّمهم!

أستقبلهم كلّ يوم بعد انتهاء ساعات أعمالهم الرّسميّة، وأشغل بقيّة اليوم في أعمال تنظيف وصيانة لم يطالبني أحد بها. كنت أحبّ أن أكون مفيدا.. بعد فترة بطالة طالت، فوكّلت نفسي بكنس الساحة من أوراق خريف طمرت ممشاها فاستحال بساطا تتماوج عليه درجات البرتقالي والأصفر.

بعد أسبوع، كان جسدي قد أخذ يتعوّد على الدّواء، وما عاد الخمول يصيبني فور تجرّعه، فطلبت من عليّ أن أرافقه في جولة بالخارج. كان

صباح سبت لا عمل لكلينا فيه، وكانت مسالك الحديقة المحيطة بعمارات الشيخ السكنيّة تضجّ بالحياة. وألفيت نفسي آنس معالمَ تلك الحياة العائلية الدّافئة وأبحث لنفسي عن مكان فيها. توقّفنا عند دكان بقّال وأخذ عليّ يتخيّر قطع الفاكهة النّاضجة. جاءنا صراخ البقّال وهو يزمجر منفلتا من داخل المحلّ في احتجاج:

- ألف مرّة قلت لك إن فاكهتي كلّها طيّبة. لا تكثر التقليب فتفسد مظهرها الحسن!

ابتسم عليّ متلطفا وتجاهل كلمات الرّجل الغاضبة، وهو يمدّ إليه الكيس ليزن ما استقر في جوفه من قطع متخيّرة، ثم همس لي:

- أبو صالح رجل طيّب، لكن مزاجه ناريّ سهل الاشتعال.. ستتعوّد عليه.

ظهر الرّجل من جديد وفي يده كيس الفواكه بعد أن وزنه بالدّاخل، وقال في جفاف وهو يرمقني بنظرة جانبيّة مستطلعة:

- ثلاثة يوروات...

ثم أضاف بلهجة استخفاف:

- مجنّد جديد؟

زفر عليّ وهو يمدّ يده بالمبلغ المطلوب، وتمتم كأنه يتراجع عن نعته البقال بالطيبة منذ لحظات:

- أستغفر الله العظيم.. يا رجل يا خرف ألا تكفّ أذاك عن النّاس؟ إنّه ضيف علينا وعلى الشيخ المختار ولا شيء أكثر من ذلك!

هزّ أبو صالح كتفيه وهو يتابع بنفس اللهجة السّاخرة:

- كلّهم يكونون كذلك في البداية! قبل أن يلعب عجوزك الخرف بعقولهم !

غلى دم عليّ لمّا سمع أبا صالح يتجرّأ على شيخه الحبيب فهتف في

غيـظ:

- استغفر ربّك وتب إليه من الخوض في أعراض النّاس!

رمقــه أبــو صالــح بنظــرة اسـتخفاف، ثــم مــا لبــث أن حــوّل نظراتــه إلى مدخــل المحــلّ حيــث وقفــت سـيّدة تمــلأ أكياســها خــضراوات، وانقلبــت لهجتــه السّــاخطة إلى ليونــة مدهشــة تحمــل في طيّاتهــا غــزلا صريحــا:

- حـتّى الشـيخة ليليـان أكـثر بركـة مـن شـيخك هـذا.. مساؤك فـل وياسـمين يـا شيخة!

اسـتقبلت ليليـان الفرنسـيّة الخمسـينيّة دعابتـه بابتسـامة دمثـة، لامباليـة بغمزاتــه اللّعــوب وهــي تواصــل مَــلء أكياســها. في حــين غــضّ عــليّ بــصره متجنّبــا المــرأة الأجنبيّــة.

قال عليّ حالما ابتعدنا بضع خطوات عن دكّان أبي صالح:

- لا تصـدّق كلّ مـا يقـال مـن حولـك. الشـيخ المختـار مثلمـا لـه محبّـون أوفيـاء، لـه أعـداء ينـشرون عنـه الشـائعات والأقاويـل.. مـع أنـه لـم يـضرّ أحـدا يومـا. لكـن تلـك هـي الغـيرة والحسـد، تحمـل النّـاس عـلى ارتـكاب حقـير الأعمـال.

ثم واصل بعد صمت قصير:

- انظـر إليّ.. أنـا مثـال حـيّ عـلى فضائـل الشـيخ. لقـد أخرجـني مـن هـوّة الانحـراف! في السـابعة عـشرة مـن عمـري، كنـت لصّـا محترفـا. مـع بعـض أقـراني كنّـا نكـوّن عصابـة! لكـن منـذ مجـيء الشـيخ إلى هـذا الحـيّ اختلـف الأمـر.. تصيّدنـا واحـدا وحـدا، واسـتمع إلينـا ثـمّ خاطبنـا بهـدوء ورفـق. اهتـمّ بتأطيرنـا النّفسـيّ وتكويننـا الرّوحـيّ. جعلنـا نعـود إلى اللـه ونتعـرّف عـلى دينـا، ثـمّ ضمـن لـكلّ منّـا مـورد رزق يمنعـه السّـؤال والسّرقـة. لكـن هـل تعـرف مـا هـي معجزتـه الحقيقيّـة؟ لقـد راهـن عـلى كلّ منّـا بشـكل مختلـف. جعلـني أتعلّـم صناعـة الأقفـال وأنـا الـذي كنـت أحطّمهـا! حـين سـألته في دهشـة كيـف يمكـن للنّـاس أن يثقـوا بلـصّ قديـم لصناعـة أقفالهـم؟ قـال لي، أنـا

أضمنك! ضمنني في وقت لم أكن أضمن فيه نفسي. لذلك جاهدت للبقاء على الطريق المستقيم، حتّى لا أخيّب ظنّه فيّ قبل كلّ شيء.

استمعت إليه في دهشة لم تقدر نظراتي المسحورة على إخفائها، فاسترسل عليّ:

- فعل ذلك مع عشرات الشّباب هنا. العمارة التي أسكنها وكلّ العمارات المجاورة هي على ملكيّة الشيخ المختار، وفي كلّ منها عدد من الشقق الموقوفة لله تعالى، يؤوي فيها ضعاف الحال وطالبي العون والعاطلين من الشّباب. وفي ظرف سنتين من وصوله انخفض مستوى الجريمة في حيّنا بشكل لا يصدّق. ملأ فراغ الشبّاب بالعمل والعلم والرّياضة. فتح نادي حراس العقيدة للرياضات القتاليّة ليتمرّن الإخوة فيه على التّنفيس عن مشاعر الغضب بداخلهم، من خلال إطلاق الطاقات السلبيّة خارج الجسد...

- مشاعر الغضب؟

- طبعا! ماذا تظنّ الشباب المهمش العاطل عن العمل يشعر تجاه المجتمع الذي لا يجد مكانه فيه؟ قبل أن يقدر الواحد منّا على صقل شخصيّته الجديدة، يحتاج إلى طرح مخلّفات حياته السابقة خارجه، بما في ذلك الغضب والحقد والحسد.. بعد أن تجتاز دورة التّكوين الرّوحيّ ستشعر ببرد وسلام داخليّ يطفئ كلّ النيران المضطرمة. عندها ستتمنّى أن يخوض كلّ شخص حولك هذه التجربة العميقة المطهّرة للرّوح ليشعر بما تشعر به.

- يبدو ذلك رائعا!

- بل أكثر!

في تلك اللّحظة، خرج أبو صالح ومن ورائه ليليان. رأيته يرصف صناديق خضراوات أمام المحلّ، بينما قالت ليليان:

- دعها هنا. سأرسل أحد أولاد الجيران لإحضارها.

من دون تفكير، اندفعت تجاهها بشكل عفويّ، وقلت:

- عنك يا خالة..

ابتسمت ليليان في امتنان وقالت:

- ربّما كان من الأيسر أخذها على مراحل.. إنّها ثقيلة.

تجاهلت نصيحتها واحتضنت الصناديق كلّها دفعة واحدة مستعرضا قوّة عضلاتي، وسرت خلفها في صمت مزهوّا. حين وصلت إلى مدخل العمارة الرّابعة، أشارت إلى المصعد وهي تقول:

- من هنا.. أرجوك.

حين توقّف المصعد عند الطابق الخامس، سبقتني إلى الشقة، ثمّ أوسعت لي طريقا باتّجاه المطبخ.

في تلك اللحظة، لمحتها.

كانت تجلس على كرسيّ متحرّك عند الشّرفة، وقد انكبّت تطالع كتابا استقرّ في حجرها، متجاهلة فوضى العالم من حولها. ظهرت أمامي مثل حوريّة من الجنّة، يُختزل مفهوم الجمال في طلّتها البهيّة. لو رأيتها في تلك اللحظة لتساءلت، كيف تكون تلك الفتاة التي ترفع شعرها الأصهب فوق رأسها وتعقصه مثل الجدّات، وتخفي عينيها الخضراوين خلف عدسات نظّاراتها وتدفن وجهها بين صفحات كتاب بتزمّت راهبة، هربا من كلّ الأعين المتطفّلة -مثل عينيّ- والتي قد ترغب في بدء حوار ما مع عينيها، كيف تكون حوريّة؟ فقط هي كانت كذلك بالنّسبة إليّ.. فلا تحاول أن تفهم!

كانت لحظة خاطفة سلبتني لبّي، برهة تأمّل قصيرة قبل أن يعيدني صوت ليليان إلى الواقع وهي تقول:

- شكرا لك يا ولدي.

فهمت أنّها لم تعد في حاجتي، فسارعت في اتّجاه المخرج، كأنّي قد

ارتكبت جرما بالتّطفل على المرأتين ولو من قبيل مدّ يد المساعدة. لكنها مسحت عنّي ذاك الانطباع الخاطئ بسرعة حين قالت:

- هل تتناول معنا كوبا من الشّاي؟

غمرتني رعدة باردة، وتنقّلت نظراتي فجأة إلى وجه الفتاة الصّهباء التي لم تبد عليها المبالاة بوجودي من عدمه، فتلعثمت وأنا أردّ في ارتباك:

- مرّة أخرى سيدتي.. مرّة أخرى..

حينئذ، رفعت جميلتي عينيها وابتسمت!

غادرت الشّقة مرغما وقد خلّفت قلبي عند قدميها فاقدتي الحركة. ابتعدت عن العمارة بخطوات مضطربة، وقد انهمكت كلّ خلايا دماغي في مهمّة تسجيل تلك الابتسامة الرّقيقة الّتي خصّتني بها الفتاة المقعدة. في ثوانٍ انتقلت من كآبة التّجاهل إلى نشوة الحظوة! كأنّ كلّ حركة بسيطة تنمّ عنها تولّد عاطفة ما بداخلي! تمنيّت سرّا لو تتحدّثان بشأني، لو تُثني ليليان على صنيعي، فتستحسن ابنتها الأمر وتقول: فلنستفد من خدماته، ﴿إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾. تمنّيت لو أجد مبرّرا، أيّا كان، لأتردّد على تلك الشقّة مرّات أخرى، وترفع رأسها وتنظر إليّ من جديد.

انتفضت حين شدّني عليّ من ذراعي على حين غرّة:

- من الأفضل أن تتجنّب حركات الشهامة مع تلك المرأة في المرّة القادمة.. لا تنسَ أنّها كافرة.

حدّقت فيه مصدوما ولم أعلّق، فاستعجلني صاحبي الذي لم تبدُ عليه أيّ علامات المزاح:

- من هنا.. الشيخ المختار بانتظارنا.

*****

نحـن عائلـة الشـاوي، فينـا هـوى الأجنبيـة. أكاد أجـزم أنّهـا سـمة وراثيـة تتناقلهـا الجينـات. منـذ أجيـال، تختلـط نطفنـا بنطـف مـن شـتى الملـل.

أمـا جـدّك، فقـد كان أوّل عهـده بالإنـاث يابانيـا! تـزوّج بسـاكورا في فرنسـا، ولبـث معهـا مـدّة سـبع سـنين.. لـم تثمـر نسـلا يشـدّ وثاقـه إليهـا. لذلـك، حـين طلبـت السـفر إلى بلدهـا، لـم يجـد صعوبـة في تسريحهـا سراحـا جميـلا. لـم تدمـع عينـاه وهـو يودّعهـا في مطـار باريـس شـارل دو غـول، لكنّـه اسـتمرّ يذكـر أيّامهـا بحـسرة وحنـين حـتّى وفاتـه، بشـكل كان يثـير غـيرة جدّتـك إلى أبعـد الحـدود. لـم يكـن لدينـا شـكّ في حبّـه لهـا، وكثـيرا مـا سـألناه في فضـول عـن سـبب طلاقـه منهـا.. فهـل يعقـل أن يتفارقـا لمجـرّد رغبتهـا في رؤيـة أهلهـا باليابـان؟ أذكـر ملامحـه الآن، حـين تغيـم عينـاه وتسـودّ سـحنته، وهـو يقـول بلهجـة قاطعـة: لسـت أركـب طائـرات ولا أتـرك حرمـي تركـب الطائـرات!

ورغـم غرابـة السـبب وبعـده عـن المنطـق، فلـم يكـن بوسـع أحدنـا إلا أن يسـلّم بـه. فجـدّك ظـل وفيـا لعهـده، فلـم يركـب الطائـرة يومـا، رغـم سـفره المتكـرّر إلى فرنسـا ومنهـا. ثـمّ حـين تـزوّج أمّـي التونسـيّة، لـم يُطـرح موضـوع الطائـرة بتاتـا. ورغـم كونهـا تعـود أهلهـا عـبر الـبرّ، فإنّهـا لـم يكـن يرافقهـا في رحلـتي الشـتاء والصيـف، حـين تشـدّ الرّحـال إلى «القصريـن» حيـث مسـقط رأسـها. أمـا إن شـئت رأيي، فـإنّي أعتقـد أنّ أبي خـاف أن تهجـره سـاكورا أو أن يمنعهـا أهلهـا عنـه، واليابـان بعيـدة الشـقة مجهولـة الثنايـا، ومـا لـه أن يبحـث عنهـا هنـاك أو يلحـق بهـا، ففضّـل قطـع الأمـل عـن طولـه مـع إمكانيـة الخيبـة.

حـين رجـع أبي مـن فرنسـا ليسـتقرّ في تبسـة، دعـاه صديـق تونـسيّ - كان قـد عـاشره طويـلا في الغربـة- لزيارتـه حيـث يقطـن مـع عائلتـه في القصريـن. أثمـرت تلـك الزّيـارة خطبـة وتوطيـد علاقـة بالنسـب. تـزوّج أبي شـقيقة صديقـه الـتي رآهـا ملتحفـة تـكاد تخفـي نصـف وجههـا وهـي تضـع «قصعـة الكسـكسيّ» بلحـم الخـروف أمامـه عـلى أرضيّـة المجلـس المفروشـة. قـال في ثنـاء: نعـم التربيـة ونعـم الطبيـخ، فـردّ صاحبـه مـن فـوره: ونعـم النسـب نسـبكم!

كان ترتيب الزّواج أشبه بمصيدة وقع فيها أبي عن طيب خاطر. كان طلاقه حديثا وجرحه غائرا، لكنّ موضوع الزّواج الجديد لقي استحسانا منه. امرأة أخرى هي كلّ ما لم تكن عليه ساكورا المتحرّرة! كان يكبر أمّي بعشرين سنة أو يزيد. كان قد جاب الدّنيا وخالط الأجانب وعرف النّساء في الشّرق والغرب، وهي كانت قطّة مغمضة العينين! لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة، طفلة تلهو في الحوش مع أترابها، وتلتحف كما تقتضي التقاليد حين تدخل على الرّجال الأجانب، فتبدو أنثى كاملة النضج. حين رجع أبي بعد شهور قليلة إلى تونس مع عشيرته لإتمام تراتيب الزوّاج، لم يرحل عمّي إلا وقد خطب شقيقة العروس!

كان طبع أمّي طيّعا مسالما، ومزاج أبي ناريّا متقلّبا.. وكثيرا ما آذى طيبتها وأبكى مقلتيها، فتبيت مكوّرة على ذاتها منكفئة على حزنها، في ركن المطبخ، لا سند تشكو إليه ولا كتف تبكي عليها. أمّا خالتي، فقد كانت قويّة الشّخصيّة، سليطة اللّسان، وعمّي طوع بنانها! فسبحان الذي جعل كلّ واحدة ترتبط بنقيضها! كانت جدّتي تقول إنّ نار أبي تطفئها دموع أمّي، وتسلّط خالتي تبرئه ابتسامة عمّي المتسامحة.. ورغم تعاسة أمّي البادية للعيان، فقد كانت جدّتي راضية عن قسمة أولادها من النّساء. حين انضمّت خالتي إلى عائلة الشّاوي، تكافأت الجبهتان. وطويلا بعد رحيلها، سيظلّ أهل البلدة ينادون عالية وأخواتها «بنات التونسيّة»! رغم كون أمّي تونسيّة أيضا، ونحن أبناءها أبناء التونسيّة، فإنّ البصمة التي تركتها خالتي في بلدتنا الصّغيرة كانت أبلغ من حياة أمّي كلّها بهدوئها الذي يجعلها شبه خفيّة، لا تكاد تلحظ، وحزنها الرّقيق الذي لا يعيره أحد اهتماما.

*****

لـم أسـتطع أن أرفـض الدّعـوة في المـرّة الثانيـة. رغـم تحذيـر علـيّ، فقـد تجـرّأت عـلى مرافقـة ليليـان إلى شـقّتها ذلـك اليـوم.

منـذ تطوّعـت بأعمـال التنظيـف في المجمـع السـكنيّ، صرت أراهـا بشـكل يومـيّ. كانـت تمـرّ بي صباحـا حـين تخـرج لقضـاء حاجاتهـا، فأرافقهـا عـلى اسـتحياء حـتّى بـاب المصعـد حامـلا عنهـا الأكيـاس ثـمّ أعـود إلى مهامـي مسـتعجلا قبـل أن يلمحـني علـيّ أو يـشي بي إليـه أحـد رفاقـه، فيعيـد عـلى مسـامعي نفـس الملاحظـة عـن مخالطـة الكفّـار! ثـمّ أراهـا قبـل الغـروب بسـاعة، حـين تخـرج برفقـة ابنتهـا.. ديانـا. تدفـع كرسـيّها المتحـرّك وتسـير بهـا في جولـة عـبر الحديقـة الظليلـة. تلقـي علـيّ التّحيّـة ثـمّ تمـضي في حـال سـبيلها، لكـن عيـنيّ لـم تكونـا تسـتقرّان وأنـا أعلـم أنّهـا في الجـوار. أظـلّ أتلفّـت في انتبـاه علّـي ألمحهـا مقبلـة مـن ممـشى أو مـن آخـر. أطيـل المكـوث خارجـا، فـلا أقصـد الفصـل إلا حـين يظهـر أوّل طـلابي. لا، لـم أكـن أراقـب ليليـان الخمسـينية، بـل ديانـا الصّهبـاء الحلـوة الـتي انفكّـت عقـدة ابتسـامتها، فباتـت تكافئـني بهـا كلّمـا تطوّعـت لمسـاعدة والدتهـا. فأحـسّ بحـرارة غريبـة تصعـد إلى رأسي وتلهـب وجنـتيّ، كأنّي عـذراء حييّـة!

لعلّـه ليـس مـن اللائـق في عـرف العلاقـة بـين الآبـاء والأبنـاء أن أحدّثـك عـن مغامـراتي العاطفيّـة، لكنّـني أفـترض أنّـك وقـد تسـلّمت رسـائلي قـد غـدوت شـابّا راشـدا.. وأفـترض أيضـا أنّـك تصـارح والدتـك بحكاياتـك مـع الفتيـات منـذ صرت مراهقـا، فمعظـم الأولاد ينفتحـون أمـام أمّهاتهـم حـتى لـو كان آباؤهـم عـلى مقربـة. ولأنّـني أتوقّـع أيضـا أنّ القـدر لـن يمهلـني حـتّى أرقبـك مـن كثـب مراهقـا وراشـدا، فـإنّي أريـد لعلاقـتي بـك أن تكـون مختلفـة عـن العلاقـات الدّارجـة في عرفنـا بـين الابـن وأبيـه.. سـأكون لـك أبـا متفتّحـا، يصارحـك بـكلّ شيء ويتحـدّث في التّفاصيـل الـتي يتجاهلهـا الآبـاء عـادة.

أبي كان مـن النّـوع المغلـق تمامـا. صنـدوق أسـود يبتلـع العواطـف، لا يظهـر محتـواه إلا حـين تطيـح بـه عاصفـة غضـب. كنـت أحترمـه لاحـترام النّـاس لـه، وأخـاف منـه. لكـن هـل كنـت أحبّـه؟ وهـل يملـك الولـد إلاّ أن يحـبّ والـده؟ لا

أدري.. ربّما تغيّرت عاطفتي تجاهه منذ مقتله، فنمت بداخلي عقدة ذنب تحوّلت حبّا جارفا للرّجل الذي مات وهو يحمي عائلته، ودفع ثمن جبن ولده الوحيد. لكنّني أريد لك أن تحبّني! لا عن خوف أو ذنب، ولكن لما أنا عليه.. لما ستعرفه عنّي، ولما سأبادلك إيّاه من أسرار تجمعنا فقط أنا وأنت من خلال هذه الأوراق. أريد لعلاقتنا أن تكون مبنيّة على التفهّم والصّراحة.. إن أمكن لنا أن نطلق على هذا الحوار أحاديّ الجانب علاقة.

إذن فلتعلم أنّ أباك كان قليل الحظّ مع الحبّ! لم تكن أنثى قد ابتسمت في وجهي من قبل. بلى، عالية ابنة عمّي كانت تبتسم. لكن هل عالية أنثى؟ طبعا هي أنثى من حيث تكوينها الجسديّ، لكنّها ليست في أنوثة ديانا. ليست في رقّتها وعذوبتها وحلاوة صوتها.. ليست صهباء منمّشة الوجنتين، ليست بيضاء البشرة إلى حدود الشفافية، ليست ملوّنة العينين. لم تكن الملامح الأوروبية تنتمي إلى مقاييس الجمال لديّ، لأنّني لم أكن أطمع في أن تنظر إليّ أنثى أوروبيّة يوما. لكن ديانا نظرت وابتسمت. الأميرة ديانا. وأشرقت الدنيا في عينيّ منذ ذلك الحين. نعم، كان تقييمي لديانا في بداية الأمر جسديّا بحتا. أسمعك تقول: يا للسطحيّة! ولست أعترض!

أمّا عالية، فقد طاردني خيالها بإلحاح أكبر في تلك الفترة. كأنّ نظرتي إلى غيرها توقظ داخلي ذكراها. عالية كانت دوما «رجل العائلة»، مثلما صارت أمّي رجل العائلة بعد رحيل أبي. عمّي لم ينجب إلا البنات، وعالية كانت كبراهنّ. تعلّمت الفروسيّة والصيد بالبندقيّة وتوحّشت نظراتها. لكنّ عالية بنت الجبل، بنت التّونسيّة سليطة اللّسان، كانت تلين وتبتسم إذا رأتني.. لأنّي رجلها. هكذا علموها وعوّدوني. رغم أنّي لم أفعل شيئا يفسّر على هذا النّحو ولا خطوت خطوة واحدة في اتّجاهها. كانت تكبرني بسنتين. يطاردنا عقد شفوي بين أخوين، في بهجة ولادة الذّكر الذي سيخلّد اسم العائلة.

كاد الاتّفاق يذهب أدراج الرّياح حين تعكّر صفو العلاقة بين الشقيقين. الأحداث التي هزّت البلاد رمت شرارة شقاق بينهما. عمّي كان مناصرا

للإسلاميّين.. وأبي يكنّ لهم عداوة ضارية! يستمرّ السّجال بينهما لساعات، كلّما طغت المستجدّات السّياسيّة ورمت أطنابها في عقر حياتنا اليوميّة. حتّى وصل بهما الأمر إلى قطيعة كاملة. بكى عمّي كثيرا حين رحل أبي عن الدّنيا من دون أن يسامحه. ثمّ جدّد العهود القديمة أمام أمّي وأخواتي. أقسم ألا يفرّط فينا، واستحلف أمّي ألا ترحل إلى تونس وتحرمه منّا.. وأن تعطيه الفرصة حتّى يكفّر عن ذنبه تجاه الفقيد. وهكذا عادت عالية خطيبتي بعد فكاك وقتيّ. لكنّ خيبة الفارس المنتظر طالت ولم يفلح في تأمين مستقبله! أمّي قالت إن أحدا لن يخطب عالية لأنّ ابن عمّها أحقّ بها. وأنا أتمنّى أن يتقدّم إليها أحد في غيابي ويريحني من تلك المسؤوليّة تجاهها وتجاه عمّي! ليس لأني لا أطيق عالية، إطلاقا! هي مليحة بالمقاييس المحلّية، حلوة المعشر وصاحبة نكتة. لكنّها امرأة قوية يرهبها الرّجال، فما بالك بي، وأنا ابن المدينة مدلّل شقيقاتي ووالدتي؟ فلأعترف، لم أكن ندّا لها! لم أكن أريد أن أصير مثل عمّي.. زوجا منقادا، رغم أنّه أحبّ خالتي بصدق ورفض الزّواج بعدها.

حين مرّت بي ليليان ذلك المساء، لاحظت حركتها البطيئة التي تنمّ عن التّعب. لا أدري كيف واتتني الجرأة فعرضت عليها أن أدفع عنها الكرسيّ وصاحبته! تركت إليّ المهمّة عن طيب خاطر وجلست تستريح على مقعد حجريّ بالسّاحة.

سرت لدقائق أدفع الكرسيّ في صمت، وأنا أشعر بقلبي يكاد يقفز إلى حلقي. أتأمّل خصلاتها البرتقالية المائلة إلى الحمرة في أصولها وأتساءل كيف يكون ملمسها؟ من حيث أقف كنت أرى شعرها وكتفيها الضئيلين لامرأة رقيقة تحتاج إلى حماية. تراءت أمام عينيّ قامة عالية الفارعة ومشيتها الوئيدة الثابتة التي تدلّ على الاكتفاء الذّاتي، وكفّها الخشنة التي أمسكت بزمام الخيول منذ الصغر، وقلعت الأعشاب وجمعت الزيتون.

- كيف وجدت باريس؟

كانـت هـي مـن بـادرني بالحديـث. مـن حسـن حظّـي أنّهـا لـم تلتفـت. تحدّثـت وهـي تنظـر إلى الأمـام فلـم تلحـظ احمـرار وجنـتيّ الشـديد.

- أمّـي قالـت إنّـك وصلـت إلى المنطقـة منـذ وقـت قريـب.. آمـل أن تكـون قـد وجـدت راحتـك.

تسـارعت أنفـاسي وأنـا أبحـث عـن الكلمـات في رأسي الفـارغ. تحـرّك لسـاني في فمـي وانفرجـت شـفتاي، لكـنّ الارتبـاك قـضى عـلى كلّ أفـكاري. كان يجـب أن أتكلّـم وإلا حسـبتني غبيـا، لكـنّ حالـة مـن الخجـل المكبّـل سـيطرت عـليّ. كنـت طليـق اللّسـان، متمكّنـا مـن اللغـة الفرنسـيّة ملمّـا بقواعدهـا. لكنّـني في تلـك اللحظـة خشـيت ارتـكاب خطـأ نحـويّ واحـد أو نطـق حـرف علّـة بصـورة منحرفـة مـا يجعلهـا تسـخر مـني وأسـقط في نظرهـا! بعـد جهـد وتركـيز شـديدين، خـرج صـوتي جـادّا متكلّفـا بشـكل مجحـف. قلـت باقتضـاب:

- كلّ شيء على ما يرام. شكرا لسؤالك.

في اللحظـة الموالـيـة، كنـت ألعـن نفـسي في سرّي عـلى اللهجـة الجافـة الـتي غلّفـت كلمـاتي القليلـة. وأدركـت أنّـني أفسـدت كل شيء حـين اختـصرت بدورها:

- هذا جيد.

عـادت لتـسرح بنظراتهـا بعيـدا ولـم تقـل شيئا بعدهـا. لذلـك، حـين عدنـا إلى نقطـة الانطـلاق حيـث خلّفنـا ليليـان تسـتريح، كنـت مسـتميتا للحصـول عـلى فرصـة إضافيـة تعـوّض عـن غبـائي السّـالف! حـين عرضـت عـليّ ليليـان تنـاول الشـاي معهمـا، وافقـت عـلى الفـور. كان عـليّ أن أصحّـح الانطبـاع الـذي خلّفتـه لديهـا، كأنّ حيـاتي تتوقـف عـلى ذلـك.

- رائحة زكيّة.. تذكّرني بشاي والدتي!

كانـت ليليـان قـد جلسـت قبالـتي بعـد أن وضعـت الشـاي عـلى النّـار. وكنـت قـرّرت أن أكـون لبقـا مهمـا كلّفـني ذلـك.

- أنت ولد طيّب. حفظ الله والدتك وحفظك لها.

غابت ابتسامتها فجأة وهي ترمقني بنظرة متردّدة:

- اصدقني القول يا بنيّ.. ما الذي جاء بك إلى هنا؟

تراجعت كلّ الثقة المستعارة التي غلّفت حركاتي منذ حين. ألقيت نظرة على ديانا التي تجلس قبالة الشّرفة، منشغلة بتقليب صفحات كتابها. تردّدت لحظة. أحسست بوقع السّؤال الفاصل الذي سيجعل حياتي شفافة أمام عينيها. ثمّ استجمعت شجاعتي وأنا أمضي في سرد حكايتي.. الغرق، الرّصاصة، التشرّد، الألم والإدمان.. ليست سيرة ذاتيّة اعتياديّة يعرضها شابّ يرغب في ودّ فتاته! لم ترفع رأسها ولم تقل كلمة واحدة، لكنّني لمحت حركة كفها وهي تخفي دمعة سالت عند طرف عينها. حافظت على الصّمت لبضع دقائق، تحاول طمس علامات تأثرها، لكنّ صوتها بدا مبحوحا حزينا وهي تسأل بارتباك:

- الرّصاصة.. هل تشعر بها الآن؟

ابتسمت، وأدركت أنّي أحرزت بالصّدق والصّراحة نقاطا أكثر ممّا حاولت تحصيله بالتصنّع والتكلّف. قلت:

- منذ بدأت في العلاج مع الشيخ المختار، أصبحت أعيش حياة شبه عاديّة. لم يظهر شبح الرّصاصة منذ فترة...

قاطعتني ليليان في اندفاع:

- المختار لا يؤتمن جانبه! من الأفضل أن تعرض نفسك على طبيب حقيقي!

حين قرأت علامات التوهان في ملامحي تنهدت ثمّ أردفت موضحة:

- هؤلاء الشباب عرفتهم منذ سنين.. كانوا أطفالا مرحين. يرتكبون الأخطاء، لكنّهم يحبّون جيرانهم ويعاملونهم باحترام. لم يناد‌ني أحدهم بالكافرة قبل مجيء ذلك الشيخ!

همهمت مستنكرا:

- لكن الشيخ المختار.. لو تعلمين كم هو رجل طيب!

- أعلم جيّدا فضائله. أعاد الشباب المنحرف إلى الطريق المستقيم وأعطى لكلّ منهم مهنة شريفة. لكنّه جعلهم أيضا أشخاصا متعصبين ومنغلقين. انظر إلى مظهرهم كيف صار.. كأنّهم يتعمّدون البروز بشكل مختلف، لتكريس القطيعة مع حياتهم السّابقة.. ومع المجتمع كله!

رفعت كفّي في حركة لاإراديّة لألمس أطراف لحيتي الآخذة في النموّ. لم أحلقها منذ أسابيع، ليس لقناعة ما، وإنّما لأنّ الفرصة لم تسنح. لاحظت فجأة أنّني أصبحت أشبههم. تلك اللحيّ الناشزة التي يتعمّدون تركها من دون تهذيب هي من علاماتهم المميّزة.

تابعت ليليان في شيء من الحزن والحنين:

- ذلك الشاب الذي يشاركك السّكن.. عليّ. كبر مع ديانا ابنتي في بيت واحد. كنت أعهد بديانا إلى والدته حين كنت أعمل. عائلته كانت تعاني بعض المشكلات الماديّة، فكنت أحاول أن أمدّ يد العون بتكتّم.. أشتري له ولإخوته الهدايا والثياب في رأس السنة، وحتّى في أعياد المسلمين. حين ناداني يا «كافرة» غلبتني الصدمة!

أخرجت صليبا فضيّا من طيّات ثيابها، كان يتدلّى من سلسلة رقيقة حول عنقها وقبّلته في خشوع قبل أن تضيف وعبرات محبوسة تتلألأ في عينيها:

- نحن أيضا مؤمنون يا ولدي!

مضت ربع ساعة تجاذبنا خلالها أطراف الحديث. استدعيت من ذاكرتي حوادث شتّى مسرحها الجزائر ومرسيليا وليون. وجدت العفويّة طريقها إلى لساني وتخلّصت من لجام الخجل. وانحسر تحفّظ ديانا واسترسل بيننا الكلام. حين دخلت ليليان بعد أن حضّرت الشّاي، كانت ديانا تضحك. وكانت ضحكتها مثل نوتة موسيقيّة هشّة تربّت على جدار قلبي. رمقتها والدتها في دهشة، وقد قرأتُ في عينيها حينها فرحة عارمة. علمتُ في ما بعد

أنّ ديانا لم تكن قد ضحكت بتلك الطلاقة منذ سنوات. وقد أحسست حينها أنّني أخيرا قد أدّيت رسالتي في هذا العالم.

كان كلّ شيئا مرسوما بدقّة حتّى تجتمع طريقانا. كان لزاما عليّ أن أواجه الموت مرّة بعد مرّة، فأنجو من الرّصاصة وأحملها في رأسي وأنجو من الغرق والعاصفة وأعبر فرنسا من جنوبها في اتّجاه العاصمة، لأكون سببا في ضحكة من القلب تشفيها من كآبتها المزمنة. وكان هذا إنجازا كافيا في نظري. يمكنني الآن أن أطوي حصيري، أتأبّطه وأقفل راجعا من حيث أتيت، من دون ذرّة ندم!

قالت ليليان حين كنت أهمّ بمغادرتها عند باب الشّقة، وهي تضغط على ذراعي في رجاء:

- هل يمكنك المرور علينا مرّة أخرى خلال الأسبوع؟

وسأظلّ بعد ذلك بأيّام أتقلّب في فراشي ليلا صريع السّهم الأشدّ فتكا.. تلك الضحكة الرّقيقة الّتي خصّتني بها الفتاة المقعدة، بعد سنوات من العبوس. وخلال الأيّام التي تلت، ستكون لي محطّة شبه يوميّة في الشقة العاشرة من العمارة الرّابعة، حيث ينتظرني كوب شايّ منعنع حارّ، وبسكويت بيتيّ الصّنع، وجلسة عائليّة مريحة.

*****

في تلـك الفـترة، كانـت قضيّـة شـابّ مسـلم متّهـم بتفجـير إرهـابيّ تشـغل الـرّأي العـام. شركـة متخصّصـة في الأبحـاث الكيميائيّـة انفجـر أحـد مختبراتهـا في مسـاء يـوم عمـل، وذهبـت ثلـة مـن الباحثـين الشـبّان ضحيّـة العمليّـة. المتّهـم كان باحثـا ضمـن موظّفـي الشركـة، وقـد نجـا مـن التفجـير -الـذي يقـال بكونـه انتحاريّـا- بأعجوبـة. لـم تكـن القضيّـة تشـغلني بشـكل خـاصّ، لكـنّ عليّـا والمختـار وشـباب المجمـع السّـكني كانـوا يأتـون عـلى ذكرهـا باستمرار، حـتّى إنّ الشيخ أفـرد لهـا خطبـة جمعـة في مسـجد المجمـع الـذي يـؤمّ المصلّـين فيـه بنفسـه. وقـد بـدا أنّ شـقاقا مـا طـرأ بسـببها. فالبعـض يؤيّـد ويدّعـي أنّ فرنسـا تسـتحقّ بعـض الضّربـات الموجعـة، لقانونهـا المانـع للحجـاب ولتضييقهـا عـلى الملتحـين ومضايقتهـا لـروّاد المسـاجد.. والبعـض الآخـر يرتـئي التريّـث والمسـالمة، ويرفـض الـرّدود العنيفـة. ومـن حـين إلى آخـر يصعـد صـوت واثـق يميـل إلى نظريّـة المؤامـرة. مـاذا لـو كان الشـابّ بريئـا ويـراد التضحيـة بـه للإيقـاع بالإسـلام وتشـويه صـورة المسـلمين؟

لـم أكـن مـن أنصـار نظريّـة المؤامـرة في المطلـق، وأنّ الـكلّ يتآمـر علينـا ليهلكنـا ويفسـد علينـا حياتنـا. لكنّـني وبشـكل غريـب كنـت أستسـيغها تلـك الأيّـام أكـثر مـن أيّ وقـت مـضى. في وقـت سـابق مـن حيـاتي الطائشـة، كنـت مـا يسـمّى بالعنـصر المحايـد.. أو حـتّى السـلبيّ. لا أذكـر أنّ قضيّـة شـخص أو شـعب مـا حرّكتـني أو أثـارت حماسـتي. فلسـطين؟ كنـت أسـمع عنهـا بشـكل عابـر. العـراق؟ أظنـني برهنـت في رسـالة سـابقة أنّ أمـره لا يـكاد يعنيـني مـن قريـب أو بعيـد. حـتّى أزمـة الجزائـر الـتي هـزّت مراهقـتي وصنعـت مأسـاتي، فقـد خلّفـت قلـبي رمـادا ينقـم عـلى كلّ الجهـات والجبهـات!

لكـن أن تكـون وسـط جماعـة حـراس العقيـدة طـوال اليـوم، فـإنّ كـثرة

الدويّ ستجعل منك نحلة لا محالة. أسوار العزلة المضروبة حول العمارة الثامنة وما جاورها، والنظرات القلقة التي تصدر من وإلى أهل الصّليب المتاخمة ديارهم، والتأهب التّام الذي كان عليه المختار ورجاله من تدريب على الدّفاع عن النّفس إلى دورات التنمية الذاتية.. كلّ ذلك متراكما فوق تجربة تشرّد وأخرى عامل من الدّرجة الدّنيا في ورشة بناء، جعلني أخلص إلى ذلك الاستنتاج المرير.. لم نكن مرغوبين على الأرض الفرنسيّة! ولم أعد أستبعد أن نرمى -كمهاجرين ومواطنين من الدّرجة الثانية- بكلّ الشّرور على أن نحمل متاعنا ونرحل على الفور!

لذلك تملّكني شعور قويّ -وقد بدا لي صميما نابعا من إيمان ذاتي لا تأثير لعامل خارجيّ فيه- بأنّ الرّجل لا يمكن أن يكون انتحاريّا. فالانتحاريّون غالبا ما يقضون قبل الآخرين. وانتابني إحساس عميق بالشفقة عليه، كأنّه من بعض أهلي! كان رجلا غريبا مثلي وقد مكّنته شهادته العلميّة من العمل في منصب يناسبه، لكنّ أحدهم يعتقد أنّه لا يستحقّ أن يكون هناك، في صفوف العلماء، فاستغلّ حادثة ما ليضرب الرأس العربيّ المزعج!

وفي تلك الأيّام رأيت المختار محتدّا، يصيح برجاله ويضرب بقبضته الطاولة حين يرده جديد بشأن القضية.. ثم يختلي بأبي أحمد وبعض الحراس طويلا في غرفة بالقبو يتداولون أمورا تتجاوزني. ولعلّها تجاوزت حدود الكلام المجرّد، فقد بلغتني أصداء عمليّات حرق ونهب وتشويه واجهات مبانٍ حكوميّة بعبارات تدين العنصريّة...

- أيعجبك ما يفعله أصحابك؟

فوجئت بظهوره أمامي على حين غرّة بينما كنت منهمكا في كنس الساحة. أبو صالح البقّال.

- أصحابي؟

- كلّ الخراب الذي يعمّ المدينة، لشيخك المختار وحرّاسه اليد العليا

فيـه. ودورك قـادم لا محالـة.. المختـار لا يجنّـد أحـدا عبثـا.

لـم أكـن أسـتوعب كلماتـه، ولـم يكـن يـأتي عـلى ذكـر التجنيـد لأوّل مـرّة. لكـنّ أحـداث الأيّـام الماضيـة كانـت تسـبغ عـلى تصريحاتـه منطقـا ومعـنى. ولـم أجـد مـا أدفـع بـه الأذى عـن شيخي الـذي أحـترم وأبجّـل.. فحدّقـت في البقّـال مـن دون كلمـة. حينئـذ أخـذني مـن ذراعـي مـن دون تـردّد وقـال:

- تعال معي.

«إخوتي، أشدّ على أياديكم وأبارك مساعيكم.. فإنّكم والله في جهاد».

دخلنـا مسـجدا صغـيرا، لـم أكـن لأتعـرّف عـلى موضعـه لـولا أن قـادني إليـه أبـو صالـح. كان عبـارة عـن قبـو ضئيـل في عمـارة سـكنيّة قريبـة. بخـلاف مسـجد المختـار الـذي لا تخطـئ العـين قبّتـه العريضـة ومئذنتـه الباسـقة -الـتي لا يرفـع فيهـا أذان احترامـا لقانـون اللائكيّـة- لـم تكـن هنـاك مـن علامـة مميّزة تـدلّ عـلى غرفـة الصّـلاة تلـك. جلسـت مـع مرافقـي في الصّفـوف الخلفيّـة، وأصغينـا إلى إمـام يلقـي درسـا عـلى مسـتمعيه.

«ليـس الجهـاد مقتـصرا عـلى حمـل سـيف أو بندقيّـة. ليـس الجهـاد حكـرا عـلى خـوض الحـروب والـرّوح عـلى الكـفّ. هـذا الـذي أنتـم فيـه يـا إخـوتي، جهـاد أيضـا. جهـاد النّفـس.. أنتـم في بـلاد تكـثر فيهـا الفـتن وتحاصركـم مـن كلّ جانـب، نسـاء كاسـيات عاريـات يتمايلـن في الشـوارع، وموائـد عامـرة بخمـور ومأكـولات محرّمـة، مغريـات ماديّـة وبنـوك ربويّـة. تُصعَّـب عليكـم الصّـلاة في المسـاجد وتُمنعـون عنهـا في وقـت الدّراسـة أو العمـل، تحاصركـم الثّلـوج والأمطـار في الشـتاء، لكنّهـا لا تردعكـم عـن اجتيـاز المسـافات البعيـدة.. مـن أجـل صـلاة في جماعـة، مـن أجـل صحبـة صالحـة، مـن أجـل طاعـة...»

تلفّـتُّ مـن حـولي في اهتمـام، فرأيـت وجوهـا واجمـة غلبهـا التأثـر، بعضهـا يـكاد يدمـع. كانـت كلمـات الرّجـل تلامـس قلوبهـم، كأنّـه يضـع يـده عـلى موضـع الجـرح في نفوسـهم، يتحـدّث عـن همومهـم.. لكـنّ قلـبي كان غائبـا، لعـلّي لا أنتمـي إلى أولئـك المجاهديـن الذيـن مدحهـم الشـيخ للتّـوّ. حـتّى تلـك

اللّحظـة كانـت الحاجـة هـي الـتي تقـود خطـواتي. لـم أقـدم عـلى شيء ينـمّ عـن إرادة أو إيمـان أو قناعـة. كنـت ريشـة في مهـبّ الريـح.

«فالثّبـات الثّبـات يـا إخـوة الإيمـان.. والحـذر الحـذر مـن فخـاخ الغربـة الثلاثـة! الفخّ الأوّل يـا إخـوتي، هـو التّبعيّـة. أن يستلسـم المرء أمـام مغريات الحيـاة في الغـرب وينـسى هويّتـه، فيصبـح واحـدا منهـم.. يعيـش كمـا يعيشـون، ويـأكل ممّـا يأكلـون، ويـشرب ممّـا يشربـون والعيـاذ باللـه. يحسـبون الاندمـاج ضالّتهـم ورضـا المجتمـع غايتهـم، فيتنكّـرون لأصولهـم، يغـيّرون أسـماءهم وأشـكالهم وينسـون أنّ للكـون ربّـا هـو أولى بالطاعـة والخشـية.. وبمـا أنّكـم هنـا اليـوم، فإنّـني لا أحسـبكم منهـم...»

ابتسـم الشـيخ وهـو يلقـي نظـرة شـاملة عـلى الحشـد، يربّـت بنظراتـه عـلى أكتـاف خانـت أصحابهـا نظـرات مذنبـة، أو ذكـرى زمـن ولّى قبـل التّوبـة عكّـرت صفـو اللّحظـة.

«أمّـا الفـخّ الثّـاني فهـو العزلـة. أن يبقـى المـرء في معـزل عـن المجتمـع الـذي يعيـش فيـه. هـو هنـا.. لكنّـه ليـس هنـا. وكلّنـا نسـقط في هـذا الفـخّ غالبـا.. نحـن نعيـش في فرنسـا، لكنّنـا لا نهتـمّ بمشـاغل المجتمـع الفرنـسيّ، نتفـرّج عـلى الأزمـات مـن بعيـد ونقـول «فخّـار يكـسّر بعضـه بعضـا». مـع أنّ المسـلم يجـب أن يكـون عضـوا فاعـلا في المجتمـع.. أيّ مجتمـع كان! بحركيّتـه، باهتمامـه، بانسـجامه، هـو داعيـة. هـو قـدوة. هـو واجهـة للإسـلام. تعلمـون.. حـين تحصـل حادثـة مـا، لا أحـد يصـف مواطنـا فرنسـيّا عـلى أنّـه مـن أصـل «يونـاني» أو «رومـاني» أو «مكسـيكي».. لكـن حـين يكـون مـن أصـل عـربيّ أو إفريقـي، فتلـك الصّفـة هـي الأبـرز والأهـمّ في نظـر المجتمـع بصفـة عامّـة، والإعـلام بصفـة خاصّـة. والقضيـة الـتي تشـغل الـرّأي العـام في أيّامنـا هـذه خـير دليـل! لذلـك فلنجعلهـا صفـة بـارزة في الخـير.. لنجعلهـم يقولـون: عـربيّ أنجـز مشروعـا، أو حقّـق نجاحـا.. لكـن حـذار، فقـد يقودنـا البحـث عـن عرفـان المجتمـع إلى فـخّ التبعيّـة. نحـن لا ننتظـر جـزاء ولا شـكورا عـلى مـا نفعلـه، بـل اللـه هـو المجـازي...»

أخـذ الشـيخ جرعـة مـاء ريثمـا يسـتوعب الحـاضرون العـبرة، ثـمّ أردف بلهجـة جـادّة وصـوت عميـق:

«أمّـا الفـخّ الأخـير والأخطـر فهـو العدوانيّـة واتبـاع العنـف. وهـو أمـر للأسـف تقـع فيـه جماعـات تسـمّي نفسـها بالإسـلاميّة، والإسـلام منهـا بـريء! الإسـلام لـم يقـل اعتـدوا عـلى الآمنـين وروّعـوا المواطنـين. لـم يقـل هـدّدوا وأفزعـوا وعـادوا. وإنّـه ليحزنـني مـا يحصـل مـن حولنـا اليـوم. شـباب في عمـر الزّهـور لا يـكاد يتعـرّف عـلى دينـه، يغـرّر بـه ليدخـل متاهـات العنـف المهلكـة. ألـم يقـل اللـه عـزّ وجـلّ في كتابـه الحكيـم ﴿وجادلهـم بالـتي هـي أحسـن﴾؟ ألـم يقـل ﴿فبمـا رحمـة مـن اللـه لنـت لهـم ولـو كنـت فظـا غليـظ القلـب لانفضـوا مـن حولـك﴾؟ والآيـات الـتي تحـثّ عـلى حسـن الخلـق في مخاطبـة غـير المسـلمين كثـيرة...»

- لكنّـه قـال أيضـا ﴿وقاتلوهـم حـتى لا تكـون فتنـة ويكـون الديـن للـه﴾، وقـال ﴿قاتلوهـم يعذبهـم اللـه بأيديكـم ويخزهـم وينصركـم عليهـم ويشـف صـدور قـوم مؤمنـين﴾...

التفتـت الأبصـار إلى الشّـاب الـذي أخـذ الكلمـة مـن دون اسـتئذان، وبـدت في عينيـه نظـرة تحـدّ سـافرة. تذكّـرت وجهـه عـلى الفـور. كنـت قـد رأيتـه مـرارا في حـضرة الشـيخ المختـار. سرى التوتّـر في الحضـور وقـد توقّعـوا الأسـوأ. مواجهـة بـين مدرسـتين. ابتسـم الشـيخ المحـاضر وقـال للشـابّ:

- ما اسمك يا بنيّ؟ تقدّم إلى الصفّ الأوّل حتّى أراك..

تململ الشاب في مكانه ولم يتحرّك لكنه قال:

- اسمي أسامة..

خمّن البعض أنّ الاسم ليس حقيقيّا، لكنّه اختاره إمعانا في التحدّي.

- أخبرني يا أسامة.. هل تريد أن تحمل السلاح؟ وتقاتل؟

- نعم!

- اذهب إلى فلسطين إذن.. حيث لا شبهة ولا اشتباه!

- أوليست هذه دار حرب أيضا؟

رمقه الشيخ متعجّبا:

- دار الحرب؟ هل تعلم كم مضى من الوقت مذ انطفأت هذه التصنيفات؟ يا بنيّ، نحن الآن في زمن تغيّرت فيه خارطة العالم بشكل كبير. أصبح الإسلام دينا معروفا ومعترفا به في مختلف أصقاع الأرض. يمكن للمسلم أن يمضي أنّى شاء لتقابله المساجد في كلّ عواصم العالم وحتّى أريافها، ولا أحد يقطع طريقه أو يمنعه عن ربّه.. ما عدا عددا قليلا من المناطق المعروفة التي ما زالت أتون الحرب تشتعل فيها. لذلك، لا يا ولدي، لسنا في دار حرب! نحن في بلد استقبل المسلمين المنفيّين من بلادهم التي تدّعي الإسلام وضمن لهم حريّة الدّين والمعتقد وآمنهم على أرواحهم وأموالهم.. اسأل آباءك أو أجدادك، ما الذي جاء بهم إلى فرنسا؟

- لكنّ الوضع اختلف يا سيّدي، ألا ترى كيف صاروا يضيّقون على الملتحين؟ ويمنعون المحجّبات من الدّراسة والعمل؟ ويغلقون المساجد؟ ويتهموننا بالإرهاب؟ ألا يعلنون علينا الحرب بهذا الشكل؟

بدا الشاب محتدّا وقد علت حماسته، فقاطعه الشيخ في حزم:

- هل تعلم كم مسلما تؤوي فرنسا؟ نحن نزيد على الملايين الستة! نحن أكبر عددا بكثير من سكان موناكو وسلوفينيا وألبانيا ولكسمبورغ مجتمعين! عددنا يقارب عدد سكان سويسرا! يمكننا أن نكوّن دولة داخل الدّولة لو أردنا. ولكن هل نريد؟ لو شئنا لاجتمعنا حول رجل واحد.. أو رجال، وحّدنا صفوفنا خلفهم وأوصلناهم إلى البرلمان أو المجالس البلديّة والنّيابيّة. كنّا جعلناهم يوصلون مطالبنا ويخدمون مصالح أمّتنا.. لكن كيف نفعل؟ كيف نفعل ونحن مشرذمون متفرّقون فينا السّلفيّون والحداثيّون والتكفيريّون والمندمجون؟

- سيّدي، البرلمان والمجالس النّيابيّة والدّساتير.. كلّها منشآت وضعية لا يصحّ للمسلم الاحتكام إليها.. مرجعيّتنا هي القرآن والسنّة!

- إذن نقنع الحكومة الفرنسيّة بالقرآن والسّنة حتى تحترم ديننا؟

- نعرض عليهم الإسلام، فإن لم يرضوا قاتلناهم!

قال الشيخ في سخرية:

- اعرض عليهم أن يدفعوا لك الجزية أيضا!

امتقع وجه أسامة في حين سرت موجة ضحك بين الحاضرين، لكنّه تماسك واحتجّ قائلا:

- لا يدفعونها لي.. بل إلى بيت مال المسلمين!

هنا انفجر الضحك بحريّة وانطلاق أكبر وقد أصبح الحوار مثيرا للهزل، فأشار الشيخ بكفّه طالبا الهدوء، ثمّ قال مسترجعا نبرته الجادّة:

- أعلم أنّك تؤمن بما تقول يا بنيّ.. وهذا يؤلمني. أين هو بيت مال المسلمين؟ بل أين هم المسلمون حقّا؟ ثمّ هل تعلم ما هي شروط الجهاد يا بنيّ؟ أوّلها أن يكون هناك عدوان واضح على الأنفس أو الدين أو الممتلكات فيقوم النّاس مدافعين عن بكرة أبيهم، وهو ما يحدث في فلسطين المحتلّة مثلا، وثانيها أن يعلن وليّ الأمر الخروج إلى الجهاد لقتال عدوّ في عقر داره.. فأيّ الحالات تنطبق علينا هنا؟

تلعثم الشابّ ولم يحر جوابا، فتابع الشيخ بحزم:

- نحن في بلاد تحكمها قوانين، وتربطها بمختلف بلاد العالم معاهدات ولوائح.. دخولك إلى الأراضي الفرنسيّة بتأشيرة وحصولك على الإقامة وربّما الجنسيّة يعتبر في عرف هذا العصر بمثابة المواثيق قديما، وإعطاءً للأمان، فإذا آذيت أو اعتديت فقد خنت الميثاق الضمني. إن أردنا البقاء هنا فلنحتكم إلى قانون البلاد ولنبحث عن وسيلة لنُسمع رأينا من خلالها، نخاطب النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة ونوصل للغرب صورة

حسنة عن ديننا.. وإلا فالهجرة! ولكم أن تعودوا غزاة في يوم من الأيّام إن شئتم، بقوّة تخضع الدّولة ولا تعتدي على الآمنين!

حين غادرت المكان وأخذت أتمشى مبتعدا في الظلام، همس أبو صالح إليّ في شماتة:

- سيعود الولد إلى المختار باكيا!

لم أضحك. كنت متخبّطا في داخلي، مثل أسامة أو أكثر. سمعت أبا صالح يواصل:

- هذا الشّباب المسكين مغرّر به.. المختار غسل أدمغتهم! ما يحيّرني هو المختار نفسه.. هل هو مقتنع بما يقول ويفعل، أم أنّ أحدهم غرّر به هو الآخر؟

هتفت باستنكار:

- وهل المختار ولد ساذج حتّى يغرّر به؟

ندّت عن الرّجل ضحكة صفراء، وسبقني باتّجاه المقهى.

*****

حسب تشخيص الدكتور مالك، كنت مصابا بمتلازمة «شلة المقهى». وهو مرض يظهر غالبا عند الذكور في العقد الخامس، لكنني أصبت به في وقت باكر جدّا بسبب بطالتي!

تعرفت على مقهاي الجديد ذات عصر مشمس. كنت أقصد بقالة أبي صالح لكنّه لم يكن في دكانه. كان المحلّ مفتوحا من دون أثر لصاحبه. وقفت في حيرة أتفحّص الشارع، حين لمحته يلوّح لي من بعيد، من شرفة المقهى. على الطريق الرئيسية المؤدية إلى مدخل المجمع السكني، كانت محلاّت خاصّة بالجالية العربية تبدو للعيان. مجزرة لحوم حلال،

بقالة شرقية، محلّ فواكه وخضراوات، دكان حلاّق، مطعم كباب ومقهى نارجيلة! خلاصة ما يحتاجه المقيم العربي حتّى يشعر بأنّ الوطن قد شدّ الرّحال معه وحطّ المتاع حيث يكون! وفي شرفة المقهى ذلك اليوم، تعرّفت إلى شلة المقهى الجديد.

كان مالك تونسيًا في بداية الأربعينات، دكتورا في الطبّ يمارس المهنة في مستشفى خاصّ إضافة إلى عيادة مسائيّة.. لكنّه في الفترة التي عرفته خلالها كان يمرّ بفترة فتور تجاه كلّ شيء. يعيد ترتيب أولويّاته، على حدّ قوله. فأخذ إجازة مفتوحة من كلّ أشغاله وأدمن جلسة المقهى تلك. يقول مازحا: «أنا وأنت أدركتنا المتلازمة قبل الأوان!». فقد كنّا شابّين بين مجموعة من الشيوخ. أبو صالح البقال المغربي وأبو مازن المهندس السّوري المتقاعد وأبو محمّد العسكريّ المصريّ السّابق. وكان هو فاكهة الجلسة وطعمها اللاذع في آن. في غيابه يهبط على جمعنا ملل رهيب. فقد كانت لديه أفكار غير مألوفة ومثيرة للجدل. يلقي بنرده عابثا ليلتقط فكرة عشوائيًا ويشغلنا في تمحيصها طوال الجلسة. وما كان لأمثاله أن يضيعوا أوقاتهم الثمينة مع أمثالنا إلا لسبب مجهول، سيظلّ لغزا بالنّسبة إليّ إلى النهاية.

عن المتلازمة التي اكتشف أعراضها يقول: «شلة المقهى ليسوا أصدقاءك، لأنّك لا تفضفض إليهم، ولا يحلّون مشكلاتك، بل لا يعلمون بوجودها من الأساس ولا يهتمّون.. أنت تدخل عليهم ثقيلا بهمومك، وتنهض من عندهم بنفس الثقل. ولكن يا للعجب، فإنّ كثافة الهموم تنقص بتخلّل المرح لذلك الجسم الصلب المتكتل بعضه فوق بعض، فيغدو محتملا بعد أن كان لا يطاق. وأنت إلى جوارهم، يخالجك إحساس بأنّ همومك قد تلاشت أو خفّت وطأتها.. لكن ما أن تفارقهم وترجع إلى حياتك الأخرى حتّى تتفرّق سحب المرح وتعود الكتل لتتكدّس مثل ذي قبل، فتغرقك الكآبة. هم تمويه وقتيّ يزيّف المشكل ولا يعالجه. تماما مثل المخدّرات!».

وكـم كان محقّـا في توصيفـه. فقـد أدمنتهـا، تلـك الجلسـة، كمـا أدمنـت سـابقاتها في عنّابـة وتبسـة والجزائـر العاصمـة. مـا أن تعـرّف أنفـي عـلى عبـق التبـغ ودخـان النارجيلـة وبلـغ أذني حفيـف ورق اللعـب وضربـات الـنّرد في الصّناديـق الخشـب، حـتّى اسـتحضرت ذاكـرتي تلـك «الحالـة» الـتي توحـي بنـوع مـن «الوطـن»، أحملـه في جـرابي، أطويـه وأخزنـه ثـمّ أنفضـه وأفترشـه مـتى احتجتـه! بعـض الرّحالـة أو المحاربـين القدامـى، كانـت لهـم زوجـات في كلّ مدينـة يقصدونهـا، فـلا يشـعر أحدهـم بوحشـة أو غربـة. وأنـا كانـت لي في كلّ مدينـة تـردّدت عليهـا «شـلّة مقهـى» تبـدّد سـأمي ووحـدتي.

لكـن شـلّة المقهـى الجديـدة كانـت مختلفـة. فلـم يكـن هنـاك مـن قاسـم مشـترك يجمعـني بأفرادهـا، غـير الجلسـة الـتي نحتاجهـا بنفـس القـدر وبنفـس درجـة الإلحـاح. ومـع ذلـك، فسـتحملني الأيّـام المقبلـة إلى تركهـا فـترة طويلـة قـسرا لا طواعيـة.

أمّـا في ذلـك اليـوم، وبعـد زيـارة مسـجد الشـيخ البشـير تلـك، أعـاد أبـو صالـح روايـة تفاصيـل المناظـرة بـين الشـيخ وتلميـذ المختـار عـلى شـلة المقهـى. فضحكـوا وضجّـوا بمـزاح لاذع عـن المختـار وفرقتـه. فانزويـت عنهـم مسـتاءً. هتـف أبـو مـازن يناوشـني:

- إحساسي يقول إنّ المختار يدسّك علينا لتحمل إليه الأخبار!

ولـم يكـن ذلـك النـوع مـن المـزاح يمتعـني. وكأنّمـا أشـفق الدكتـور مالـك عـليّ ممّـا يعتريـني، فانتحـى بي جانبـا وقـال بلهجـة جـادّة:

- دعك منهم وتعال.. أريد أن أقصّ عليك حكاية.

*****

«في زمن ما، كانت هناك سفينة تعبر الأطلسي. فلنقل إنها باخرة كبيرة مكونة من ثلاثة طوابق.. وطابق رابع في أعماقها السّفلية لا يكاد يعرف عنه أكثر الرّكاب شيئا..»

قاطعت حكاية الدكتور مالك مستفسرا:

- سفينة مثل التايتانيك؟

- إن كانت صورة التايتانيك تساعدك على التخيّل، فلنقل إنها كذلك. في الطابق العلويّ من الباخرة يسكن علية القوم، أمراء ورجال أعمال وسياسيّون يستمتعون بجولة بحريّة مع عائلاتهم.. لكلّ منهم جناح خاصّ واسع الأرجاء. وفي الطابق الأوسط نجد موظفين سامين وأطباء ومحامين ومهندسين يسكنون قمرات صغيرة الحجم محدودة الرفاهية. ثمّ في الطابق السّفليّ أفراد من الطبقة الكادحة، خدم لمسافري الطبقة المخمليّة أو عمّال على متن الرّحلة، ولا شك أن أولئك الأفراد كانوا ينامون على أسرّة متلاصقة في فضاء مفتوح. لكنّ أمورا غير متوقعة حصلت في أثناء عبور الأطلسيّ..

- الباخرة اصطدمت بجبل جليد؟

- انس التايتانيك قليلا.. باخرتنا لم تتحطّم، ليس في البداية.. لكنّها دخلت مثلث برمودا.

- هذا أسوأ! السّفن لا ترجع أبدا من ذلك المكان، تختفي ولا يجد لها أحد أثرا!

- قبل أن نكمل القصّة، دعني أقدّم لك أبطال الحكاية.. من بين كلّ ركاب الباخرة سنهتمّ بثلاثة أشخاص، فلنسمّهم (أ) و(ب) و(ج).. (أ) من الطبقة العليا، ابن أحد المسؤولين الكبار في بلاده وكان يمضي شهر عسل مع عروسه على متن الباخرة.. أمّا (ب) فهو من الطبقة الوسطى، مهندس ميكانيكا، وكان مكلّفا بمراقبة المحرّكات طوال الرّحلة. وأمّا (ج) فهو سجين

محكوم بالإعدام كان يتمّ نقله من سجن إلى آخر في زنازين مهيئة في قبو السفينة.

عندما مضى وقت طويل على الباخرة وهي تسير على غير هدى، بدأ الرّكاب في التململ والتساؤل. فاضطرّ القبطان إلى إعلان فقدانه المسار! عمّ هرج كبير وارتبك الجميع، في حين واصل طاقم السفينة محاولات التواصل مع سفن أخرى عبر الرادار، من دون جدوى. في ظل تلك الظروف الحرجة كان على أحدهم أن يمسك بزمام الأمور. اقترح (أ) تكوين خليّة أزمة تدير شؤون الباخرة وتقرّر خطّة تحكّم في الموارد المتوافرة في مخازن الغذاء والدّواء، لضمان تواصل الحياة على متن الباخرة أطول وقت ممكن. لقي الاقتراح ترحيبا كبيرا، وتكوّنت الخليّة على عجل. وكان من الطبيعيّ أن يكون كلّ أفرادها من مسافري الطابق العلويّ، فهم متعوّدون على اتخاذ القرارات ووضع الخطط. كما تمّت الاستعانة بذوي الخبرات من مسافري الطابق الأوسط ومن بينهم (ب). وتكوّن بالتوازي مجلس أعلى يراقب عمل الخليّة ويقيّمه، وهو يضمّ كبار رجال الأعمال، إضافة إلى القبطان نفسه. بعد فترة وجيزة من بداية عمل الخلية، قرر المجلس تسريح (ب)!

- لماذا (ب) بالذات؟

- حين طُلِب من (ب) تقديم رؤيته للأزمة أمام المجلس الأعلى، اقترح بكلّ جسارة أن تضمّ الخليّة ممثّلين من الطابق السّفلي! أوليسوا ركابا على متن الباخرة ومصيرهم من مصيرها؟ إذن من حقّهم أن يكون لهم ممثلون يضمنون حقوقهم، فلا يكون هناك إجحاف في توزيع المؤن مثلا. موقفه وقناعاته كلفته مقعده في الخليّة ومنعت عنه امتيازاته السّابقة كفرد من طاقم الباخرة. فما كان منه إلا الانضمام الفعليّ إلى أهل الطبقة السفليّة، والتحريض على مظاهرات واحتجاجات مطالبة بحقّهم في تقرير مصيرهم. قاد المظاهرات والتحرّكات التحرّرية للمطالبة بالمشاركة في اتّخاذ القرار، حتّى رضخ المجلس الأعلى! ولم يكن للمجلس خيار آخر. فقد خرجت

الأمور عن سيطرته حين امتنع الخدم عن تأدية أعمال التنظيف وتوقّف الطبّاخون عن خدمة مطعم الطبقة العليا الفاخر.. وأضرب البحّارة والملاّحون. فقبل المجلس الأعلى بحصول أفراد من الطابق السفليّ على مقاعد في مائدة خليّة الأزمة.

- جميل...

- كان ذلك ليكون جميلا حقّا، لو كانت نوايا المجلس الأعلى دعم ديمقراطية فعليّة، لا تكميم أفواه المحتجّين وإخماد ثورتهم بإطعامهم فتاتا من الحريّة! وقد ندم المجلس ندما شديدا في ما بعد حين كشفت استطلاعات الرّأي عن شعبيّة مرتفعة لجماعة (ب) وتراجع لشعبيّة ممثلي الطبقة الراقية بين أبناء الطبقة نفسها. انقسم أعضاء المجلس الأعلى إلى استئصاليين كانوا يريدون دفع جماعة (ب) إلى الثورة ليتسنى لهم قهر «الحركة الثورية» ومن ثمة حلّ الحركة نهائيا.. وعقلانيّين، كانوا يعتقدون دائما في إمكانية تدجين الحركة، وأنّ اللجوء إلى التدخّل بالقوة لا ينبغي أن يتمّ إلا في حالات الضرورة القصوى. ولمّا كان عدد الاستئصاليين أكبر وشوكتهم أقوى، فقد تمّ تنفيذ مخطّطهم.

انكبّت قوات الأمن على بعث حركة متطرّفة مسلحة من العدم، مستخدمين السّجناء الذين كان يتمّ نقلهم على الباخرة! انتقيت من ضمن هؤلاء المساجين عناصر مطواعة وموثوقة، أعلنت استسلامها واعتزامها تنفيذ المطلوب منها من دون أدنى حرج أو ضمير، ما دامت تضمن لها الحريّة في ما بعد! تمّ إطلاقهم على سطح الباخرة، برئاسة (ج)، حاملين راية «الجناح العسكريّ المسلّح لحركة (ب)»! والهدف الأوحد هو إعطاء انطباع للرأي العام بأن حركة (ب) بكاملها تسعى إلى فرض سيطرتها على الباخرة باستعمال القوّة. أخذوا يجوبون سراديب السفينة طولا وعرضا ويقنعون الرّكاب بضرورة رفع السّلاح في وجه الاستبداد. كانوا ينجحون في تجنيد ذوي الفكر المتطرف والأيديولوجيا المتشدّدة السّاخطين على أوضاعهم.

لكـنّ المسـار الـذي اتخذتـه الأحـداث كان يمـضي باتجـاه هاويـة سـحيقة. كانـت عمليـات اسـتخدام المجرمـين والسـجناء قـد تفاقمـت وأُخِـذت بتهـاونٍ، بشـكل خـرج عـن السّـيطرة. ووقفـت خلايـا التجسـس عاجـزة بعـد أن غـدت غـير قـادرة عـلى تميـيز «عملائهـا»! كان لـكل عضـو مـن المجلـس الأعـلى عمـلاؤه الخاصّـون بـه، وكلّ طـرف كان يعتقـد أنـه يتعامـل مـع إرهابيـين حقيقيـين، في حـين أن هـؤلاء الإرهابيـين كانـوا عمـلاء مجنديـن مـن قبـل طـرف آخـر! وأغلـق الأمـر عـلى مصالـح الأمـن كافّـة، وقيـادات حركـة (ب)، وعـاث الإرهابيّـون الحقيقيّـون والمجنّـدون في السـفينة فسـادا!

وفي خضـمّ ذلـك الالتبـاس، فقـد (ب) ثقتـه في الحركـة ورفـاق الكفـاح. لـم يعـد يتعـرّف العـدوّ مـن الصّديـق، ولا يميّز بـين الصّـادق والمخـادع في دفاعـه عـن الرؤيـة الجماعيّـة الـتي جمعـت شـمل المناضلـين في البدايـة. ومـع حمـلات التجنيـد المكثّفـة، وحمـلات التشـويه المسـتمرّة مـن أبـواق المجلـس الإعلاميّـة، اقتنـع الكثـيرون بـضرورة التسـلّح عـلى الفـور.. لأنّ المذبحـة آتيـة لا محالـة! لكـنّ (ب) قـاوم بـكل مـا أوتي مـن طاقـة وسـعى إلى ثـني رفاقـه عـن التحـوّل إلى العمـل المسـلح.. مـن دون جـدوى. وفي ذلـك الوقـت، تبـيّن لــ(أ) بعـد بحـث واسـتقصاء أنّـه قبـل وضـع الخطـة الشـيطانيّة قيـد التنفيـذ، لـم يكـن هنـاك لا جنـاح مسـلّح لحركـة (ب) ولا تهديـد للمسـار الانتخـابي ولا نـداء للكفـاح الدّمـوي، ولا أدنى أثـر للإرهـاب! لكـنّ الأعمـال المتهـوّرة الـتي خطّـط لهـا زمـلاؤه مـن الاسـتئصاليّين هـي الـتي دفعـت بالباخـرة إلى جحيـم العنـف التّصاعـديّ، فتصدّعـت ثقتـه في كلّ المحيطـين بـه.

- ما الذي فعله إزاء هذا الموقف؟

- مـا رأيـك أنـت؟ هـل كان (أ) يملـك خيـارا مـا؟ هـل تعتقـد أنـه قـد ينضـمّ إلى الثـوار كمـا فعـل (ب)؟ الانتقـال كان أسـهل بالنسـبة إلى (ب)، فهـو حـرّ، لا عائلـة ترافقـه، وهـو ينتمـي إلى طبقـة متوسـطة.. لا ثـروة ولا ممتلـكات يخـشى عليهـا. أمّـا (أ) فهـو في وضعـه الطبيعـي بـين أبنـاء طبقتـه. حـتى لـو استشـعر منهـم تغـيرا فهـو لا يملـك لمحيطـه ذاك بديـلا.. سـيجد لهـم الأعـذار، ويتقبل

طغيانهم.. لذلك فإنّ انقلاب أبناء الطبقة الرفيعة على النظام السّائد نادر الحدوث، والقصص والحكايات مكانه الأثير.. أما الواقع فمختلف.

- ماذا حصل إذن؟

- سأختصر عليك الصّراعات النفسيّة وتفاصيل الانهيار الشامل لعالم الباخرة كما عرفناه في بداية الحكاية.. المشهد الأخير، نرى فيه (أ)، (ب)، (ج) يتواجهون في بهو الباخرة، كلّ يدعم قبيلته، (أ) و(ب) بتردّد وقلق، فكل منهما فاقد الثقة في عشيرته، منبتّ عنها رغم الاصطفاف الظاهري، و(ج) في ثبات وعزم. رغم معرفة (ج) بخدمته لنوايا الشرّ فإنّ ذلك لا يثير اضطرابه، فقد فعل ذلك طوال حياته.

- ثمّ؟

- ثم.. لا شيء!

- ما الذي حصل للباخرة؟

- الباخرة؟ ألم أقل لك؟ لقد غرقت!

- غرقت؟ وهل نجا أحد الرّكاب؟

- كلاّ! هل نسيت؟ إنّه مثلث برمودا الذي لا ينجو منه أحد!

- والحكاية إذن، كيف وصلت إليك؟

- إنّها مجرّد حكاية! لم أقل قط إنّها حصلت في الواقع!

رمقته في استنكار.. مجرّد حكاية؟ لم تبد كذلك قط. كلّما تقدّم في الحديث ازداد يقيني بأنّ كلّ تلك الأحداث لا يمكن أن يكون مسرحها باخرة ما غرقت ولم يعلم أحد عن مصير ركّابها شيئا. بادرته في شك كأنني قد أمسكت بخيط:

- إنّها ليست مجرّد قصّة باخرة ما، أليس كذلك؟ أنت تلمّح لتاريخ بلد ما!

- الباخرة بالتأكيد تجسّد المجتمعات الحديثة بما فيها من تقسيمات

طبقيّـة فجّـة.. لكـنّ الإطـار الجغـرافي ليسـا مهمّـا. البلـد ذاتـه لا يعـني شـيئا.. الأشـخاص الذيـن يعمرّونـه هـم المفتـاح.. فـذات البلـد يختلـف عـبر الحقـب الزمنيّـة كلّمـا تعاقـب عليـه أجيـال مختلفـة. لكـن إن كنـت مـصرّا عـلى تحديـد إطـار مـكاني، فلنقـل إنّهـا أمريـكا زمـن ثـورة العبيـد السّـود!

- تكلّـم عـن حقبـة أعرفهـا.. فقـد زدت الأمـر غموضا! أليـس في بلاد المسـلمين مثـال يمكن أن يجسّـد حكايتـك بوضوح؟

أسـتفزّه وأسـتدرجه. أعلـم يقينـا أنّ حكايتـه واقعـة في مـكان مـا قريـب، لكنّـه يتعمّـد الترمـيز. يقـول في عصبيّـة:

- ابـن المقفّـع وأورويـل كتبـا السّياسـة عـلى ألسـنة الحيوانـات، وأنـت عاجـز عـن متابعـة حكايـة بـشر أسـماؤهم (أ) و(ب) و(ج)؟! كلّ بلادنـا العربيّـة بواخـر تعـبر مثلـث برمـودا.. وهـي تغـرق واحـدة إثـر الأخـرى، بأيـدي ركابهـا لا بفعـل المـوج أو الإعصـار. مثلثـات برمـودا بأضلعهـا الثـلاث.. الدّيكتاتوريـة، التطـرّف الأديولوجـي بأنواعـه، العصبيّـة الإثنيـة والطائفيّـة.. تـرزح تحتهـا المجتمعـات، فتنهـك نفسـها بنفسـها.. ويـأكل بعضهـا بعضـا مـن دون أيّ تدخـل خارجـيّ. ربّمـا كانـت باخرتنـا لتهلـك بعـد زمـن، وربّمـا كان ركابهـا ليقضـوا بعـد أن ينفـد منهـم الـزّاد.. لكنّهـم اسـتعجلوا النّهايـة، وأهلكـوا أنفسـهم بصراعهـم المسـتميت عـلى السّـلطة والـثروات.. ولـو أنّهـم تعاملـوا مـع الأزمـة برصانـة لربّمـا خرجـوا مـن التّيـه أو وصلتهـم النجـدة.. ألـم تلحـظ أنّ انشـغال الـرّكاب بمسـألة مـن يتّخـذ القـرار شـغلتهم عـن المعضلـة الحقيقيّـة.. كيفيّـة الخـروج مـن مثلـث الهـلاك؟

- أنـت تقـول إنّ مثلـث برمـودا وهـم وإنّ الباخـرات المفقـودة كانـت تتعـرّض لأزمـات داخليّـة تهلكها؟

- تريـد الحقيقـة؟ نعـم، مثلـث برمـودا أسـطورة يـا صديقـي! لم يثبـت علميّا أو إحصائيّـا أنّ اختفـاءات السّـفن والطائـرات والحـوادث في المنطقـة تفـوق مـا يحصـل في مناطـق أخـرى في المحيـط. لكـنّ الحكايـة كلهـا كانـت مفتعلـة

مـن الصّحافـة الصفـراء في خمسـينات القـرن المـاضي، كنـوع مـن الغمـوض والإثـارة. وإن أردت رأيي، فـإنّ العواصـف الاسـتوائيّة ربمـا تكـون تفسـيرا منطقيّـا محتمـلا للحـوادث الـتي أشـيع غموضهـا. مثلـث برمـودا الحقيقـيّ موجـود فقـط في رؤوسـنا. في مـا نختـار أن نصدّقـه!

*****

عندمـا كنـت طفـلا ومراهقـا، لـم أكـن أفقـه الكثـير في متاهـات السّياسـة. وحـين غـدوت شـابا، لـم تعـد السّياسـة تعنيـني مـن قريـب أو بعيـد. لكـن حكايـة الدكتـور مالـك أذكـت نـارا خامـدة وأحيـت ذكريـات بعيـدة سـبق وركنتهـا إلى النسـيان.

عمّـي كان يـردّد كلّمـا طافـت بالأجـواء أنبـاء جديـدة عـن الإرهابيّـين الذيـن روّعـت سيرتهم أفئـدة الأهـالي شيبا وشـبابا: «ليـس كلّ مـا تـراه العـين حقيقـة. عقلـك قـد يضلّلـك.. لكـنّ قلبـك سـيكون دومـا صادقـا». مـا تـراه عيـني كان دمـارا وخرابـا وجزعـا مسـتبدّا. كنّـا نسـتغيث مـن وراء الأبـواب المغلقـة والجدر السّـميكة.. نريـد أمانـا. نريـد اسـتقرارا. ولتذهـب إلى الجحيـم الانتخابـات وحريـة القـرار! وقلـب عمّـي وحـده كان يحدّثـه صادقـا بغـير ذلـك. أمّا قلـب أبي - الصـادق هـو الآخـر - كان يؤيّـد مـا تـراه عينـه. فهـل يكـون القلبـان صادقـين في الوقـت ذاتـه وأحدهمـا يـرى عكـس الآخـر؟ عمّـي كان يقـول أيضـا مشـيرا إلى سـلوك أبي: «أنـت تصـدّق مـا تريـد أن تصدّقـه. إن جـاءك خـبر سـيئ عـن عـدوّك، فسـتميل إلى تصديقـه ولـو انتفـت البراهـين». لكـنّ العكـس بالعكـس أيضـا.. إذا مـا جـاءك نبـأ لا يـسرّ عـن صديقـك، فسـتكذّبه ولـو اسـتحكمت الأدلّـة!

كـم كانـت حالنـا آنـذاك شـبيهة بمجتمـع الباخـرة الـذي وصّفـه الدكتـور مالـك في حكايتـه الغريبـة. الإسـلاميّون كـسروا شـوكة الجيـش بفوزهـم في

الانتخابـات، فـكان لزامـا أن تلغـى الانتخابـات وتقلـب الطاولـة بمـا عليهـا وتنقلـب حربـا شـعواء تحـرق البـلاد والعبـاد.

وسيظلّ يونـس راعـي الغنـم لسـنوات يـروي تفاصيـل الحادثـة الـتي يقـول إنّـه رآهـا بـأمّ عينـه. يقسـم بأغلـظ الأيمـان إنّ شـاحنات ضخمـة محمّلـة عـن آخرهـا كانـت تعـبر المسـالك الوعـرة المؤدّيـة إلى الجبـال، متجنبّـة القـرى والطـرق المعبّـدة، فتفـرغ حمولتهـا في بقـاع مجهولـة لـم تطأهـا قـدم بـشر. يقـول إنّـه اقـترب في حـذر مخلفـا نعجاتـه شـاردة ليلقـي نظـرة مـن كثـب، فـرأى أكـوام السّـلاح الـذي يخـزّن في كهـوف جبليّـة حديثـة الحفـر. يقسـم إنّـه مـيّز البـذلات العسـكريّة. كان ذلـك طويـلا قبـل أن يظهـر بعبـع الإسـلاميّين وقبـل أن تفتـك بنـا قبضـة الإرهـاب الدّاميـة. لـم يصدّقـه أحـد، يونـس «البهلـول»، حـتّى بعـد أن أعلنـت الدّولـة عـن ضبـط كميّـات مـن السّـلاح خبّأهـا الإرهابيّـون في مغـارات جبليّـة في الأوراس! لـم يعتبرهـا أهـل القريـة إلا واحـدة مـن الحكايـات الخياليّـة والبطـولات الوهميـة الـتي يدّعيهـا لنفسـه في أثنـاء هيمانـه في البريّـة لا يؤنـس وحشـته غـير الثغـاء.

أيـن الحقيقـة مـن الخـداع؟ كلّ يصـدّق مـا يريـد. عمّـي صـدّق روايـة يونـس الـتي تدعـم قضيّتـه، وأبي وجـد الأنبـاء دليـلا دامغـا عـلى إجـرام أولئـك الذيـن يسـتميت أخـوه في الـذبّ عـن أعراضهـم والدّفـاع عنهـم! قـد يكـون الإسـلاميّون قـد تورّطـوا في العنـف، بـل هـو الرّاجـح عنـدي.. لكـن السّـؤال المفتـاح هـو: متى؟ قبـل أن يحيـك الاسـتئصاليون خيـوط المؤامـرة ويحكمـوا تخطيطهـا، أم بعـد ذلـك؟ هـل يملـك أحـد اليـوم بعـد مـرور عقـد كامـل على انطفـاء جـذوة الدّمـار واندثـار شـهوة القتـل أن يعلـن بوضـوح ودقّـة، مـن كان مسـؤولا عـن مـاذا؟ هـل كان يمكـن لأمثـال مجنّـدي (ج) مـن الأشـخاص الأسـوياء المسـالمين أن ينخرطـوا في أعمـال شـغب متهـوّرة -قـد تصـل إلى إزهـاق أرواح بريئـة- مـن تلقـاء أنفسـهم؟ هـل يعـرف المسـؤولون والمواطنـون الوجـه الحقيقـيّ للإرهـاب الـذي روّعنـا طويـلا؟ لعـلّي لـن أعـرف الجـواب أبـدا.

*****

في الأسبوع التالي، أعلن المختار أنّ موعد دورتي التدريبيّة قد حان! تذكّرت كلمات عليّ منذ فترة، فتحمّست. كم سيكون مدهشا لو أتخلّص من كلّ عقدي النّفسيّة.. هواني بين أهلي، ذنبي تجاه أبي، ثقتي المهزوزة بمؤهلاتي وتقديري لنفسي. انتظرت أن يضغط الشيخ على الزرّ، فأتحوّل شخصا آخر! ألم يحصل ذلك مع عليّ ورفاقه؟

لكن ما حصل ذلك اليوم قبل ابتداء الدّورة نفسها، قلب الموازين كلّها.

كنت على موعد مع الشّيخ بعد العصر، فرأيت أن أتسلّل قبل ذلك إلى الجدار وأرمي بقطعة لحم وبعض الخضراوات لكارمن. كنت في ضيق شديد لغيابها الذي طال أكثر من شهر حتّى ذلك اليوم، لكنّني قررت أن أفي بوعدي مهما كان، فلا أكون المقصّر والملام! انحنيت قرب الجدار وطرقت بخفّة طرقتين موقّعتين، ثمّ ألصقت أذني بسطحه الخشن مثل العادة، أتسمّع علّي ألتقط إشارة حضور كارمن وراءه. حين لم يصلني شيء، تنهّدت في ضيق، وتطاولت حتّى بلغت أعلى الجدار وهممت بإلقاء قطع الطعام الملفوفة في ورق جريدة. لكنّ كفّا ضخمة امتدّت من حيث لا أدري وأمسكت بتلابيبي، في حين استلّت الكفّ الأخرى منّي لفافة الورق! صرخ الرّجل في غضب:

- ما هذا الذي تلقيه هنا؟ سنرى ما الذي سيفعله المختار بشأنك!

سحبني الأخ الفاضل من ياقتي بغلظة وجرّني عبر درجات السّلّم الحجري حتّى القبو، ودخلنا على الشيخ بلا استئذان. كان التّوقيت سيّئا بكلّ المقاييس. فقد بدا المختار منشغلا مع أبي أحمد ورجلين آخرين من معاونيه، ولم يسرّه اقتحامنا غير المهذّب لـ«غرفة عمليّاته»! أقول

غرفـة العمليّـات، لأنّ تجهـيز الغرفـة وديكورهـا كان يوحـي بنـوع مـن مختـبرات المعلوماتيّـة الحديثـة.. شاشـات كثـيرة، لوحـات بيانيّـة ومعـدّات لا أدرك لهـا وظيفـة.. مـكان لـم يكـن مـن المفـترض بي أن أدخلـه أو أعـرف بشـأنه! أيقنـت بذلـك حـين قـرأت للمـرّة الأولى علامـات الانزعـاج عـلى سـحنة الشـيخ دائـم البشاشـة والابتسـام. لقـد اقترفـت خطـأ برمـي الطعـام فـوق الجـدار.. وخطـأ أكـبر لأنـني فعلـت ذلـك في وقـت غـير مناسـب.

أشـار الشـيخ بعينيـه إلى مرافقـي جهـة اليمـين، فأومـأ الرّجـل برأسـه ثـمّ جـرّني إلى غرفـة أخـرى مجـاورة، يمـين الغرفـة السّـابقة. أغلـق البـاب خلفـي بعنـف واختفـى. حـين انفـردت بنفسـي، أخـذت أفـرك أصابعـي في توتّـر، أتعرّق بغـزارة وأرتجـف مـن الفـرق. الشـيخ غاضـب مـنّي! أخـذت أرتّـب الكلمـات في رأسي وأبحـث عـن الأعـذار. كان يجـب أن أحـدّث مضيّفـي الكريـم بشـأن كارمـن منـذ البدايـة، لكـنّ غيابهـا جعلـني أحجـم، وقـد بـات عـليّ أن أطلـب المغفـرة وأكفّـر عـن سرقـتي الطعـام مـن مطبـخ عـليّ لأطعمهـا...

رفعـت بـصري باتّجـاه الحائـط أمامـي، فتعلّقـت نظـراتي بلوحـة كبـيرة تتصـدّر المشـهد، كتبـت عليهـا الآيـة القرآنيـة: ﴿وَقَاتِلُوهُـم حَـتَّى لاَ تَكُـونَ فِتْنَـةٌ وَيَكُـونَ الدِّيـنُ لِلّـهِ فَـإِنِ انتَهَـواْ فَـلاَ عُـدْوَانَ إِلاَّ عَـلَى الظَّالِمِـينَ﴾ يعلوهـا رسـم بندقيـة تشـابك سـيفا. تحرّكـت عينـاي مثـل المسـيّر إلى الحائـط التـالي وقـد شـغلت بمـا أرى عـن أفـكاري السّـابقة، فقـرأت:

﴿وَالَّذِيـنَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا وَإِنَّ اللَّـهَ لَمَـعَ الْمُحْسِـنِينَ﴾. تملّكـني فجـأة فـزع شـديد وقـد أطلقـت كلمـة «الجهـاد» صفّـارة إنـذار حـادّة في رأسي وأيقظـت مخـاوف قديمـة متراكمـة قـد غفلـت عنهـا. تذكّـرت كلمـات ذلـك الشـابّ، «أسـامة»، عنـد الشـيخ البشـير. حديثـه عـن قتـال الكفّـار وجهادهـم في دار الحـرب. فأصابـني الهلـع. وخيّـل إليّ أنّـني قـد اسـتوعبت فجـأة قسـما مـن حكايـة الدكتـور مالـك.

جماعـة (ب) المسـلّحة الـتي تسـعى إلى السّـيطرة عـلى الباخـرة.. أو جماعـة

(ج) المندسّة التي تبثّ الخراب في المجتمع. كنت قطعا أواجه إحداهما. والفرق بين الأولى والثانية مقدار شعرة، كامن في أصل النيّة وبداية النّشأة. أمّا بالنّسبة إليّ في تلك اللحظة، فلم يكن هناك فرق على الإطلاق! حين تتناول الموضوع من وجهة نظر محايدة، من دون أن تسمي الأيديولوجيا باسمها، تتخذ حكاية الدكتور مالك بعدا منطقيا. وقد أتعاطف مع (ب) وأتفهّم رفاقه. لكن لمّا كان الأمر يخصّ «الإسلاميّين»، فالوقت وقت هلع وهلع.. ولا شيء غير الهلع.

سأطلعك على واحدة من أعتى العقد النفسيّة التي لازمت جيلي، وصدّرها لنا الجيل السّابق. كانت الكلمات الثلاث (إسلاميّون - جهاديّون - إرهابيّون) مترابطة في ذهني ارتباطا وثيقا، تجرّ إحداها الأخريين قسرا إلى وعيي بشكل لا شعوريّ! لم أرث عن أبي طبعه الملتهب، لكنّني ورثت نفوره المزمن من الإسلاميّين. ولا تسلني من المقصود بالإسلاميّين! فهي عبارة فضفاضة، قابلة للمطّ والتوسعة تبدأ بالمعارضة الإسلاميّة النّاشطة في السّاحة السّياسيّة الجزائريّة والفصائل المقاتلة التّابعة لها.. لتشمل كلّ من لا يرضيك سلوكه في إسداء النّصيحة مثلا أو من يبدي نقدا لسياسة الجيش من منظور أخلاقيّ، أو من يبدو في شكله متديّنا تديّنا بدرجة أعلى من «المتوسّط»، وهي درجة التديّن الشعبيّة التي لا تضايق أحدا.. من قبيل الإيمان في القلب، و«العيب» -محرّمات المجتمع- أهمّ من «الحرام» الذي بين العبد وربّه.. صلاة في البيت غالب الوقت، وفي المسجد يوم الجمعة والأعياد، مع عدم تكلّف في العبارات اليوميّة، من قبيل «جزاكم الله خيرا» بدل «شكرا»، و «السلام عليكم» عوض «مساء الخير»! فإذا لحظت على بعض معارفك تلك «الميول الإسلاميّة» في الكلام والحركات، أمكنك أن تهمس لجارك في استنكار: إنّه إسلاميّ! وهي تهمة تحتمل أقصى أنواع الإدانة! وإذا ما ساور أحدا شكّ ولو بسيط تجاهك بأنّك «قد» تكون من أنصار الإسلاميّين، فعليك ألاّ تدّخر جهدا في نفي التّهمة عنك، ولو اقتضى الأمر ترك العبادات جملة وتفصيلا! وإلاّ بقيت ممن يشار

إليهم بالبنان لفترة طويلة بعد، قد تمتدّ إلى أجيال بعدك.

ولعلّك ستدرك أيضا أنّ تهمة «الإسلاميّة» شديدة المحليّة، فهي تقتصر على أبناء بلدك من دون غيرهم. لم يخطر ببالي مثلا أنّ عمر قد يكون «إسلاميّا»، رغم توافر كلّ شروط التّهمة فيه، من صلاة في المسجد وعبارات متديّنة إلخ.. ذلك أنّه لا يمكن له أن يكون قد تورّط في عشريّة الجزائر السّوداء. فتهمة الإسلاميّ في معجمي تعني بالضّرورة «الإرهابيّ، السّفاح، قاتل الأبرياء»! ولم أفكّر -حتّى تلك اللحظة- في أنّ الشيخ المختار، وعليّ وبقيّة الرّفاق قد يكونون «إسلاميّين» رغم اللحيّ الكثّة والزيّ الأفغاني.. وما الشيء المدهش في أن يلبس يمنيّ أو باكستانيّ أو حبشيّ الزيّ الأفغاني؟ لكنّ الدّهشة، كلّ الدّهشة، تكمن اختزالا في أن يفعل جزائريّ نفس الشيء! لكن حتّى تميزي الجغرافيّ هذا تلاشى في ظلمة القبو ذلك اليوم، وقد استغرقني تفكيري في ما سأستحقّه من عقاب على ذنبي المضاعف، من جماعة ديدنها الإرهاب!

ها إنّك قد وقفت على عقدة أبيك الأعمق والأكثر إحكاما في أغوار لا وعيه! عقدتي، هي عقدة أطياف واسعة من المجتمع.. الرّكون إلى ما يشبهنا والانزواء عمّن يختلف عنّا، وتقسيم الآخرين إلى من هم معنا ومن هم علينا.. ونظريّة جورج بوش الابن الشهيرة «من ليس معنا فهو علينا»! لم يخترع الرّجل تلك النظرية، فهي قديمة وراسخة في السّواد الأعظم من النّفوس البشريّة! وبناء على ذلك، فقد كانت إشارة الجهاد علامة على وجود «جهاديّين - إسلاميّين - إرهابيّين» في الجوار! وهم بالضّرورة سيّئون، بمنطقي الدّغمائيّ المستفحل!

قد أبدو لك من خلال هذه السّطور حكيما راجح العقل، وقد استخرجت العقدة من أعماق اللّاوعي وشرّحتها أمام ناظريك.. لكنّني لم أوت الحكمة في وقت باكر. بل غنمتها، ذرّة ذرّة، من خلال التّجارب والخطوب، حتّى استوى عقلي على هيئته الحاليّة. ليس كاملا ولا مثاليا، ولكنّه على بعد أميال كثيرة من عقل الشابّ الغرّ الذي كنته يوم غادرت

الجزائـر.

قبـل حكايـة الدكتـور مالـك، كنـت أميـل إلى نظريّـة أبي وأتبنّى وجهـة نظـره.. وبعدهـا، غامـت الرؤيـة، حـين وسّـعت زاويـة النظـر. أن تـزداد معرفتـك وحكمتـك لا يعـني أبـدا أن يسـهل عليـك وضـع السـبّابة عـلى عـين الحقيقـة، بـل هـو العكـس غالبـا. تدخـل عليـك متغـيّرات جديـدة فتضـع أطروحـات مختلفـة وتبتعـد مسـافات عمّـا حسـبته في وقـت سـابق حقائـق ومسـلّمات. لكـن وأنـا أجلـس في غرفـة مغلقـة أنتظـر حكمـا ممّـن مثلتهـم لي هواجـسي سـفّاحين، غـاب الوعـي وتعطّـل التفكـير، ولـم يبـق مـن مـكان إلا للعقـد الرّاسـخة وأشـباح اللّاوعـي الثائـرة مـن مكمنهـا.

مـرّت دقائـق راودتـني خلالهـا فكـرة الفـرار. وأنّى لي الفـرار وحـرّاس غـلاظ شـداد منتـشرون في السّراديـب وعنـد المداخـل والمخـارج؟

فزعـت حـين فتـح بـاب الغرفـة وظهـر خيـال المختـار. أمسـكت أنفـاسي أحبسـها برهـة حـتّى لا يـشي تنفّـسي المضطـرب برهبـتي، لكـنّ ابتسـامة الشّـيخ الـتي طالمـا عهدتهـا معلّقـة بشـفتيه جـاءت لتربّـت عـلى خـوفي وتنفـض ذعـر اللحظـة. لـم يبـد الشّـيخ غاضبـا أو مسـتاءً، لـم يظهـر بعبـاءة «الإسـلاميّ» الـتي أهمّـني التفكـير فيهـا. جلـس إلى جـواري عـلى الحصـير، وقـال متمهّـلا وبحنـوّه المعهـود:

- أخبرني، ما الذي يجري عند ذاك الجدار؟

نفضـت عـنّي الهواجـس الـتي زرعتهـا في ذهـني ظلمـة القبـو والآيـات الشـديدة عـلى قلـبي الرّقيـق سريـع التأثّـر، وعـدت إلى مسـألة كارمـن. واصـل الشّـيخ موضّحـا:

- وجدنـا لفافـات جرائـد كثـيرة تحـوي بقايـا طعـام متعفّنـة.. ربّمـا هـي تتكـدّس هنـاك منـذ أسـابيع! أخـبرني، لمـاذا كنـت تلقـي بهـا؟

ارتميـت مـن دون تفكـير عنـد قدمـي الشـيخ أطلـب صفحـه وأسـتجدي عطفـه! لقـد أخطـأت وقـد كان عـليّ أن أبـدأ بالاعتـذار. شرحـت بكلمـات

مرتبكة شديدة التّداخل أمر كارمن. جاءت معي من ليون وفارقتها على حدود الغابة. ربّما كانت تأخذ القليل ممّا أتركه لها وتبقي منه للحيوانات الشّريدة والكلاب الضّالّة. لم تكن شهيّتها وافرة، وشكلها الضئيل الهشّ دليل واضح على ذلك.

نظر إليّ الشيّخ بنظرة العارف، وقال بصوت رصين:

- هل يمكنك استدعاء البنت؟

لمّا كنت أجهل متى تأتي كارمن إلى الجدار ومتى ترحل، فقد كان من المتعسّر تلبية طلب الشّيخ. قلت مرتبكا:

- سيكون من الصّعب استدعاؤها.. لكنّها تظهر من تلقاء نفسها حين تحتاجني.

هزّ رأسه في جدّية بالغة:

- فهمت. إذن هي تقرّر متى تخاطبك؟

قلت مصحّحا:

- هي لا تخاطبني.. فقدت النطق منذ فترة، لكنّها تكتب أو تشير بيديها.

- ماذا تكتب؟

- كلّ ما تريد قوله.. ما تحتاجه!

- بأيّ لغة؟

- الفرنسيّة.. تعلّمتها منذ زمن قصير.. وهي في تحسّن مستمر!

- هذا مدهش! مثير!

لم أستوعب ما المثير في الأمر، لكنّ تعلّم كارمن للفرنسيّة كان أمرا جيّدا بالنسبة إليّ.

- ما اسمها؟

- كارمن..

بدا عليه الضيق فجأة:

- إذن هي ليست مسلمة؟

- بلى، إنّها من الشيشان.

عاد إليه الارتياح وهو يواصل التقصّي بشأنها:

- وكيف وصلت إلى فرنسا؟

- كانت رحلة طويلة.. بعد الحادثة التي تعرّضت لها عائلتها، سارت طويلا في الثلوج.. وكان بعض سائقي الشاحنات يحسنون إليها ويوصلونها مسافة ما..

- إذن ماتت في حادثة..

قاطعته موضّحا:

- عائلتها التي ماتت يا سيّدي!

- نعم، وهي كانت معهم؟

- نعم.. لكنّها نجت!

- كيف ماتت إذن؟

رفعت صوتي:

- من الذي مات؟

- الطفلة! اسمها كارمن، أليس كذلك؟

- كارمن لم تمت! إنّها في الخارج.. في الغابة!

حدجني بنظرة طويلة، ثم قال مبتسما:

- هذا أكيد..

بدا كمن يساير طفلا لا يريد مضايقته، لكنّ ابتسامته الغريبة استفزّتني. سألته بغتة

- ما الذي تفكّر فيه يا سيّدي؟

بدا عليه التردّد، كطبيب يخشى على مريضه من إعلان موته القريب.

- قد يكون من الصّعب عليكِ تقبّل هذا...

هززت رأسي متابعا كأنّي أستعجله.

- الرّصاصة.. إنّها تتحرّك في رأسك..

لم يكن يقول شيئا أجهله.

- حين تتخّذ وضعيّة معيّنة في جمجمتك، تكون في موقف فاصل بين الحياة والموت! تدخل روحك عالم البرزخ، وجسدك ما زال بيننا نابضا بالحياة! حين تلامس حدود الموت، ترى الأرواح. أرواح عالقة لم تستقرّ بعد! تكلّمك وتتواصل معك.. وكارمن إحداها..

انفجرت ضاحكا وقد راقتني الدّعابة حدّ الاستمتاع.. لكنّ الرّجل ظلّ ساكنا جادّا:

- الفتاة، لم يرها أحد معك قط.. وحدك تراها.. وأظنّ الله قد اصطفاك من أجل مهمّة محدّدة.. لديك رسالة، لكنّك تحتاج من يقودك من أجل إتمامها..

أرقبه بعيني الجزع. هل انخبل الرّجل؟ أرواح عالقة، وبرزخ ورسالة؟ أفكّر فجأة بأنّ عليّ الرّحيل من هنا. ثمّ أتذكّر السّبب الذي حدا بي إلى مغادرة ليون. أفكّر بديانا، بمشروبي الصّباحيّ المدهش، وبطلابي النّجباء.. هل يمكنني أن أرحل فعلا؟ أعود إلى الواقع على صوت الشيخ المختار يقول:

- ارتح الآن، وسنتكلّم في ذلك لاحقا..

قد يكون الشيخ مخبولا، لكنّه مضياف وكريم. أهزّ رأسي وأمضي إلى حيث أشار. أتوقّف فجأة. أتذكّر أنّي كنت أريد الحديث إليه بشأن كارمن. عن إمكانية إيجاد مكان لإيوائها. لكنّني أعدل في اللحظة الأخيرة. إنّه يحسبها روحا عالقة!

*****

لم أكن قد شاركت يوما في حفلة زار أو وطئت قدمي ضريح وليّ صالح.. ناهيك بحضرة العرّافين والمشعوذين. لذلك فقد كانت جلسة التّحضير التي دخلتها كضيف رئيسي في منتهى العجب! حكايات الأرواح والأشباح لم تكن ترعبني صغيرا.. لم أكن أصدّقها. وحين كانت أمّي في قوائل الصّيف تخربش شبّاك الغرفة من الحوش لتجبرني وأخواتي على الاعتكاف وقت الظّهيرة وعدم التسلّل خارجا، كنت أقهقه من الضحك وأسخر من شقيقاتي المذعورات!

أمّا الجلوس أمام الشيخ المختار، يقرأ الآيات القرآنيّة المتعلّقة بالأرواح: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ و ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾، فقد أدخل الرّيبة في قلبي! الشّيخ المختار شيخ جليل، صادق الكلم.. إن آمن بوجود أرواح تحلّق في الفضاء من حولنا، فلا شكّ أنّ لديه أسبابه ودوافعه! لو أنّه تلقّط بشعوذات لسهل عليّ الأمر.. كنت رميته بالتّخريف والادّعاء. لكن هذه آيات الله تتلى على مسامعي، والرّجال يهزّون رؤوسهم في خشوع مريك، فتتراقص الشعلة في الشمعدانات الفضيّة التي كانت الإضاءة الوحيدة لظلمة الحجرة، كأنّ نفخ روح ما يحرّكها!

- هل تسمع شيئا؟

كان الشيخ يسألني للمرّة الثالثة في جلستنا تلك.. وربّما للمرّة الألف بعد لقائنا السّابق. دأب يسألني كلّما التقت مساراتنا أو استضافني في موعدنا الصّباحيّ إن كانت كارمن قد ظهرت لي. لكنّ إجابتي لم تختلف. كارمن رحلت يوم وصولي ولم تعد.

لذلك فقد وجب استحضارها بالوسائل التقليديّة!

أهزّ رأسي نافيا. فيرفع المختار صوته ويكثّف تراتيله في إلحاح المستجير،

ويـزداد تمايـل الرّجـال المتربّعـين في حلقـة متّصلـة تحيـط بي مـن كل جانـب. يلقـي الشيخ قبضـة مـن مسحوق بخـور وحجيرات أخـرى فتفرقـع نـار الكانون ويتصاعـد الدّخـان. إن لـم تكشـف الـرّوح عـن نفسـها فلعـلّ الدّخـان يتخّـذ شـكلها ويكشـفها! تسـتمرّ الجلسـة زهـاء السّـاعة. أحـدّق في القـوم المنهمكـين في عجـب متنـام. أبحـث عـن الخطـأ.. هـل هـو فيّ أم فيهـم؟ وكارمـن.. ليتهـا تظهـر وتريحـني! فيراهـا الشـيخ ويذهـب عنـه ظنّـه المجنـون ذاك! ليتهـا تظهـر!

أخـرج مـن حجـرة التحضـير لاهثـا وقـد أنهكـني الدّخـان وعبقـه الخانـق. يتبعـني المختـار مكفهـرّ الوجـه، ينتظـر حـتّى ينفـضّ رجالـه كلّ إلى مقصـده ثـمّ يقـول في تفكـير:

- هناك ما يمنعك عن عالم البرزخ.. وأظنني عرفته!

لـم أفهـم لكلماتـه معـنى في تلـك اللحظـة، لكـن حـين زرتـه في جلسـة العلاج اليوميّـة صبـاح الغـد، اسـتقبلني عنـد المدخـل عـلى غـير العـادة. أخـذني مـن كفّـي ودعـاني إلى النزهـة برفقتـه في السّـاحة الظليلـة. سرنـا نصـف سـاعة أو نحوهـا تحـت أشـجار الـسّرو والصنوبـر، وهـو يسـألني ويسـتفسر عـن حيـاتي في الجزائـر.. عـن عائلـتي وتعليمـي وعـن تفاصيـل رحلـة الاغـتراب.. حـتّى إذا مـا انتهـت أسـئلته ودّعـني عنـد مدخـل القبـو مثلمـا لقيـني عـلى موعـد لقـاء في الغـد! تركتـه مرتبـكا غـير مسـتوعب. أيـن مـشروبي العسـليّ المحبّـب؟ وأيـن نصيـبي مـن الأذكار الـتي أحسـبها تحميـني مـن سـطوة الرّصاصـة؟ أتـراه يعاقبني لفشـل جلسـة التّحضـير بالأمـس؟ لكـنّ سـلوكه لا يوحـي بغضـب أو عقـاب. يسـتقبلني في الغـد بنفـس البشاشـة والـرّوح المرحـة، ويسـير إلى جـواري يسـأل عـن حـالي وحـال طـلابي في درس العربيّـة.. يذكـر نـوادر عـن بعضهـم ويضحـك في وقـار، ثـمّ يودّعـني بنفـس الطريقـة ولا يتطـرّق إلى جلسـة العـلاج بكلمـة!

في اليـوم الثالـث، تجلّـت أمـارات السّـهاد عـلى وجهـي. زارتـني الرّصاصـة مثل كابـوس مريـع. يومـان مـن الحرمـان مـن رحيـق الفـردوس كانـا كافيـين لأدرك مـا

كنت فيه من نعمة! يطرق بابك الألم بعد طول فراق، فتستقبله لا أهلا ولا سهلا! لكنّه ضيف ثقيل الظلّ لا يضع اعتبارا لآداب الزّيارة.. يتربّع من دون استئذان، وينبئ بطول مكوث! الشقشقة والرّنين والأزيز.. أصوات لم أشتق إليها البتّة، لكنّها تطاردني تلك الليلة وتتشبّث بأذيالي وأنا أجرّ نفسي جرّا لألقى الشيخ.

أرى علامات الطّرب على وجه المختار وهو يهبّ إليّ مهرولا ذلك الصّباح. يستنطقني:

- ها؟ هل من جديد؟

أقول متبرّما:

- الآلام يا سيّدي.. إنّها تعاودني!

- والرّوح؟ البنت الصغيرة، هل ظهرت؟

أهزّ رأسي نافيا، فيعبس فجأة. تتجلّى لي خطّته في تلك اللحظة. لعلّه يحسب أنّ آلام الرّصاصة ينبغي أن تعاودني، لأبلغ بوابة البرزخ كما يدّعي! أنحني أمامه في ضراعة وأتشبّث بثوبه:

- سألتك بالله يا شيخي.. الدّواء!

يرفعني إليه باسما، يربّت على كفّي ويقول مهوّنا:

- ليس بعد يا بنيّ.. هوّن عليك. إنّما النّصر صبر ساعة!

لا أفهمه. تغلق عليّ فلسفته. أيّ نصر أو أيّ صبر؟ ألم أجئه مستغيثا من رصاصتي؟ فماله يدفعني إلى جحيمها من دون رحمة؟ يقولها من دون أن يرفّ له جفن، كأنّ الأمر بيدي:

- اذهب الآن.. ولا تعد إلا ومعك البنيّة!

أرقبه ذاهلا. ماذا عن الدّرس والطلبة؟ سيصرفهم اليوم ويلغي دروس الأسبوع.. حتّى يصفو ذهني وأستحضر كارمن. تخاتلني ابتسامته المشفقة وأفكاره السّاديّة المتخفية خلف ستارها. بيده خلاصي ولكنّه يمنعه عنّي،

ولا أدرك الحكمـة مـن وراء ذلـك.

أتركـه وأسرح عـلى غـير وجهـة. مـا مـن حـلّ إلا أن أجـد كارمـن! أقصـد الجدار الحجـري الـذي يفصلـني عـن الغابـة. أتسـلّقه متعـثّرا وأنكفـئ عـلى وجهـي عـلى حشـائش الضّفـة الأخـرى. تسـتقبلني لفافـات الجرائـد الـتي دأبـت عـلى إلقائهـا مـن أجـل الصّغـيرة. أتبيّنهـا وقـد نهشـت أطرافهـا وتعفّنـت بعـض محتوياتهـا.. كأنّـني كنـت أطعـم جـراءً شريـدة في الأسـابيع الماضيـة. أهيـم عـلى وجهـي بـين الأشـجار أقتفي أثـر كارمـن. أصرخ باسـمها، فـيردّد الصّدى مقاطـع صـوتي المتحـشرج. يمنعـني الـصّراخ مـن الاستسـلام لهمسـات رصاصـتي وهسيسـها.

أجـدّ في بحـثي لسـاعات.. حـتّى إذا خـارت قـواي، جلسـت عنـد جـذع شـجرة معمّـرة، أسـندت رأسي وأغمضـت عيـنيّ، تظلّلـني فروعهـا المورقـة.. وتوسّـلت كارمـن في سرّي أن تأتيـني، فيرحمـني الشّـيخ ويعطيـني دوائي! لذلـك، حـين أحسسـت بلمسـتها اللطيفـة عـلى ذراعـي، حسـبتني أهـذي! ظهـرت في لحظـة خلتهـا فيهـا قـد تـوارت إلى الأبـد، كمـا تفعـل دائمـا! تنسـلّ مـن أصابعـي مثـل سـمكة لزجـة، وتختفـي بـين حشـائش بحـر كثيفـة، ثـمّ تـبرز مـن ورائي عـلى حـين غـرّة.. هكـذا انبثقـت سـمكتي، وقـد خلتهـا أبحـرت بعيـدا إلى منتهـى الأفـق.

- كارمن! يا إلهي، هذه أنت!

ردّت عـليّ بابتسـامتها الوديعـة. كانـت قـذرة ومهوّشـة الشـعر، كمـا لـم تكـن مـن قبـل. قطّـة بريّـة وحيـدة في الغابـة، جـرح قديـم قـد التـأم يظهـر أعـلى ذراعهـا العاريـة.. ربّمـا تسـبّبت فيـه وثبتهـا مـن فـوق الجـدار. تحسّسـتها بكفـيّ، أتيقّـن مـن كونهـا حقيقيّـة.. ثـمّ سـحبتها مـن كفّهـا متعجّـلا.. يجـب أن نـرى الشـيخ عـلى الفـور!

دفعتهـا أمامـي وجريـت، تسـلّقت الجـدار ثـمّ رفعتهـا إليّ ووثبنـا معـا داخـل السّـاحة. حـين وصلـت عنـد الشّـيخ كنـت ألهـث انفعـالا وتوقـا لقـراءة الدّهشـة في عينيـه.

- ها هي يا سيّدي!

- أحسنت عملا! كنت واثقا أنّك ستفعلها!

الرّضا في تعابيره يردّ الدّهشة إليّ. لماذا لا ينظر إليها؟ لماذا تتعلّق عيناه بوجهي؟

- والآن، اسألها.. ما أبقاها؟

- يا شيخي.. انظر إليها واسألها.. وسأترجم الجواب. أم أنّك لا تراها؟

- المهمّ هو أنّك تراها.. وتترجم عنها.

يتلطّف في الحديث ويسايرني، ويلحّ عليّ أن أحادثها.

- يا إلهي، أنت لا تراها!

أتلفّت حولي في جزع. أضع كفيّ على كتفي كارمن وأهزّها وقد تملّكني الهلع.

- يا عليّ.. يا أبا أحمد.. ألا ترونها؟

أستدعي الرّجال بصراخ المستغيث. قولوا إنّكم ترونها.. قولوا! لكنّ الرّؤوس تتحرّك يمنة ويسرة. لا! لا يراها أحدهم! قبل أن أسلّم بلوثة أصابت عقلي.. أو عقولهم مجتمعين، تراودني فكرة يائسة.. الشيخ يمازحني! عدسة خفيّة يواريها أحدهم تسجّل الموقف.. وقريبا سيضحك الجميع، ويعانقني المختار ويقول: هوّن عليك، هذا دواؤك! لكنّ ذلك لا يحصل. والمختار يزداد جدّيّة.

- هي معك الآن.. لا تتركها ترحل.

المقلب السّخيف يطول أكثر من اللزوم ويغدو سمجا مقيتا. فليرحمني أحدكم!

- اسألها.. يجب أن تخبرك!

أنهار على ركبتيّ، رصاصتي تسخر منّي وتقهقه في عنف يملأ أذنيّ. يا شيخ، الدّواء!

- لا دواء الآن.. يجب أن تبقى على أبواب البرزخ!

*****

كيف هو البرزخ.. وكيف تبدو أبوابه؟ كلّ شيء من حولي لا يختلف عن عادته. لا نور ساطعا ولا درب مضيئا! فقط كارمن التي لا يراها أحد، تتكوّر على نفسها بقربي في ظلمة القبو.

جرّب الظلمة.. الأرواح تركن إليها.. لذلك انسحبت إلى الغابة.

حافظ عليها قربك، وحاول التّواصل معها..

توصيات المختار تفقدني صوابي. أرمق كارمن في حيرة. كان يجب أن أستسلم إلى تلك الحقيقة. كارمن ليست بشريّة. لا أحد يبصرها غيري! تبادلني نظرات باسمة. أسألها في صمت.. ما أنت؟ هل أنت روح عالقة بالفعل؟ ثمّ أستجوبها بصوت مسموع:

- ما هي حدود الحقيقة والخيال؟ هل أنت الوحيدة.. روح أو شبح؟ أم هناك غيرك؟ هل كانوا بشرا.. القرصان وعصابته؟ فهناك لقيتك! ماذا عن الدّكتور عمر؟ ماذا عن جابر وعزّوز، ديميتري وعمّال الورشات؟ من منهم شبح ومن البشريّ؟ تكلّمي! لا تتظاهري بالبكم بعد الآن!

ينتابني الغضب. أستفزّها لتسمعني ردّها. لا أعلم إن كانت الأرواح تخاطب البشر! المختار لم يشرح لي الأمر. هل تراه تعامل مع روح من قبل؟ يبدو ملمّا بالمسألة.. لكنّه لم يشرح لي. يقول «تواصل معها» ويمضي! لكنّها كانت صامتة حتى ذاك الحين.. ربّما لأنّ هذا هو طبع الأرواح، لا صوت لها.

يأتيني صوتها فجأة. يشقّ الصّمت الذي غلّفنا حتى تلك اللحظة، فأنتفض. صوت هادئ عميق ورصين. ليس صوت طفلة أبدا:

- لعلّك لن تعرف أبدا..

- وأنت؟ هل لقيتك حقا؟ لعلّك توفّيت في حادث بعد أن تركتك وذهبت عند عمر؟ أو بعد أن لقيت جابر؟ لعلّك كنت معي قبلها؟ ثمّ رجعت روحا؟

تهزّ رأسها الصّغيرة ساخرة من افتراضاتي واستماتتي في تمييز الحدود بين عالمها وعالمي. تستمتع بحيرتي ولا تبدّد شيئا من شكوكي. ألمحها تبتسم، وتتجاهل أسئلتي. أصرخ فيها: لا تبتسمي! أنت لست بشرا حتّى! فتضحك الرّصاصة في رأسي حتّى يعبث بي الألم. اسكتي أنت الأخرى! ليس وقتك! لكنّه وقتها.. بل وقتها وحدها. لا أحد غيرها يسيطر الآن على الزّمان والمكان. أنا الآن مجرّد ثقب تتبختر داخل فراغه بتؤدة قطعة معدن صدئ، تفقدني صوابي.. وكارمن تبتسم.

أقف من مكاني، ألفّ حول نفسي، ثمّ أنهار عاجزا. يجب أن أعرف. لكنّني مرتعب ممّا قد يتبيّن لي. لا أريد أن أعرف. أريد أن أرجع جاهلا مغفّلا، أحنو على صغيرتي كارمن وأستمتع بدروس العربيّة. أمّا المعرفة التي تجعل عالمي ينهار، فلا أريدها! لا أريدها! أخفي وجهي بين كفيّ وأبكي.. ألما وخوفا. جنّتي الموهومة المؤقتة تنهار!

لن تعرف أبدا..

أتخبّط في العتمة، فريسة سهلة لأطياف برزخ وهميّة، وتستبدّ بي رغبة المعرفة. ﴿لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. أغالط نفسي.. ماذا لو كان خلاصي في المعرفة؟ هل ليليان وديانا شبحان؟ ليليان ليست شبحا.. لقد ناداها عليّ بالكافرة، وأبو صالح غازلها.. ليست شبحا، إلا إذا كان عليّ وأبو صالح شبحين.. لكنّهما ليسا كذلك.. المختار وجماعته يعرفانهما. لكن ماذا عن ديانا؟ كلّ همّي ديانا.. إنّها لا تكلّم أحدا ولا تلتفت إلى أحد. ربّما لم تكن ليليان شبحا، لكنّها قد تحتفظ بشبح ابنتها قريبا منها.

لكن ماذا لو.. ماذا لو كانت كارمن حقيقة، وكلّ ما عداها وهم؟ ماذا

لـو كان المختـار هـو الشّـبح؟ مـاذا لـو كنـت نائمـا الآن، في شـقّة عمـر.. أنتظـر أن يوقظـني لصـلاة الفجـر؟ لكنّـني أرى كابوسـا ممتـدّا مرهقـا لا ينتهـي! ليتـني أسـتيقظ الآن.. هـذا إن لـم يكـن عمـر شـبحا هـو الآخـر! ألـم يختـف فجـأة كأنّـه لـم يكـن؟ أولئـك الذيـن يظهـرون ثـمّ يتلاشـون بـلا رجعـة، أغلـب الظـنّ أنّهـم أشـباح! إن كنـت قـد لقيـت هـذا الكـمّ مـن الأشـباح في رحلـتي، فكيـف كنـت أعيـش؟ كيـف أقتـات وأيـن أبيـت؟ هـل تفقـدني مخالطـة الأشـباح إحسـاسي بالعالـم الحـسّيّ؟ أم أنّ الاثنـين يتزامنـان في وعـي بانسـجام لا يؤثـر أحدهمـا في الآخـر؟ أيـن تكمـن الحـدود؟ أيـن ينتهـي الواقـع ويبـدأ الـبرزخ؟

عـلى حـدود الجنـون، طلـب عقـلي مهلـة: «اسـحب القابـس، أريـد بعـض الرّاحـة».

فقدت الوعي.

*****

تخطـئ حـين تحسـب أن المـرء يمـوت مـرّة واحـدة. تمـوت حـين تقتـل الحيـاة داخلـك. ينسـحب الضّـوء مـن روحـك تدريجيّـا، مثـل مدينـة انطفـأ مولّدهـا الكهربـائيّ فغرقـت في الظـلام. أمّـا عـنّي، فقـد مـتّ الموتـة الثانيـة في ذلـك اليـوم.. باحتسـاب موتـتي الأولى غريقـا، وبافـتراض أنّ جثّـتي المتحرّكـة، متبلّـدة المشـاعر الـتي كانـت تهيـم بـين البيـت والمقهـى قبـل ذلـك في عنّابـة كانـت عـلى قيـد الحيـاة! حـين يمـوت قلبـك، وتختنـق داخلـك رغبـة العيـش، يتـلاشى كيانـك، وتبقـى جسـدا.. ينتظـر أن يفنيـه دود الأرض.

مـتّ يومها من دون رصاصة.. وأنا الذي عشت قبل ذلك رغم الرّصاصة!

لمـدّة ثلاثـة أيّـام متواصلـة بلياليهـا، بقيـت محبوسـا في تلـك الغرفـة. يأتيـني أبـو أحمـد بطعامـي وشرابي. ينفـرج البـاب مقـدار سـنتميترات كافيـة لتمـرّ ذراعـه النحيلـة وطبـق الأكل الزهيـد، فتتسـلّل خيـوط نـور رقيقـة إلى مسـاحتي

القاتمة، ثمّ تنسحب مسرعة حين تعود دفّة الباب إلى وضعها الأوّل.

قال المختار: تشبّع بحياة البرزخ، تآلف مع الأرواح العالقة، وائتني بالجواب!

أيّ جواب؟

لم يقل..

حين دخل عليّ في اليوم الثالث، كنت قد غدوت جثة هامدة، قتلني الألم حتّى تخدّر إحساسي، وقتلني التّفكير حتّى تخدّر عقلي. سألني:

- أنت جاهز؟

أومأت برأسي أن «نعم» وأنا لا أدرك ما يعنيه.. لكنني كنت جاهزا لأوارى التّراب.

- هل حان الوقت؟

وقت ماذا؟ يتساءل ما تبقى من خلايا عقلي التالفة.. لكنّ رأسي يهتزّ مرّة أخرى، فيبتسم الشيخ راضيا. كنت أستجيب وآتيه بتعليمات «العالم الآخر» التي يترقبها. أتجاهل كارمن التي تضحك منّي وتتقلّب على الأرض ساخرة. كنت أنجز الرّسالة التي من أجلها حبسني المختار.

- كنت أعلم، منذ وصلت إلى هنا.. أنّك البشير حامل الإشارة!

لم أحاول أن أفهم.

*****

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥،

- معنـا الليلـة، المرشّـح اليسـاري المسـتقلّ عـن دائـرة «نـوبي سـور سـين»، السّـيد خليـل دانيـال الشّـاوي.. مرحبـا بـك.

يبتسـم للكامـيرا الـتّي تسـلّط عدسـتها عليـه، ويتابـع حركـة المخـرج الـذي يوجّـه كلّ مـن عـلى المنصّـة. الأضـواء تبهـر عينيـه وتشـعره بدوخـة بسـيطة، لكنّـه يسـتردّ تركـيزه حـين تسـأله المحـاورة:

- كيف تفضّل أن أناديك؟ أستاذ خليل أم.. أستاذ دانيال؟

- خليـل هـو الاسـم الـذي منحـني إيّـاه والـدي وسـجّله في الأوراق الرّسـميّة، ودانيـال هــو الاسـم الـذي أعيـش بـه ويعرفـني بـه كلّ مـن حـولي.. لذلـك أفضّـل دانيـال، إذا تكرّمـتِ.

- أسـتاذ دانيـال، لدينـا اليـوم مجموعـة مـن الضّيـوف سـيوجّهون إليـك رسـائل خاصّـة، وسـيكون عليـك أن تـردّ عليهـا.. اتّفقنـا؟

هـزّ رأسـه في اهتمـام، ثـمّ أظلمـت القاعـة. مـرّت ثـوان رهيبـة، قبـل أن تظهـر بقعـة ضـوء أنـارت جـزءا مـن الجمهـور الجالـس مـن حولـه. أخـذت تتنقّـل بتوتّـر قبـل أن تتوقّـف عـلى أحـد الوجـوه. يطالعـه في دهشـة ولهفـة. أنـت هنـا! لكـنّ الموقـف لا يسـمح بأحاديـث جانبيّـة. ينتظـر في شـوق وعينـاه تـكادان تغـادران محجريهمـا، يلتهـم الرّجـل الخمسـيني بعينـين جزعتـين، بينمـا تسـأله المحـاورة:

- اسمك سيدي؟

- نادر الشاوي.

- تفضّل برسالتك.

- بنيّ.. أحبّك كثيرا.. وأتمنّى أن تحبّني يوما.

ينطفئ النّور الذي أضاء وجهه للحظات، وتبقى ماثلة أمام عينيه تلك النّظرة المنكسرة. يرتبك تنفّسه ويضيق صدره، لكنّ بقعة الضوء تواصل دورانها في حركة لولبيّة، ثمّ تتوقّف على وجه آخر.

- اسمك آنستي؟

- مريم رستم.

- تفضّلي برسالتك.

حدّق فيها في فزع هذه المرّة، وسالت أنهار من العرق على وجهه. نظرتها ناريّة محرقة، فيها تشفّ وشماتة. قد حانت ساعة الانتقام. تقف، وتستدير كلّ الكاميرات تجاهها. تظهر ملامحها مضخّمة على كلّ شاشات القاعة، كأنّما تشرف عليه من جميع الاتّجاهات، تحاصره. تمدّ نحوه إصبع الاتّهام، ويدوّي صوتها بلهجة قويّة تكاد تثقب طبلة أذنه:

- أنت شخص حقير!

فتح عينيه وهو يلهث، غارقا في عرقه.

غادر السّرير، وسار حافي القدمين حتّى المطبخ. أفرغ في جوفه كوب ماء بارد دفعة واحدة، ثمّ وقف مذهولا لبرهة، يسترجع تفاصيل الكابوس المريع. هل هو سريره القديم الذي لم ينم فيه منذ سنوات؟ أم هي تلك الحكاية التي تقف شوكة في حلق ضميره؟ يجب أن يفعل شيئا إزاء هذه القصّة، ليسكت لاوعيه عن إلحاحه الممضّ. الحوار التلفزيّ كابوس بمفرده، فكيف إن صاحبه ذلك الهاجس المقيت بالذّنب؟

بعد ساعات تقلّب خلالها على الفراش من دون أن يواطنه نوم، تناول هاتفه وأرسل إلى جانيت، يخبرها باعتزامه أخذ أجازة استثنائيّة.

حين غادرت أمّ خليل سريرها على السّاعة السّابعة، تقدّمت في اتّجاه المطبخ في دهشة متتبّعة رائحة البيض المخفوق على الطّريقة الفرنسيّة التقليديّة.

- أراك مبكّرا في الاستيقاظ!

ابتسم رغم عبوس عينيه:

- لم أستطع النوم..

قالت مداعبة:

- هل أخافك حديث الأرواح والأشباح؟

- لا أصدّقه لحظة واحدة! لكن يشغلني إيجاد تفسير منطقي لما عرفه في تجربته تلك.

لاحظت تجنّبه للفظ «أبي». سيحتاج بعض الوقت ليعتاد على كون ذاك الرّجل، ذي الحكاية الشبيهة بقصص «ألف ليلة وليلة»، أباه. لكنّه على الأقلّ يبدو على درجة أدنى من الانفعال والعدوانيّة ممّا كان عليه بالأمس. تناولا وجبة الفطور التي حضّرها في ركن المطبخ الحميميّ الذي لطالما احتوى جلساتهما الثنائيّة. حين تنضمّ إليهما سيلين ومريم، تفضّل غرفة الطعام المتّصلة بالشرفة.

- كيف ترك نفسه يسقط فريسة سهلة بين أيدي أولئك النّاس المتخلّفين؟

- ألا ترى أنّه كان يحتاج البقاء هناك في تلك الفترة؟ لم تكن لديه بدائل ممكنة..

سكت ممتعضا. في طفولته، كانت تقول إنّ والده مدرّس. أهذا هو نوع التّدريس الذي مارسه؟ شهران يتيمان من حصص العربيّة في قبو جماعة إرهابيّة؟ يا للهول! حاول ألّا يهوي باتّجاه استنتاجات سابقة لأوانها. سيعطيه فرصة إلى النّهاية، ربّما تستقيم حياته قبل أن تنفد الرّسائل. أيكون لقاؤه بها قد قوّم اعوجاجه وصحّح مساره؟ إنّها ما تنفكّ تدافع عن خياراته. تطلب منه أن يتفهّم ويجد الأعذار. لماذا إذن؟ لماذا حجبت عنه الحقيقة؟

أنهيا وجبتهما في سكون خاشع. كلّ شارد في عالمه. ثمّ استأنفا جلسة الأيّام الماضية. تنهّدت أمّ خليل وهي تتناول رزمة الرّسائل، وقالت في جديّة:

- إذن.. أين وصلنا؟

*****

يـوم الجمعـة التـالي، تمركـزت دوريّـات شرطـة أمـام المسـاجد الصغـيرة المرخّـص لهـا في كلّ أنحـاء فرنسـا، ورفعـت دروعهـا وعصيّها، ومنعـت المصلّين مـن دخـول بيـوت اللـه وقـت صـلاة الجمعـة. كثـيرا مـا كانـت المسـاجد تمتلـئ عـن آخرهـا، وتفيـض بمرتاديهـا عـلى الشـوارع القريبـة. فتلـك البنـاءات الضيّقة لـم تكـن تتّسـع إلا لأعـداد قليلـة، والحكومـة الفرنسـيّة رأت أنّ حـتّى ذلـك القليـل كثـير مـن وجهـة نظـر أمنيّـة. فـأدّى خـبراء الهندسـة والبنـاء واجبهـم وقامـوا بحسـاباتهم وسـوّدوا أوراقـا كثـيرة ذيلوهـا بتوقيعـات رسـميّة. وباعتبـار ذلـك، أصبـح عـلى المسـاجد أن تلفـظ المزيـد مـن المصلّـين في اتّجـاه الشّـارع.

تلقّـت الدوريّـات الأوامـر باحتلال السّـاحات المحيطة بالمسـاجد وتسـييجها، مـن بـاب حفـظ الأمـن وتيسـير حركـة العربـات، وطـرد مـن سـوّلت لـه نفسـه فـرش سـجّادة صلاتـه عـلى الرّصيـف. ووقفـت زرافـات مـن النسـاء والصّبيـة في رؤوس الشـوارع يرقبـون الحـرّاس بأعـين شـاخصة، وقـد منعـوا مـن الاقـتراب بعـد أن احتلّـت الغـرف المخصّصـة لهـم مـن قبـل الرّجـال المصلّـين تحـت ضغـط الـضرورة. في بعـض الأحيـاء، وطـأ الشـباب المسـلم بنعالـه السـيّارات المصفوفـة عـلى جانـبي الشـارع في تحـدّ وأدّوا الصّـلاة عـلى سـطوحها المعـدن. في حـيّ آخـر، انفعـل شـابان وصـلا بعـد إيصـاد البوابـة وتشـابكا مـع أعـوان الأمـن للحظـات قصـيرة، قبـل أن يتـمّ اقتيادهمـا إلى مركـز الشرطـة. في حـين استسـلم الباقـون وانسـحبوا في صمـت سـاخط.

في الأسـبوع التـالي، نـادى أئمـة مسـاجد باريـس وجمعيّـات تُعـنى بشـؤون المسـلمين بالخـروج أفواجـا لإقامـة الصّـلاة في السّـاحات العامّـة، احتجاجـا عـلى التضييـق الـذي كانـت الحكومـة البادئـة والأظلـم فيـه. ولا بـأس في خـروج النسـاء والأطفـال، دعمـا للصفـوف وزيـادة في العـدد.

لكنّ الشيخ المختار الذي حصل للتوّ على الإشارة من العالم الآخر، كانت لديه خطّة أكثر جسارة. رأيتهم لأوّل مرّة، بأحذيتهم العسكريّة الثقيلة وعصاباتهم السّوداء التي تربط جباههم. جيش منظّم يتقدّم في خطوات ثابتة ومشية مهيبة، يقوده المختار وأبو أحمد. فرقة «حراس العقيدة». ليسوا حراس قلعة أو قصر، ولا مجمع سكنيّ حتى. لكنّه الاسم الحركيّ الذي أطلقه المختار على عصابته الصّغيرة التي يريد لها احتلال فرنسا.

مشيت إلى جواره، أنا البشير حامل الإشارة، أجرّ كارمن التي تطلّ من عينيها نظرة عابثة، وقد تحوّلت إلى كائن لا أعرفه. لم تعد طفلتي الصّغيرة الوديعة. بل شبح ساخر، لا يخيفني. تتابعنا أعين المارّة مشحونة بالجزع والحذر ونحن نغادر القبو ونتقدّم في ممرّات المجمع السكنيّ. من دون أن أشعر، رفعت عينيّ إلى أعلى حين مرّت القافلة أمام العمارة الرابعة. هناك من شرفتها، أطلت عليّ ليليان وعلى وجهها علامات الاستياء. أحسست بثقل في قلبي وأنا أراها تغلق مصراعي النافذة معلنة عن إعراضها. لم تكن ديانا معها.. شبحي الملائكي. ازداد الألم في صدري وقد تغشاني يأس جارف.

أنا ذاهب إلى الموت!

تابعنا تقدّمنا عبر الشوارع والأزقة بنفس النّسق العسكري الذي يجعل الأعين تلتفت لمتابعتنا، حتى وصلنا إلى ساحة كتدرائيّة سان-دنيس. لا أدري على وجه الحقيقة، هل وقع اختيار المختار على السّاحة الواقعة قبالة مبنى الكتدرائيّة المهيب بمحض الصّدفة، لأنّ السّاحة شاسعة وتتسع لأعداد غفيرة من متفرّجين ومحتجّين؟ أم من باب استدرار مساندة الإخوة المسيحيين في الأزمة التي تلحق بإخوانهم المسلمين؟ طردت بسرعة الفكرة الثانية وقد تذكرت خطاب عليّ عن الكفّار، ورجّحت أنّ الاختيار -لو كان مقصودا- فهو بالأحرى من باب الاستفزاز لا التّسامح!

وقف الحراس مصطفين بطريقة مدروسة، وأنا أقلدهم منساقا. كنت قد حصلت على جرعة من المشروب ذلك الصّباح، مكافأة على حملي البشارة! فتمكّنت من التحرّك باتّزان مثل آدميّ استرجع تحكّمه في أطرافه. حين استقر بنا المقام، رفع أبو أحمد مكبّر الصوت إلى فيه وهتف:

- تكبيـــر...

فردّد الحراس وراءه بصوت واحد مزلزل: الله أكبر!

كان لأصواتهم هدير يهزّ القلوب، حتى خُيّل إليّ أن الأرض ارتجفت تحت أرجلنا. تكرّر التكبير ورَجْعُه مرّات لم أحص حسابها، ثم تقدّم شاب أخاله لم يبلغ العشرين ليمسك مكبّر الصوت وأخذ يرتل ما تيسّر من ذكر الله الحكيم بصوت رخيم، بينما أصغى له البقية في خشوع. حين فرغ، عادت المجموعة إلى التكبير بحماس أقوى بينما لوّح البعض بعصي وسلاسل ممّا يستعمل في الرّياضات القتاليّة.

ردّدت جدران الكتدرائيّة العالية النداءات ودفعتها أمواجا باتّجاه الأزقّة والشوارع المحاذية، فسالت مثل نهر جارٍ يطرق الآذان ويدير الأعناق، وتقاطر المارّة والفضوليّون على السّاحة يستطلعون الأمر. كانوا يتوقّفون للفرجة برهة يسيرة، ثمّ يسحبون أطفالهم كأنّما يحمونهم من خطر يهدّد وعيهم وسلامة أفكارهم ويمضون متعجّلين. ولا يبقى في السّاحة إلا متعاطف، أو من غلب فضوله حذره، فيقف على مسافة كافية متوخيا قواعد السلامة.

في الأثناء أخذ الشيخ المختار الكلمة. تنحنح ثم قال بصوته الوقور النافذ ولكنته الشرقيّة:

- يا أيها الناس، إنّ الدّين عند الله الإسلام. يا أيها الضّالون الهائمون على وجوهكم، تعالوا إلى دين الله فهو خير لكم. يا أيها العصاة المذنبون عودوا إلى الله يغفر لكم. هذا الدّين منتصر لا محالة شئتم أم أبيتم، فانضمّوا إلى الفئة الغالبة قبل فوات الأوان! الإسلام سيصبح

قريبا دين أوروبا الأول مهما قاومتموه وعاديتموه. لن تضرّنا عداوتكم ما دام الله معنا. وإن تنصروا الله ينصركم...

استمرّت خطبته ردحا من الزمن مراوحا بين الترهيب والترغيب. ثم عاد التكبير مرّة أخرى، قبل أن يندفع الحراس في استعراض رياضي كل حسب طاقته وموهبته. بعد نحو نصف ساعة، لم يكن العرض قد انتهى بعد حين توقفت سيارة شرطة في رأس الشارع ونزل منها أربعة رجال أمن. تقدّموا في اتجاهنا شاقين طريقهم بين الحشود المترقبة. حين انتبه الحراس إلى القادمين الجدد، توقفوا عن عرضهم وأعادوا تنظيم صفوفهم في حركة دفاعيّة. لم تكن المواجهة الأولى لهم مع رجال الشرطة. مهما غيّروا مكان دعوتهم وتنقلوا بين السّاحات، كانت الشرطة على موعد معهم في كل مرّة، لكنّ المختار تمادى هذه المرّة في استعراض العضلات وأظهر جرأة لم تكن في سمته قبلا. تكلم الضابط الأعلى رتبة من بينهم:

- سيد مختار، أظنك تعلم أن هذا إخلال بالأمن العام واستغلال للفضاء العمومي من أجل نشاط غير مرخص له...

أخذ أحد الشباب يحرك هراوته في الهواء معلنا عن استعداده للقيام بأيّ عمل متهور. لكن الشيخ المختار أشار إليه بكفه أن يلتزم الهدوء، بينما أمر الشرطيّ محتدّا:

- فلينفض الجميع من هنا، وفورا!

لم يتحرّك أحدنا من موقعه قيد أنملة في حين كرّر الضابط أمره في عصبية. مرّت لحظات من الصّمت اختفت خلالها الابتسامة من وجه رجل الأمن وتحوّلت إلى شفتي المختار. رفع بعض المتفرّجين جوّالاتهم ملتقطين المشهد، فسارع الشرطيون الثلاثة لانتزاعها من أيدي أصحابها ومصادرتها. لعلّ المختار كان يستمتع بلحظات السيطرة تلك، لكن لم يكن من الحكمة إطالة أمدها بقدر يستفزّ السلطات. ولمّا كان رجلا حكيما، فقد رفع يده طالبا منّا الانسحاب. عندئذ تحركنا ببطء وهدوء

وقفلنا راجعين إلى المجمع السّكني بنفس الخطوات المنظمة.

*****

لم تخاطبني ليليان منذ ذلك اليوم.

ولم تعد حياتي تشبه ما كانت عليه.

صرت ظلّ المختار الملازم له. يسألني بين الفينة والأخرى: هل ترى البنت؟ فأهزّ رأسي موافقا أو نافيا، حسب الوضع.. فيستفسر عن «الرّسائل الرّبّانيّة» التي تصلني من خلالها. لكنّني كنت قد وعيت الدّرس. إن أردت الحصول على دوائي، فيجب أن أمنحه الرّدود الّتي يريد! ردود ساذجة وفضفاضة ومجتزأة، لا تعني شيئا غالب الأحيان.. لكنّها تفي بالغرض!

ليس بعد.. خلال أيّام.. كن مطمئنا.. قدّم صدقة.. بعد العصر..

فيتهلّل وجه الشيخ ويهرع إلى تنفيذ ما تمليه عليه الرّسالة مهما بدا غامضا وغير ذي بال، فالمختار لديه ملكة تأويل لا تضاهى! يجد لكلّ عبارة ترد على لساني مغزى واضحا يصله بمطلبه، ويُتبِعه بخطوات دقيقة. كأنّه على الدّوام مخيّر بين أمرين، والرّسالة تدفعه نحو أحدهما. قد أبدو لك محتالا ومستغلا لحاجة الشيخ تلك، لكنّك تدرك حتما أنّ سلوكه هو الذي دفعني إلى ذلك النّهج! ليالي القبو الرّهيبة من أجل بلوغ البرزخ كانت موتا حقيقيّا، والشيخ لم يرضخ لاستعطافي ولا حرّكه رجائي، لذلك فقد كان لزاما عليّ أن أجاريه في جنونه ريثما أجد مخرجا من وضعنا السّخيف ذاك.

لكنّ الأمور كانت تمضي من سيّئ إلى أسوأ.

في تلك الفترة، انقطعت عن دروس اللغة العربيّة، وانقطعت عن شقة ليليان بعد أن كانت لي فيها محطة يوميّة بعد العصر، لاحتساء كوب

من الشاي من يدي العجوز الخمسينيّة، والتهام قطعة حلوى من صنع ابنتها الحسناء. تعوّدت على ديانا، ولعلّها تعوّدت عليّ. وكان ما بيننا أحاديث وديّة بريئة، لم تخرج عن حدود الأدب واللّياقة. كانت المسافة بيننا تتقلّص بأكثر ممّا كنت آمل. كنت أستميت في إبقاء فضولها متّقدا حتّى لا تفقد اهتمامها تجاهي. وكانت ليليان ترحّب بوجودي دونما تكلّف، وقد وجدت ابنتها تتفتّح في رفقتي مثل وردة طال سباتها الشّتويّ. وقد ظننت أنّ الوضع سيستمرّ إلى ما لا نهاية، حتّى حصل ما لم يخطر لي ببال.. اختفت ديانا من دون سابق إخطار.

طرقت بابها ذات يوم، لتقول أمّها إنّها ليست بالبيت. وتكرّر الأمر في اليوم الثاني، وفي الثالث أيضا! حتّى شككت بأنّه لم يعد مرحبا بي في منزل الأرملة وابنتها المقعدة. والأدهى هو أنّ ليليان لم تكن تكلّف نفسها عناء تفسير أو توضيح، تماما كما لم تحاول تبرير رغبتها في حضوري بشكل شبه يوميّ إلى شقّتها. كأنّما كان حضوري جزءًا من علاج ابنتها.. أمّا وقد استعادت ديانا نضارة الروح وإقبالها على الحياة، فما عدت أفيدها بشيء، وما عاد لتردّدي على شقتهما من معنى! ولعلّ فترة انقطاعي السّالفة وخروجي ذاك اليوم مع حرّاس المختار قد زاد الطّين بلّة وقضى على آخر حظوظي.

أصابني التحليل في مقتل. فقد كنت أوهمت نفسي في الأسابيع الماضية بحظوة ضمنتها عند أميرتي الصّهباء. وبنيت قصورا من الآمال، بتراب الوهم وآجره! فانهار البناء الذي شيّدته على رأسي، كما قُدّر لكلّ بناء كانت أسسه واهية. غمرني انقباض رهيب. كنت قد انحدرت خلال أيّام قليلة إلى قعر اليأس، حتّى خلتني صرت شخصا آخر. كان هناك إحساس جميل بالألفة تجاه العمارة الرّابعة وسكّانها، تبخّر من صدري كأنّما لم يكن.

جفاء ليليان ونظراتها المظلمة، واختفاء ديانا الكامل كانا مصدر وجع مزمن، لكنّ لكدري أسبابا وأسبابا. الدّواء.. لم يعد كما هو. أو ربّما

مفعوله اختلف. لا أدري إن كان المختار يلاعبني. لعلّه لم يكن بالسّذاجة التي ظننتها، فعمل على تقييدي إليه أكثر. لم تعد جرعة الصّباح تكفيني. ما أن تغيب الشّمس حتّى تتمايل ضلالات الموت أمام عينيّ، ويشقّ الألم رأسي نصفين، كأنّما انقطع عنّي تيّار طاقة ما!

كانت البداية شبيهة بليالي القبو. ألم مميت لا ينبلج عليه الصّبح إلا وقد أوهن جسدي وأذهب عقلي. ولعلّها بغية المختار.. أن يبقيني على اتّصال دائم بعالم الأرواح! لكنّ خلاياي العصبيّة سرعان ما تكيّفت مع وخزات الإبر ونقرات المسامير وألفت أزيز المنشار الذي يقطّعني من الدّاخل. فتنتظره، وتتعرّف مقدّماته.. وتتأهّب لحضوره في موعده. حتّى آل بي الأمر إلى استسلام كامل لسطوته.

هل يمكنك أن تتخيّل كيف يكون الألم الذي لا غنى لك عنه؟

ألمٌ يؤكد لك وجودك!

فما عداه هياكل هلاميّة طافية لم أعد أدرك حدودها! أصبح الوجود بالنسبة إليّ هو الألم، كارمن، الرّصاصة. أمّا السّاعات التي يكون فيها لدواء الشيخ المختار المخدّر الغلبة، فهي مثل الحلم الذي لا تفهمه ولا تستسيغه. تعلم يقينا أنّك ستنتهي منه خلال وقت قريب، حين تستيقظ -حين ينتهي مفعول الدواء- وهو حلم تتعطّل خلاله الحواس، لا تكون خلاله نفسك، لا تؤدي وظيفة منطقيّة ترغبها ولا تتحرّك بمحض إرادتك! كنت الدّمية التي يحتاجها المختار، وكنت أستسلم لذلك.

لا أذكر يقينا كيف ومتى حصل ذلك، لكنّني لم أعد حريصا على الدّواء حرصي الأوّل. كنت أتحمّل سويعات من الأرق قبل أن أبتلع جرعات السّائل، أختبر حدود تحمّلي وأدفعها دقائق إضافيّة في كلّ مرّة، كأنّي أزيد اتّساع مجال حريّتي الشخصيّة! أتحدّى الرّصاصة والمختار معا.

أنا باق رغم الرّصاصة.

أنا باق من دون الدواء!

وحين كنت أنفرد في خلوتي الليلية، أترقّب أن تستلمني الرّصاصة فتأتي على أعقابها كارمن تجرّ إحداهما الأخرى كتوأم متلاصق، كنت أسترسل في أحاديث ميتافيزيقيّة موغلة في الوحشة.

هل أنا موجود؟ ماذا لو كنت قد متّ فعلا؟ ماذا لو كنت روحا مثل كارمن، أتطفّل على عالم الأحياء؟ يستحضرني المختار في جلسات زار، ويسقيني شرابه ذاك ليقيّدني إلى عالم البشر؟ لم أعد أعلم يقينا أين كنت وكيف أصبحت. هل كنت آكل في تلك الفترة؟ وأقضي حاجات بشريّة عاديّة؟ لو أنني كنت متيقنا من ذلك لاتّضحت الرؤية! لكنّ كلّ شيء يحصل من حولي بعد أن آخذ الدّواء أصبح يبدو ضبابيّا مرتجّا بشكل كبير. الصّور تتقافز أمام عينيّ ولا تثبت في مكانها.. وأصابتني الدّهشة. لم يكن ذلك يصيبني في وقت سابق! كان الدّواء عامل استقرار يمكّنني من مزاولة حياة طبيعية في ما مضى، لكنّه اليوم يتركني كالمسرنم.. أتحرّك ولا أعي حركتي.

ومع ذلك فقد كنت أمرّ بحالات صفاء شديد، تتيقظ خلالها حواسي كأنّما قد تضاعفت، فألتقط أبسط صوت وأسجّل أدنى لفتة. وفي أوقات أخرى، أرجع طبيعيّا لا أشكو شيئا، كأنّما قد أفقت من نوم الدّهر! وقد كانت تلك الأوقات شحيحة نادرة الحدوث بادئ الأمر، ثمّ أصبحت أكثر تواترا حتّى استقرّ الوضع بعد أن استوثق المختار منّي ورضي عنّي.

وكنت في تلك الفترة قد انقطعت تماما عن شلة المقهى وجلساته. وحين عاودتني حالات الصّفاء، لم أجرؤ على الظهور بعد غياب لا يمكن تفسيره وحضور لا يسعني تبريره! لكنّ الحاجة دفعتني إلى دخول دكّان أبي صالح ذات مرّة. كان بالمحلّ زبائن آخرون، فحدجني بنظرة صامتة ولم يعلّق. اختلست إطلالة عابرة على شرفة المقهى وأنا أعجّل بالعودة أدراجي. تمنّيت لو لمحت الدكتور مالك، لعلّه كان ليفهمني. حين يكون ما يلمّ بك مشطّا في الغرابة، يتعسّر على عامّة البشر استيعابه وتقبّله، تحتاج عقلا جامحا يعالج كلّ واقع بقاموس المنطق الخاصّ به. وهذا

هـو الدكتـور مالـك.

لكنّ حظي العاثر جعلني أقع على أبي مازن. لوّح لي بحرارة ثم هرول في اتّجاهي رغم سنيه التي تراكمت شحما في كرشه المكوّر وضعفا في ركبتيه الهزيلتين. تأبّط ذراعي وسار بي بمحاذاة الشارع الرئيسيّ. كنت أرغب في الفكاك، لكنّني قدّرت الودّ البالغ الذي أظهره المهندس المتقاعد. سأل كثيرا عن أحوالي وأبدى افتقاده لشلة المقهى التي انفرط عقدها منذ حين. من دون استفسار منّي، ذكر اختفاء الدكتور مالك الغامض بعد انقطاعي بأيام قليلة. فاجأني الأمر، وأعفاني من السؤال عن الرّجل. لم يبق إذن سوى العجائز والنرد في صندوقه الخشب.

وقفنا قبالة محطة الحافلات، وأبو مازن ما زال يثرثر. يحوم حول السّؤال من الجهات الأربع ولا يقتحم سور الخصوصيّة الذي لطالما بقيت جدرانه مرفوعة منذ أيّام الشلة. لعلّه يتساءل، هل من حقّه أن يسأل أين كنت وما الذي حلّ بي؟ ولمّا كانت رغبة الإفصاح منعدمة لديّ، فقد تجاهلت ما في لهجته من تلميح. انتبه فجأة إلى شرودي عن حديثه ونظراتي السّاهمة في اتّجاه بناية قديمة ترتفع طوابقها خلف مأوى المحطة. قال فجأة:

- تلك بناية مسكونة!

التفتُّ إليه مبغوتا، وقد استحوذ فجأة على كلّ انتباهي.

- ماذا تقصد.. بمسكونة؟

- لقد هجرها سكّانها منذ سنوات. وكلّ متعهّد حاول ترميم المبنى وتجديده كان يفرّ بعد برهة وساقاه تسابقان الرّيح. الغالب أن أرواحا ما تسكنها، وتأبى أن يشاركها البشر ملجأها.

- أيّ نوع من الأرواح؟ أشباح موتى؟

كنت أستعلم في ظاهر الأمر عن بناية لا تهمّني في شيء، بينما أستطلع في الحقيقة رأيه في نظريّة المختار عن روح كارمن.

- دعك من هذا الهراء. أرواح الموتى ليست فارغة لهذا العبث، وهي المشغولة بمصيرها وحسابها. فهل يمكن أن تكون مع هذا طليقة من كل قيد، تروّع البشر وتستحوذ على البنيان؟

انتابتني الرجفة مع كلماته الواثقة. وتساءلت في صمت: إن لم تكن هذه الأرواح لموتى البشر، فما تكون؟

- إن شئت رأيي، لا يمكن أن يكون إلا من الجنّ والشياطين!

*****

- إنها جنّيّة!

قلتها بلهجة من يكشف عن سرّ خطير. ما عدت متيقنا فيمَ كنت أفكر، حين قصدت المختار أنبئه بما خلُصت إليه بعد حديثي العابر مع أبي مازن. ربّما طمعت في نفوره، فيطلقني من جلسات زاره.. أو شفقته، فيسعى إلى تحريري منها بدل الحرص على استبقائها؟ رأيته يتفحصّني باهتمام واستغراق بالغين، دار حولي ساهما كأنّما يزن كلماتي بميزان العقل والخبرة.. والنفع أيضا. ثمّ ظهرت على جانب فمه بادرة ابتسامة، توسّعت تدريجيّا حتّى ملأت وجهه. ثمّ تركني من دون أن ينطق بحرف وهرول إلى الخارج لا يلوي على شيء.

لم يطلبني ذلك اليوم، ولم أجد له أثرا في المجمع كلّه. ولم أقدر أن أخمّن كيف يفكّر المختار. بدا أنّ اعترافي قد كشف له عن شيء ما.. شيء يتجاوز تفكيري. لكنّ الأمور اتّضحت حين دعاني إلى مجلسه تلك الليلة.

أمرني بشرب وصفة الأعشاب في حضرته، ثمّ بعد أن بدأ تأثير المحلول يُلحظ على وجهي، أخذ بيدي وقادني بخطوات متّئدة عبر دهاليز القبو. رأيت في ما يرى النّائم -أو المخدَّر، أيّهما أقرب- قاعة فسيحة ومضاءة بشكل مبهج، لا تكاد تصدّق أنّها تقبع في أعماق القبو! فرشت أرضها

بطنافس وسجّاد فاخر، وأرائك منخفضة وثيرة، وتناثرت هنا وهناك وسائد طريّة ومغرية في فوضى مدروسة. لم أكن أدرك مصدر الضّوء، لكنّه يبهر عينيّ ويبقي رؤيتي مهتزّة. فجأة تركت كفّ المختار كفي، والتفّ حتّى صار أمامي وخاطب قوما كانوا مجتمعين في بلاطه ذاك، الذي يشبه ما رسمته في خيالي لبلاط خليفة عبّاسيّ ما! كنت أنتبه للتوّ إلى وجودهم، والمختار ينزاح جانبا وينحني، ليقلّده رفاقه انحناءً.. في اتّجاهي! ثمّ حصل ما هو أعظم.. نزع المختار عنه عباءته ورماها على كتفيّ! مثل خليفة يخلع عباءته على وزير من وزرائه يرضيه أداؤه! عباءة خضراء ذات ملمس حريريّ ناعم كانت، رفرفت من حولي وأنا أتقدّم في غير ثبات في اتّجاه المقعد المرتفع الذي يتصدّر الجلسة. كان القوم يحتفون بي!

- كليم الجنّ!

قدّمني المختار في فخر واعتزاز، فاتّسعت عيناي ذعرا. لا شكّ أنّي ترقّيت في سلّم الكفاءة عند الشيخ حين تبيّن أنّ رفيقتي جنيّة، لا مجرّد روح بشريّة شاردة! لا تسألني أرجوك كيف ولمَ.. لكنّني وجدتني أستسيغ الدّور. هالة التعظيم التي أحاطت بجلسة ربّما هوّل لي الدّواء أبعادها، فتخيّلتها جديرة بالخلائف، وهي مجرّد صالون مغربيّ ممّا انتشر في أسواق الأثاث الباريسيّة -كانت تروقني! هل تتخيّل كيف يمكن لبشر أن ينتقل من مكانة الخدمة والتّبعيّة إلى مكانة النّديّة والتبجيل عند رجل فاضل ومقتدر مثل المختار؟ كنت ممتنّا تلك الليلة لكارمن والرّصاصة أكثر ممّا أمكنني أن أكون في أيّ وقت آخر. جنيّتي الصغيرة التي أرعبني اكتشاف حقيقتها تلك الظهيرة، تجلّت ميزة لا يستهان بها.. عند من يقدّرها حقّ قدرها. وقد كان ذاك المجلس هو ما رفع قدرها.

كانوا رجالا أثرياء من علية القوم، يؤمنون بقدرة الجنّ على تيسير أمورهم الدنيويّة بالغة التأثير والأهميّة. مثل الشيخ المختار كانوا ينتظرون منّي إشارات وإجابات. أنا الرّسول حامل البشارة! كان من السّهل عليّ بعد عمليّة التنصيب والاعتراف التي أتقن المختار إخراجها أن أسعى

إلى السّاحة، فأنصب في قلبها خيمة من وبر الجمال، وأتربّع ساعات النّهار أمام كانون يطقطق في جوفه البخور، فأتمتم بكلمات مبهمة وأحلّ مشكلات الخلق بمشورة جنيّتي! تراءى المستقبل سهلا والحياة منبسطة ممتعة، وقد وجدت أخيرا المهنة التي تناسبني!

أراك تقهقه وقد وصلت عند هذا الحدّ. كم كان أبوك ساذجا حينها. أحاول قلب موازين الأمور واستغلال الموقف ولو إلى حين. ما دامت رصاصتي في رأسي وكارمن تقبع إلى جواري، ألا يحقّ لي تحقيق بعض النفع من مصيبتيّ؟ أم أنّهما لا تصلحان إلا للألم والعذابات الليلية حين يغيب تأثير الدّواء؟

ولأيّام تلت، استغرقني الدّور الذي كُسيت جلبابه حتّى تخالني من المشعوذين الأصليين.. لا تقليدا يُمهر بعبارة «صنع في الصّين»! لم أكن ذا تجربة مع الدّجالين والوسطاء الرّوحانيّين، لكنّ حفلة الزّار الأولى خلّفت في ذاكرتي نتفا من العبارات البليغة التي تردّدت مرارا على مسمعٍ منّي، وخلتني صرت قريبا من هيئة الشيخ المهابة وقد اعتمرت عمامته ورفلت في حلّته، فاجتهدت في تقليد صوته وشكله وهو يحاول استحضار كارمن في المرّات الخالية. وما بدأته متصنّعا متكلّفا، انتهيت إلى ممارسته في سلاسة لا تضاهى.. كأنّني تربّيت في حجر أحد شيوخ الطريقة.

*****

خلال وقت قصير، ذاع صيتي في المنطقة واشتهرت في الأوساط الشعبيّة. أصبح المريدون يفدون من أجلي، ولن أبالغ إن قلت إنّني نافست المختار نفسه! ولم يكن يبدو عليه الضيق لذلك، فرواج تجارتي كان مدعاة فخره. ألم أكن صبيّه وصنيعته؟ ألم تكن جنيّتي من اكتشافه؟ بل لعلّ وجودي خفّف عليه ضغط المريدين المتزاحمين على بابه سائلين الشّفاء. ولعلّه كان يوجّه بعضهم إليّ، ناصحا إيّاهم باختبار شيء جديد.. استشارة الجنّ مثلا!

كان المختار قد أفرد لي شقّة في إحدى عماراته، تتصّل بمدخل أرضيّ مباشر. ولعلّ أطبّاء ومهندسين حسدوني على موقع «مكتبي» القريب من الطريق العموميّة، فلا تخطئ العين لافتته من بعد مئات الأمتار.. «حكيم روحاني». لم أكن آخذ أجرا من أصحاب الحاجات، لكنّ علبة معدن كانت تُترك بإهمال في مدخل الغرفة، والمقتدرون يلقون في جوفها قطعا نقديّة.. كلّ حسب طاقته، وعرفانه.. فكثيرا ما يرجع المريد ليدفع بعد أن تُقضى حاجته أو يجد ضالته. وإن كان ذلك يحصل، فهي بالتّأكيد صدفة أو قدر! فلا أدّعي أنّ كارمن كانت تنطق بما يفيد! لكنّ تكرار الصّدف وتواترها جعل من جنّيّتي الصّامتة أداة معجزات!

في ذلك اليوم، كانت غرفتي المخصّصة لاستقبال الزّوّار غاصّة عن آخرها. وكانت قد مضت عدّة أسابيع على مزاولتي «المهنة». كنت أتمتم مثل العادّة، وأؤدّي حركاتي الغريبة مثل مشعوذ محترف. ثمّ تراءى لي خيال من نافذة الغرفة المطلّة على السّاحة، شتّت انتباهي. رأيت ليليان، قادمة من بعيد، تدفع كرسيّ ديانا عبر السّاحة! كانت معجزة بحقّ، أن ألمحها بعد غياب قد طال وراء الجدر المغلّقة، حتّى ظننتها اختفت إلى

الأبـد!

كانـت لحظـة خاطفـة قطعـت أنفـاسي، قبـل أن يجتذبـني عبـق البخـور وصـوت المـرأة المسـكينة المتربّعـة قبالـتي تسـأل عن سـوارها الذهـبي الضائع، فرجعـت بتركـيزي إلى الواقـع مرغمـا. كنـت أحـاول جاهـدا أن أبعـد عيـنيّ عنهـا، فأرقبهـا خلسـة بطـرف عيـني، أتأكّـد أنّهـا هـي هـي.. حـتّى رأيتهـا ترفـع رأسـها. واجهتـني عيناهـا لبرهـة قصـيرة، لمعـت خلالهـا نظـرة اسـتخفاف لا ترحـم، قبـل أن يغيّبهـا وأمّهـا منعطـف في نهايـة الـدّرب. كانـت ترحـل أمـام عيـنيّ، وأنا عاجـز عـن اسـتيقافها.. أنـا الـذي أحـدّث الجـنّ بزعمهـم، وأحـلّ المشـكلات المسـتعصية، لـم أكـن قـادرا عـلى فعـل شيء أردّ بـه نظرتهـا القاتلـة.

في ذلـك المسـاء، بـتّ معذّبـا مكلومـا.. كأنّي رأيـت حقيقـتي في تلـك النّظـرة. وتسـاءلت لأوّل مـرّة مـذ لبسـت عمامـة الدّجالـين، مـا الـذي أفعلـه بنفـسي وبخلـق اللـه المسـاكين؟ لـم أكـن دجّـالا مثـل الآخريـن.. فجنّيـتي حقيقيّـة. لكنّـني بُليـت بجنّيـة مراهقـة ترفـض أن تجيـب عمّـا أسـألها عنـه! كانـت ترقبـني مـن ركـن الغرفـة، حيـث تجلـس طـوال النّهـار تخربـش بطـرف عـود عـلى الجـدار الكلـسيّ.. وأنـا أسـتميت في اجتهـاد أقـرب إلى الاختـلاق في تخمـين صـور ذات معـنى لخربشـاتها العقيمـة تلـك! مـذ عرفتهـا وهـي تخربـش.. تحدثنـا طويـلا وتسـلّينا في عهدنـا الأول، خالـي البـال مـن الفروقـات الحسّـيّة بيننـا. كنـت أجـد متعـة في تأويـل رسـومها ومبادلتهـا الحديـث مـن خلالهـا. لكنّهـا اليـوم باتـت تتجاهلـني حـين أحدّثهـا، تنكمـش عـلى نفسـها وتسـحق العـود بـين أصابعهـا لـتزداد رسـوماتها تعقيـدا وسرياليّـة.. كأنّمـا تتحـدّاني في صمـت أن أقـدر عـلى التخمـين.. ولـم تعـد اللعبـة تسـتهويني وتمتعـني. لكنّهـا غـدت مصـدر قـوتي وقـوّتي! فقبلـت التّحـدّي مجـبرا لا بطـلا.

نمـت تلـك الليلـة بعـد أن اتّخـذت قـرارا بالتّوقـف. لـم تكـن ديانـا راضيـة عـن شـعوذتي، وكنـت لأفعـل المسـتحيل في سـبيل رضاهـا. عـلى السّـاعة الثامنـة مـن صبـاح الغـد، كنـت أطـرق بـاب شـقّتها. هـل رأيـت جسـارة كهـذه؟ بعـد أن طُـردت مـرّة واثنتـين وثلاثـا، أراني أركـب المصعـد كـرّة أخـرى، أبحـث

عـن الخيـال الـذي عـبر أمـام نافـذتي بالأمـس، وقـد اشـتقته بـكلّ جوارحـي.

بعـد ثـوانٍ، فتـح البـاب، وظهـرت ديانـا عـلى كرسيّها. رمقتـني في دهشـة. لـم تكـن زيـارتي متوقّعـة بعـد القطيعـة الطّويلـة. قالـت وهـي تدفـع عجلاتهـا إلى الـوراء في إعـراض:

- أمّي ليست هنا.

تمنّيـت لـو امتلكـت الجـرأة لأشرح ظـروفي وأعلّـل غيـابي، أو أسـأل عـن غيابهـا وإعراضهـا. لكنّـني لـم أفعـل. مـا نفـع العتـاب، مـا دامـت عيناهـا تجاهـران بالصّـدود؟ لبثـت عنـد البـاب المـشرع، بينمـا انسـحبتْ إلى الصالـة، مـن دون أن تدعـوني إلى الدّاخـل. مـرّت لحظـات مـن انتظـاري المتوتّـر، بينمـا اسـتمرّت هـي تراقـب مشـهد الحيـاة في سـاحة المجمـع السّـكني مـن نافذتهـا الشّـاهقة. سـألتني فجـأة مـن دون أن تواجهـني:

- هل لديك جنّيّة حقّا؟

ابتسـمت. لـم يسـألني أحـد ذاك السّـؤال مـن قبـل. الـكلّ تقبّلـه في تأمـينٍ مُسَـلِّمٍ.. ومـن لـم يصـدّق صـدف عـنّي ولـم يسـأل. فكّـرت كيـف أجيبهـا، ثـمّ ارتأيـت الصّـدق. رغبـة عميقـة في داخـلي كانـت تقتـضي ألّا يـرد عـلى لسـاني غـير الصّـدق في حضرتهـا. قلـت:

- يبـدو ذلـك. هـي جنيّـة صغـيرة متمـرّدة.. صامتـة معظـم الأحيـان. لكنّهـا تلازمـني غالـب الوقـت!

سألت متشككة تختبرني:

- هل هي هنا الآن؟ صفها لي؟

نظـرت إلى طيـف كارمـن الـذي ينحـني في منتصـف المسـافة الـتي تفصلنـا، يرسـم خطوطـا وهميّـة عـلى سـجّاد الصّالـة القديـم.

- إنّهـا خفيفـة رقيقـة العظـم، بشرتهـا شـاحبة توحـي بالعلّـة.. شـعرها بـنيّ قصـير، ونظراتهـا سـاخرة. إنّهـا تسـخر مـنّي طيلـة الوقـت.. وتشـعرني بالسّـخافة!

كنت قد قرّرت هذا الصّباح أن أتوقّف عن تأويل خربشاتها إلى الأبد. فقد بلغ منّي الضيق مبلغه!

قالت في عبث ساخر:

- ماذا تقول جنيّتك؟ هل يتلبّسني جنيّ ما؟

انحنيت فوق كتف كارمن أتأمّل رسما وهميّا ربّما تكون خطّته على السّجاد. كانت تبدو وديعة ذلك الصّباح، تحرّك سبّابتها في شكل دوائر رقيقة، وتطالع ديانا في اهتمام.

قلت معترفا:

- لا أدري! لا يمكنني فهم خربشاتها غالبا.. لكنّها هادئة اليوم وسخريتها منطفئة. أظنّها أحبّتك.

استدارت لتطالعني بنظرة مستغربة. لم أكن أبدو مشعوذا محترفا في تلك اللحظة، وقد نزعت عنّي العباءة وقناع الوجه. قلت على الفور مستغلّا لحظة التّواصل البصري بيننا:

- لقد تركت الشّعوذة. لن أفعل ذلك مجدّدا.

مرّت لحظة من الصّمت، لعلّها حاولت تقدير مدى صدقي، ثمّ سألت:

- وما الذي تنوي عمله الآن؟

انعقد لساني ولم أجد الكلمات المناسبة. ما الذي أنوي عمله؟ لم أكن قد فكّرت في الأمر. كنت أودّ العودة إلى دروس العربيّة، لكن خشيت أن يعارض المختار وأتعرّض منه لعقاب جديد.. وهو الذي لم يتوان عن حرماني من الدّواء لأبقى على حدود ما توهّمه برزخا! أيّ وعود يمكنني أن أقدّمها لأميرتي التي تستفسر عن مشاريعي المستقبليّة؟ طال صمتي حتّى قالت منهية مهلة الانتظار:

- عليك الانصراف الآن.. أمّي ستصل في أيّ لحظة.
انسحبت في صمت، مكسورا، أجرّ أذيال الخيبة.

*****

كنت قد تركت الشعوذة منذ ذلك الصّباح. منذ عاودت ديانا الظّهور في حياتي. تظاهرت بالمرض فترة، ثمّ اشتكيت إلى المختار كسل جنيّتي وغيابها عنّي، فأوصاني بالخلود إلى الرّاحة على أن أستأنف في القريب. لكنّي لم أكن أنوي شيئا من ذلك.. أتلكأ وأسوّف اتّخاذ قرار في ما أصنع.

حين صادفت ليليان الأسبوع التالي، لم أتوقّع منها غير التّجاهل كعادتها مؤخّرا. كدت أشيح عنها بوجهي، لولا حقّ الجيرة الذي كنت أؤمن به. لم تتوقف وهي تسير متعجّلة عبر السّاحة، لكنها همست إليّ حين مرّت بجواري وهي تحثّ الخطى:

- اتبعني...

سرت خلفها في إذعان متوجّسا من همسها ولهجتها الغامضة. انتظرنا المصعد في صمت ثمّ دلفت وراءها إلى شقتها. أغلقت الباب خلفها في إحكام ثم طلبت مني الجلوس على الأريكة القريبة. أطعتها من دون تردّد، وعيناي تنشطان بحثا عن خيال ديانا الذي لم يظهر بعد. جلست ليليان قبالتي وسألتني في اهتمام:

- أنت لست متورّطا معهم، ألست كذلك؟

انفرجت شفتاي لأردّ، لكنّني عدمت الجواب. عن أيّ درجات التورّط تتحدّث؟

أضافت هامسة كأنّما ضمنت براءتي:

- أنت ولد طيّب.. ولست معنيّا بالمصائب التي ستحلّ بأهل القبو! اسمع نصيحتي وغادرهم قبل أن ينطبق فكّا المصيدة!

طالعتها في ارتياب ودهشة، فعادت للهمس كأنّما تخاف أن يتسلل صوتها خارج جدران الشقة ويصل إلى آذان تترصّدنا بسوء:

- هناك شخص أعرفه.. صديق قديم لزوجي رحمه الله.. ضابط شرطة.

رأيـت سـيّارته مختفيـة قـرب مدخـل المجمـع السـكني. إنّ الشرطـة تسـتعدّ لمداهمـة مـا.. لـم تعـد إلاّ مسـألة وقـت...

أقلّـب كفـيّ في عـدم فهـم. ومـا علاقـة حـراس العقيـدة والشـيخ بمسـألة كهـذه؟ لعلّهـم يترصّـدون منحرفـين مـا.. لصوصـا أو تجّـار مخـدّرات؟ تـردّ محتـدّة عـلى تسـاؤلي الصّامـت:

- أنـت لا تفهـم! مـن غـير المختـار وعصابتـه يكـون بغيتهـم؟ نشـاطهم المشـبوه محـطّ أنظـار السّـلطات منـذ حـين، ينتظـرون الزلّـة الكـبرى.. الخطـأ الفـادح الـذي يكشـف المسـتور. وقـد بـات المختـار يعلـن عـن نفسـه أكـثر مـن ذي قبـل، ويسـتعرض قوّتـه أكـثر ممّـا يحتمـل الصـبر.. وقـد غـدا قريبـا مـن ارتـكاب ذاك الخطـأ القاتـل!

همست بصوت مبحوح:

- لكن، الشيخ المختار.. رجل صالح ذو أفضال...

كأنّما توقّعت أن أرفع حجّة الدّواء، هتفت بي كما هتفت مرّة من قبل:

- دع الدّجل والشعوذة واستشر طبيبا حقيقيا!

ثمّ أضافت بصوت يحمل ضغينة لم تحاول إخفاءها:

- أراهـن عـلى أنّ دواء شـيخك يـضرّ أكـثر ممّـا ينفـع.. سـيظهر ذلـك ولـو بعـد حـين!

- أرجـوك.. لا تقـولي هـذا! الرّجـل أحسـن إليّ ولا يمكنـني إنـكار جميلـه مهمـا اختلفـت معـه.

ابتسمت ليليان وهي تقول في حنوّ:

- ألـم أقـل لـك مـن قبـل إنّـك ولـد طيّـب؟ حسـن، دعـني أفكـر في حـلّ مـا.. أمـا الآن...

أخرجت رزمة من الأوراق النّقدية ودسّتها في كفّي وهي تقول:

- أنـت لا تريـد أن تكـون منهـم أليـس كذلـك؟ خـذ هـذه واذهـب إلى الحلاق

لتهذّب شكلك، ثمّ انزع عنك زيّ البهلوان واشتر ثيابا جديدة.. جميلة وشبابيّة. ستشعرك بحبّ الحياة من جديد!

تردّدت وأنا أقلّب المبلغ الذي لم أمسك مثله منذ زمن طويل. كنت أقدّر لها اهتمامها لأمري، وأشفق على محاولتها أن تكون ندّا للمختار. تابعت تقول بنبرة تحدّ:

- إن خاصمك شيخك لخروجك عن طاعته، فلتعلم أنّك ستكون في حماية ليليان روجيه.. ويمكنني أن أدبّر لك مسكنا وعملا إن شئت!

لا ينجح تحريضها في إقناعي بالخطر المفترض، وتسرح نظراتي تحاول عبور الأبواب المواربة. فكلّ ما كان يشغلني آنذاك هو أن ألقى أميرتي التي غابت عن مجلسنا.. لماذا لا أجد لها أثرا، ولا تقابلني غير هذه العجوز الحانية المسكونة بنظريّة مؤامرة تحاك ضدّي وترتعب من أجلي كأنّي بعض أهلها؟

- لا تنس أن تمرّ عليّ حين تعود من المحلاّت، أريد أن أرى حلّتك الجديدة.

أشكرها لاهتمامها وكرمها وأعدها بالتفكير في عرضها، وأنهض متثاقلا وقد مُنّيت آمالي برؤية ديانا بخيبة ممضّة. لم تنجح غريزة ليليان تجاه الخطر في رفع مستوى حذري، لكنّ المختار تنبّه بشكل ما إلى أنّ أحدهم يحاول سحب البساط من تحت قدميه، فعمل على تثبيت أوتاد سطوته في أرضي بضربات ثقيلة لا قبل لي بمقاومتها. كان بانتظاري حين رجعت من عندها، تلقّاني بنظرته الحصيفة التي تسبر أغواري من دون عناء وقال:

- كن في موقعك صباح الغد.. فلدينا ضيوف مهمّون.

هززت رأسي مستسلما. لم أكن أستطيع أن أرفض له طلبا. فإنّي أدرك نوع العقاب.

لعلّك تتوقّع مصيبا أنّني لم أعد لرؤية ليليان كما وعدتها. ولا قصدت الحلاّق ومحلاّت الأزياء الشبابيّة حسب وصيّتها. فقد رقدت أوراقها

النّقديّة في دعة داخل جيب بنطالي القديم الذي استبدلت به صباح الغد جلباب الحاوي وعمامته.. لأعود صاغرا إلى حرفتي المستجدّة. لكنّ العجوز الطيّبة لم تيأس من أمري، وأرسلت تطلبني غير عابئة بأعين المختار المبثوثة من حولنا. دخل عليّ ولد من أبناء الجيران وأنا أتربّع وحيدا أمام كانوني. كان انقطاعي في الأيّام الماضية قد فضّ المريدين من حولي. انحنى عليّ الولد وهمس بكلمة السّرّ التي ما حسبت غيري يعرفها:

- الخالة ليليان تطلبك لأمر عاجل يخصّ ابنتها!

ابنتها؟ وهل لليليان ابنة غير ديانا؟

نسيت الدّور والجنّ والشيخ وضيوفه، خلعت عنّي العمامة والعباءة وهرولت إلى البناية الرّابعة. حين أذكر ذلك اليوم، ينتابني إحساس من حُذف بدلو ماء مثلّج في عزّ ظهيرة يوم شديد القيظ. كأنّها استفاقة من سبات شتويّ. ديانا.. يا إلهي، ديانا! خشيت أن يكون قد أصابها مكروه ما!

حين دخلت الشّقّة، لم تكن ديانا في مرمى بصري. إلى جوار ليليان على أريكة غرفة الجلوس، كانت تجلس فتاة أخرى لا أعرفها. طالعتهما في شكّ، وساورني إحساس سخيف بابتلاع الطّعم. لكنّني جلست مستسلما أنتظر أن يُسمح لي بالحديث. كانت تفصلني ساعة واحدة عن الموعد الذي ضربه لي المختار. ولم تكن ليليان قد جازفت بدعوتي إلّا بعد أن تأكّدت من خلوّ المجمع السّكني من المختار وحرّاسه. لذلك بقيت مكاني مترقّبا.

- شاي أم قهوة؟

- قهوة من فضلك...

لم تسألني ليليان عن مشروبي ونهضت متثاقلة باتّجاه المطبخ لتحضر طلب ضيفتها. تضع الفتاة الأنيقة حقيبتها إلى جوارها وتقبع ملفاتها على الطاولة المنخفضة بينما تسترخي في جلستها من دون أن يبدو عليها الاهتمام بحضوري. أرمقها من دون تركيز، فانتباهي منصبّ على الملاك

الغائب عن الجلسة، وأنا الذي طرت بلا جناحين قلقا لأمره.

- قهوتك أستاذة رنيم.

وضعت ليليان فنجان القهوة أمامها وكوب الشاي العابق برائحة نعناع طازج وملعقتي سكر أمامي، وتكلّمت موضّحة:

- في اتصالي الهاتفي لم أوضّح الموقف بشكل كافٍ.. نظرا لدقّة الموضوع فضّلت أن أشرح التفاصيل مباشرة.

قدّمتني وهي تشدّ على ذراعي تبثّني ثقتها:

- نادر صديق للعائلة.. ونحن نثق فيه كثيرا. بيتي مفتوح له متى شاء.. وأمره يهمّني. لقد مرّ بتجارب قاسية على صغر سنّه وظلمته الظروف. وقد دعوتك اليوم لشأن يخصّه. أريد ترتيب وضعيّته القانونيّة في أقرب وقت حتّى لا يتعرّض للمزيد من المضايقات.

استمعت إليها في صمت. لكنّ مرافعتها لم تشدّني في شيء بقدر ما شدّتني كلمة «نحن» التي بدأت بها خطابها. أين باقي الضمير يا امرأة؟ لماذا يستتر عنّي؟

- إذن، هل يمكننا استخراج أوراق هويّة لنادر؟

- الأمر ليس بهذه البساطة.. أوّلا نقصد مركز الشرطة ونرفع شكوى بضياع أوراقك، ثمّ نتوجه إلى سفارة بلادك للحصول على جواز سفر جديد وأوراق هويّة كاملة. كلّ هذا في غاية البساطة ويمكن الانتهاء منه في وقت قصير.. لكن لا يمكنك الحصول على بطاقة إقامة بنفس الطريقة. الدّاخليّة يمكنها التثبّت بسهولة من سجلات البطاقات المصدرة وسيتبيّن لديها أنّ اسمك لم يرد فيها.. بل لم يتمّ إصدار تأشيرة لك مطلقا، ما سيسبّب متاعب أنت في غنى عنها.. إذن لا مفرّ من سلسلة العرائض والمناشدات والمرابطة أمام مفوضيّات الهجرة ومكاتب شؤون المهاجرين، عسى أن يحنّ عليك أحد المسؤولين ويتجاهل طابور الانتظار المتراكم منذ سنوات، ويتكرّم عليك ببطاقة إقامة تجدّدها سنويّا!

بـدا الأمـر معقـدا بشـكل محبـط. أشـحت بوجهـي في ضيـق بينمـا غامـت نظـرات ليليـان الـتي كانـت تأمـل الكثـير مـن لقـاء المحاميـة. فواصلـت رنيـم تقـول مفتعلـة بهجـة مفاجئـة:

- أو تختار الحلّ السحريّ الذي يختزل المسافات، وتتزوّج بفرنسيّة!

قاطعتها في انزعاج غير مبرّر:

- انسي الأمر! لست في وضع يسمح لي بالزّواج.

- هـل سـمعت بالـزّواج الأبيـض؟ الكثـير مـن المهاجريـن بصـورة غـير شرعيّـة يصلحـون أوضاعهـم بهـذا الشـكل. ربّمـا يمكنـك أن تجـد امـرأة تقبـل بتسـجيل هـذا النـوع مـن العقـود.. نظـير مبلـغ مـن المـال؟ وبعـد أن يتـمّ إصـدار الأوراق يمكـن لـكلّ منكمـا أن يذهـب في حـال سـبيله.

عـمّ الوجـوم للحظـات وران صمـت ثقيـل عـلى ثلاثتنـا. لـم أجـرؤ عـلى إبـداء موقـف مـن اقـتراح المحاميـة الـذي بـدا بغيضـا إلى أبعـد الحـدود. كانـت تحـاول المسـاعدة، لكـنّ اقتراحهـا لـم يكـن موفقـا عـلى الإطـلاق. زواج، نظـير مبلـغ مـاليّ؟ قاومـت رغبـة مفاجئـة بالتقيّـؤ، بينمـا قالـت ليليـان أخـيرا:

- سنجد حلا...

خرجـت رنيـم مـن الشـقة واسـتقلت المصعـد. بعدهـا بلحظـات، نزلـتُ درجـات السّـلم بخطـوات واسـعة لأدركهـا وهـي تسـير الهويـنى عـلى الممـشى المفـروش بالحـصى. هتفـت مـن خـلال أنفسـاي اللاهثـة:

- أستاذة رنيم.. برأيك.. هل هناك حلّ.. معقول؟

كنت أشير إلى رفضي اقتراح الزّواج الأبيض، فقالت في جدّيّة:

- السيّدة ليليان.. إنّها تهتمّ لأمرك.

- نعم، أدري...

أضفت بسرعة قبل أن يقطع خيالها مسافات بعيدة:

- إنها في سنّ والدتي.

- لكنّها ليست والدتك.. ويمكنّها أن تقدّم لك خدمة جليلة إن هي أرادت...

- من فضلك، لا أريد المزيد من هذا الحديث! ولا تذكري الموضوع أمامها على الإطلاق! عديني!

كنت منفعلا ومستاءً. كان يجب أن أنغمس في الدّناءة حتى أذنيّ لأقبل بحلّ كهذا.

هزّت رنيم كتفيها في استهانة وهي تستأنف السير:

- كما تشاء.

قلت في سخرية بعد أن قطعنا بضع خطوات صامتين:

- من حيث أتيت، لا يمكن لأحد أن يتوقع كيف يمكن للزّواج أن يكون حلا لمشكلات الرّجل. من الطبيعي أن يكون حلا لمشكلات المرأة.. فهي تفرّ من شبح العنوسة منذ يوم ولادتها، وتجهّز للزفاف بمساندة حثيثة من أمّها وشقيقاتها، بتكديس مختلف المقتنيات بمناسبة ومن دون مناسبة. أمّا الرّجل فزواجه ثقل ومسؤوليّة وتعب جسد وقلب!

ضحكت، فنفضت عن أهدابها ظلال الحزن التي كانت ملتصقة بها.

- هل تتأثرين هكذا بقضايا موكليك، أم أنّ لحزنك أسبابا أخرى؟

لم أتوقّع أن تكدّرها دعابتي بذلك الشكل، فقد تلاشت الابتسامة على الفور. كنت أهمّ بالاعتذار، حين وجدتها تقول ولمّا يفارقها العبوس:

- هناك قضيّة تشغلني بشكل خاص.

هززت رأسي متفهّما. ولم توضّح أكثر.

*****

سأختصر عليك تفاصيل الرّوحات والجيئات إلى مباني الإدارات الرّسمية سعيًا وراء وثائق الهويّة. فمع أنّ حضور الأستاذة رنيم قلّص الطوابير ويسّر الإجراءات، فإنّ ساعات كثيرة أُستهلِكت في قضاء المشاوير.. ولم يكن ذلك ليمرّ من دون أن يلحظه المختار. كنت لأخدع نفسي إن ظننت إخفاء ما أنا بصدده عن الشيخ ممكنا. فقد عرفته يقظا فطنا لا تفوته مسألة تخصّ رجاله.. فما بالك إذا كان الرّجل كليم الجنّ المبجّل!

دخل عليّ مهموما ذلك المساء. تربّع على الحصير إلى جواري ولبث ساكنا، يهتزّ جذعه في حركة بطيئة وعيناه مغلقتان، كأنّما تستغرقه تراتيل داخليّة. وضع كفّه على ركبتي، كما فعل أوّل مرّة منذ شهور طويلة، يتلمّس موطن الدّاء. سألني في حنوّ بالغ، بذاك الصّوت العميق الوقور الذي لا سبيل لبشريّ إلى مقاومته:

- كيف أنت هذه الأيام؟

- بخير.. بخير يا شيخي. الفضل لله ثم لكم.

- هل ينقصك شيء؟ هل أساء أحد معاملتك؟

سارعت أهتف نافيا:

- لا يا شيخي! لم يحصل مطلقا!

ابتسم الشيخ وهو يقول بلهجة عتاب رقيقة:

- إذن ما الذي غيّرك علينا؟ لماذا التمست يد المعونة لدى غيرنا؟ لو كنت سألتنا لكفيناك.. أو لم نفعل في سابق العهد؟

تاهت الحروف منّي وألجمني عتابه. ماذا أقول؟ أرتّب أموري القانونيّة لأرحل من هنا إلى غير رجعة؟ أتعمّد إخفاء ما أفعله لأنّ ليليان تسكنها

مخاوف جمّة تجاهكم؟ لم يكن شيء من ذلك مبرّرا حتّى تلك اللحظة.

- هل تعلم كم يكلّفني غرام واحد من دوائك؟

رفعت رأسي مبغوتا مع سؤاله الغريب واللهجة الأغرب التي صاحبته. لثانية واحدة، لمحت في عينيه وميضا من القسوة.. وميضا حادّا ظهر لبرهة وجيزة ثمّ اختفى، وتلاشت القسوة من صوته وهو يضيف بحنّوه المعتاد:

- أنت بحاجة إلينا.. ونحن بحاجة إليك. مكانك هنا يا ولدي. أوَلم أخبرك أنّك منذور لمهمّة رفيعة؟ والمهمّة لم تنته بعد.

وافقته بحركة آليّة من رأسي ولم أعلّق بكلمة. وقف الشيخ وسار في اتّجاه الباب، وقبل أن يعبره قال ويده على المقبض وقد ولاني ظهره:

- لا تستمع كثيرا إلى تخاريف العجائز.. فإن مخالطة النساء مضيعة للوقت مذهبة للهيبة.

*****

- ليس لدينا جنّ هنا يصلح أن نكلّمهم!

تجاهلت ابتسامة أبي صالح المتهكّمة وأنا أعبر أمام دكّان البقالة. كان الرّجل مغتاظا منّي، منذ قاطعت جلسات المقهى واستلمت عملي الجديد في الشعوذة. إذا مشيت في الشارع، فإنّي أكون مطأطئ الرأس، كمن ينقّب عن شيء مفقود على الأرض. لم يكن يمتعني أن يتعرّف إليّ أحد زبائني، فيحرجني بعبارات اهتمام وتبجيل. لذلك لم أنتبه حين مرّت بقربي ليليان.

- يجب أن نتحدّث.

جاءني صوتها هامسا، فرفعت رأسي. همست من جديد وهي تهمّ

بمواصلة المسير:

- لاقني بعد ساعة من الآن.

تسلّلت في الموعد متوخّيا ما أمكنني من الحذر. لم أكن أرغب في عتاب آخر من المختار. وقفت متواريا في ظلال الأشجار أراقب حركة السّاحة. حين تيقّنت من غياب الأعين، توجّهت إلى العمارة الرابعة. قالت ليليان حين استقرّت بنا الجلسة:

- تلقيت اتصالا من المحامية، الأوراق ستكون جاهزة خلال أسبوع على الأكثر...

ثمّ ران الصّمت. لم يكن هناك أثر لديانا، كالعادة. هل تكون دعتني لتكتفي بتلك الكلمات؟ فكّرت كثيرا بتلميح المحامية في الأيام الماضية. لن أقبل أبدا بزواج بليليان حتّى لو كان صوريّا أو «أبيض» أو حتّى «أسود». هناك حدود لتحمّلي الشفقة والإحسان. إحساس راودني بأنّ عليّ أن أنقذ ما تبقّى من كرامتي وأحفظ ماء وجهي.. أمامها. ماذا ستظنّ بي ديانا إن تزوّجت أمّها؟

نطقت ليليان بعد برهة في سكينة، كأنّها تخاطب نفسها:

- أنا وديانا لا عائلة لنا، والداي توفيا منذ زمن طويل وأنا كنت ابنتهما الوحيدة. حين توفي زوجي، تفرّق عنّا إخوته ولم أر وجه أحدهم بعد المأتم والدّفن. لم يهتمّ أحد منهم بمصير أرملة شابة وابنتها المقعدة، كان علينا أن نشق طريقنا وحدنا في السّراء والضّرّاء.. لولا الإيمان ومساعدة الرّبّ...

قالت ذلك وهي ترشم الصّليب ثم أضافت:

- لذلك أحسست بمعاناتك في غربتك لأنني وابنتي جرّبنا الوحدة، والغربة بين الأهل من قبل.. نحن نعيش في مجتمع قلّما يشعر بعضه بالبعض الآخر. كلّ منعزل في عالم مغلق. تحيا وتموت في صمت ولا يدري عنك أحد.

صمتــت مــرّة أخــرى، ولــم أحــاول أن أقاطــع إطراقهــا العميــق. كانــت ملامحهـا المشـدودة تـشي بعزمهـا عـلى اتخـاذ قـرار حاسـم في تلـك اللحظـات. قالـت مغـيّرة الموضـوع:

- حـين كانـت في سنّ العـاشرة، تعرّضـت ديانـا لحادثـة.. كانـت تركـب الدّرّاجـة في طريقهـا إلى مـنزل رفيقـة لهـا، حـين دهسـتها سـيّارة مسرعـة. منـذ ذلـك الحـين فقـدت القـدرة عـلى المـشي، وأصبحـت انطوائيـة وميّالـة إلى العزلـة.. واصلـت الـتردّد إلى المدرسـة، لكنّهـا كانـت قـد وضعـت سـتارة بينهـا وبـين العالـم. أنـا وهـي عشـنا في وحـدة لفـترة طويلـة بعـد رحيـل والدهـا. لـم تسـمح لشـابّ واحـد بالتقـرّب منهـا أو مغازلتهـا في الجامعـة، وبعـد الجامعـة انتهـت كل علاقاتهـا بالعالـم الخارجـي. كانـت ترفـض الحديـث إلى الغربـاء وتغـرق في كتبهـا، حـتى حـين نقصـد جلسـات العـلاج الطبيعـي. ظننـت أنّهـا قـد ترتـاح إلى أشـخاص يعرفـون معاناتهـا ويعيشـون إعاقـة مثـل إعاقتهـا.. لكنهـا لـم تفعـل. لفـترة طويلـة صـارت تخـشى مغـادرة عتبـة البيـت. إنّهـا عابسـة ومنقبضـة طيلـة الوقـت.. حـتّى لقيتـك! راودني الأمـل حـين وجدتهـا تنفتـح أمامـك وترسـم البسـمة مـن جديـد عـلى شـفتيها.. ولبعـض الوقـت، أحسسـت أنّ عائلتنـا الصّغـيرة المنعزلـة ازدادت فـردا...

ازدردت ريقـي بصعوبـة حـين وصلـت عنـد ذلـك الحـدّ. لـم أسـتطع النطـق بكلمـة. أرسـلت نظـراتي عـبر زجـاج الشرفـة، أنتظـر بقيّـة الـكلام في قلـق ونفـاد صـبر. كنـت أتسـاءل، أيّ نـوع مـن أفـراد العائلـة قـد أكـون.. أخ؟ زوج؟ أم.. زوج أمّ؟ اسـتبعدت هـذا الاحتمـال الأخـير عـلى الفـور حـين اسـتطردت بلهجـة جـادة:

- بـنيّ، لقـد صرت عجـوزا تقـترب مـن السّـتين.. وقـد شـاخ قلـبي بسـبب داء الكوليسـتيرول ولـم تعـد دقاتـه منتظمـة كالسّـابق. قـد لا أعيـش طويـلا، والأعمـار بيـد الـربّ.. لكنّـني أحـاول تصريـف الأمـور بحكمـة حـتى لا أدع مجـالا للنّـدم.

انتظـرت أن تفصـح وتريحــني، لكنّهـا بـدت مشـتّتة.. ربّمـا تنتظـر أن أبـادر بكلمـة:

- نحــن لسـنا أغنيـاء، نعيـش عـلى معـاش زوجـي الرّاحـل الـذي يكفينـا.. لـم ألمـس المـيراث قـط؛ لأنّـه حمايـة لمستقبل ابنـتي الوحيـدة وليـس مـن الحكمـة تبذيـره. سـيكون عـليّ أن أنفـق قسـطا منـه عـلى زواجهـا.

أمّنـت عـلى صـواب تفكيرهـا بهـزّة مـن رأسي وواصلـت إطـراقي. رمقتـني فجـأة بشـكل مبـاشر وارتفـع صوتهـا بعـد طـول همـس:

- حسنا؟

بادلتها النظر في سكوت. فاحتدّت:

- ألن تقول شيئا؟

كان يفـترض بي أن أقـول أشـياء كثـيرة بعـد فضفضتهـا تلـك، لكنّـني كنـت معقـود اللسـان ثقيلـه.

- ربّما تودّ أن تخطبها منّي مثلا.. قبل أن أغيّر رأيي؟

انفكّت عقدتي مرّة واحدة وسارعت أقول في لهفة:

- نعم.. أريد!

ظهـرت عـلى وجههـا ابتسـامة صغـيرة، ثـمّ عـادت إلى الهمـس لتسترسـل مـن دون توقّف:

- إنّهـا فكرتهـا.. ديانـا اقترحـت الأمـر. أعلـم أنهـا تروقـك أيضـا، وهـي تشـعر بالارتيـاح في حضـورك. الأمـر أصعـب ممّـا تتصـوّر بالنسـبة إليّ.. فهـي ابنـتي الوحيـدة! حـين أحسسـت بالتقـارب الـذي نشـأ بينكمـا، حاولـت إبعـادك عنهـا.. لـم يكـن مـن المناسـب أن تتعلّـق بصـبيّ تائـه تسـكن رصاصـة في رأسـه! لكنّهـا تبـدو واثقـة ممّـا تريـد. هـذا جنـون! هـذا جنـون! أنـت مـرّة مـدرّس عربيّـة ومـرّة شـحاذ.. ومؤخـرا مشـعوذ مبتـدئ! أشـكّ أحيانـا في رجاحـة العقـل الـذي تحملـه داخـل رأسـك! لكنّـك ولـد طيّـب.. قلـبي يستشـعر هـذا، ولذلـك أرتـاح

إليك.. وأحبّ وجودك إلى جوارنا.. لكنّك ولد كبير يحتاج إلى العناية. أرجوك اكبر بسرعة! حاول أن تفعل من أجلها.. من أجل ديانا التي تضع فيك ثقتها وأملها. لا أريد لابنتي أن تعيش الخيبة. هل تعدني أن تجد عملا جادّا بعد الزّواج وتترك حياة النزق هذه؟ أنتما طفلان تائهان وتحتاجان إلى العناية. لن أعيش لكما طويلا.. وأنا حقّا أحبّ هذه الفكرة.. أن يعتني أحدكما بالآخر. سأكون سعيدة إن خلّفتكما في استقرار وارتياح...

غاب عقلي في عالم الأحلام بعد ثوان، ولم تعد كلماتها المتدفّقة تصلني. تمثّلت ديانا من خلال غشاوة دمع رقيقة أغشت عينيّ.. تخيّلت ملاكي الأصهب يجلس على الكرسيّ ذي العجلات بالثّوب الأبيض، وطرحة الدانتيلا الرقيقة تغطي لفائف شعرها ووجهها الصغير المنمّش.. وابتسامة عينيها الخضراوين تطلّ في خفر.. فشعرت بالدّوار.

أيقنت أنّ هناك لحظات جميلة في هذه الحياة تستحق الانتظار والمعاناة.

*****

خلال وقت قصير غدا موضوع الزّواج جدّيّا. في الأحوال العاديّة، كنت لأتّصل بأمّي.. أحدّثها عن العروس، أطري على خصالها وأطلب مباركتها. لكنّني لم أقدر. ثقل غريب نزل على صدري.. الشيخ البشير سيفي بالغرض.

انبريت أقصّ على أسماعه قصّتي المختصرة. شابّ ضائع بلا وثائق إقامة رسميّة، وعائلة مسيحيّة كريمة تعرض عليه ابنتها البكر وحلّا لكلّ مشكلاته. استمع إليّ الشيخ في صبر وسعة صدر حتّى خلصت. بدا مهموما وهو يقول في تفكير:

- أمهلني بعض الوقت يا بنيّ.. يمكننا أن نبحث لك عن فتاة طيّبة من

بناتنا المؤمنات تسترها وتسترك.

تلعثمت. لم يكن ذاك الرّدّ قد خطر لي ببال:

- ولكن.. ليس هناك وقت.. أنا في حاجة إلى تسوية وضعيتي في أقرب وقت.. ثمّ..

- فهمت.

- لم تفهم يا سيّدي.. دعني أشرح لك!

- قلت فهمت! أنت تريد هذه الفتاة بعينها؟

اضطرب تنفّسي وارتبكت خلجاتي. نعم أريد، بكلّ جوارحي وكلّ عذابات كياني التعس أريد! لكنني استحيت من الشيخ. في الحقيقة لم أكن أطلب مشورة أو نصيحة .. بل مجرّد مباركة. سأل الشيخ بعد تفكير:

- هذه الفتاة، هل هي مؤمنة عفيفة؟

هززت رأسي موافقا في لهفة كأنّما قد مدّ إلي طوق النجاة:

- إنّها نصرانيّة ملتزمة يا سيّدي.. بكر عفيفة من عائلة طيّبة.

- حسن إذن. تزوّجها على بركة الله.. ثمّ احرص على دعوتها إلى الإسلام، فربّما يكتب الله هدايتها على يديك.

ثمّ تزوّجت.

لو كانت جدّتك حضرت حفل زواجي لكانت لطمت وولولت. فمفهوم حفلات الزّواج التي تشهدها قبيلتنا الجبليّة بعيدة مسافات شاسعة، بقدر الأميال التي تفصل باريس عن تبسة، عن الاحتفال المحتشم الذي أقمناه خلسة من الزّمن والجيرة والأعين المتطفّلة. فكيف بحفل زواج الذكر الوحيد في سلالة خليل الشاوي؟

لم يعلم أحد بأمر العقد، ما عدا الشاهدين، أبو صالح وأبو مازن.. والشيخ البشير الذي أبرم العقد الشّرعيّ، وممثّل عمدة البلدية الذي سجّل العقد المدنيّ.. والأستاذة رنيم شاكر التي استقبل مكتبها جمعنا.

لم تلبس أميرتي ثوبا أبيض ولا تهدّلت على وجهها طرحة دانتيلا شفافة.. فقد كان من الضّروري ألا نلفت الأنظار إلينا. لكنّها كانت أنيقة، كما هي دائما، في ثيابها العاديّة. فستان طويل من الساتان، لونه ورديّ تتخلّله ورود بيضاء منمنمة. ما زالت صورتها فيه واضحة بين عينيّ. تلك الصّورة الحقيقيّة التي أطاحت بصورة الحلم التي تمنّيتها وفاقتها روعة وفتنة. ببساطة لأنّها حقيقة لا خيال. أمّا أنا، فقد استعرت بذلة قديمة من أبي مازن ما زالت تحتفظ برونقها، رغم كونه لم يلبسها منذ عقود. أحضرت ليليان خاتما ذهبا. خاتم زواجها. وطلبت منّي أن أضعه في بنصر ابنتها. تملّكني الخجل. لم أكن قد فكّرت في شكليّات الزّواج في دوّامة العجلة التي تلبّستنا جميعا. تلا الشيخ البشير آيات عن الزّواج، ثمّ تحرّى موافقة العروسين قبل أن يعلننا زوجين. وفعل ممثل العمدة الشيء نفسه، مع اختلاف التّفاصيل. وقّع الجميع في الخانات المناسبة، واستقرّ الخاتم العائليّ في بنصر ديانا. وصرنا عروسين. وزّعت الأستاذة رنيم كؤوس العصير وقطع حلوى وشوكولاتة. ثمّ تفرّقنا.

حين أفكّر في تلك الفترة، لا أدرك تماما لماذا كنّا مذعورين وخائفين من الشيخ المختار وردّة فعله تجاه هذا الزّواج؟ أعلم أنّ ليليان لم تكن تطيق الرّجل، وكانت تتوقّع أن يقف عقبة في طريقنا. لكنّني حينها لم أكن أتصوّر أن المختار يظنّني صبيّا عنده يمتثل لأمره في الصغيرة قبل الكبيرة. لم أعتقد حتّى أنّ خبر زواجي سيدخله في نوبة غضب غير مسبوقة، وهو الرّجل الذي حسبت الحلم والسّكينة متجسّدين فيه! كنت أجاري ليليان في حذرها وحسب، لكنّني مطمئن داخليّا بألا شيء سيطالني، كان ذلك قبل أن أرجع إلى قبو العمارة الثامنة وابتسامة السّعادة تشقّ وجهي نصفين، فيقابلني المختار بوجه مربدّ تكاد عيناه المتّقدتان تخرجان من محجريهما، فيصفعني بملء كفّه حتّى أسال دماء شفتي، ويصرخ في غضب جبّار:

- فعلتها؟ فعلتها وتزوّجت النّصرانيّة؟!

*****

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، العاشرة صباحا،

توقّفت ديانا عن القراءة، لملمت الأوراق وهي تقول بصوت مخنوق:

- هل يمكننا الاكتفاء بهذا القدر الآن؟

كانت مرهقة، ساعات القراءة المتواصلة تأخذ من روحها قبل صوتها. لكنّه لم يستوقفها. ما دامت راغبة في الاستمرار فلتفعل. أمّا وقد وهنت، فالأمر لها أيضا. بدا أنّ ذكريات تلك الفترة تضغط على روحها أكثر من كلّ ما سبق. قرّر خليل أنّ من حقّها الانفراد بنفسها لبعض الوقت. إن كانت بحاجة إلى البكاء، فلعلّها لن تقدر على التّنفيس عمّا يجيش في صدرها أمامه.

- سأخرج لشأن مستعجل وأرجع.

ابتسمت. كانت تدرك أنّه ما من أمر مستعجل جاء فجأة، لكنّه يجاريها.

حين أصبح أمام المقود، تساءل، إلى أين الآن؟ لقد طلب إجازة، إذن لن يقصد المكتب. سيلين في مكتبها ومريم في مدرستها.. يمكنه أن يذهب إلى منزله، ويحظى بقسط من الرّاحة يعوّض سهاد ليلته. لكن بدلا عن ذلك، شغّل جهاز الملاحة واختار العنوان الأخير الذي أدخله منذ يومين.

هناك مسألة أخرى آن أوان حسمها.

بعد نصف ساعة، كان قد وصل إلى الوجهة التي تظهر على جهاز الملاحة، لكنّه لم يتعرّف على المنزل الذي سبق وزاره. تلفّت في شكّ. هل يُعقل أن تتغيّر ملامح الحيّ بتلك السّرعة؟ بدلا من المنزل الشرقيّ البديع الذي استحقّ إعجابه وثناءه في الزيارة السّابقة، كانت هناك.. خرابة! اختفى سور المنزل والحديقة. كانت قد دُمّرت بالكامل، ودهست النباتات الهشّة تحت وطأة معدّات ثقيلة. غير بعيد عنه، كانت هناك رافعة متوقّفة عن

العمل. على واجهة البناء تظهر آثار تدخّلها السّابق، حيث انهار جزء من الطابق الأول للمنزل. لمح سائقها داخل حجرة القيادة، يلتهم وجبة خفيفة. لم يكن إلّا توقّفا مؤقّتا، بعده سيعود للإجهاز على البناء كلّه!

هرول خليل خارج سيّارته واقترب من الرّافعة. طرق الزّجاج الجانبيّ ليشدّ انتباه السّائق:

- ما الذي يحصل هنا؟!

ترك السّائق وجبته وأنزل زجاج النّافذة:

- كما ترى.. سنزيل البناء القديم!

- والسّكان؟ أين ذهبوا؟

- رحلوا بالأمس.. أمر الهدم كان جاهزا منذ فترة وقد تلقيت إشعارا بالتنفيذ صباح اليوم. المالك الجديد يريد إنشاء عمارة سكنيّة حديثة.

- أين ذهبوا؟

كان يعلم أنّه سؤال لا طائل وراءه، كان من المستحيل أن يعرف سائق الرّافعة العنوان الجديد للعائلة المطرودة من منزل يعمل على هدمه. هزّ السّائق كتفيه علامة الجهل، ثمّ مسح كفّيه واستعدّ لاستئناف مهمّته. فجأة، صرخ خليل وأخذ يضرب على الباب:

- توقّف! توقّف الآن!

لم يكن يدرك ما الذي يفعله بالضبط. لكنّه كان مدفوعا بطاقة خفيّة. لم يكن من الواردً أن يسمح بهدم البناء من دون أن يفعل شيئا للحيلولة دون ذلك. يستوعب متأخّرا أنّه بصدد تعطيل القانون! لكنّ ذلك لم يردعه. أشار إلى السّائق في عصبيّة:

- لن يتمّ هدم البيت! ليس قبل أن تنظر المحكمة في شكوى أصحاب المنزل.

راقبه السّائق في بلاهة:

- أيّ شكوى؟ لقد تلقّيت الإشعار اليوم، وكلّ شيء قانونيّ!

- لا لوم عليك، الأمر تأخّر في الوصول.. لا أكثر.. وأنا هنا للحرص على ألاّ يتمّ الهدم قبل أن يصل إشعار المحكمة لكلّ الأطراف المعنيّة.. أنا دانيال الشاوي المحامي.

نظر السّائق في بطاقة خليل المهنيّة في حيرة، ثمّ تناول الجهاز ليتّصل برئيسه المباشر. تابع خليل حركته من دون أن يغادر موقعه. بعد لحظات، كان الرّجل يمدّ إليه بالهاتف. تكلّم بثقة وهو يستمع إلى صوت الرّجل الغاضب:

- نعم سيّدي، هناك دعوى قضائية جارية بخصوص المنزل المعنيّ.. وأخشى أنّ أيّ تجاوز بالهدم قد يعرّضكم لدفع غرامة مالية ضخمة وتعويض كبير للعائلة المتضرّرة.. خاصّة وقد ثبت أنّني نبّهتكم في الوقت المناسب.. والسّائق هنا سيشهد بالحادثة..

امتقع وجه السّائق، وما أن ردّ إليه خليل هاتفه، حتّى سارع بالابتعاد عن موقع الهدم.

عاد خليل إلى سيّارته، ارتمى على المقعد وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. والآن، ماذا بعد حركة الشّهامة الطارئة هذه؟ لم يكن هناك مفرّ من إجراء الاتّصال الذي تهرّب منه كثيرا. استمع إلى الرّنين من الجهة الأخرى يتكرّر من دون ردّ. ثمّ أعاد الاتّصال، ثانية، وثالثة. من دون فائدة. لم يكن من الممكن رفع الشكوى من دون تفويض من مريم وأبيها.. والآن كيف سيجدهما؟

أدار المحرّك، وانطلق باتّجاه العنوان الآخر الذي قد يوصله إليهما. توقّف أمام مبنى السّجن في الدّائرة السّابعة. قطع الطريق نفسها إلى الكوّة الخارجيّة، وتلفّظ بالاسم نفسه. محمد رستم. هذه المرّة لم يفتح الحاجز المعدن، بل رفع الموظّف رأسه وقال:

- لقد أفرج عنه بالأمس.

- ماذا؟! هل ترك عنوانا؟

- لا شيء في ملفّه.

لا شيء. هـل يعقـل أن يتبخّـر كلّ أثـر لهـم بهـذه البسـاطة؟ لقـد وصلـت متأخّـرا يـا خليـل. متأخّـرا جـدّا. عـاود الاتّصـال برقـم الهاتـف مـرّات أخـرى، حـتّى أصابـه الملـل. ثـمّ اتّصـل بالمكتـب.

- جانيـت، أريـد كلّ المعلومـات الممكنـة عـن محمـد ومريـم رسـتم، ووالدهمـا الكفيـف.. هـل مـن أقـارب، أرقـام هاتـف، عناويـن.. أيّ شيء!

يسـخر في سرّه مـن القـدر الـذي يجعلـه يقتفـي أثـر عائلـة غريبـة تبـنّى قضيّتهـا في لاوعيـه قبـل أن يتّخـذ قـرارا واعيـا بنصرتهـا، تمامـا كمـا كان والـده منـذ سنين خلـت يجـوب الشّـوارع بحثـا عـن فتـاة يتيمـة تدعـى كارمـن! لكنّهـم ليسـوا أشـباحا، مريـم ومحمـد وأبوهمـا.. بـل هواجـس تثقـل ضمـيره. إحسـاس مقيـت باغتـه بـأنّ السّـخط عـلى نفسـه سـيلازمه إلى نهايـة أيّامـه إن هـو لـم يفعـل شـيئا مـن أجلهـم.

يعود أدراجه الآن إلى شقّة والدته. لعلّها هدأت وتصالحت مع ذاكرتها.

يجمعهمـا ركـن المطبـخ مـرّة أخـرى، بينمـا ينهشـه القلـق وتتقافـز في رأسـه المتناقضـات.

- هـل تعلمـين؟ مهمـا حاولـت أن أقنـع نفسي بـأنّ تلـك هـي جـذوري وعـليّ تقبّلهـا.. فـإنّ أمثـال أولئـك الأشـخاص، المختـار ورجالـه، يجعلونـني أثـور وأرفـض. لا يمكـن أن أنتمـي إليهـم!

رمقته أمّه بابتسامة هادئة:

- لا أحد يقول إنّك تنتمي إليهم.

- بـلى! العـرب كتلـة واحـدة.. مـا أن تنطـق بالكلمـة، حـتّى تتداعـى مـن ورائهـا قائمـة طويلـة مـن الأوصـاف، مـن ضمنهـا الهمجيّـة والتخلّـف والإرهاب.

- هل تقول هذا وأنت المحامي المثقف والرّجل المتحضّر؟

- كفـاك يـا أمّـي! هنـاك نظريّـات مكانهـا الأطروحـات الفلسـفيّة، وواقـع نعيشـه!

قالت في حسرة:

- في زمننـا، لـم تكـن الفطـرة مشـوّهة إلى هـذه الدّرجـة. لقـد عرفنـا كيـف نعيـش معـا، مسـلمين ومسـيحيّين، عربـا وأوروبيـين.. كان هنـاك تطـرّف وإرهـاب، لكنّـه الاسـتثناء لا القاعـدة. كان بيننـا ودّ، وتضامـن في الأزمـات. حـين تكـون قريبـا مـن سـاحة الأحـداث، يمكنـك أن تمـيّز بـين الخـير والـشرّ ودرجات الرّمـادي الـتي تفصلهمـا. أمّـا اليـوم، فأنـت تجلـس وراء مكتبـك، تـدسّ أنفـك في شاشـاتك وأجهزتـك وتطلـق أحكامـا وتعمّـم.

هتف في يأس:

- لست أنا من يفعل يا أمّي! العالم كلّه يفعل! ألا تنظرين حولك؟

هـزّت رأسـها وطفـرت عـبرة مـن مقلتيهـا. معـه حـقّ، لقـد تغـيّرت المقوّمـات في السّـنوات العشريـن الأخـيرة، وبعـدت الشـقّة بـين مكوّنـات المجتمـع الواحد وانحـاز كلّ طـرف إلى أصلـه عـلى حسـاب القواسـم المشـتركة. احتفظـت بشـقّتها القديمـة الـتي أصبحـت الآن في قلـب حيّ «العـرب». لكـنّ غيرهـا لـم يفعـل. لعلّهـا تعـدُّ ممّـن يسـمّيهم خليـل «المقاومـين» القلائـل. هـل يمكنهـا الآن أن تنفـي أنّ العالـم لـم يعـد كمـا عرفتـه وتريـد أن تذكـره؟ هـل تكفـي رحلـة عـبر رسـائل مـن المـاضي لتعيدهـا إلى زمـن غابـر لـم يعـد لـه وجـود إلا عـلى الـورق.. وفي ذاكرتهـا؟

- ربّمـا كان هـذا الوقـت المناسـب للرسـائل.. لعلّـك تفعـل شـيئا مـن موقعك في البرلمـان حيـال هـذا الوضع...

يفعـل شـيئا؟ يغـيّر خارطـة البـلاد؟ مـن موقعـه في البرلمـان.. الـذي لـم يخط في اتّجاهـه بعـد؟! يتذكّـر عائلـة رستم. لعلّـه قـد بـدأ بالفعـل وأقحـم نفسـه في قضيّـة لا يُـدرك أبعادهـا. هـل يمكنـه بـين عشـيّة وضحاهـا أن يتقمّـص قضيّـة أنـاس لطالمـا تنصّـل مـن انتمائـه إليهـم وأنكـره بـكلّ جوارحـه؟

يجيئه صوت أمّه مجدّدا، تدافع عن وجهة نظرها:

- ليسوا سواسية.. الإرهابيّ المعتدي، والمواطن الصّالح الذي لا يسيء إلى أحد، ليسوا من طينة واحدة. أبوك لم يكن منهم. وأنت لست منهم.

- لماذا إذن؟ لماذا أخفيت كلّ هذا؟

شحبت سحنتها، وارتجفت شفتاها:

- كنت خائفة عليك. لم يكن العالم آمنا. أردت لك أفضل الفرص.

- أيّ فرص؟ أيّ فرص في أن أنشأ ممزّقا من الدّاخل، بين هويّة أرفضها ولا فكاك لي منها.. وأخرى أنتمي إليها بكلّ كياني وتلفظني؟

فغرت فاها، مبهوتة. للمرّة الأولى، يفصح بذاك الوضوح عن معاناته. ما الذي فعلته بخليل، يا أمّ خليل؟ أهذا نتاج تربيتك المتفانية وسياستك الحذرة؟ كيف لم تدركي مبكّرة وجود ذاك الشرخ في أعماقه؟ هل ظننت مهمّتك كلّلت بالنّجاح، حين رأيته يتخرّج ويرتقي في سلّم التميّز المهني، يتزوّج وينجب طفلة بهيّة الطلعة، من دون أن تقف هويّته عقبة في طريقه؟ الآن تتحدّثين عن التّعايش والتواصل والأفكار المسبقة والنظريات المحرّفة؟ لم يسمعك مرّة واحدة، منذ طفولته تمدحين الجانب الآخر. لم يبد عليك الفخر يوما بجذور الرّجل الذي تزوّجته، ولا حاولت مرّة واحدة أن تأخذي بيده وتُدخليه عالم ذكرياتك المحبوسة في القمقم. الآن؟ الآن تريدين له أن يفهم ويستوعب ويتجاوز مسلّمات حشوت بها رأسه بصمتك ولامبالاتك أمام كلّ ما سقاه العالم الخارجيّ إيّاه؟ الآن تتشدّقين بالحقوق والحريّات والفروقات البيّنة بين سلوك المجتمع ووعي المثقّف؟

- أما زلت تعرفين كيف أشعر؟

كانت لهجته متهكّمة مرّة.

*****

انتقلت إلى العيش مع زوجتي وأمّها، بعد أن لحقني غضب المختار وخرجت من حظوته. لم يكن شهر عسل كما يمكن أن تتخيّل.. فقد حُفّت أيّامنا الأولى معا بالمكاره والآلام. غياب المختار يعني غياب الدّواء. وغياب الدّواء يعني.. ظهور ذاتي الأخرى للعيان! تلك الذّات الممزّقة المثقلة بالوجع التي تعرف عنها ديانا سماعا، لكن لم يسبق لها لقاؤها.

كنت قد فطنت قبل ذلك بفترة لا بأس بها إلى أنّ المختار كان يلعب بي لعبة حذرة، فيغيّر من مكوّنات المحلول، يزيد وينقص من تركيزه ومقاديره حسب حاجته بي مستيقظا مسالما، أو متألّما فعّالا أو مخدّرا لا يدرك ما حوله. كنت أعلم في كلّ مرّة أنّ مفعول المشروب يختلف عن اليوم السّابق. وقد كان في الأيّام الأخيرة مميّزا. لم أكن أكاد أشكو من أيّ ألم، وأمارس حياتي العاديّة من دون صعوبة. كان يحتاجني بكامل حضوري العقليّ لخدمة ضيوفه من الأثرياء السّاعين وراء خدمات الجنيّة. لذلك، فقد كانت أيّام الحرمان الأولى قاسية مريرة.

أحضرت ليليان من الصّيدليّة مسكّنات عاديّة، لكنّها لم تكن تجدي نفعا. كنت قد بلغت مرحلة من التّبعيّة لدواء المختار لا تقبل البدائل! ولم يكن الحصول على مسكّنات فعّالة ممكنا من دون وصفة طبيّة. لذلك، وبعد أربعة أيّام من الوجع المستمرّ، تَقرَّر أن أزور الطبيب من دون انتظار لبطاقة التغطية الصحيّة. لم تكن حالتي تسمح بمزيد من التأجيل. كنا نهمّ بالخروج حين فاجأنا رنين الجرس. ظهر أبو أحمد ووعاء خزفٌ صغير بيمناه. لم أسأل ولم أستفسر. ارتميت على الرّجل أفتكّ منه الوعاء، ولم يكن ينوي أن يصدّني عنه! لكنّها اللهفة أنستني كلّ الآداب والأخلاقيات. شربت ما حواه حتّى آخر قطرة، ثم تهالكت على

الأرض في حـال يـرثى لهـا. همـس أبـو أحمـد بعـد حـين وقـد ظهـر في صوتـه التأثّـر:

- المختار يريدك.

حـين وصلـت، كان الحـراس يقفـون في صفـوف منظمـة، مسـتعدّين لتلقّـي الأوامـر. رأيـت المختـار يتهـادى في مشـيته، يتصفّـح الوجـوه وهـو يعـبر الصّفـوف عاقـدا ذراعيـه خلـف ظهـره، مثـل أمـير جيـش يتفقّـد اسـتعدادات جنـوده وأهبتهـم لهجـوم مرتقـب. حـين انتبـه لوجـودي افـترّ ثغـره عـن ابتسـامة راضيـة، وأشـار إليّ أن أتّخـذ مـكاني في المقدّمـة. وقفـت حيـث طلـب، ومـا لبثـت أن استقرّت بـين كفـيّ صاريـة طويلـة تحمـل رايـة في آخرهـا. طالعت أبـا أحمـد الـذي سـلّمني إيّاهـا في دهشـة، لكنّـه لـم يوضّـح.

تنحنح المختار أخيرا إعلانا عن بدء خطبته ثمّ قال بصوته الجهوريّ:

- اليـوم يـا أبنـائي سـتكون مهمّتنـا مختلفـة عـن العـادة.. كلّكـم سـمعتم حتما عـن أخ لنـا في اللـه يقبـع وراء القضبـان.. تـمّ اتهامـه ظلمـا وبهتانـا بالإرهـاب، وهـي تهمـة يتفنّنـون في إلصاقهـا بـكل مسـلم لا يعجبهـم التزامـه وتديّنـه. كأنّ المسـلم أصبـح كبـش الفـداء الأمثـل لإرضـاء الـرّأي العـام وإغـلاق الملفـات القضائيّـة المسـتعصية. يجـب أن نعلمهـم أنّ المسـلم ليـس رخيصـا وبـلا سـند.. إن كان هـذا الشّـابّ وحيـدا ومـن دون عائلـة أو عشـيرة تقف إلى جـواره في محنتـه وتـذبّ عـن عرضـه، فنحـن سـنكون عشـيرته وعصبتـه! سـندافع عنـه في العلـن ونؤكـد عـلى حقـه في محاكمـة عادلـة وفي محامـي دفـاع حقيقـي وجديـر بالقضيّـة. مـا رأيكـم يـا شـباب؟

لـم ينتظـر أبـو أحمـد الـرّدّ وهتـف بقـوّة وهـو يرفـع قبضتـه في الهـواء في حركـة قتاليّـة:

- تكبيــــر!

فردّد الحراس وراءه بنفس الحماس:

- الله أكبر!

ابتسم المختار وهو يقول في رضا:

- بورك فيكم يا شباب. هذا ظنّي بكم.

تكلم أبو أحمد بلهجة آمرة:

- سننطلق بعد ساعة إن شاء الله. إن لم يعلم أحدكم عائلته فليفعل، فقد لا نرجع الليلة...

تفرّق الحراس من دون كلمة إضافيّة امتثالا للأوامر. مضى البعض لإعلام عائلاتهم في حين توجّه آخرون إلى القبو لإنهاء تحضير اللافتات والأدوات التي سيستعملونها في المهمّة. راقبتهم وهم يبتعدون واحدا إثر الآخر ونبضاتي تتسارع في قلق. إن كانت المهمّة تنطوي على قدر من المخاطرة، فعليّ أيضا أن أعلم «عائلتي» بأمر الغياب المحتمل.. لكنّ المختار لم يمهلني حتّى أتّخذ القرار المناسب.

- اغفر لي غضبي يا ولدي، وتجاوز عمّا سلف.. فقد كان غيرة عليك...

تأبط ذراعي في حميميّة غير مسبوقة وقادني إلى درج القبو.

- هذه رايتنا.. شرف الجماعة، أنت حاملها والمنوط برفعها في عنان السّماء.

لم يكن حمل الرّاية مجرّد شرف، فهو مسؤوليّة أيضا. حامل الرّاية يجب أن يتقدّم الصّفوف ويحافظ على رايته مرفوعة مهما حصل. ويكون أيضا في مرمى عصيّ رجال الشرطة وهراواتهم. قد يتعرّض للضرب والإصابة من دون أن يقدر على الدّفاع عن نفسه. كنت أدرك كلّ ذلك، لكنّني لم أمتلك الاعتراض. وهل يمكنني أن أفعل وقد غفر لي المختار واستقبلني تحت جناحه من جديد؟

لكنّني تجرّأت على سؤال أبي أحمد حين أخذ الحراس يتوافدون من جديد استعدادا للانطلاق:

- هل سنتأخّر كثيرا؟

- لا تخش شيئا يا بني، ليس هناك داع للقلق. جرت العادة أن نودّع أهالينا قبل كل «مهمّة».. فالشرطة تتربّص بنا في كل وقت. لكنّ العقوبة لا تتعدّى ليلة واحدة في الإيقاف. ليلة نغتنمها لقيام الليل والاعتكاف، لنقوي لحمتنا يا بنيّ...

استسلمت لقدري وتسلمت مهمّتي من دون حماس يذكر. ستكون المهمّة الأخيرة.

إذن انطلقنا في اتّجاه المحكمة التي تعقد فيها جلسات محاكمة ذلك الشّابّ المتّهم بالإرهاب. صرخنا وهتفنا ما شاء الله لنا أن نصرخ، ثمّ تدهور الوضع كما هو متوقّع حين التحمنا برجال الأمن، وانهالت علينا الهراوات والقنابل المسيلة للدّموع، فتمسّكت برايتي ما استطعت حتّى انتزعت منّي بالقوّة.. ثمّ حوصرنا وحشرنا في سيّارات الشرطة مثل الخرفان، واقتدنا عن بكرة أبينا إلى زنزانة الإيقاف.

وهناك.. حصلت المعجزة.

في ركن الزنزانة، مكوّرا على نفسه غارقا في الأسى.. كان الدكتور عمر! لم أصدّق عينيّ حين رأيته. هرعت إليه زحفا على الرّكب، وعانقته بقوّة. كان قد تغيّر لا شكّ. بدا أكثر نحولا، وعلامة شائهة تظهر على جانب وجهه. وقد كانت تلك المظاهرة التي خرجنا فيها من أجله!

هناك أشياء لا تعقل في هذه الحياة. حدسي كان يخبرني بأنّ الشّابّ بريء. وقد ازددت يقينا ممّا اعتقدته تخمينا حين لقيت الرّجل بعد كلّ تلك الغيبة. وأخذت أحداث تلك الحقبة تتضح في ذهني. الهزّة الأرضيّة في ليون.. لم تكن غير انفجار مختبره! وغيابه غير المبرّر عن الشقة.. لم يكن إلاّ لإصابته البالغة في الحريق، ثمّ استبقائه على ذمّة المحاكمة، وقد امتدّت تجاهه أصابع الاتّهام. استمعت إليه فاغر الفم، يلخّص بكلمات متعبة آلام فترة الفراق.

كانت ليلة واحدة قضيناها في مسامرة عذبة، وفي الغد اقتيد كلّ منّا إلى

زنزانـة انفراديّـة.. بعـد أن أفـرج عـن بـاقي الحـراس! مـا عشـته بعـد ذلـك في السّـجون الفرنسـيّة كان تجربـة أخـرى. حديـثي إلى الدّكتـور عمـر تلـك الليلـة أدّى إلى التعـرّف عـليّ كمجـرم فـارّ مـن العدالـة! وقـد كان بقاؤنـا في الزنزانـة نفسـها تلـك الليلـة، تخطيطـا مـن المحقّقـين لكشـف علاقـة الجماعة المشـاغبة بالمتّهـم! تذكـر يـا بـنيّ قفـزتي مـن النافـذة والشرطـة تداهـم شـقّة عمـر؟ كان ذاك الدّليـل الوحيـد ضـدّي. وخضعـت لتحقيـق صـارم لمـدّة أيّـام لأعـترف. بمـاذا؟

الانتمـاء إلى خليّـة إرهابيّـة اسـتهدفت علمـاء ومنشـآت علميّـة ومختـبرات كيميائيـة.

تعطيل مجرى العدالة بالفرار والتخفي من السّلطات.

التخطيط لتهريب محتجز تحت ذمة العدالة.

دارت بي الدّنيـا ولعنـت السّـاعة الـتي عرفـت فيهـا عمـر، ودخلـت شـقته وفـررت منهـا! لمـاذا نجـا كلّ الحـراس بمخطّطهـم ومنفِذهـم وشـيخهم ومحـدثي الفـوضى منهـم، ووقعـت أنـا المنقـاد قـسرا في فـخّ نصبتـه لنفـسي؟ نسـيت تعاطفـي مـع عمـر وإيمـاني ببراءتـه، ولـم أعـد أذكـر سـوى نفـسي وديانـا وحيـاة مسـتقيمة آمنـة ظننـتي كـدت أبلغهـا! لكنّـني رغـم سـخطي وضيقـي ممـا آلـت إليـه الأمـور، لـم أخـن الرّجـل ولـم أظلمـه بكلمـة. ذكـرت أفضالـه السّـابقة عـليّ، ولـم أذكـر غيرهـا كقاسـم مشـترك بيننـا في التّحقيـق. كنـت مـشرّدا فـآواني.. وكنـت خائفـا عـلى نفـسي مـن ترحيـل محتمـل فهربـت. أمّـا الآن، فقـد غـدوت مواطنـا شريفـا، ينتظـر أوراق ثبوتيّتـه الـتي لـن يتأخـر صدورهـا.

وحـين ظهـرت الأسـتاذة رنيـم أخـيرا، تنفّسـت الصّعـداء. علمـت أنّ ليليـان وديانـا اسـتدعيتا للشـهادة، وشـهادة عمـر نفسـه برّأتـني. وكان عـليّ أن أصـبر حـتّى يُفـرغ مـن الإجـراءات الروتينيّـة، ويطلـق سراحـي. وأنّى لي بالصّـبر وذاك الـدّاء في رأسي! إذن في الليلـة الثالثـة لاحتجـازي، ارتفـع صراخـي ليمـلأ آذان

سجّاني وجيران سجني، ليتمّ اقتيادي على جناح السّرعة إلى قسم الطّوارئ بالمستشفى العسكريّ.

*****

- هل تشعر بألم في رأسك؟

فتحت عينيّ. طالعت الرّجل الذي كان يجسّ نبضي. وهززت رأسي ببطء علامة النفي وقد انتبهت للتوّ إلى أنّ ألمي كاملا كان قد اختفى. كان خدر خفيف يسري في أوصالي.. خدر مختلف عن مفعول دواء المختار. وما أن حرّكت أصابعي حتى شعرت بشيء كدبيب النمل في أطرافها. تابع الطبيب وهو يرفع بين يديه صورة أشعة حديثة ويشير إلى كتلة قاتمة تتربّع وسط رسم الجمجمة:

- هل تعلم بوجود هذه الرّصاصة في رأسك؟

أومأت بابتسامة ساخرة. وهل يخفى القمر؟

ثمّ شرع الطبيب يشرح في حماس شديد حيثيات الإصابة، مستعملا الكثير من المفردات التقنيّة، فقد كنتُ في نظره «حالة فريدة». إنّ السرّ في نجاتي من الموت يكمن في معطيات كثيرة اجتمعت لتشكّل المعجزة. الرّصاصة التي أصابتني، لم تكن مباشرة، بل مرتدّة عن جسم صلب. كان واثقا من ذلك، من دون أن يطلب روايتي للحادثة. لو أنّها كانت مباشرة لأردتني قتيلا على الفور. قال ذلك بلهجة قاطعة أصابتني بالرّجفة. وقد نفذت إلى الجمجمة بزاوية مائلة قرابة خمس وأربعين درجة، فعبرت العظام ولم تخترقها، بل استقرّت فيها. وإذ إنّ سمك عظامي سبعة مليمترات، وطول المقذوف ثلاثة عشر مليمترا، فإنّ طرف المقذوف وحسب قد تجاوز العظام، بينما التحم الجسم المعدن بها. مرّة أخرى، لو كانت الزاوية مختلفة، أو كانت سرعة المقذوف أكبر ولو بمقدار ضئيل، لكان تجاوز

العظام ومرق إلى داخل الجمجمة ليقضي عليّ.

- أنت الآن تحت تأثير المورفين لذلك توقف الألم بصورة مؤقتة. لكنني مدهوش حقا.. كيف تمكنت من التعايش مع هذا الجسم الدّخيل كلّ هذا الوقت؟

كنت أهمّ بالحديث عن دواء المختار العجيب، حين انتبهت إلى أنّ الدكتور لابورت لم يكن ينتظر منّي جوابا. فقد رأيته يلتقط من المنضدة ملفا أخذ يتصفّح وريقاته مواصلا مناجاته الفرديّة:

- هذه نتائج تحليل عينة من دمك.. كنت تتلقى مواد مخدّرة يعادل مفعولها حقنة مورفين يوميّة. عالجت الألم بالمخدّرات، أليس كذلك؟ كوكايين وهيروين.. وأنواع أخرى!

خرج صوتي محمّلا بطبقات الذهول التي تراكمت على ذهني فبلّدته:

- مخدّرات؟

- لم تكن تعلم؟

طالعني الطبيب لوهلة ليزن بفراسته مقدار صدق دهشتي. ثم مطّ شفتيه وهو يقول مقترحا:

- هل طلبت المساعدة؟ ربّما حاول أحدهم التخفيف عنك بهذه الطريقة؟

هززت رأسي في حركة آلية وما زلت على ذهولي. المختار كان يقصد مساعدتي.. لا شكّ! لم يسقني السّموم ليهلكني، بل لأنّه لم يكن هناك دواء آخر! أقنع نفسي بسلامة طويّته، وأؤثر إحسان الظنّ به.. لكن تداهمني الريبة وتنهش في أفكاري. هل كانت الجلسة الرّوحانيّة ومشروب الأعشاب مجرّد تمويه؟ يفرغ القرطاس خلسة في الوعاء، ويستغفلني؟ لماذا؟! منذ متى شرع في ذلك؟ طول الوقت؟ منذ البداية؟

- إن استهلاك المخدّرات يعرّض صاحبه إلى عقوبة السّجن.. إلا إن أقررت

برغبتـك في التخلّـص مـن الإدمـان، وسجّلت في برنامـج إعـادة التأهيـل.

هتفت على الفور:

- أفعل!

أومـأ في رضـا، ثـمّ أضـاف وهـو يطالـع صـورة الأشـعة مـن جديـد باسـتمتاع ظاهر:

- قبـل ذلـك، سـيكون علينـا التخلّـص مـن هـذا الجسـم المعـدن.. ذكـرني كيـف وصـل إلى هنـا؟

لـم ينتظـر ردّا عـلى سـؤاله، وواصـل تشـخيصه، بنفـس الحمـاس المتّقـد. بعـد الإصابـة فـورا، شرع الجسـم في تكويـن أنسـجة ليفيّـة لتحيـط بـرأس المقـذوف المنغـرس في أنسـجة المـخ. هـذه الكتلـة الليفيـة يـزداد حجمهـا مـع الزّمـن، لتغـدو ورمـا. وإذا مـا تمّـت الجراحـة، فسـيكون الهـدف اسـتخراج الجسـم الدّخيـل -المقـذوف- وحسـب! فالـورم قـد غـدا جـزءا مـن الدّمـاغ، ومـن العسـير عـلى أمهـر الجرّاحـين أن يسـتأصله مـن دون إحـداث تخريـب بالـغ بأنسـجته. زد عـلى ذلـك أنّ الإصابـة كانـت فـوق الأذن، عـلى مسـتوى الفـصّ الصّدغـي، في الشـقّ الأيـسر مـن الجمجمـة، وهـو الشـقّ السّـائد أو المتحكّـم في معظـم الوظائـف الدّماغيّـة، كالنطـق والذاكـرة والبـصر والتّـوازن، وأيّ عبـث بتلـك المنطقـة قـد يتسـبّب في فقـدان للاسـتقبال السّـمعي والبـصري، وفقـدان كليّ للذاكـرة!

أفزعتني كلمة «ورم». يُخرج الرّصاصة ويخلّف ورما في رأسي؟

أضاف مطمئنا:

- بعـد إزالـة المقـذوف، سـتتراجع الكتلـة الليفيـة لتحتـلّ مكانـه السّـابق، ويقـلّ ضغطهـا عـلى الفـصّ الدّماغـي، وبالتـالي مركـزي السّـمع والبـصر.. وربّمـا تتوقّـف عـن النّمـوّ وتسـتقرّ عـلى وضعهـا الحـالي.. حينهـا لـن تهـدّد حياتـك مـن جديـد.

ربّما! يقول ربّما!

في غمرة الجزع والهلع، يراودني سؤال قديم، فاستوقفته فجأة:

- دكتـور.. هـل يمكـن للرّصاصـة في الدّمـاغ أن.. أن تجعلـني أرى.. أو أتواصـل مـع كائنـات غـير محسوسـة ولا مرئيّـة؟

- تعني أنّك كنت ترى أشياء لا يراها أحد سواك؟

- هو ذاك!

- مـن دون شـكّ! نوبـات الـصّرع والهلوسـة مـن الأعـراض الملازمـة لمثـل هـذه الحـالات.. بـل إنّ الهلوسـة غالبـا مـا تكـون مركّبـة، فتكـون تهيّؤاتـك صـورة وصوتـا ورائحـة وحـتّى اسـترجاع ذكريـات عـن أشـخاص عرفتهـم.

قـال ذلـك ببسـاطة شـديدة، ثـمّ انسـحب مـن الغرفـة، وقـد خلّفـني كتلـة مـن الذّهـول لا يمـيّز بعضهـا مـن بعـض!

*****

كان آخـر عهـدي بكارمـن في زنزانـة الإيقـاف تلـك الليلـة. تمنيّـت لـو أنّـني ودّعتهـا كمـا يجـدر بي أن أفعـل. كانـت رفيقـة درب اسـتثنائيّة، ولـو أنّهـا مـن صنـع خيـالي! عاملتهـا كبـشر، ثـمّ روح عالقـة، وانتهيـت إلى اعتبارهـا جنيّـة.. لكنّهـا سـخرت مـن سـذاجتي حـتّى النّهايـة، فتبخّـرت كمـا تفعـل الهـلاوس! فكـرت بالمختـار.. وبضيوفـه الأفاضـل.. وعامّـة المريديـن الذيـن قصـدوني لأكـون وسـيطهم، ألتمـس قضـاء حاجاتهـم مـن الجـنّ.. فضحكـت كمـا لـم أضحـك مـن قبـل. ثـمّ بكيـت.. وسـألت اللـه أن يغفـر لي خداعـي غـير المقصـود. كنـت أصبّ في آذانهـم هـراء مـا أنـزل اللـه بـه مـن سـلطان.. لا هـو وسوسـة شـياطين ولا ممّـا تتسـمّع لـه الجـنّ ولا خـبر مـن عالـم الـبرزخ.. كان خيـالي الخصـب يشـطح في كلّ الاتّجهـات. كان ذلـك كلّ مـا في الأمـر! وإن كنـت قـد حزنـت مـن أجـل النّـاس الذيـن وضعـوا ثقتهـم فيّ، إلاّ أنّ المختـار استحقّ مـا طالـه. ألـم يعبـث بعقـلي ويغـرق وعـي بسـمومه؟ إذن عليـه مـن اللـه مـا

هـو أهـل لـه!

غرقـت في الأيّـام التّاليـة في دوامـة التحاليـل وصـور الأشـعة.. اسـتعدادا للعمليّـة الجراحيّـة. صـار لزامـا أن تخـرج الرصاصـة مـن مكمنهـا، مهمـا كانـت النتائـج المحتملـة. فقـد أصـدر الأطبّـاء حكمـا باسـتحالة التعايـش معهـا وقتـا أطـول. كان الـورم ينمـو ويضغـط عـلى الدّمـاغ، والهلوسـة مـا هـي إلا مقدّمـة لسلسـلة مـن الأعـراض مـن شـأنها أن تدمّـر وظائـف المخّ واحـدة إثـر الأخـرى! إذن فقـد كنـت مخـيّرا بـين أمريـن أحلاهمـا مـرّ مـرارة العلقـم. فإمّـا مـوت بطـيء مـع رصاصـة في الـرأس.. وإمـا مـوت مفاجـئ عـلى طاولـة العمليّـات! فنسـبة النّجـاح كانـت ضئيلـة جـدّا. كان شـبح المـوت يجثـم عـلى صـدري مهـدّدا بقـرب اللقـاء.. وكان علـيّ أن أدفـع عـنّي هاجسـه متشـبّثا بأمـل شـحيح لحيـاة ممكنـة.

ثمّ جاءت ديانا لزيارتي.

كرهـت نفسي حـين رأتـني عـلى تلـك الحـال بعـد زواجنـا بأيّـام. كنـت أتمـنى أن أثبـت جـدارتي بثقتهـا. لكـنّ البدايـة كانـت متعـثّرة. وحـين غابـت عـن ناظـري فـترة إقامـتي في المستشـفى، راودتـني الوسـاوس. أتراهـا كرهتـني؟ كانـت مخاطـرة مـن قبلهـا أن تقبـل بـزواج كهـذا.. وزوج كهـذا! فـلا ألومهـا إن هـي تراجعـت وغـيّرت رأيهـا. بـل لعـلّ فكـرة الـزواج الأبيـض بـدت مواتيـة آنـذاك أكـثر من ذي قبـل. ولـم يكـن يضاهـي إشـفاقي ممّـا ينتظـرني إلا التفكـير بوجههـا، وقـد عـاد الحـزن ليغلّـف قسـماته وغادرتـه البهجـة الـتي سـكنته أيّـام تقاربنـا. ونويـت أن أفـكّ ارتباطنـا في أقـرب وقـت.. لأزيـح عـن كاهلهـا عنـاء لا تسـتحق أن تحمـل ثقلـه بـلا ذنـب اقترفتـه، غـير أنهـا صادفـت طريقـي ذات يـوم! كنـت مسـتعدّا للتخـلي عـن أمـيرتي، إن كان ذلـك مـا تريـده. وقـد يخلّـف تنفيـذ القـرار قلـبي رمـادا...

لذلـك، فقـد فاجأتـني تلـك الطّرقـات الرقيقـة عـلى بـابي، معلنـة عـن زائـر غـير متوقـع. عـدا الدكتـور لابـورت، الممرّضـة جيـني، الطبيـب النّفـسي

بوريس.. لم أكن أتلقى زيارات أخرى. رأيت الباب ينفرج ببطء، ثمّ ظهرت عجلات مقعد متحرّك. امتدّت كفّ صغيرة بيضاء لتبعد دفّة الباب بقوّة ثم عادت لتستقر على العجلات وتديرها في سلاسة لتدفع بالمقعد إلى الأمام.

- ديانا!

هتفت بكلّ فرح الدّنيا، ودهشتها وذهولها. ابتسمت وهي تقترب أكثر وهمست:

- كيف حالك؟

لعلّها رأت بعينيها ما صارت عليه حالي. كنت أفضل مئة درجة بعد أن كحلت نظري بابتسامتها. حدّقتُ بالباب الذي عاد مغلقا بعد دخولها، أنتظر أن تخطو ليليان وراءها. لو افترضت أنّها صعدت إلى الطابق باستعمال المصعد ولم تحتج مساعدة أحد هنا، فلا أتصوّر أنها قد كلفت نفسها عناء ركوب وسائل النقل وخوض الشوارع المجهولة بالنسبة إليها لمجرّد رؤيتي. يدغدغ تفكيري خاطر مفعم بالأمل.. أولست زوجها؟ لا شكّ أنّ وقع تلك الكلمة لا يزال غريبا في أذنيها كما هو في أذنيّ.

- أمّي في الخارج تتحدّث إلى الممرّضة. أردت أن أتحدّث إليك قليلا قبل مجيئها.

أعرتها انتباهي خالصا كاملا، وقلبي يتوجّس ممّا في جرابها من حديث. لعلّها تسبقني إلى طلب الفكاك، فيتحوّل المشهد الذي تصوّرته مطوّقا بالكرامة والإباء، وأنا أخلي سبيلها في مبادرة لا تخفى الشهامة في ثناياها.. إلى مشهد إذلال لا شفاء منه، وهي تسألني أن أعفيها من خوض مغامرة كهذه غير مأمونة العواقب! تمنّيت لو أنّها لم تكن بتلك الشجاعة. لو أنّها فوّضت ليليان لتتحدّث باسمها. سمعتها تقول، بصوت ملائكي آتٍ من وراء حجب ذهولي:

- لم أستطع القدوم لرؤيتك في الأيّام الماضية.. كنت أحضّر مفاجأة..

أرجـو أن تعجبـك..

حدّقـت فيهـا غـير مسـتوعب. رأيتهـا تمسـك بحاجـز الكـرسيّ الجانـبيّ، تضغـط عليـه بمـلء كفّيهـا، فتحتقـن الدّمـاء في وجنتيهـا الشـاحبتين لتلهبهمـا. التصميـم يمـلأ عينيهـا الزّمرّديتـين وهـي ترتفـع، تقـوم مـن مقعدهـا حـتّى توشـك أن تسـتقيم واقفـة، ونظـراتي تتّسـع وترقبهـا مأخـوذة. ورغـم العـذاب الواضـح في ملامحهـا، نظـرت إليّ، وأشرق وجههـا بابتسـامة لا تضاهـى في عذوبتهـا.

- ما رأيك؟

تركـت جسـدها ينهـار ويسـتقرّ في اسـترخاء عـلى المقعـد مـن جديـد، بعـد أن بذلـت جهـدا كبـيرا. وعـادت لتقـول في حيـاء وقـد اسـتمرّ صمـتي الأبلـه:

- كنـت أخضـع لجلسـات عـلاج طبيعـيّ مكثّفـة في الفـترة الأخـيرة.. أردتـك أن تـراني أقـف. فهـذا كلّ مـا بإمـكاني فعلـه لأشـكرك..

- تشكرينني؟!

- لقـد أحييـت فيّ الإرادة.. وأنـا مدينـة لـك بهـذا. لذلـك يجـب ألا تستسـلم الآن. إن كنـت أنـا قـد اسـتطعت الوقـوف بعـد كلّ هـذا الوقـت.. فأنـت قـادر عـلى تجـاوز الأزمـة.. وسـتصبح حياتـك أفضـل بعـد العمليّـة!

كنـت خائفـا، مرتعبـا.. مـن حتميّـة فقدانهـا. فـإذا بهـا تكافئـني بمـا لا طاقـة لي بـه مـن الفضـل. حيّرتـني تلـك الابتسـامة الصّافيـة المشربـة بـشيء مـن الحيـاء. كانـت تمسـح عـنّي بيـد بيضـاء ناصعـة كل الشـكوك المزمنـة. كأنّهـا تقـول «لـم يكـن هنـاك داع للقلـق». تقولهـا في صمـت مـن دون إحـراج أو خـدش لمشـاعري. وتسـاءلت في طمـع بـشريّ يتطـاول مشرئبّـا ويفـرد قامتـه ليسـتقيم جذعـه -وأنـا الـذي شـارفت منـذ ثـوان عـلى العـود مذمومـا مدحـورا- هـل في قلبهـا مثـل مـا في قلـبي؟ ومـا الـذي قـد يجتـذب حسـناء رقيقـة مثلهـا لعليـل سـقيم مثـلي؟

- سـآتي لأراك كل يـوم مـن الآن فصاعـدا، لنتحـدّث.. أريـد أن أعـرف كل شيء

عـن حياتـك الماضيـة وعـن عائلتـك وكل مـا يهمّـك. ويمكنـك أن تسـألني مـا تريـد...

كنـت أعلـم أنّ المسـلك ليـس بعـد آمنـا.. قـد أفقـد بـصري أو ذاكـرتي، أو حـتّى حيـاتي في أثنـاء العمليـة. أو قبلهـا أو بعدهـا. لا شيء مؤكـد. وديانـا تريـد أن نتعـارف أكـثر؟ تدفّقـت العـبرات مـن مـآقيّ في تسـارع محمـوم تطـرد فائـض التأثـر. فكّـرت حينهـا أنّـه إن كتـب اللـه لي أن أتعـافى وأعيـش، فسـأكون محظوظـا لوجـود امـرأة مرهفـة الحـسّ مثـل ديانـا إلى جـواري. فكـرت في تلـك اللحظـة أنـني لا أسـتحقها حقـا. وقـررت أن أفعـل مـا بوسـعي لأسـعدها وأكون في مسـتوى آمالهـا. عاهـدت نفسـي عـلى ذلـك في صمـت. لـم أملـك الشـجاعة عـلى أن أعلـق بكلمـة عـلى مبادرتهـا. احتفظـت بأفـكاري لنفـسي واكتفيـت بابتسـامة ممتنـة.

لعلّي كنت أدرك منذ ذلك الحين أنّي سأخذلها!

*****

دخلت غرفة العمليّات. وخرجت منها على قيد الحياة.

حـين اسـتيقظت عـلى سريـر المستشـفى، أدركـت أنّـني بُعثـت مـن جديـد. عنـد رأسي، في كيـس بلاسـتيك صغـير، كانـت تسـتقرّ الرّصاصـة المشـؤومة. جسـم معـدن ضئيـل.. جمـاد لا حـول لـه ولا قـوّة.. يحـوّل حيـاتي إلى جحيـم! لكنّـني أعيـش.. والحيـاة تسـتمرّ. كنـت محظوظـا، لأنّـني لـم أمـت إبّـان تلقّـي الطلقـة. سـتة عـشر عامـا إضافيّـة ليسـت بالـشيء القليـل. كثـيرون لـم تمنحهـم رصاصاتهـم هدنـة كهـذه! وأوّلهـم أبي.

كنـت أتعـافى تدريجيّـا، وشرعـت بالتّـوازي في عـلاج الإدمـان. عانيـت أعـراض انسـحاب السـمّوم مـن عـروقي، فتحمّلتهـا في جلـد وثبـات أثـارا إعجـاب الفريـق الطـبّيّ. هـل تذكـر يـا بـنيّ، تمرينـات دفـع حـدود الألـم الـتي مارسـتها للخلاص

مـن سـطوة دواء المختـار واحتـلال الرّصاصـة؟ لقـد تجلّـت ذات فائـدة جمّـة في فـترة الانتقـال تلـك.. كانـت ذاتي تتخلّـق مـن جديـد، تغـادر شرنقتهـا وتتفتّـح عـلى وجـود مختلـف.. أتحـوّل مـن كائـن هلامـيّ تتحكّـم بمزاجـه العقاقـير والمسكّنات، إلى شخص سـويّ متـوازن الحـواسّ سـليم الوعـي والذّائقـة. هـل تـدري كـم كان إحساسـا مختلفـا أن تكـون نفسـك القديمـة، تلـك النفـس الـتي باعـدت بينـك وبينهـا سـنوات ضوئيّـة مـن التجـارب والمحـن، حـتّى مـا عـدت تذكـر ملامحهـا عـلى وجـه الدّقّـة؟ أن تتنـاول طعامـا فتشـعر لـه بحـرارة، وطعـم.. بـبرودة، وحـلاوة، وحموضـة، ومـرارة! أن تـراودك أحـلام وكوابيـس حـين تخلـد إلى النّـوم! لا بـأس بالكوابيـس أبـدا.. فهـي تشـعرك بحيـاة دماغـك. بوجـود وعـي ولاوعـي.. بعـد أن كان ضبابـا واحـدا!

وكانـت حبيبـة قلـبي ديانـا تأتيـني كلّ يـوم.. فنتحـدّث ونضحـك، كأنّنـا لـم نعـبر تلـك المحنـة الـتي تسـاوت فيهـا فـرص الحيـاة والمـوت. بـل لعـلّ فـرص المـوت كانـت أوفـر. لكنّنـا نضحـك وننـسى، ونتشـبّث بآمالنـا بمسـتقبل جميـل. كانـت حقبـة مـن السّـعادة الهادئـة تبـدأ وتجتـاح أيّامـي. حقبـة اسـتمرّت لسـنتين كاملتـين، لـم يعكّـر صفوهـا شيء. هنـاء صـافٍ تجرّعتـه بنهـم مثـل محـروم فتحـت أبـواب الجنّـة أمامـه عـلى مصراعيهـا.

*****

بينما كنت أنعم بفترة نقاهة مريحة، كان العالم من حولي يستمرّ في شطحاته الهوجاء!

جنّ المختار بعد رحيلي ولا شكّ.. فقد خرج عن حذره ونشاطه السّلميّ، وبعث بحرّاسه ليهاجموا مقرّات حزب «الجبهة الوطنيّة» ويحرقوها عن بكرة أبيها! وليسقط العشرات ما بين قتلى وجرحى! ما الذي طرأ عليه ليفعل؟! لم أكن أجد تفسيرا. لكنّ ذاك الاندفاع الأحمق كان من شأنه القضاء على فرقة حراس العقيدة نهائيّا. لعلّ ليليان كانت محقّة بشأن المراقبة التي تحدّثت عنها، فقد داهمت فرقة التدخّلات الخاصّة المجمع السّكني وهي مدجّجة بالسّلاح، في اليوم نفسه، واقتيد الحراس وعلى رأسهم المختار في ذلّ مهين إلى صناديق العربات، تحت أعين الأهالي الذين راقبوا المشهد من شرفات الشقق.. بين مزيج من الدّهشة والحزن والشماتة.

وخلال الأسبوع نفسه، تمّ النطق في قضية الدكتور عمر. ورغم التفاؤل الذي رأيته في وجه الأستاذة رنيم في آخر لقاء لنا، فقد نزل الحكم مثل صاعقة لا تبقي ولا تذر. السّجن عشرين عاما! أصابني الذهول، متفرّجا لا حول لي ولا قوّة، أمام شاشة التلفاز التي واكبت الحدث باهتمام بالغ. فاغتممت وبكيت.

في ذلك اليوم، خرج الفرنسيّون إلى الشّوارع في احتفال مشهود بانتصار العدالة. رفعوا اللافتات المناهضة للإرهاب وغنّوا بصوت واحد من أجل وحدتهم وهويّتهم الوطنية التي تقصي كلّ الدّخلاء. رُفع قادة الحزب اليمينيّ المتطرّف على الأعناق وتلقّوا التّهاني من أنصارهم وحلفائهم السّياسيّين، في حين رضخ خصومهم أمام المدّ البشريّ والتواطؤ الإعلامي

واستعاروا خطابهم العنصريّ المتطرّف ليوم واحد. كان سلعة رائجة في خضمّ الأحداث الأخيرة التي سيطرت على الرّأي العام.

هرول الرّئيس الفرنسيّ ومعاونوه لإعداد خطبة تليق بالمناسبة، وقد أعادت إليه شعبيّة «الجبهة الوطنية» الصّاعدة كوابيس انتخابات ٢٠٠٢ الرّئاسيّة، حين أوشك مرشّح الجبهة الوطنيّة على اعتلاء منصّة الحكم، في مواجهة ألهبت صناديق الاقتراع الفرنسيّة بشكل غير مسبوق. القبض على الجماعة الإرهابية الخطرة والحكم على الإرهابي الذي اضطلع بالتفجير الأخير، كان حدثا مشهودا يجمّع ولا يفرّق. كانت مناسبة لالتفاف كلّ الفصائل الوطنيّة حول شعارٍ واحد «لا للإرهاب».

في ذلك اليوم، امتلأ مسجد الحيّ عن آخره. روّاد مساجد أخرى قريبة منعهم نفورهم من المختار من وطء أرض مسجده، ومريدون قطعوا مسافات شاسعة من مدن وضواحٍ بعيدة ففوجئوا بما حصل، وصبية صغار ورجال لم يرتادوا مسجدا يوما وأغراهم الفضول وحبّ الاستطلاع بالاقتراب وإلقاء نظرة من كثب. أمّا تلامذة المختار وأحبّاؤه الذين صدمتهم الأحداث، وآخرون لم يسمعوا بأمره يوما وأهمّهم ما طال الإسلام ومعتنقيه من لعنات منذ شاع الخبر، فقد كانت أرواحهم غاضبة وقد ناءت بحمل لا قبل لها به من خزي وهوان. كنت لتشتمّ رائحة خانقة في الجوّ، تنبئ بانفجار وشيك مع أدنى شرارة. كانت نفوسنا كسيرة بعد اقتحام قوّات الأمن للمجمع السكنيّ وخروج إخوان لنا مقيّدين بالسّلاسل. كثيرون لم يتّفقوا يوما مع الشّيخ المختار وجماعة الحراس، لكنّ المصاب يجمعهم حين تطال الألسن السّليطة الإسلام ومقدّساته من دون تمييز أو حياد. وجيء بالشيخ البشير من غرفة صلاته المطمورة ليؤم المصلّين بدلا عن المختار. وقف تجاه الشّباب الثائر وصدح بصوت مؤثّر:

- هل تعلمون يا إخوتي؟ نحن في زمن أوشكت فيه طينة المسلم الوسطيّ المعتدل أن تندثر! فإن كان المرء هيّنا ليّنا أقرب إلى التساهل،

فسيجد من يغريه بالنّساء والخمور ويغمره بالملذّات ليحيد عن الطريق.. وإن كان حازما جادّا أقرب إلى التشدّد، فسيجد من يجذبه إلى التطرّف والعنف ويملأ رأسه بأحاديث التكفير وآيات الجهاد محرّفة عن مواضعها. شياطين الإنس والجنّ سيعلمون من أيّ مأتى يأتونك، ومن أيّ مدخل يتسلّلون إليك ليفتنوك! لكنّ المغالي أصبح في عصرنا هذا أخطر من الفاسق.. وكلاهما شرّ مستطير. فالفاسق عدوّ نفسه، لا يضرّ غيرها -إن لم يغر غيره باتّباعه- وقد يستغفر فتنزل عليه رحمة الله فيتوب! وأمّا المغالي الموغل في الجهل فعدو النّاس أجمعين، فهو يرى نفسه يد الله على الأرض المحققة لعدله، فيبطش ويقتل النّفس التي حرّم الله ﴿أنّه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنّما قتل النّاس جميعا﴾. ثمّ إنّه يرسم صورة سيّئة للإسلام في نظر غير المسلمين، فيصرفهم عنه بدل أن يكون سببا في هدايتهم! وما دام يعتقد بصواب مساره فلن يستغفر يوما أو يتوب! زد على ذلك أنّ التطرّف اليوم قد غدا صناعة رائجة، وهذه الجماعات المتطرّفة المنتشرة في ربوع الأرض، تتفانى قوى عالميّة كبرى في دعمها لتكون أكثر فتكا وضراوة.. بل يبذلون الجهد والمال في سبيل تنميتها ورعايتها، ويوفّرون المناخ المناسب لحضانتها واستمرارها...

هتف شابّ متحفّزا:

- هل تقصد أنّ الدّولة الفرنسيّة تموّل التطرّف؟

- لم أقصد الدّولة بمعنى الحكومة أو رئيس الدّولة أو مجلس النّوّاب.. فكلّهم يتغيّرون وتدور عليهم الدّوائر.. بل قصدت أطرافا متنفّذة، مستقرّة ومتمكّنة. لوبيات عالميّة السّيطرة تحرّكها أهداف سياسيّة واقتصاديّة وإستراتيجيّة تتجاوزنا نحن العباد الضعفاء الكادحين من أجل قوت يومنا! همّهم أن يغيّروا خريطة العالم، فيرفعون من شأن جبهة لتضرب جبهة أخرى، ويفتعلون حربا ليسيطروا على ثروات باطنيّة ومنجميّة، ونحن بيادق على الرّقعة نتحرّك بما عُهد إلينا به من متاع قليل.. فإذا شاؤوا تأديب بلد ما لم تناسب سياسته هواهم ومصالحهم، سلّطوا

عليه جماعة متطرّفة، أغروهم بمسميّات الجهاد.. ضدّ الكفّار تارة، وضدّ طاغية دكتاتور تارة أخرى.. وليس يهمّهم من طغى ومن كفر!

وماذا يحلّ بنا من وراء كلّ هذا؟ يبقى المسلم البسيط الذي لا ناقة له ولا جمل في كلّ هذه اللعبة القذرة، مسحوقا داخليّا بعقدة ذنب تجاه المجتمع، حاملا تهمة أبناء دينه المزعومة.. متقبّلا للإقصاء بسكينة وقلّة حيلة، لأنّ ذلك هو قدره! أن يصنع دينه الإرهاب ويتحمّل عنه التّبعات بلا اعتراض! فكلّنا مشتركون في الجريمة التّاريخيّة.. لمجرّد ولادتنا مسلمين! ألم يأن الأوان لنتمرّد على هذه الصّورة المهينة؟ لسنا مضطرّين للدّفاع عن أنفسنا ودفع تهمة الإرهاب في كلّ محفل! لسنا فرنسيّين من الدّرجة الثانية! لسنا سجناء الصّورة التي صاغوها لنا وارتضيناها صاغرين!

تكلّم شابّ آخر في مرارة:

- وماذا بأيدينا؟ غير أن نشجب ونستنكر وندين الإرهاب؟

- بأيدينا الكثير! بأيدينا أن نقدّم أنفسنا للعالم بما نحن عليه.. لا الاكتفاء بنفي ما لسنا عليه!

ثمّ أضاف وهو يتطلّع من النّافذة إلى جموع المتظاهرين الذين أصبحوا عند رأس الشّارع، يُسمع لهم طنين كدويّ النّحل:

- يا أبنائي، هذه فرصتكم. افتحوا أبواب المسجد واستقبلوا ضيوفكم بما يليق..

تبادل الرّجال نظرات حائرة مستفسرة وقد أغلق عليهم فهم ما يريده الشّيخ. كيف يستقبلون المتظاهرين الذين جاؤوهم يرفعون رايات العداء والعدوان؟ لكنّ أبا صالح فهم. وقف من بين الجموع وهتف:

- العصائر والكعك عليّ، البقالة كلّها تحت أمرك يا شيخي.

ثمّ أشار إليّ مستعجلا:

- قم يا ولد وسخّن الماء لتحضير الشاي. وأنتما هناك، تعاليا لمساعدتي

على تحميل الحاجيات إلى هنا.. لقد أوشكوا على الوصول.

تفرّقنا مرتبكين ننفذ المهام التي أسندت إلينا والفهم يتسرّب إلى نفوسنا في جرعات.. *على أثرنا، تحرّكت جماعات من الشباب المثقّف والمفوّه* لتنضمّ إلى الإمام عند مدخل المسجد المفتوح على مصراعيه. ثمّ وقفنا وجلين مترقّبين. نلمح من موقعنا لافتات عريضة في رأس الشّارع ترفع فوق الرؤوس، كتب عليها بحروف ضخمة لا تخطئها العين «الإسلام خارج فرنسا!» و«لا مكان للمسلمين!». ألقيت نظرة على الشيخ البشير وأنا أزدرد لعابي بصعوبة. رأيت موجة عابرة من التوتّر تعكّر صفاء نظرته، لكنّه استعاد رباطة جأشه على الفور، فإن لم يفعل فمن يبثّ العزم في كلّ هؤلاء المصطفّين خلفه السّائرين على خطاه؟ كانت لحظات عصيبة، هي تلك اللحظات الفاصلة التي تمتحن الصّدق والثبات. فإمّا انقلاب على العقبين، أو التحام عنيف مستميت، أو خيار ثالث يريد لنا الشيخ أن نتّخذه، ونحن نجهل ملامحه!

ثمّ حصل أمر غير متوقّع.

من شارع جانبيّ يمرّ بمحاذاة المسجد، انبثق على حين غرّة تيّار من البشر. متظاهرون آخرون، يمشون بهدوء لا يثيرون صخبا من حولهم. قطعوا الطريق بيننا وبين المهاجمين، وحين التقت صفوفهم، رفعوا عقيرتهم يصيحون: «فاشيون».. «ارحلوا من هنا».. «متعصّبون»! لم تكن تلك الكلمات موجّهة إلينا، بل إلى الآخرين! تواجهت المجموعتان لدقائق قليلة، وجوه بيضاء حليقة وشعور شقراء مسترسلة من الجهتين. وتساءلنا في حيرة من يكونون ومن أين جاؤوا فجأة؟ ثمّ غلبت الكثرة. كان الذين تصدّوا حماة لسور المسجد أوفر عددا وأقوى حجّة وحنجرة. فتفرّق دعاة العنصريّة عن بكرة أبيهم بعد أن تصدّى لهم أبناء وطنهم، فرنسيّون أصليون مثلهم، لم ترهبهم لافتات العداء والتفرقة.

تنفّسنا الصّعداء، وقد كفانا الله شرّ قتال ما كنّا لنجتازه إلا مثخنين

بجراح نفسية وجسدية. حين خلت السّاحة من المتطرّفين، تقدّم الإمام مبتسما ليرحّب بمنقذيه، ودعاهم إلى تناول الشاي والكعك. ثمّ تفرّق الشباب المسلم ليتخلّل المتظاهرين. يصافح الرّجال بعضهم بعضا، يتعارفون ويكتشفون قواسمهم المشتركة، مبادئهم الإنسانية ووحدتهم الوطنيّة في وجه التّطرّف، ويناقشون وجهات النظر المخالفة بتحضّر ورقيّ. استمرّ النقاش ردحا من الزّمن بين أخذ وردّ واقتناع وشكّ، قبل أن يدعو الإمام الجميع إلى دخول باحة المسجد لمزيد من الألفة والحميميّة.

وقفت إلى جانب أبي صالح، أملأ أكواب الشاي وأهرول في حماسة أوزعها على الحاضرين ثمّ أعود لأملأها من جديد من دون شكوى أو تذمّر. عيناي مفتوحتان على اتّساعهما، أملأ بصري من المشهد، مثل طفل ريفي يحضر مهرجان المدينة لأول مرّة. كان يوما سأذكره ما حييت بدمعة وابتسامة. رأيت في تلك اللحظات كيف تكون العزّة في أحضان التّسامح. رأيت بعيني كيف يكون الفرق بين الوفود العربيّة التي تحضر إلى باريس متزلّفة ومعتذرة، كأنّما تعترف بذنبها وتسأل الصّفح.. وبين ذاك الاستقبال الكريم والشامخ الذي لاق به الشيخ البشير شركاءه في الوطن. كانت لحظة تاريخيّة، في حياتي القصيرة. وكان التّاريخ ليذكرها، لو أنّ مدوّنيه انتبهوا إلى جمعنا ذاك.. وكيف يفعل، وقد انصرفت الآلات الإعلاميّة كعادتها إلى نقل موجات العنف والاعتداءات!

حين استقرّ بنا المقام في ساحة المقهى مثل الأيّام الخوالي، سألت الدّكتور مالك في أسى:

- ما الذي سيحلّ بالحراس الآن؟

قال ببساطة من يصف مشهدا يراه رأي العين:

- سوف يُسجنون طويلا.. حتّى ينسى الرّأي العامّ أمرهم. يَنفَق من يَنفَق في السّجون المعتمة، ويحيا من يرضى بالشروط التي تمُلى عليه، يُدجّن، يُؤهل ويتشرّب التّعليمات، ثمّ يخرج حرّا طليقا بعد فترة من

الزّمـن.. ويُبعـث إلى أحيـاء فقـيرة أخـرى وتحـت ذراعـه صرّة مـال وفـير.. فيجمـع المنحرفـين وذوي السّـوابق ويصنـع منهـم رجـالا شرفـاء منحـرفي العقيـدة.. وتبـدأ حكايـة حـرّاس أخـرى..

رمقتـه في ذهـول. لـم أدر مـا المفـترض بي أن أفهـم. أتذكّـر قصّـة (ج) عـلى مـتن السّـفينة التّائهـة. (ج) ذلـك البيـدق بيـد قـوى الظـلام المدمّـرة.. وأفسّر مـا يـسرده الدكتـور مالـك. قصّـة حـرّاس أخـرى؟ إذن هنـاك قصّـة أولى، قصّـة المختـار وحرّاسـه! لا أسـتطيع أن أصـدّق مـا يصـل إليـه فهمـي. أهـمّ بالاسـتنكار، فيسـبقني مالـك بخطـوة وهـو يقـول في اهتمـام:

- لكـنّ مـا يحـيّرني حـتّى اليـوم هـو.. هـل كان المختـار مقتنعـا بمـا يفعـل؟ هـل كان صادقـا مـع نفسـه حامـلا لـذاك الفكـر المنحـرف؟ أم أنّـه مجـرّد عميـل متنكّـر يفعـل مـا يؤمـر بـه؟ يغـرّر بالشـباب المسـاكين وهـو يـدرك أنّـه يفعـل؟ أعـترف أنّـه كان مقنعـا -لـو كان عميـلا- فقـد بـدا لي غارقـا في الـدّور حـتّى أذنيـه!

يقاطعه أبو صالح مؤيّدا:

- لا شـكّ عنـدي في عمالتـه. فكيـف يكـون أمثالـه شـيوخا؟ وكيـف يجـد الإيمـان موضعـا في قلـب عمّـره الجشـع والطمـع وحـبّ السـلطة؟

- ليـس بالـضّرورة عميـلا لأطـراف معيّنـة، يسـتقي منهـا أوامـره ونواهيـه.. لكـن كـم مـن عميـل يخـدم مصالـح أعدائـه بغبائـه وسـوء تدبـيره؟

أبادره متعجّلا وقد تقت إلى الكشف أخيرا عن غموض الأحجية:

- ومن يكون الآخرون إذن.. (أ) و(ب)؟

رمقني بنظرة هازئة وقال:

- ألم أقل إنّها مجرّد حكاية؟

لمـح في عيـنيّ نظـرة رجـاء. يـدرك أنّـني لـن أستسـلم بسـهولة هـذه المـرّة. تنهّـد وقـال:

- الشيخ البشير.. أعتبره مثالا لما عاشه (ب). ضحى بوظيفة مرموقة - أُقصي لميوله الإسلاميّة- ودفن نفسه في قبو رطب، من أجل دعوة الشّباب إلى الدّين الصّحيح.. علّه يحدّ من تأثير (ج) في المنطقة! له صداقات كثيرة في صفوف ممثلي السّلفيّة والإسلام السياسيّ، لكنّه لم ينتم يوما لجماعة معروفة. أمّا (أ) فعملة نادرة، ربّما لقيت بعضهم في مظاهرة اليوم، ضمن زوّار المسجد الذين ذبّوا عنه اعتداء المتطرّفين..

قاطع حديثنا الثنائيّ صوت أبو محمّد، الضابط السّابق، وهو يهتف مستاءً:

- هذا الإرهاب.. إنّه مثل الخلايا المسرطنة. لا سبيل إلى الخلاص منه إلاّ باستئصال الورم من جذوره ما دام ذلك ممكنا.. أو بالعلاج الكيميائي!

انبرى أبو مازن يقول معترضا:

- يجب أن تستطيع تمييزها، تلك الخلايا المسرطنة حتى تستأصلها! حين نتحدّث عن السلوك البشريّ، فليس من السّهل أن تكشف الخبايا والنّوايا من خلال قراءة صفحة الوجه! أمّا الكيميائي فهو يؤذي الخلايا السّليمة أيضا، ويهلك دفاعات الجسم ويتسبّب في أعراض جانبيّة كثيرة، قبل أن يؤدي الغرض منه! أن تطبّق الكيميائي هنا يعني اعتقالات بالجملة وحملات شرسة ضدّ كلّ من تشتبه فيه، مجرّد الشبهة، لعلّك تقبض من بين المئات والآلاف على بضع خلايا سرطانيّة!

- هو ذاك! التضحية ضروريّة.. والمجتمع كلّه يجب أن يتعاون مع السلطات لكشف الخلايا المسرطنة. من يخفي خليّة مريضة يعرّض نفسه للعدوى!

كانت اللهجة العسكريّة الصّارمة واضحة في صوت أبي محمّد، في حين حاول أبو مازن أن يطرح وجهة نظر أقلّ راديكاليّة:

- إن شئت تشبيه الإرهاب بمرض ما، فإنّني أراه مثل السّيدا.. مشكلة السّيدا هي شكل الفيروس الذي يتحوّل ويتبدّل بصورة لا يمكن ضبطها

وحصرهـا. كلّ مـا يمكـن عملـه هـو تحسـين الأعـراض! يمكنـك أن تعطيـه المزيـد مـن الكريّـات البيضـاء لترفـع مسـتوى مناعتـه.. تـزوّده بمخفّفـات الألـم، لتسـتمرّ مقاومتـه، لكنّـك لـن تشـفيه مـرّة واحـدة. وهكـذا الإرهـاب مـن حولنـا.

قلت مازحا وأنا أومئ باتّجاه الدّكتور مالك:

- أظننـا نحتـاج طبيبـا حقيقيـا.. طبيبـا ماهـرا.. يمكنـه تشـخيص المـرض بشـكل دقيـق قبـل الـشروع في أيّ عـلاج!

قال مالك بلهجة ساخرة:

- المشكلة هـي أنّ مـن يديـر الحـرب ضـدّ الإرهـاب اليـوم لا يسـتعين بأطباء جيّديـن، بـل يعهـد إلى عسـكريّين ومهندسـين بتشـخيص الحالة!

قهقـه أبـو صالـح، في حـين شـحبت سـحنة أبي محمّـد وهـو يقـول في غيـظ مكتـوم:

- أتحفنا بتشخيصك، أيها الطبيب الجهبذ!

تنحنح مالك قبل أن يقول بجدّية بالغة:

- في نظـري، الإرهـاب ليـس سرطانـا أو ورمـا. لأنّـه متخـفّ غـير بـارز للعيـان بحيـث لا يمكـن اسـتئصاله. كمـا أنّ انتشـاره محـدود ولا يمكـن لـه أن يغـزو الجسـم كلّـه ولهـذا السّـبب ذاتـه هـو ليـس مثـل السّـيدا أيضـا. الإرهـاب يـا أصدقـائي أبسـط مـن هـذا بكثـير.. إنّـه مثـل نزلـة بـرد صغـيرة!

ارتفع ضحك وأصوات مستهزئة عابثة، في حين تابع مالك شرحه:

- لمـاذا يدهشـكم هـذا؟ هـل رأيتـم مـرّة شـعبا كامـلا يتحـوّل إلى الإرهـاب؟ هـل ينقلـب السّـواد الأعظـم مـن المجتمـع إلى العنـف والعـدوان؟ إنّهـا حـالات قليلـة إذن، محـدودة الانتشـار، لكـنّ أعراضهـا كبـيرة ومبهـرة. تمامـا مثـل نزلـة الـبرد. فـيروس صغـير يتسـبّب بحمّـى وإنهـاك عـامّ وربّمـا صعوبـة في التّنفـس واحتقـان في الغـدد. مـاذا يحصـل لـو حاولـت عـلاج الـزّكام أو

الرّشح بالكيميائيّ؟ أو حتّى بالمضادات الحيويّة؟ إنّك تستعرض آليات ضخمة أمام فيروس صغير! ولكنّه سيتعلّم من التّجربة، وتصبح السّيطرة عليه أصعب في المرّات المقبلة، ودفاعات الجسد ستنهار بسبب الأدوية القويّة. هذا ما يحصل تماما، حين نحارب الإرهاب بقصف أفغانستان والعراق والسّودان. مدارس ومستشفيات ومنشآت، بل مدن كاملة تدمّر بحجّة القضاء على الإرهابيّين. هل تقضي على الإرهاب حقّا، أم تصنع إرهابيّين جددا؟ تهيّج المسالمين وتتسبّب في نقمة لا متناهيّة.

- إذن كيف تقضي على الإرهاب في نظريّتك؟

تجاهل مالك لهجة الاستخفاف في سؤال أبي محمد وقال:

- تماما كما تعالج نزلة البرد. بالمقوّيات الطبيعية.. عسل وليمون وزيت زيتون وثوم. ولكنّ الأهمّ هو الوقاية والتغذية الصّحيّة. إذن عدالة اجتماعيّة ووعي وتعليم وحريّة واحتواء. لو وجد أصحاب السّوابق تأطيرا كافيا وإعادة تأهيل غير مشروطة، هل كان المختار ليجد فيهم فريسة سهلة لمآربه الدّنيئة؟ لو تعلّم كلّ واحد منهم في فترة سجنه حرفة أو نال شهادة في مجال ما، هل كان ليتبطّل ويمتلئ حقدا ويحتقن عنفا ويبحث عن مساحة تنفيس مهما كان نوعها؟ لو كانت الفرص أمام الشّباب متكافئة مهما كان أصله ومستواه الاجتماعي ودينه، هل كان ليبحث عن الإنصاف في عقيدة محرّفة تضمن له جنّة فوريّة؟ لو أحسّ كلّ فرد في المجتمع بأنّ حقوقه مكفولة وحريّته الفكريّة والدّينيّة محلّ احترام وتبجيل، هل كان ليتطرّف ويلجأ إلى إثبات وجهة نظر ما بقوّة الدّمار والشّرر؟ تشخيص الطبيب يقول: ادعموا مناعة الجسم ليقاوم الفيروسات الصّغيرة المتطفّلة. لن يقنع الإرهابيّون أحدا بالانضمام إلا لو توافرت لديه أسباب ذاتية للانتقام وإلحاق الأذى.

ساد الوجوم لبرهة بين شكّ واقتناع، ثمّ أفاق أبو محمد من بهتته ليقول بالسّخرية ذاتها:

- أقنـع قـادة العالـم بنظريّـة نزلـة الـبرد هـذه.. وواسِ عائـلات الضّحايـا بالثـوم وزيـت الزيتـون والعسـل!

*****

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، التاسعة مساء.

أوقـف اتّصـال جانيـت تدفّـق الكلمـات مـن شـفتي ديانـا. ليـس للعائلـة أقـارب في فرنسـا. لا عناويـن لديهـا. لكنّهـا أصرّت عـلى ألّا تأتيـه خاليـة الوفـاض.. وجـدت عنـوان المدرسـة الـتي يرتادهـا محمّـد رستم. مدرسـة؟ كان خليـل قـد فهـم أنّ الولـد قـد تـرك مقاعـد الدّراسـة ليعـول عائلتـه، فمـا شـأن هـذه المدرسـة الـتي يظهـر اسـمه في قائمـة طلّابهـا؟ فليكـن، كلّ خيـط جديـر بالتّتبّع.

سـجّل المعطيـات، ثـمّ عـاد إلى جلسـة الاسـتماع. لكـنّ شـيئا مـا تغـيّر في ملامحـه. بـدا عليـه نـوع مـن الاضطـراب والتململ. كان هنـاك موضـوع آخـر يشـغله عـن التّركـيز مـع الرّسـائل الـتي أخـذت منحـى مسـتقرّا نوعـا مـا.. لقـد تزوّجـا، واسـتقرّ بهمـا المقـام، اطمـأنّ إلى صحّـة أبيـه وتوقّـف قلقـه الخفـيّ بشـأن المسـتقبل. يعلـم أنّ هـذا ليـس كلّ شيء، مـا زالـت للقصّـة بقيّـة.. لكنّـه الآن غـير قـادر عـلى مقاومـة رغبـة في مغـادرة المـكان وزيـارة العنـوان الـذي وصلـه للتـوّ.

حين أنهت ديانا الرّسالة التي بين يديها، تطلّعت إليه مبتسمة وقالت:

- يبـدو أنّ أمـرا مسـتعجلا يشـغلك حقّـا.. اذهـب الآن لقضـاء حاجتـك، وسأسـتمرّ في التّرجمـة.

هزّ رأسه في امتنان، وقام على الفور.

منـذ أحـداث ٢٠١٥ الدّاميـة والضربـات الإرهابيّـة الـتي تعرّضـت لهـا فرنسـا، تغـيّرت أمـور كثـيرة عـن تلـك الـتي يصفهـا أبـوه في رسـائله. عندمـا تـنزل المصائـب، يتـصرّف النّـاس بدافـع غرائـز صرفـة. بعضهـم ينـأى بنفسـه عـن موقـع الحـادث، فيحمـي نفسـه وعائلتـه، تحرّكـه غريـزة الخـوف. والبعـض الآخـر يقـترب أكـثر ليلقـي نظـرة مـن كثـب، تدفعـه غريـزة الفضـول. ديانـا سـيطر عليهـا الخـوف، فأغفلـت تاريـخ أبيـه وعائلتـه وغيّبـت عنـه معطيـات

الماضي لتحمي مستقبله. غيرها كثر دفعهم الفضول إلى الاقتراب والبحث والتقصّي. ثمّ دخلوا الإسلام أفواجا!

ورغم شدّ الدّولة لقبضتها الأمنية وتضييقها الخناق على المسلمين بشكل عام -كأنّما تنفذ توصيات أبي محمّد من شلّة المقهى- فقد استمرّ العدد في تزايد. كانوا خمسة أو ستة ملايين نسمة منذ ثلاثين سنة. الآن، يمثّلون ثلث سكّان فرنسا! التّأشيرة الفرنسيّة أصبحت شبه ممنوعة على سكّان المناطق الموصوفة بـ«السّاخنة» و«الحمراء». لكنّ أفواج المهاجرين لا تتوقّف، وزوارق موت ممتلئة عن آخرها تواصل رحلاتها القاتلة. من يصل منهم إلى البرّ ينضمّ إلى قافلة اليد العاملة الرّخيصة التي لا تستغني عنها فرنسا، وينهار اقتصادها في غيابها. من الجهة الأخرى، خسرت فرنسا في معركة «هجرة الأدمغة». كثيرون يرحلون باتّجاه كندا والولايات المتّحدة، أو الخليج العربيّ وشرق آسيا، حيث يحظى المسلمون بتقدير أوفر. لا يبقى منهم إلا من توحّد مع نمط الحياة الفرنسيّة ولم يعد له غنى عنها.

في طريقه نحو الوجهة الجديدة، عادت كلمات الدّكتور مالك في رسالة أبيه الأخيرة لتتردّد في ذهنه. نزلة برد؟ علاج وقائي لأزمات العالم الأكثر فتكا؟ فكّر.. هل يمكن للزّمن أن يعود إلى الوراء، فيُدمج العرب في المجتمع فعلا وقولا، يستعيدون اعتبارهم كمواطنين أسوياء ومكتملي المواطنة؟ هل كان ذلك ليحدّ من أشكال العنف والاعتداء والسّرقة المتفشّية بشكل يثير الغثيان؟ هل ستبقى للأبواب الحديد والتقسيمات المناطقيّة ضرورة ومعنى؟ هل سيكون أكثر رضا وقناعة عن اسمه وجذوره؟ ربّما.

بعد ثلاثين سنة من تشخيص الطّبيب، لم يبدُ أنّ أحدا قد اهتمّ بصرف الوصفة واتّباع تعليماتها. كلّ شيء يسير في المنحى المعاكس تماما. لم تكن العنصريّة أشدّ وطأة ممّا هي عليه اليوم، منذ العنصريّة ضدّ السّود في أمريكا في خمسينات القرن الماضي! عنصريّة مدّعمة بالقوانين والدّستور، تجاهر بها المؤسّسات الحكوميّة والعامّة، وينحني أمامها

المواطـن مـن دون اعـتراض أو اسـتنكار. ليسـت ممثّلـة في لافتـات صفيقـة أو علامـات وقحـة عـلى مداخـل المنشـآت ووسـائل النقـل مثـلا.. لكنّـك تتنفّـس ذرّاتهـا في الهـواء الثقيـل الخانـق، وتتشرّبهـا مسـامّك حـدّ التسـمّم، كلّمـا واجهتـك النّظـرات العدائيّـة الحارقـة.

فهل اختفى الإرهاب؟

ربّمـا تناقصـت وتيرتـه وانحـسر تأثـيره.. لأنّ المئـات، بـل الآلاف مـن المشـتبه بهـم يقبعـون خلـف القضبـان، لمجرّد الشـكّ والاشـتباه. ولأنّ الإعـلام يتجاهل الحـوادث الـتي تُثبـت أنّ سياسـة القمـع واسـتباق الضّربـات بحـشر الأبريـاء في السّجون لـم ولـن تنفـع. بعـد عشريـن سـنة مـن الأحـداث الـتي هـزّت اسـتقرار فرنسـا وأقامـت الدّنيـا عـلى المهاجريـن مـن أصـول عربيّـة، أصبحـت فرنسـا بلـدا منعـزلا، حـدوده مغلقـة، شـديد التقسـيم في الدّاخـل، ومـع ذلـك يسـتمرّ كابـوس الخـوف مـن الآخـر.

عنـد إشـارة ضوئيّـة حمـراء، رفـع خليـل رأسـه في اتّجـاه اللافتـة الإعلانيّـة الحديثـة، فتعـرّف عـلى ملامحـه. يبـدو في غايـة الأناقـة والأريحيّـة، ببـشرة نقيّـة وشـعر لامـع. كانـت ابتسـامة عريضـة واثقـة تشـقّ وجهـه نصفـين، بينمـا يتّخـذ جسـده وضعيّـة مرحـة توحـي بالشّـباب والحركيّـة وتبعـث عـلى الطمأنينـة. تصميـم مارغريـت الجديـد. يذكـر جلسـة التّصويـر الاحترافيّـة الـتي التقطـت خلالهـا الصّـورة المستعملة في الإعـلان، منـذ أسـبوعين. يبـدو أكـثر نضـارة ممّـا هـو عليـه اليـوم. أم لعلّهـا التعديـلات الرّقميـة؟

مـرّة أخـرى يقـع بـصره عـلى الشـعار الجـذّاب: الوطـن للجميـع! تسـاءل في سـخرية، عـن أيّ جميـع يتحـدّث؟ هـل يشـمل الجمـع مريـم وأخاهـا ووالدهمـا الكفيـف؟

حـين توقّفـت السـيّارة أمـام المدرسـة، كانـت السّـاعة تشـير إلى الثّانيـة ظهـرا. دلـف عـبر البـاب الجانـبيّ ومـضى رأسـا في اتّجـاه مكتـب النّاظـرة. كان عليـه أن يرتجـل عـذرا يـبرّر سـؤاله عـن محمّـد رسـتم. صافحتـه النّاظـرة وهـي تتفـرّس

فيه بجدّيّة، فاختلق قصّته على الفور:

- جئت للسّؤال عن محمّد رستم.. أنا ربّ عمله، وقد تغيّب عن دوامه بضعة أيّام، ولم يكن عندي وسيلة للاتّصال به.. غير أنّني تذكّرت اسم مدرسته الثّانويّة، فرأيت أن أستفسر عنه هنا.. فربّما كان لديكم تواصل معه..

- نعم، محمّد رستم حالة خاصّة جدّا.. لا شكّ أنّك تعلم أنّه في سنته النّهائيّة، وعليه أن يجتاز اختبارات المرحلة الأولى هذه الأيّام. إنّه هنا اليوم.. لديه اختبار رياضيّات..

جاء الردّ كأبعد ما يكون عن توقّعاته. فغر فاه وقد تذكّر الخربشات على ذراعيه. هل كان يراجع دروسه من أجل الاختبار حين كان في السّجن؟ تلعثم وهو يقول مرتبكا:

- حقّا؟ هل يمكنني رؤيته؟

- طبعا.. بعد أن ينتهي من الاختبار.

مضت دقائق انتظار طويلة، استعاد فيها خليل تفاصيل لقاءاته السّابقة بمحمّد وشقيقته مريم، بينما تتردّد في ذهنه كلمات النّاظرة. الولد مسجّل في المدرسة، لكنّه لا يحضر الدّروس. تسمح له المدرسة باجتياز الاختبارات تقديرا لظروفه. إصراره على نيل شهادته ودخول الجامعة يدعو إلى الاحترام، ومثابرته من أجل النّجاح بتميّز أمر يصعب تصديقه. أخته تلقّنه الدّروس مساء، وتسانده في الاستمرار وإكمال مشواره التعليميّ، بينما تمرّ نهاراته بين تحميل ورصف الصّناديق في المخازن! فكّر، لو كان مكانه، لو كان مضطرّا إلى العمل مع الدّراسة، هل كان ليوفّق بينهما؟ هل كان ليستمرّ ويتحدّى المعوّقات، يُرغم نفسه على عناء يستنزفه إلى الأعماق، يسرق من طفولته سويعات مرح وبراءة لا تطول، ثمّ يغرق في شقاء مستبق لا تتّسع له هشاشة روحه الغضّة؟

لقد كان كلّ شيئا سهلا بين يديه منذ الأزل، رغم التّقشّف الظاهر الذي

التزمت به أمّه، فإنّها لم تحرمه أيّ شيء. كانت طلباته أوامر، وحساب التّوفير الذي حفظته من أجل تعليمه وتكوينه ينفد من دون تجديد موارده. حسبه أنّه لم يخيّب أملها، وأنّه تسلّق باتّجاه التميّز غير مدّخر جهدا. حسبه أنّه اعتلى منصّة التكريم في الجامعة وحاز احترام أساتذته وزملائه واستلم وظيفته المرموقة من دون وسائط. لكن.. هل يقارن نجاحه الذي لم تصحبه عراقيل وعثرات، بمسار الولد المحفوف بالمكاره؟

بعد ربع ساعة، ظهر أمامه الوجه البريء، تصحبه الدّهشة، ثمّ النّفور.

- ما الذي تريده؟

تغوص نظرة الاتّهام في صدره، فيحسّ لها ألما. ها إنّ الولد يذكّره بخذلانه. أيّ إنسانيّة استيقظت فيه فجأة وقد كان على الدّوام منيعا أمام الاستجداء والتسوّل؟ في بؤرة روحه نمت بذرة على غفلة من وعيه، وأخذت أغصانها تمتدّ وتتشعب حتّى لامست أطرافها مركز الشّعور لديه. هل كنت أنت يا نادر الشّاوي، من قذفت البذرة؟ الرّسائل التي خططتها منذ ثلاثين سنة، حُبلى بالبذور التي تنتظر قلبا يحتضنها.. بذور وجع وتعاطف وأمل.

- مريم قالت إنّك لن تساعدنا!

- كيف خرجت من السّجن؟ بحثت عنك هناك، فقالوا إنّك غدوت طليقا...

حدّق فيه غير مصدّق، يبحث في ذهنه عن حقيقة آمنة يركن إليها. مريم لا تكذب. إن كانت تقول بأنّه تخلّى عنهم، فقد فعل. لماذا يعود إذن للبحث عنه؟

- ذهبت إلى منزلكم، فرأيت الرّافعة تهمّ بهدمه.. حاولت الاتّصال بالرّقم الذي أعطيتني إيّاه، لكن لا أحد يردّ. تتبّعت الأثر، أيّ أثر ممكن.. حتّى وصلت إلى المدرسة.

تدمع عينا محمّد، بينما يغمغم بما أوتي من صلابة، وصورة المنزل الذي سيغدو ركاما ماثلة أمام ناظريه:

- مريم لا تردّ على الأرقام الغريبة..

لحظة صمت قصيرة، ريثما يبتلع غصّته، يتواصل مع نظرات خليل، يزن صدقها بميزان حدسه، يحاول استشفاف المقصد من تلك الزّيارة غير المتوقّعة، ثمّ يندفع مخلّفا وراءه تردّده:

- أطلق سراحي بعد أن سلّم والدي مفاتيح المنزل. مريم أقنعته بأن يفعل.. المنزل يعوّض، لكن مستقبلي ودراستي لا يعوّضان.. هكذا قالت. كان يجب أن أخرج من السّجن.. من أجل الاختبارات. المدرسة سمحت لي بفرصة واحدة. إن رسبت، فلن تتكرّر الفرصة...

تصيبه اعترافات الولد في مقتل. ضحّوا بالمنزل، حتّى يواصل تعليمه! سأله بصوت حاول أن يكون متماسكا قدر الإمكان:

- هل أنهيت اختباراتك؟ تعال، سأوصلك.

على الطّريق، ران الصّمت عليهما لبعض الوقت. وحين مرّا على الإشارة الضوئيّة ذاتها، انتبه إلى نظرات محمّد المبهورة. كان يقلّب بصره بين اللافتة المدهشة التي تطلّ على الشّارع، ووجه الرّجل الجالس إلى جواره في سيّارته الفارهة. بعد تردّد قصير، سأله على استحياء وقد استبدّ به الفضول:

- هل هذه صورتك؟

- إنّها كذلك!

تنتابه سخرية لاذعة من نفسه. منذ يومين، كان يشغله الخوف على سمعته من القلاقل التي قد تثار حوله لتورّطه في قضيّة تُسائل القانون الفرنسيّ، واليوم يُربكه القلق في عيني شابّ أقرب ما يكون إلى الطّفولة، يسأله في صمت: ما الذي ستفعله من أجلي أيّها المرشّح الموقّر؟

بينما تنساب السيّارة على فراش الأسفلت المصقول، يفكّر في إستراتيجيّة جديدة لحملته الانتخابيّة. مساعدته لعائلة رستم يمكن أن تكون خطوة في اتّجاه خطّة فعّالة. لو أنّه يجلب انتباه الإعلام إليهم وإلى مأساتهم، سيتصدّر المشهد كمنقذ شهم، ويلفت اهتمام النّاخبين من أصول عربيّة! سيكون الأخوان وأبوهما سفراء نواياه الطيّبة، وليس هناك ما هو أضمن من ألسنة بريئة تلهج بالدّعاء له وتلمّع صورته في أعين يملؤها الشكّ!

يصيبه الغثيان من حقارة ما فكّر فيه. لعبة السّياسة تسيطر على لاوعيه!

كان الحيّ الذي توغّلا في شوارعه بائسا. تعبق رائحة التعاسة في الجوّ وتقبض على الأرواح منذ منعرجاتها الأولى. كلّ البيوت متشابهة في قدمها وتهالكها. تتسرّب من واجهاتها مشاعر ضيق وسخط، مماثلة لتلك الجاثمة على صدور سكّانها. لم يتخيّل خليل، أنّ أحياء بهذا الشّكل توجد في الجوار، على بعد كيلومترات قليلة من ضاحيته المرموقة. تذكّر، لا بدّ من أنّه أحد الأحياء التي أخليت بعد الهزّة الأرضيّة التي ضربت منذ ستّ سنوات؟ تأمّل الشّقوق التي تمتدّ عبر الجدران المتصدّعة، لا بدّ من أنّه كذلك. كيف عادت لتؤهل من جديد؟ ألم يصنّفها الخبراء كمنطقة غير قابلة للسّكنى؟ أيّ إجراءات تمّ توخّيها حتّى تسند البيوت إلى عائلات جديدة؟

طرق محمّد بابا خشبا تراكم على صفحته آثار سنوات من الإهمال، فتناهى إليهما وقع خطوات مسرعة تركض باتّجاههما. أُشرع الباب، وظهرت مريم، بملابس منزليّة مريحة، وهي تقبض عند عنقها على حجابها المتراخي على رأسها، وهتفت في حماس ومن دون تفكير:

- طمئنني.. كيف كان الاختبار؟

في تلك اللّحظة انتبهت إلى الزّائر غير المرغوب! وفي الثانية التي تلت، كانت تتراجع إلى الدّاخل وتطبق الباب بعنف. تسمّر محمّد في خجل،

وهمهم بكلمات اعتذار على الاستقبال غير اللّائق، لكنّ خليلا كان متفهّما. ترقّبا معا لدقيقتين إضافيتيّن، عادت بعدها مريم لتفتح الباب وقد أسدلت ثوبا طويلا فوق ملابسها الآنفة، وسوّت غطاء رأسها بشكل محكم. كانت أيضا قد استعارت نظرة جادّة وصارمة أعادت إلى خليل ذكرى اللقاء الأخير في المكتب. فكّر وهو يتأمّلها مأخوذا، هي أنثى تعيش مع رجلين.. لكنّها قطعا رجل العائلة! قالت بلهجة حازمة:

- محمد، ادخل أرجوك.

امتثل أخوها رغم ارتباكه، وألقى نظرة متعاطفة على خليل. هل ستكون المذبحة اليوم؟

- لم أسرق حافظتك!

- نعم، لم تفعلي. أنا آسف.

باغتها ردّ فعله الهادئ، بل خفضه جناح الذلّ وتخليّه عن النبرة المتعالية.

- هل والدك بالدّاخل؟ يجب أن أتحدّث إليه.

هذه المرّة، بدت الأرائك الشرقيّة ذات النقوش مختنقة في فضاء الغرفة الصغيرة التي غدت مستودعها الجديد. خبت الرّوح الدّافئة التي دغدغته في زيارته السّابقة. ظهرت اليوم في حال مزرية تدعو إلى الرّثاء. من خلال الباب الموارب للغرفة المقابلة، يلمح بعض الصناديق المكدّسة. لعلّ ما حوته لم يجد له موطنا في فضاء المسكن الضئيل. ولعلّ نصف ممتلكات العائلة بقي في المنزل الآخر، متروكا ومهملا، ينتظر أن تنهار فوقه الحجارة. مثلما قد تنهار حجارة المنزل الجديد على رؤوس سكّانه! أحسّ خليل ببرودة لاذعة تسري في أوصاله. كان قد وعدها بتسوية عادلة، منزل مناسب، لا يختلف في مواصفاته عن المنزل القديم. لقد أخطأ التّقدير بشكل فادح. المنتقلون الأوائل استفادوا من تسهيلات الدّولة ودعمها لحركة الهجرة، فغنموا مساكن فاخرة حديثة التشييد. كان

انتقالهم طوعيّا، فكافأتهم الدّولة لدعمهم سياستها المرتكزة على الخوف. أمّا من تلكّؤوا وتباطؤوا، وعرقلوا نظام التقسيم الجديد، فقد عوقبوا شرّ عقاب. المطرود من منزله لا يُهدى منزل الأحلام، ولا يُعوّض عن خسارته. إنّه يُطرد وحسب. كانت مريم أبعد نظرا منه. بل لعلّه كان مُغيّبا عن الواقع.

في وقت سابق، كان قد حاول أن يعقد مقارنة بينه وبين محمّد، معاناة كليهما أمام العنصريّة، كفاحهما من أجل النّجاح. الآن يعلم ألّا سبيل إلى المقارنة. هذا الولد قد عاش في سنواته الثمانية عشرة أضعاف ما يدّعيه هو من صراعات. إنّه يعرف حقّا كيف تكون الحياة جحيما، ولا يتذمّر. إنه.. إنّهم متصالحون مع ذواتهم وهويّاتهم، لعلّهم قد توقّفوا عن لومها منذ زمن بعيد، ورضوا بقدرهم. أمّا أنت، فلا تكفّ عن الشكوى من لعنة اسم تحمله وتتنصّل منه.. مع أنّ مركزك ووظيفتك ومنزلك وعائلتك، كلّهم محفوظون لك!

استقبله الأب بنفس الدّماثة، كأنّه صديق قديم يزورهم من باب الألفة والمودّة، فازداد حرجه. طرح فكرته في شبه إطراق، عيناه ملتصقتان بالأرض حياء، سيرفع الدّعوى من أجلهم، وسيحضر خبيرا يعاين المسكن على عين المكان ويجهّز تقريرا بعدم أهليّته للسّكنى. سيحرص على استصدار قرار من المحكمة بوقف قرار الهدم. يتابعه الوالد بابتسامة وديعة مسلّمة، ويؤمئ برأسه في رتابة. سيكون خيرا، كلّ الخير. مرّة أخرى يدعوه إلى مشاركته مشروبه المحبّب:

- هل تشاركنا كوبا من الشّاي؟

بينما تتناهى إليه بقبقة الماء على الموقد، يتساءل، كما تساءل دائما كلّما سمع عن الشغب الذي يثيره المهاجرون العرب والأفارقة، لا الدّولة راضية عن وجودهم ولا هم راضون عنها. يعبّر عن سؤاله بصوت عال:

- لماذا لا ترحلون؟

- عفوا؟

- ألم تفكّروا في الرّحيل كحلّ نهائيّ لكلّ المضايقات والمعضلات؟

- نرحل؟ إلى أين؟

- إلى بلدكم.. الأصليّ!

تصدر عن الرّجل ضحكة مرّة أشبه بالنهنهة. ويوقظ السّؤال في داخله ذكريات أشدّ مرارة.

- ليس لنا من بلد أصليّ.. نحن فرنسيّون.. فقط.

لا يبدو على خليل الاقتناع. إنّهم يحملون اسما عربيا، وملامح عربيّة كذلك. فكيف ينفي؟

- والدي كان معارضا سياسيّا، اتّهم بالإرهاب في وطنه، فلجأ إلى فرنسا، أيّام كانت ملجأ للمنبوذين في أوطانهم. بعد ذلك سُحبت منه جنسيّته، ومن ذريّته من بعده، وكرّمته فرنسا وأكرمت مثواه بإهدائها إيّاه جنسيّتها ومواطنتها.. قبل أن يستلم هؤلاء الحمقى السّلطة وتسود العنصريّة!

وهو يتخطّى عتبة البيت إلى الشّارع، لحقت به مريم. قالت في ارتباك لم يعهده فيها:

- أريد أن أعترف. الحافظة الإلكترونية، لم آخذها.. لكنّني غيّرت مكانها. كنت أريد الانتقام، من أجل وقتي المهدر.. مجرّد عبث بسيط. أردتك أن تجرّب التوهان، وحاجتك الثمينة تضيع منك، والوقت يمضي بحثا عنها. كنت أعلم أنّك ستجدها.. في نهاية الأمر. أنا آسفة، ظننتك شخصا سيّئا.

حين غادر الحيّ الكئيب، كان لا يزال مشوّشا. ضحك من نفسه كثيرا وهو يطالع سحنته في مرآة السيّارة العاكسة، ثم هبط عليه الوجوم حتّى كاد يدمع. ما مدى سوئك أيّها الشّخص، في الماضي القريب والحاضر القائم؟

*****

حين دلف إلى شقّة والدته، كانت هناك مفاجأة في انتظاره.

انتابه إحساس غريب بدخوله مكانا مجهولا. كان كمن يتنقّل في بهو متحف ما. انتابه الذهول، وهي يطأ على السجّاد القديم الذي لم يكن يعلم أنّ أمّه قد احتفظت به كلّ هذا الوقت.. وصُعق لمرأى المفروشات البالية التي أخذت مكانها في كلّ ركن من قاعة الجلوس. أمّا الجدران، فقد غصّت مساحتها بأطر مذهّبة لم تعد تناسب ذوق العصر، تشغلها صور باهتة طال تخزينها في الأدراج الموارية، وورود مجفّفة حفظت بعناية بين طيّات الكتب.

رمقت ديانا دهشته باستمتاع. لقد أمضت ساعاتها السّابقة تعيد إلى الشقة ترتيبا سحيق البعد، مضى عليه ربع قرن كامل. تنشر ذاكرتها على الملأ، تنفض عنها الغبار وتعيد إليها رونق الأيّام الخالية. تعزّز رحلتها عبر الزّمن بأجسام ملموسة تُضفي بعدا آخر على حكايات الرّسائل. هنا في هذه الشّقه، عاشت طفولتها البعيدة، سجنت نفسها خلف أسوار الوحدة، ثمّ عرفت عاطفة بريئة ساذجة وتزوّجت فارسها غريب الأطوار!

- أحببت أن أستعيد تلك الأيّام بكلّ تفاصيلها وعنفوانها.. وأن تعيش معي كلّ ذلك.

كانت في عينيها نظرة منكسرة. كأنّما تعتذر.

- لقد حرمتك من ذاكرتك وتاريخك.. ظننت أنّني أحسنت صنعا. لكنّني أتبيّن اليوم مقدار جهلي. لقد تأخّرت كثيرا في تسليمك مفاتيح الماضي، لكنّني مستعدّة الآن.. سل ما بدا لك، وسأفصح عن كلّ شيء.

اتّخذت مجلسها على الأريكة الحديثة التي نكّرتها بمفروشاتها القديمة، وأشارت إلى المقعد القريب بابتسامة مشجّعة. راقبها خليل بشيء من الشّفقة. هل تظنّ الماضي يُسترجع بتلك المسرحيّة؟ هل يرجعان الآن في كبسولة زمنيّة إلى تاريخ قديم؟ لا يا والدي، لم نخترع آلة الزّمن بعد!

ما مضى لا يُسترجع، والأخطاء لا تُجوّر بمجرّد الاعتراف بها، والذّاكرة التي لم تُبنَ على أسس سليمة منذ البداية، لا تقوى دعاماتها بمجرّد سكب دلو ذكريات عليها!

فليسايرها.. فليمنحها الرّضا الذي تنشد، عن نفسها وعمّا وهبته إيّاه من أجل ما توهّمته مصلحته، رحمة بشيخوختها. يُذعن لرغبة طيّبة بمصالحتها مع ضميرها. يجلس حيث أشارت، ويتأمّلها، بلا ضغينة، وهي تتناول الرّسالة التالية، وتشرع في القراءة...

*****

إنّ مثـل رزق المـرء ونصيبـه مـن السّـعادة والحكمـة وراحـة البـال كمثـل عقد مـن الخـرز.. يسـتمرّ في جمـع حبّاتـه، حبّـة حبّـة حـتّى يكتمـل العقـد، فيكـون الأجـل قـد حـان. وليـس يـضرّ المـرء أن يمـشي سـاهما، فإنّـه سـيتعثّر وينتبـه إلى مواقـع خرزاتـه ولـن يخطئهـا. وليـس يفيـده أن يدقّـق وينقّـب في الأرض بعدسـة مكـبّرة، فلـن ينالـه غـير مـا كتـب لـه.. ولـن يجمـع مـن الخـرزات أكـثر ممّـا يتحمّـل خيـط عقـده. ولعـلّ حبّـات عقـدي قـد اكتملـت حـين رُزقتـك!

وتشـكّل في ذهـني مفهـوم جديـد للجنّـة. ومـا هـي الجنّـة.. غـير جسـد سـليم لا يشـكو سـقما، وزوجـة حسـناء متفانيـة، وصـبيّ صغـير بهـيّ الطلعـة، وأيّـام متشـابهة في سـكينتها ورتابتهـا، ولقمـة عيـش حـلال، تقيـم الأود وتكفـي السـؤال؟ كنـت قـد انتقلـت وديانـا إلى شـقة صغـيرة ومريحـة في حـيّ قريـب، يناسـب إيجارهـا راتـبي المتواضـع مـن العمـل في مطعـم وجبـات سريعـة. بينمـا احتفظـت ليليـان بشـقة العمـارة الرابعـة. ولـم يكـن ينقصـني إلا أن أقتـني سـيّارة صغـيرة قديمـة، لتكتمـل لي أركان السّـعادة الظاهريّـة!

تمـضي بنـا الأيّـام، فننـسى. نطمـئنّ إلى وجههـا الهـادئ ونعتقـد أنّهـا سـتدوم لنـا. فكذلـك انغمسـت في حيـاتي الجديـدة واستسـلمت إلى الدّعـة. ولـم يكـن طيـف الدكتـور عمـر يـزورني إلا لمامـا. أتنهّـد وأنـا أتذكّـر مشـهده الأخـير وهـو يخـرج مـن قاعـة المحكمـة وفي عينيـه نظـرة أبيّـة تواجـه عدسـات المصوّريـن ورجـال الصّحافـة.. ثـمّ أنـصرف إلى شـؤوني وأنـسى. فكّـرت مـرارا في زيارتـه في سـجنه.. لكنّـني جبنـت. كنـت أتتبّـع شـعاع شـمس مشرقـة باتـت تـدفئ ثنايـا حيـاتي، وفكـرة زيـارة السّـجن كانـت تقبـض عـلى صـدري بيـد بـاردة مخيفـة.. فأنفـض الخاطـر وأمـضي. لـم تكـن زيـارتي لتغـيّر شـيئا عنـد عمـر.. أعلّـل فـراري بذلـك.. لـم أكـن سـوى وجـه عابـر في طيّـات ماضيـه، بـل ربّمـا جلبـت إليـه

من المتاعب أكثر ممّا فعله أيّ شخص آخر. لذلك لا حاجة له إلى زيارتي.

ولأنّ جنّة الدّنيا لا تكتمل أبدا، فقد كانت لديّ أمنيات أخرى إضافيّة.. وكان وجه أمّي الذي بتّ أستحضره من الذّاكرة في شجن وحزن ركنا آخر، أتمنّى أن يعزّز رصيد سعادتي بحضوره، لكنّني لم أجرؤ على العودة. في كلّ اتّصال من اتّصالاتنا القصيرة المحمّلة بدموع الحنين وعبارات الاشتياق، كانت ترجوني في لهفة الولهان أن تكحّل عينيها بمرأى زوجتي وابني.. لكنّني كنت منيعا أمام توسّلاتها بشكل مخزٍ. حين أتفكّر الآن في سلوكي آنذاك، لا أجد سببا مقنعا لصدودي. هل كنت أستنكف أن أرجع ولمّا أحقق بعد الثروة التي يفترض بي أن أحصّلها؟ أم أنّني كنت أخشى نظرة أمّي وشقيقاتي لزوجتي الأجنبيّة المقعدة؟

هل تعلم يا بنيّ؟ في فترة الاطمئنان تلك التي تلت استقراري العائليّ والصحّي، كانت تساورني أحيانا أفكار جاحدة ورخيصة. كنت ألحظ الصّعوبة التي تنهي بها ديانا واجباتها كربّة بيت.. وقد كانت مهملة أحيانا، في ترتيب الألعاب وراءك أو تنظيف الأرضيّة.. ومهاراتها في الطبخ متواضعة غالبا، لكنّها تحاول. ومثل أيّ زوج شرقيّ، كانت تنتابني نوبات غضب غير مبرّرة، حين أتعثّر في دمية رميتها أنت عند المدخل، أو حين أنزل بعد يوم عمل شاقٍّ لاشتراء علبتي بيتزا بعد أن تفسد أمّك طبق العشاء. ديانا كانت وحيدة والديها المدلّلة، وإعاقتها جعلتها تتكّل على أمّها في كلّ شيء.. ولم يكن من اليسير أن تتحوّل إلى سيّدة بيت مثالية، تنال العلامة الكاملة من جدّتك لأبيك! ورغم تقديري لكلّ ذلك.. ورغم حبي الكبير تجاهها وعرفاني بجميلها، فقد مرّت بي أوقات ربّما استكثرت عليها خلالها صحّتي وعافيتي! تخيّل، تلك الصّحة المستجدّة بعد أوقات عصيبة مع الألم والعذاب، كنت أمنّ عليها بها بيني وبين نفسي! وهي التي لم تتكبر على فاقتي قبلا، ولم تتردّد أمام مرضي! بل إنّها كانت تتغلّب على شللها من أجلي، ومن أجلك. ورغم أنّها لم تستغن بشكل كليّ عن الكرسيّ المتحرّك، فإنّ سنتين مضنيتين من العلاج الطبيعيّ آتت

نتائـج طيّبـة، وهـا هـي تقـف مـن حـين لآخـر، وتخطـو خطـوات مـتردّدة.. وليتـني كنـت سـندا نفسـيّا يُعتمـد عليـه!

لذلـك اعتقـدت طويـلا في مـا بعـد، أنّ اللـه عاقبـني بمـا أسـتحقّ حـين تغـيّرت الأمـور في ذلـك اليـوم.

*****

كنـت أحـبّ مهنـتي الجديـدة وأحظـى فيهـا بقـدر مـن المتعـة رغـم الإرهـاق. أتجـوّل طـوال اليـوم مثـل نحلـة نشـيطة بـين المـشرب وطـاولات القاعـة الدّاخليـة والشرفـة الخارجيّـة، وابتسـامة واسـعة تمـلأ وجهـي.. فحـتّى إذا رجعـت إلى البيـت، سـمحت للتكشـيرة بـأن تحـلّ محلّهـا! هكـذا هـي الحـال. الابتسـامة في مـكان العمـل جـزء مـن الوظيفـة، والعبـوس في البيـت روتـين يومـيّ.

في ذلـك اليـوم، عـدت إلى المـشرب بعـد أن خفّفـت الصّينيـة مـن حملهـا ثـمّ انشـغلت بتصفيـف الكـؤوس المتسـخة في المغسـلة، بينمـا كانـت نظـراتي تراقـب آلـة صنـع القهـوة الـتي بـدأت مؤشراتهـا تعلـن عـن حاجتهـا إلى تزويـد بالمـاء والـبنّ. تركـت الكـؤوس ومـلأت إبريـق المـاء وتأهّبـت لصـبّ محتـواه في القسـم المخصـص مـن الآلـة.

في تلك اللحظة، رأيتها!

عـلى الجهـة الأخـرى مـن الشّـارع، كانـت تقرفـص في اسـتكانة كمـا عهدتهـا دومـا. وترقبـني بنظـرة باسـمة. في الوقـت نفسـه، أحسسـت بوخـزة فظيعـة في رأسي، فأفلـتُّ الإبريـق الزجاجـي ليرتطـم بالأرضيّـة وتتناثـر شـظاياه الدقيقـة. استندت عـلى سـطح المـشرب الرّخـام بمرفقـي أقـاوم إغمـاءً وشـيكا.. وخيالهـا الشـبحيّ يحـثّ الخطـى باتّجاهـي في إصرار.. ثـمّ فقـدت الوعـي.

حـين اسـتيقظت، كنـت لا أزال في المطعـم. ممـدّدا عـلى صـفّ متلاصـق

مـن الكـراسي، ورؤوس كثـيرة تـشرف عـليّ مـن عـلٍ، وقطـرات مـاء بـارد تغمـر وجهـي الملتهـب. كنـت أشـهق وألهـث، بينمـا تتصفّـح عينـاي الوجـوه الكثـيرة المحيطـة بي في تشـوّش أفتّـش عـن وجههـا، عـلّي أفنّـد ظـنّي أو أؤكـده.. فرأيتهـا. تطـلّ عـليّ بابتسـامتها الـتي أعـرف! كانـت هنـاك تلـك الصغـيرة الغاليـة الـتي رحلـت مـن دون وداع.. فتراهـا كانـت تنـوي العـودة. كارمـن!

بعـد لحظـات، انفـضّ الزّبائـن وعـاد كلّ إلى مقعـده بعـد أن اطمأنّـوا عـليّ، وبقـي صاحـب العمـل ينظّـف بقايـا الزّجـاج المكسـور. راقبتـه بتشـوّش ولمّـا يفارقـني الـدّوار. استمرّت لبرهـة تلـك الجلسـة الصّامتـة، وكارمـن ثالثتنـا، حـتّى نطقـت أسـأله بصـوت متحـشرج:

- هل دخلت المطعم اليوم فتاة صغيرة مشرّدة؟

رفع رأسه في شكّ وبدا عليه التفكّر، ثمّ قال:

- لا أذكر شيئا من هذا.

ازدردت ريقـي في ذعـر. كان ينظـر في اتّجاههـا.. ولا يراهـا. أغمضـت عيـنيّ، والهلـع يتصاعـد درجـات في داخـلي. مـا معـنى هـذا؟ كارمـن تعـود، كأنّمـا لـم تكـبر يومـا واحـدا.. هـي هـي، كمـا عهدتهـا. وعليهـا الثيـاب الممزّقـة نفسـها الـتي رأيتهـا عليهـا آخـر مـرّة. ولا أحـد يراهـا غـيري. مـا معـنى هـذا؟

اسـتأذنت مـن صاحـب العمـل لأغـادر مبكّـرا ذلـك اليـوم. خرجـت أجـرّ قدمـيّ، وكارمـن تسـير عـلى إثـري بخطواتهـا الصّغـيرة المثـيرة للشـفقة. بحثـت في مفكّـرتي عـن رقـم المستشـفى الـتي أجريـت فيـه جراحـتي منـذ سـنتين، وطلبـت موعـدا مـع الطبيـب الاختصاصـيّ. لـم أكـن قـد احتجـت إلى زيارتـه منـذ زمـن بعيـد. بعـد شـدّ وجـذب مـع موظّفـة الاسـتقبال، تمكّنـت مـن أخـذ موعـد طـارئ في بدايـة الأسـبوع التـالي. لـك أن تتخيّـل كمّيّـة الشـكوك المؤرقـة الـتي عشّشـت في رأسي حـتّى ذلـك الموعـد!

صـارت كارمـن تلازمـني حيثمـا حللـت. في البيـت، في المطعـم، في الشّـارع. تجلـس عـلى مسـافة مـنّي، ترقبـني ولا تتحـدّث. عـادت بكمـاء كمـا عرفتهـا في

عهـدي الأوّل بليـون. وكانـت رؤيتهـا تثـير توتّـري إلى المسـتوى الأقـصى! صرت عصبيّـا، قليـل الـكلام سريـع الاشـتعال. لمـاذا عـدتِ؟ بـل كيـف عـدتِ؟ إن كنـت قـد اسـتأصلت الرّصاصـة فـلا معـنى لوجـودك هنـا الآن!

جـاء يـوم الموعـد، فدلفـت عيـادة الطبيـب بسـاقين مرتعشـتين. أجريـت الفحوصـات، ثـمّ صـور الأشـعّة. وجلسـت أنتظـر في صـبر اسـتعرته لا أدري من أيـن.. فمخـزوني منـه كان قـد نفـد حتّى آخـر قطـرة. بعـد سـاعتين، كنـت أدخـل عـلى الطّبيـب مـن جديـد، لأجـد إلى جـواره رجـلا آخـر لـم تسـبق لي رؤيتـه. طبيـب آخـر. قدّمـني إليـه بابتسـامة متشـنّجة، ثـمّ جلـس ثلاثتنـا في الصّالـون الملحـق. لـم يكـن كلّ ذلـك يبـشّر بخـير. سـألني الطبيـب الجديـد:

- ألم يرافقك أحد من أفراد عائلتك؟

- لا.. جئت وحدي.

يصمت برهة، وأشعر بتردّده. لعلّه يبحث عن كلمات مناسبة.

- فهمـت مـن ملفّـك أنّـك قـد أجريـت جراحـة عـلى الدّمـاغ منـذ فـترة.. أليـس كذلك؟

- نعم. كانت هناك رصاصة.. أخرجها الدكتور. كانت عمليّة ناجحة.

أردّ بآليّـة، مسـتعجلا الوصـول إلى لـبّ الموضـوع. ثـمّ لمـاذا لا يحدّثـني طبيـبي؟ مـن هـذا الطبيـب الـذي يديـر دفّـة الحديـث؟

- هذا ما حسبناه.. حسبناها ناجحة.

- هل سأحتاج جراحة أخرى؟

لا بـأس بذلـك. جراحـة أخـرى لـن تـضرّ. أقبـل بـأيّ شيء عـلى أن تختفـي تلـك الفتـاة الـتي تصنعهـا هـلاوسي إلى الأبـد.

- لا للأسف. لن تكون هناك جراحة أخرى.

- آه..

- أنت رجل مؤمن أليس كذلك؟

لا أفهم ما يعنيه سؤاله، ولا ما يقصده بأنّني لن أحتاج جراحة.

- لماذا لا تتصل بزوجتك أو أحد أفراد عائلتك؟ من الأفضل ألا تكون وحيدا في هذه اللحظة..

- من أنت؟

أقاطعه في سخط. ثمّ أوجّه خطابي إلى طبيبي غاضبا:

- ما الأمر يا دكتور لابورت؟ لماذا لا تخبرني بما رأيته في صورة الأشعة ولننه الأمر؟

- إنّه طبيب نفسيّ.. تحتاج حضوره لتخفيف وقع الصّدمة..

يقاطعه الطبيب النفسيّ بسرعة:

- أحيانا لا تسير الأمور كما نتوقّع.. لكنّ الحياة هكذا.. تبتلينا بالمرض أو فقدان الأحبّة أو ضيق في الرّزق.. ومهما كانت حياتنا، فعلينا أن نتقبّلها، ونعيش ما بقي لنا منها بشكل إيجابيّ..

من هذا الرّجل؟ طبيب نفسيّ أم شيخ جامع؟ أرمقه في انزعاج.

- هلّا يوضّح لي أحدكم سبب الهلاوس التي أراها؟

- هل تذكر، حين أجرينا العمليّة الأولى؟ كانت هناك كتلة نسيجيّة تحيط بالمقذوف.. حين استأصلناه، تراجعت وتوقّف نموّها.

- نعم، وقد كنت سليما معافى طيلة السّنتين الماضيتين!

- لكنّها قد عادت إلى التمدّد.. كبر حجمها إلى درجة مهولة خلال وقت قصير.. أكثر ممّا فعلت خلال سنوات طوال! وقد أصبحت الآن تضغط من جديد على مراكز الحواسّ.. وإذا ما كبرت أكثر، فإنّها قد تدمّر مراكز الحياة في الدّماغ..

تدور بي الدّنيا. يضطرب تنفّسي. بينما يواصل الطّبيب شرحه:

- للأسف، كما شرحت لك عند العمليّة الأولى، لا يمكن استئصال الكتلة النسيجيّة. لأنّ الموت سيكون فوريا..

- كم.. كم ما زال من الوقت؟

يخرج منّي صوت أجوف لا أعرفه.

- ستّة أشهر ربّما.. أكثر أو أقلّ.

يستأنف الطبيب النّفسيّ خطابه المستفزّ:

- العلم لا يمكنه تحديد أعمار البشر.. رغم أنّ الورم في مرحلة متقدّمة، فإنّك قد تعيش سنوات أخرى. كلّ ذلك يعتمد على حالتك النّفسيّة. لقد أثبتت التّجارب أنّ الأشخاص الذين تعاملوا مع مرضهم بتقبّل وانفتاح، وحافظوا على نظام غذائيّ سليم وأحاطوا أنفسهم بأحبّتهم ومارسوا هواياتهم المفضّلة، عاشوا أكثر من أولئك الذين غرقوا في الكآبة وانتظروا الموت وقد فقدوا صلتهم بالحياة...

- ستة أشهر.

غمغمت في سرحان. لم أعد أسمع طنينه المزعج. ثمّ وقفت من دون استئذان وغادرت العيادة.

*****

في الغد، ذهبت لزيارة الدكتور عمر.

كانت أنانيّة مني أن أقصده لأرمي بين ذراعيه همومي، ولعلّه في حاجة إلى دعم معنويّ مثلي أو أكثر. لا ليس أكثر.. في تلك اللحظة، بدا لي أنّني منحوس أكثر من أيّ رجل في العالم. وأنّ مواساتي فرض عين على كلّ من عرفتهم أو لم أعرفهم! ثمّ لعلّي توقّعت أن يكون أكثر النّاس قدرة على تفهّم وضعي، وهو المصاب في صحّته وحرّيّته.

قرأت على وجهه علامات الدّهشة والبشر وهو يدخل قاعة الزّيارات ليجدني قبالته. بشر تضاءل حتّى تلاشى، حين انفجرت باكيا بين يديه.

حكيت له عن زيارتي الأخيرة لعيادة الطبيب، ولم أحاول أن أظهر اهتماما زائفا بصحّته وظروف حبسه، فقد كان ما ألمّ بي حاجزا دون شعوري بمآسي العالم من حولي! حين خفت نشيجي أخيرا، هتفت في ثورة وألم:

- أكرههم!

- من؟

- الذين قتلوا أبي.. ووضعوا هذه الرصاصة المقيتة في رأسي!

- الجيش؟

أعجز عن الرّدّ.. على من أصبّ لعنتي؟

- الإسلاميّون؟

لقد ظننت طويلا أنّهم السبب. لو لم يكن الجيش يبحث عنهم.. لو لم يكن عمّي يخفيهم.. لما حصل ما حصل. أجهش ببكاء مرير متّصل في عجز. من العبث أن ألوم شخصا غيري.. أنا وحدي المسؤول عمّا ألمّ بي وبعائلتي من شتات..

- أتمنّى فقط لو أعود طفلا.. وأبقى هادئا وراء الباب!

أمنية غالية بعيدة المنال. وآلة السّفر عبر الزّمن لم تخترع بعد.

- لله حكمة أكيدة في ذلك.. وحكمته اقتضت أن يمهلك ثمانية عشر عاما إضافيّة، قبل أن تفعل الرّصاصة مفعولها! ألا تشكر الله على سنين حياتك التي عشتها وأنت لا تدرك حتّى وجود الرّصاصة في رأسك؟

كنت في أسوأ حالاتي النفسيّة، والإيمانيّة أيضا. فأنّى لي استشفاف حكمة الله من هذا الابتلاء؟ أهزّ رأسي في حركة يائسة، ثمّ أقول متأوّها:

- ليس هناك ما هو أقسى من الموت نفسه.. غير انتظار الموت!

قلتها بلهجة عميقة، كأني قد وضعت السّبابة على سرّ من أسرار الوجود.

- هراء! ترّهات!

باغتني عمر باعتراضه الصّارخ. أرفع إليه رأسي بنظرة مستنكرة. لسان

حالي يقول: وهل تعرف أنت ما أعيشه حتى تستكثر عليّ رثاء حالي؟ لكنّه يواصل بصوت هزّني:

- هذا كلام الملحدين واليائسين من رحمة الله! أمّا أنت أيّها الرّجل المؤمن، ألا تدرك أنّ الموت هو انقطاع عمل ابن آدم؟ هو اللحظة التي لا ينفع بعدها ندم على تفويت في عبادة أو ارتكاب لمعصية! أمّا ما تسمّيه انتظارا للموت، فهو إمهال من الله سبحانه.. فرصة أخيرة، لتحسن العمل لآخرتك! أتراك تستغلّها، أم تقضيها في انتظار مستسلم؟ ألا ترى نعمة الله عليك في تنبيهك لاقتراب أجلك؟ أم تراك تفضّل الموت غافلا.. يسوقك طول الأمل؟ الآن، تفكّر في عملك، وأصلح من علاقتك بربّك، خذ القرارات المناسبة، وعش كلّ لحظة كما يجب!

خرجت من عنده مهزوزا. كيف؟ كيف بالله عليك يا عمر؟ كيف يمكنك أن تنطق بتلك الكلمات وأنت حبيس جدران ضيّقة تضغط على نَفَسك.. لكنّها لا تسرق نضارة روحك! أقعيت على جانب الطريق، قبالة بوّابة السجن، أحاول استيعاب ما قيل بالدّاخل. وجلست كارمن عند قدميّ.. مصيبتي الصّغيرة.

- أنتِ.. لماذا أراك أنت بالذّات؟ لماذا كلّما طاردتني الهلاوس اتّخذت شكلك؟

- اسأل نفسك.. أنت تعرف.

سمعت الصّوت من دون أن تتحرّك شفتاها، مثل صدى يتردّد في رأسي. حاولت أن أُدهَش، لكنّ دهشتي انحسرت، وقد أضحت رؤيتي واضحة على حين غرّة. نعم أنا أعرف. لقد عرفتك في ليون، طفلة صغيرة بكماء مشرّدة. لكنّني تركتك خلفي ورحلت. حين أشرقت الدّنيا في وجهي نسيت أمرك وأنا الذي عاهدت نفسي على الاعتناء بك وحمايتك. إحساس عميق بالذنب تجاهك جعلك تتشكلين هلوسة من دون وعي منّي. أسكت ضميري بإبقاء طيفك قريبا.. ولعلّي لن أعرف أبدا ما الذي حلّ بك على وجه الحقيقة.

أميّز الآن بشكل واضح متى بدأت الهلوسة. حين ظهرت فجأة وأنا أهمّ بالرّحيل إلى باريس! كان يؤلمني أن أرحل وأخلّفك ورائي، لذلك تشكّلت في رأسي.. وتبعتني.

أزفر في شبه ارتياح وقد أزحت اللّثام عن حقيقة أرّقتني في الماضي، ولم يعد لها معنى يذكر في الحاضر. لكنّ إشراقات النّور على حجرات كانت مظلمة في الدّماغ تصاحبها دفقات خفيفة من المتعة. أسألها وقد باغتني نشاط مفاجئ:

- والآن، ماذا نفعل؟

تلك الصّغيرة سترافقني إلى نهاية المطاف، لذلك صار لزاما عليّ أن أشركها في التخطيط للأيّام المقبلة. ستّة أشهر من الأعمال الحاسمة تنتظرنا!

*****

كانت صحّة ليليان تتدهور شيئا فشيئا، وكانت ديانا تصحبك لتسليتها في بعض الأحيان، فأمرّ لآخذكما من عندها حين ينتهي يوم عملي. وقد بدا أنّها قد مرّت بفترة عصيبة عصر ذلك اليوم.

حين تجاوزتُ مدخل المجمع السّكني، كانت الحديقة شبه مظلمة والمصابيح القليلة المتناثرة تلقي نورا باهتا على الممرّات المفروشة بالحصى. كان المكان يعاني من إهمال شديد في الفترة الأخيرة. منذ فضيحة الحراس والمداهمة التي تعرّضت لها العمارة الثامنة، عانى الحيّ من سوء السّمعة وكثر القيل والقال. بيعت ممتلكات الشيخ المختار، بأثمان بخسة لمشترين متفرّقين بعد أن ظهر ورثة غرباء لا يعرف أهل الحيّ عنهم شيئا. لم تعد هناك لجنة تهتمّ بالنّظافة والصّيانة العامّة للمجمّع، ولم يتّفق الملاّك المختلفون على سياسة إدارة واحدة حتّى آلت المساحات

المشتركة إلى حالة من الفوضى والقذارة لم تعرفها يوما في عهد الشيخ.

تفرّق معظم الحراس الذين أطلق سراحهم وتشتّت شملهم وانتشروا في أنحاء الأرض. صارت قصّة الحراس بمثابة الخرافة التي يرويها السّكان همسا. وما لبثت العصابات أن عادت إلى سالف نشاطها بعد أن قطع عليها المختار الطريق لوقت طويل.

لم أكن أنهار وحيدا. كان كلّ شيء ينهار.. فهل أجد في ذلك تسلية عن مصابي؟

انتبهت من أفكاري حين لمحت دواليب كرسيّ ديانا المعدن تلمع في الظلام. ثمّ سمعت صوت صرخات طفل بين الأعشاب. في ارتباك واضطراب شديدين، جريت باتّجاهكما. جثوت على ركبتيّ قربك. كنت يا بنيّ قد شرعت في محاولات مشي متعثّرة، فتسقط معظم الوقت بعد خطوات قليلة. رفعتك بين ذراعيّ في حنوّ ومسحت التراب العالق عن كفّيك وركبتيك المكوّرتين، ثمّ التفت إلى ديانا التي اقتربت وهي تدير عجلات الكرسي متجهّما:

- ما الذي دهاك للخروج في هذا الوقت؟ ألا ترين أنّ ذلك خطر على الولد؟

- نادر، أرجوك.. لم يحصل شيء للولد. لقد وقع في العشب الطّريّ. نحن لا نخرج إطلاقا، وقد أردت أن أرفّه عن أمّي بعض الشيء..

التفتُّ إلى حيث كانت تجلس ليليان على مقعد حجريّ بالسّاحة، وقد أخفت غلالة الظلام ملامحها. لعلّها كانت ترقبنا في عدم رضا، وتندب حظّ ابنتها التي ابتليت بزوج معقّد عليل الجسم والرّوح. واصلت هجومي المحموم بشكل مبالغ فيه:

- ماذا لو حصل له مكروه؟ ماذا لو جرح أو كسر أو أيّ شيء آخر؟ ماذا كنت ستفعلين؟ هل يمكنك إسعافه؟

زمّت ديانا شفتيها في ضيق:

- نادر، أنا لست عاجزة. لا يمكنني المشي على قدميّ بشكل متّزن لكنني أسرع من كثير من البشر الأصحاء بالعجلات.. يمكنني أن أنحني وأرفع الولد إذا سقط. لكنني أعلّمه الاعتماد على نفسه والوقوف بعد الوقوع. ثمّ فلتعلم، ما يوجد من مخاطر في الحديقة أقل بكثير مما يوجد في البيت، حيث الموقد والمكواة ومقابس الكهرباء والسكاكين والدّبابيس والمقصّ والأدوية...

سكتّ مضطرا، وبداخلي دفق من السخط لم أفرج عنه بعد. قالت ديانا على حين غرّة ونحن نتوقّف قرب أمّها:

- أعرف ما يلزمنا. إجازة!

- إجازة؟ في هذا الوقت؟

- نعم، الترويح عن النفس لا يحتاج وقتا، بل يفرض نفسه وقت الحاجة، وأنت بحاجة الآن إلى تغيير الجوّ.. هل تعرف فيم أفكّر؟ نحن متزوّجان منذ سنتين ولم نذهب لزيارة عائلتك مرّة واحدة! وخليل يحتاج إلى رؤية جدّته وعمّاته. سيكون ذلك رائعا، أليس كذلك؟

أومأت ليليان برأسها مشجّعة. لماذا تبدو فكرة جيّدة للكلّ ما عداي؟

- الجزائر؟ أنت واثقة؟

- أعلم أنّ عائلتك قد لا تتقبّلني ببساطة.. لأنّني مقعدة و..

قاطعها في حزم:

- كفّي عن هذا أرجوك! تعلمين أنّ ذلك لا يشكل فرقا بالنسبة إليّ، ولا يهمّني بماذا قد يفكر الآخرون.

- إذن نذهب؟

كانت ابتسامة تشرق في وجهها وهي ترنو إليّ في حماس. لكنّني أشحت بوجهي وأنا أنشغل بملاعبتك وهممت بصوت لم تصبه عدوى الحماس:

- سأفكّر في الأمر...

تلك الليلة، فتحت عينيّ فجأة لأجد الغرفة غارقة في الظلام. سحبت نفسي بهدوء خارج السّرير. على أطراف أصابعي درت حول السّرير المزدوج حتى وصلت إلى الجهة الأخرى، حيث سريرك الخشب الصّغير. أزحت طرف السّتارة السّميكة لأسمح لضوء الشارع بالتّسلل إلى الشّقة. ثمّ انخفضت على ركبتي وانحنيت فوقك كاتما أنفاسي. لم تكن قد أكملت سنتك الأولى. بأطراف أناملي، أعدت اللحاف القطن المطرّز إلى مكانه، ولامست في خشوع خصلات الشعر الفاحمة التي التصقت بجبينك. كنت صبيّا جميل المحيّا. يشبه والدته. نعمة من الله، أحمده عليها كلّ يوم.

بعد إرهاصات الغربة الأولى، أصبحت لديّ عائلة. ديانا وخليل. «كليل»، هكذا تنطقه أمّك. فأصحّح لها المرّة تلو المرّة كما كنت أفعل مع طلبتي منذ زمن.. فيضجّ البيت بالضحك. أضحك من نطقها الخاطئ، فتضحك من نفسها.. وتضحك أنت أيضا لضحكنا، من دون أن تفهم السّبب.

لم أكن زوج الأحلام الذي تتمنّاه ديانا وتستحقّه. إحساسي بذلك كان قائما منذ البداية، رغم صبرها ورضاها الظاهر. ولم تكن شفقتي على عجزها إلاّ ردّة فعل كبريائي على إحساس مزمن بالنّقص! لم يكن عملي نادلا يعدّ مهنة الأحلام أيضا، وآفاقها ليست واسعة بالقدر الكافي. في الحقيقة، كانت المنح الاجتماعية التي تتقاضاها ديانا تغطي معظم المصاريف، وكنت أدفع إيجار الشقة وأدّخر بقيّة أجرتي في حساب توفير ليكون بمثابة تأمين لك حين تكبر. كان هاجس تأمين مستقبلك يلحّ عليّ منذ البداية. هل كان حدسا صائبا؟ نجاتي من الرّصاصة كانت معجزة حقيقيّة. وديانا تواظب على جلسات التأهيل لساقيها منذ سنوات من دون فائدة ملموسة. طفل ينشأ بين والدين مبتليين يحتاج إلى أكثر من الحب والرعاية ليضمن الغد.

حين كنت في الرّابعة من عمري، كان والدي -خليل- يرافقني في رحلة صيد مبتدئة إلى مرافئ عنّابة، ثمّ في سنّ السّابعة علّمني كيف أصنع الطعوم بنفسي وأشدّها إلى الصّنّارة، واحتفلنا معا بأوّل سمكة أصيدها

بعـد لأي، قبـل أن أدرك أنّـني لسـت موهوبـا مثـل والـدي فأتـرك الصّيـد إلى غـير رجعـة.

رفقـة والـدي جلسـت للمـرّة الأولى عـلى المقاهـي وأخـذت أوّل نفـس مـن نارجيلتـه، فكـدت أختنـق بهـا تحـت نظراتـه العابثـة. لعبـت معـه الـورق وراقبتـه وهـو يغـشّ ليسـمح لي بالفـوز أوّلا ثـمّ ليحتكـره لنفسـه في مرحلـة أخـرى. تعلّمـت معـه ركـوب الدّراجـة الهوائيّـة والتّدحـرج عـلى المـروج المعشوشـبة وتسـلّق الجبـال وخرجنـا في نزهـات جبليّـة لا تحـصى. أمسـكني مـن وسـطي وتركـني أتخبّـط بيـديّ وسـاقيّ في المـاء قبـل أن أتعلّـم السّـباحة وعاقبـني بصفعـة عـلى مؤخـرة رأسي في كلّ مـرّة نسـيت فيهـا صنبـور الميـاه مفتوحـا، أو لطّخـت ملابـسي بالوحـل، أو حطّمـت زجـاج النّافـذة بالكـرة.. أو ارتكبـت أيّـا مـن الحماقـات الكثـيرة الـتي يرتكبهـا الأطفـال.

ذاكـرتي زاخـرة بالمواقـف الـتي جمعتـني بوالـدي، رغـم رحيلـه عـنّي في وقـت باكـر، في ذلـك المشـهد المجلّـل بالعـار. خمسـة عـشر عامـا برفقتـه كانـت ممتعـة ومنهكـة ومربكـة، حـين أسـترجع التفاصيـل الـتي طفـت أحداثهـا إلى سـطح الذاكـرة. معظمهـا، بـل كلّهـا، كانـت بعـد سـنّ الرّابعـة. خلايـا الذّاكـرة في دماغـي لـم تسـجّل شـيئا يُذكـر في سـنواتي الأربـع الأولى. مـع أنّـني أتسـاءل بجـدّ إن كان دماغـي مثـالا قويمـا عـن كيفيّـة عمـل الأدمغـة العاديّـة. أليـس دماغـا متورّمـا؟ وربّمـا تكـون الأدمغـة القابلـة للتـورّم مختلفـة في تكوينهـا وأدائهـا عـن بقيّـة الأدمغـة منـذ البدايـة؟ أسـئلة غريبـة ومشـطّة في التعقيـد مـلأت رأسي تلـك الأيّـام. كلّهـا تـدور في فلـك فكـرة واحـدة: هـل سـتذكر عـنّي شـيئا حـين تكـبر؟

اتّخـذت خطـوة متهـوّرة في اليـوم التّـالي حـين دخلـت محـلّ أجهـزة إلكترونيّة وطلبـت أحـدث نمـاذج آلات التّصويـر الرّقميّـة! كنـت قـد عزمـت عـلى صنـع ذاكـرة «احتياطيّـة» تسـاعدك في تنشـيط ذكرياتـك عـنّي في مـا بعـد. لـم أضيّـع الوقـت، وبـدأت التّصويـر عـلى الفـور. كنـت أوقـف المـارّة في الشّـارع وأطلـب

منهم أن يلتقطوا لي صورا أمام بعض المباني، في محطّة المترو، أمام نافورة عموميّة، إلى جوار سيّارة فاخرة...

في غمرة إقبالي على تزويدك بذكريات مستقبليّة، خطرت ببالي أمّي التي ما زالت على قيد الحياة. إنّ من العسير أن يرحل والدك ويتركك يتيما، لكن أن ترى ولدك اليافع يرحل قبلك، فذلك حتما ألم لا يحتمل. أقعيت على قارعة الطريق واستغرقني بكاء مرّ. طوال حياتي كنت سبب قلق لها، وحين قرّرت أن آخذ الحياة على محمل الجدّ وأصنع شيئا يُسعد قلبها، كان المرض لي بالمرصاد. تذكّرت عددا من أولاد الجيران أو الأقرباء الذين جرّبوا مثلي الهجرة الممنوعة، ثمّ عادوا إلى ديارهم محمّلين في نعوشهم. تذكّرت ملامح الأمّهات المفجوعات في فلذات أكبادهن، تذكّرت الحسرة واللوعة في نحيبهن المتقطّع الصّاعد من أعماق الأفئدة.. ثمّ تخيّلت وجه أمّي وهي تستقبل نعيي بعد ستّة أشهر من الآن. في تلك اللّحظة، اتّخذت قرارا. لن أسمح لذلك بالحصول.

حين دخلت الشّقة، جاءني صوت خطواتك المتردّدة وأنت تلقي بنفسك باتّجاه الباب لاستقبالي. أخذتك بين ذراعيّ في حبّ جارف وقبّلتك في لهفة ثمّ تفرّست في ملامحك الباسمة المنشرحة كما لم أفعل من قبل. ثمّ التفتّ إلى ديانا التي كانت متهلّلة الأسارير، كما هي على الدّوام. رددت لها الابتسامة بمثلها ثمّ أعلنت عن المفاجأة التي تدبّرتها على الطّريق:

- سآخذ إجازة ونستمتع بها معا.

هتفت ديانا غير مصدّقة:

- هل نذهب إلى الجزائر؟

تغضنت ملامحي وشاهت ابتسامتي وأنا أردّ في فتور :

- ليس الآن، ربّما في وقت لاحق.. أما هذه المرّة، فسنجوب أنحاء باريس مثل السيّاح، ونأخذ الكثير من الصّور!

قلت ذلك وأنا أخرج آلة التصوير الجديدة من مخبئها. أطلقت ديانا

صيحة مرحة مثل طفل حظي بلعبة العيد التي تمنّاها.

- إنّها تبدو غالية! كم دفعت ثمنا لها؟

- لا تهتمي لثمنها، لقد استحقّت كلّ سنتيم دفعته لقاءها.

لا أنسى النّظرة التي أطلّت من عينيها آنذاك. قرأت فيها مزيجا من الحبّ والعتاب. كنت غالبا ما أرهق نفسي بالعمل، وأحرمها من كثير من الكماليات في سبيل تحصيل المال وتوفيره. ولئن كان إقدامي على اشتراء جهاز غالي الثمن يفاجئها ويربكها، فإنّها لا شكّ ترتاح لتلاشي عقدة المال من ذهني. تلك العقدة التي تمنعني من الإقدام على إنفاق أيّ مبلغ مهما كان تافها إلا بعد تقليب الأمر على كلّ وجوهه بشكل يثير غيظها. كنت حريصا في تعاملاتي الماليّة، وهي كانت تخشى أن يتحوّل محور حياتي إلى جمع المال لا غير. لذلك، وإن بدت عمليّة الاشتراء تلك تبذيرا لا مسوّغ له، فإنّها تعتبر نزوة محمودة في نظرها، لأنّها علامة على استرداد زوجها لصحّته الماليّة وتوقّفه عن سياسة التقتير التي لا وجوب لها.

لكنّها لم تعلم أنّ غمرة الجود التي حلّت بي لم تكن نزوة أو عابرة، ففي الأيام القليلة التي تلت تلك الوقفة، رأت وجها جديدا لزوجها. كما وعدتها، انطلق ثلاثتنا في جولة باريسيّة مرتجلة، مثل سيّاح يزورون المدينة للمرّة الأولى. لم تكن الرّحلة منظّمة أو محدّدة المراحل والخطوات، بل انطلاق منذ الصّباح وانتقال تلقائيّ من معلم إلى آخر، وتوقّفات عشوائيّة لتناول أكلة خفيفة أو مثلّجات أو احتساء فنجان قهوة. الكثير من الضّحكات والنّظرات المشرقة، ومتعة عارمة لك وأنت تطعم الحمام في ساحة «نوتردام» وترشّ رذاذ الماء علينا في ساحة «سان ميشال» وتركب السفينة السّياحيّة على نهر السّين.

في مساء اليوم الثالث، غبت لساعة واحدة بعد أن أوصلتك وأمّك إلى الشقة. ولمّا كان التعب قد بلغ منكما مبلغا عظيما بعد جولات النهار الخارقة، فقد غسّلتك ديانا وخلدت وإياك إلى النّوم على الفور، لذلك

لـم تلحـظ حركـتي وأنـا أتسـلّل عـلى أطـراف أصابعـي لأخفـي بـين ملابـسي تذاكـر السّـفر الـتي اقتنيتهـا للتـوّ.

مـرّ اليـوم الرّابـع مثـل سـابقيه، وبـدأت ديانـا تنتبـه إلى هـوسي المحمـوم بالتقـاط الصـور. كثـيرا مـا كانـت تشـدّ ذراعـي لأتوقّـف عـن التّصويـر وأعيـش اللحظـة الرّاهنـة. حـين أخـذت قطـرات المطـر المتفرّقـة في الهطـول، اقترحـت ديانـا إيقـاف النّزهـة والعـودة، لكنّـني كنـت مسـتمتعا بالرّكـض معـك عـبر ممـرّات حديقـة «التويلـري» والقفـز بـين الـبرك الموحلـة بـبراءة تضاهـي بـراءة الأطفـال، بينمـا اكتفـت ديانـا بالضحـك وهـي ترقـب الولديـن اللذيـن كنّاهمـا يمرحـان تحـت زخّـات المطـر.

كان يومـا منهـكا كعـادة أيـّام الإجـازة المتتاليـة، فتولّـت ديانـا جمـع الثيـاب المتّسـخة ووضعتهـا في آلـة الغسـيل ثـمّ حمّمتـك واسـتلقت إلى جـوارك في إعيـاء حـتّى غلبهـا النّعـاس. مـرّة أخـرى، تسـلّلت عـلى أطـراف أصابعـي إلى الخزانـة. اسـتخرجت تذاكـر السّـفر وأنـا أرقـب ديانـا النّائمـة مـن وراء كتفـي في حـذر، ثـمّ أخـذت أجمـع ثيـابي النظيفـة وثيابـك في حقيبـة متوسّـطة الحجـم. سـحبت الحقيبـة بهـدوء وتسـلّلت إلى الخـارج مجـدّدا.

- نادر، هذا أنت؟

كانـت الحركـة المطّردة في الغرفـة قـد أخرجـت ديانـا مـن نومهـا. تقلّبـت عـلى جانبهـا وتثاءبـت ثـمّ اسـتندت عـلى كفيهـا محاولـة النهـوض. ظهـر رأسي مـن خـلال فتحـة البـاب وهمسـت مطمئنـا:

- عودي إلى النّوم يا عزيزتي، سأغسل أطرافي وآتي في الحال...

هـزّت رأسـها وهـي تفـرك جفنيهـا المثقلـين بالنّعـاس، ثـمّ عـادت إلى الاسـتلقاء. انتظـرت خلـف البـاب لدقائـق طويلـة. راقبتهـا مـن طـرف خفـيّ وهـي تغفـو بالتّدريـج حـتّى اطمأننـت إلى انتظـام أنفاسـها المؤذنـة بانغماسـها في نـوم ثقيـل. عندئـذ، تحرّكـت بنفـس الخفّـة واقتربـت مـن السريـر الصّغـير. أبعـدت اللّحـاف عنـك وحملتـك بهـدوء بـين ذراعـيّ محـاذرا أن أوقظـك. رأيتـك

تتمطّى وتتخبّط في انزعاج لمقاطعة نومك، فهدهدتك برفق ومسحت على رأسك حتّى سكنت حركتك. ابتعدت بهدوء في اتّجاه باب الشقة. كانت الحقيبة جاهزة هناك. أضفت إليها حذاءك ومعطفك، فلم أكن أريد أن أغامر بوضعهما عليك حينها لتجنّب استيقاظك في وقت غير ملائم، ثمّ ألقيت نظرة تفقديّة أخيرة على أوراق الهويّة وتذاكر السّفر، قبل أن أنسحب خارج الشقة وأنا أحملك نائما على كتفي بذراع وأسحب الحقيبة بالأخرى. هرولت بقدر المستطاع نحو الشارع الرّئيسي، حيث كان موقف سيّارات الأجرة.

حين استقرّ بي المقام أخيرا في السيّارة التي تطوي الأرض في اتّجاه مطار باريس شارل دو غول، تنهّدت في إعياء. أخرجت حبّة دواء مسكّن رميتها في فمي لأبتلعها من دون ماء، ثمّ غامت نظراتي بقطرات دمع أبت إلا أن تغالبني. ديانا، يا حبّ حياتي.. كيف ستشعرين حين تستيقظين صباحا لتجدي الشقة خالية؟

ثلاث إناث شكلن خارطة الوجع في غربتي. أمي التي ما جفّ الدّمع على خدّها منذ رحيلي، ديانا التي وثقت بي فسرقت بسمتها ووأدت فرحتها، وكارمن الصغيرة التي نسيتها، والنسيان في حقّها جريمة لا تغتفر.

*****

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة الخامسة مساءً.

ترقرقت دمعة حارّة على وجنة ديانا. لم تمسحها، بل استمرّت تطالع ولدها في حنوّ. أخذ منها خليل الورقة الأخيرة من رسائل أبيه، قلّبها متفحّصا، يبحث عن بقيّة.. ثمّ رفع عينيه إليها ليهتف في صدمة:

- هرب بي إلى الجزائر؟ وكيف رجعت إلى فرنسا؟ كم عشت هناك؟

ابتسمت في صبر وأشارت إلى الرّزمة الثانية:

- هذا ما أحكيه لك في رسائلي.

آه، أخيرا جاء دور الرّسائل المكتوبة بلغة يفهمها! قلّب الرّزمة بين يديه مقيّما سمكها ودسامة محتواها. سيكون قد انتهى منها خلال ساعتين على الأكثر. رمى بفردتي حذائه واستلقى على الأريكة في وضعيّة أوفر راحة، ثمّ فكّ الشّريط الذي يجمع الرّسائل وشرع في القراءة. كانت ديانا تهمّ بدخول مطبخها لتحضير وجبة عشاء يتناولانها معا، للمرّة الرّابعة هذا الأسبوع، حين استوقفها خليل ليسأل في اهتمام:

- لم تقولي.. كيف تعلّمت العربيّة؟ أنت تقرأينها بسهولة وطلاقة!

ابتسمت في جذل، وذكريات قديمة تعبر مخيّلتها:

- ستعرف.. صبرك عليّ!

- إذن سيّدة ديانا.. دعينا نرى ماذا لديك لترويه.

الرزمة الثانية

رسائل ديانا روجيه

«الحنين، إنّه مثل مدّ جارف يغرق القلب فيملؤه إلى حافّته، فما يعود هناك متّسع لمشاعر أخرى.»

-١-

عزيزي خليل،

أذكر نفسي وأنا أجلس أمام تلك اللافتة البغيضة وقد أضاءت كلماتها بضوء أخضر مشعّ. «غرفة العمليّات». كان نادر قد غاب منذ ساعات خلف الباب المغلق، ولم يأت أحد ليطمئنني على مصيره منذ ذلك الحين. زوجي. كلمة غريبة لم آلفها بعد. لا يتجاوز عهدي بها الأيام المعدودة، ولم يتعدَّ إحساسي بها تلك الوقفة القصيرة أمام ممثّل البلديّة والشّيخ اللذين عقدا قراننا. منذ ذلك الحين، تتالت الأحداث مربكة مؤرقة.

هل كنت أتصوّر أنّ أحداثا كتلك قد تقتحم حياتي الهادئة الرّتيبة؟ لسنوات طويلة، حسبت أن الإعاقة التي اختارتني من دون كلّ البنات في سنّي هي أقسى الأقدار التي قد تطالني. كنت منكفئة على ذاتي منغلقة على حياتي، أتجرّع في كلّ يوم مرارة إحساسي بالعجز وأندب الحظ الذي لم ينصفني بحرماني من الحركة. كنت مؤمنة، مع شيء من التمرّد الذي أتوب عنه كلّ مساء حين أخلو إلى أيقونة العذراء في غرفتي.

لكنّني تعرّفت إلى نادر.. الذي قطع المتوسّط واجتاز الأراضي الفرنسيّة من جنوبها إلى شمالها ليحطّ مثل طير مهاجر عند باب شقّتي. كان قد رأى بعينيه الشاردتين في شهور قليلة ما يكفي لعمري كلّه. نجا من الموت غرقا، وعاش بين المتشرّدين واللّصوص لأسابيع، ثمّ انخرط مع جماعة إرهابيّة من دون علمه لينتهي به الأمر وراء القضبان.. قبل أن يكتشف الأطباء إدمانه، ويقرّروا استخراج رصاصة تسكن رأسه منذ ستة عشر عاما! ذلك هو زوجي. تلك الخلطة العجيبة من المآسي كانت قدره، وستصبح منذ ذلك اليوم قدري.

كان نادر متخوّفا من العمليّة، وقد دفعته إليها متظاهرة بالجلد والثّبات.

مـن حقّـه أن يخـاف، فاحتمـالات النّجـاح كانـت واهيـة. ونتائـج مـن قبيـل فقـدان البـصر أو نزيـف الدّمـاغ أو الشـلل الرّباعـي كانـت ماثلـة أمـام عينـيّ وأنـا أقـول مشـجعة: سـتكون بخـير! لقـد أوضـح الطّبيـب أنّـه لا خيـار أمامـه غـير المجازفـة. لأنّ الرّصاصـة عـدوّ داخـليّ متربّـص بـه. وقـد تُنهـي حياتـه في أيّ لحظـة، وهـو في غفلـة عـن أفاعيلهـا. أوَليـس هـذا مـا تفعلـه الرّصاصـات في كلّ الأحـوال؟

لذلـك، حـين اسـتمرّت غيبوبتـه تلـك سـاعات طويلـة، اسـتبدّ بي الجـزع. رأيتـني أحمـل لقـب الأرملـة وأنـا بعـدُ لـم أعـرف كيـف أكـون زوجـة! وإن كان تفكـيري بنفـسي ضربـا مـن الأنانيّـة، فهـو -رغـم ذلـك- التفكـير المنطقـيّ الـذي نخفيـه في لاوعينـا. وقـد كنـت صادقـة مـع نفـسي حـين عالجـت السـؤال بوعـي كامـل. أوَليـس مـا يؤرقنـا حـين رحيـل الأحبّـة هـو كيـف سـتكون حياتنـا مـن بعدهـم؟ لا أحـد يـدري كيـف سيلاقيهم الـرّبّ بعـد مماتهـم، هـل إلى عـذاب أم إلى نعيـم؟ ومـع أنّي اعتقـدت أنّ نـادرا قـد لاقى مـن العـذاب في الدّنيـا مـا يسـتحقّ رأفـة الـربّ في الآخـرة، فـإنّي كنـت عـلى ثقـة بـأنّ أمـري مـن بعـده لـن يشـغله. حالمـا ترحـل روحـه عـن جسـده الفـاني، فسينسى أنّـه قـد تـزوّج امـرأة تدعـى ديانـا وخلّفهـا أرملـة بعـد زواج قصـير لـم تكـن لـه مـن فائـدة غـير حصولـه عـلى تغطيـة صحيّـة تسـمح بعلاجـه عـلى نفقـة الصّنـدوق الاجتماعـي! لذلـك رأيتـني أركـن إلى بـكاء مريـر، أنعـى نفـسي قبـل زوجـي.

لبـث نـادر في غرفـة العنايـة المركّـزة. ولـم يكـن يُسـمح لي بتجـاوز عتبتهـا. كنـت أراه مـن خلـف الزّجـاج راقـدا بـلا حركـة. وأزيـز منتظـم يصدر عـن الآلات الـتي تراقـب مؤشراتـه الحيويّـة. في تلـك الجلسـة الكئيبـة، تفكّـرت، مـا الـذي جعلـني أوافـق عـلى هـذا الـزّواج؟ بغـضّ النظـر عـن سيرته الغريبـة ومغامراتـه الاسـتثنائيّة، فقـد كان نـادر شـخصا هادئـا، بـل خجـولا. وكان في نظراتـه شيء مـن الـبراءة. هـل تصـدّق أنّ حاويـا يخاطـب الجـنّ قـد يبـدو بريئـا؟ لـم يكـن كذلـك وهـو يمثّـل دور المشـعوذ. لكـن حـين جـاء إلى شـقّتنا وقـد نـزع عنـه القنـاع، لمحـت في عينيـه صدقـا ووجعـا.. وأحسسـت ناحيتـه بألفـة غريبـة،

وأنا لم آلف أحدا غير نفسي لسنوات طويلة!

هل تؤمن بشيء اسمه توأمة الأرواح؟ لم أكن أؤمن بها سابقا. ولست أؤمن بها صراحة اليوم أيضا. لكنّني تساءلت حين سمعت منه قصّته، إن كان هذا الرّجل الغريب توأم روحي الذي ساقته إليّ أقدار غريبة من بلاد غريبة؟ وتزايد ذلك الإحساس بداخلي حين تكلّمت المحامية عن الزّواج الأبيض لتصحيح وضعه القانونيّ. كان هاتف في داخلي يقول في إلحاح: هذا قدرك. ورغم أنّ الموضوع لم يرق لأمّي بتاتا، فقد وجدتني أصرّ، كأنّني نبيّ قد عثر على رسالته أخيرا! فكان يجب أن أمضي في الطريق إلى نهايته. كأنّ أخذي هذا العبء على عاتقي كان من شأنه أن ينقي روحي ممّا شابها في ماضٍ قريب، من أحاسيس سخط وعدم رضا بنصيبي من الآلام. بل إنّني وجدت العزيمة لأستأنف العلاج الطبيعي، واستجابت له ساقاي أفضل من السّابق! ألم تكن تلك إشارات واضحة؟

حين فتح عينيه، كنت قربه. حرصت على أن تكون ابتسامتي أوّل ما تقع عليه نظراته عند استيقاظه. كنت متفانية في أداء مهمّتي، وقد أسبغت عليها صبغة الرّسالة السّامية. الدّهشة الجميلة في عينيه أوحت بأنّه يرى ويعي. وحركة يده نفت شبهة الشلل الرّباعيّ. واكتنفني زهوّ لا مثيل له، كأنّ المعجزة من صنيعي! أو أنّ الربّ كان يكافئني على قبولي بالمهمّة بحفظه هذا الرّجل من التّلف! ولعلّه لو انتهى كفيفا أو مشلولا أو حتّى ذا إعاقة ذهنيّة، لكنت تقبّلت الأمر بحفاوة أيضا. أوَليست قيمة النّجاح تزيد بارتفاع مستوى التّحدّي؟ لكنّني شكرت الربّ لرأفته بفتاة ضعيفة مثلي، كان ذلك أوّل عهدها بالاختبارات الربّانيّة. ومع ذلك، فقد كنت لأجزع حقّا، لو أنّ نادرا قضى نحبه في ذلك التوقيت. كان ذلك ليعني عدم قبول الربّ لرغبتي في التطهّر. فكأنّما سحب مني طوق النّجاة لأعود إلى عزلتي وعزوفي عن الحياة.

تماثل نادر للشفاء بشكل سريع. وكانت معجزة شفائه -التي ما فتئ الأطباء يذكروننا بها في كل زيارة- تغمرني ببهجة لا حدود لها، وبامتنان

للربّ الذي أهداني مهمّة ووضعني على الطريق الصّحيح. فأتفانى في إرضاء زوجي وفي رسم الابتسامة على وجهه. وكانت أمّي التي أمضت حياتها قلقة بشأني، ترمقني بعين الرّضا. أمّا الرّصاصة، فقد وضعتها في إطار فضيّ وعلّقتها في غرفة المعيشة، حيث ستكون نصب أعيننا طوال النّهار، ويمكن لزوّارنا أن يلقوا عليها نظرة، ويأخذوا منها العبرة، ويشاركونا امتناننا وسعادتنا. وكانت تلك الحفاوة بالرّصاصة تزعج نادرا، إذ إنّه لم يكن يرى الابتلاء بالعين التي أراه بها. وكان يزيح الإطار عن مكانه ويخفيه في أحد الأدراج أو فوق الخزانة -حيث لا يمكن أن أصل إليه-لكنّني ما ألبث أن أتمكّن من إيجاده، بمفردي أو بمساعدة صبية من الجيران، وأعيده إلى مكانه. فأرى نظرة ضيق في عينيه حين يرجع من عمله ويجده متصدّرا الجدار! وقد انتهى إلى التسليم بعد أن غلب إصراري عناده الطّفولي.

ثمّ حصل ما تمنيّته وخشيته أكثر من أيّ شيء في الدنيا.. حبلت بك.

كان من الممكن أن أواصل رحلة التطهّر -كما كنت أراها- إلى أمد طويل، لو لم تشرّفني بحضورك، وملئك عالمي. فقد كان النّجاح اللاّمع في اختبارين متزامنين وعلى قدر من الأهميّة والصّعوبة، أمرا عسيرا. وقد أصابني فتور تجاه أشياء كثيرة، منذ بدأت أشعر بحركة أطرافك الصغيرة داخلي، تركل وتضرب وتدغدغ، لينصبّ اهتمامي كلّه عليك وحدك. بدأت أفكّر حينها بأنّني قد فعلت ما بوسعي في المهمّة الأولى، وأنّ الخطّة التي اختارها الربّ لي تقتضي أن أنتبه لمهمّتي الجديدة. في الحقيقة، كنت أفسّر مشيئة الربّ على هواي، وأختار الرّسالة التي تستهويني! وقد كان الاهتمام بنادر أمرا قد وافق هوى الفتاة اليافعة مشبوبة العاطفة، التي لم تعرف قبل كيف تكون علاقة الذكر بالأنثى.. إلا من القصص والأفلام. والآن جاء دور المرأة النّاضجة المحترقة شوقا لغريزة الأمومة. وإضفاء صبغة القداسة على كلّ ما أفعله، كان من قبيل إرضاء نزعة دينيّة بداخلي مرّت بفترة تزعزع وارتباك، وقد ساعد ذاك الانهماك والتفاني على ترميمها. فإذا ما وقفت مساءً أمام أيقونة العذراء، كان بإمكاني أن أشكر الربّ صادقة

على الفرصة التي مُنحتها، وعلى النّعم التي حظيت بها.. بعد أن كانت كلماتي لسنوات خلت جوفاء مهتّزة.

حاولت أن أكون لك الأمّ المثالية منذ لحظاتك الأولى. رغم تعب الوضع وآلامه، فقد حرصت على أن أهتمّ بشؤونك جميعها باذلة طاقتي كلّها، تحت نظرات نادر القلقة. فإذا ما أغمضت عينيك للنّوم، تهالكت إلى جوارك وقد أخذ منّي الإرهاق مأخذا عظيما. وكم كان يصيبني الفزع حين أفتح عينيّ فجأة فلا أجدك إلى جواري! فقد كان نادر يحملك إلى سريرك بينما أغطّ في النّوم، لأنّه يخشى أن تختنق إذا ما ألقيت عليك ثقل ذراعي من دون أن أشعر. وكان موقفه ذلك يخلّف في صدري ضيقا ووجعا. فقد كنت أقف على علامات اهتزاز ثقته بي.

كانت كلمات نادر وتصرّفاته تنكت في صفحة قلبي بحبر أسود، وأنا التي أمضيت شهورا أمحو ما علاها من أدران وأعيد بياضها نقيّا. ولم يكن هناك إلا احتمال من اثنين، فإمّا أن يتحوّل ذلك السّواد إلى مشاعر قاتمة تجاهه.. وإمّا أن تنهار ثقتي بنفسي وبرسالتي، فأتحمّل وحدي تبعات الهزيمة. وقد كنت أختار أحد الخيارين كلّما أثقل روحي حملها، ولم أنحز إلى أحدهما بشكل نهائيّ! كنت ألوم نفسي وأقرّعها، حين أجد عذرا لخوفه وقلقه.. وكنت أبغضه كلّما بالغ في ردّ فعله تجاه هفواتي الصّغيرة التي لا تستحقّ ثورته. لكنّه غالبا ما يرجع ويعتذر ويطلب الصّفح، فأعيد إلى رصيده في قلبي ما سبق وسحبته وقت السّخط عليه.

استمرّت حياتنا نحن الثلاثة على هذا النّحو، مراوحة بين الهناء والتّعاسة. لا هي سعادة صافية ولا شقاء صرف. ولكن ولدان كبيران يتعلّمان كيف يواجهان الحياة على علّاتها، وولد صغير بينهما يتحمّل نزواتهما ومناقراتهما ويأخذه الموج في مدّهما ويعيده مكانه في جزرهما. لكنّني أحسب أنّك كنت طفلا سعيدا.. فقد كنت كثير الابتسام، منطلق السّريرة. ورغم الغيوم التي تلبّدت في سماء حياتنا المشتركة كزوجين، فإنّ أحدنا لم يفكّر يوما إلا في مصلحتك.. لذلك فقد كانت أمطار الغضب

والحزن تنزل على تربة محايدة. فيترك والدك الشقّة لساعة أو بعضها ويرجع بعد أن يكون قد نفّس عن ضيقه. وقد أنعزل في غرفتي للصلاة والبكاء بهدوء، وأخرج وقد عادت إليّ السّكينة، فأتلقاك بين ذراعيّ بابتسامة صافية، كأنّ حزنا لم يكن.

لكن في الأيّام الأخيرة التي جمعتنا في باريس، بدا نادر مهموما وشاردا معظم الوقت. بدأ كلّ شيء حين رجع يوما من عمله مبكّرا على غير العادة، وقال إنّه مرهق. ربّما أكون قد أبديت قلقا مبالغا فيه، فهو قد انتظم في مواعيد العودة من العمل في الأيّام التي تلت.. لكنّني لحظته ذات مرّة من نافذة الشّقة، جالسا في موقف الحافلات، ينتظر أن يحين وقت رجوعه ليدخل الشقّة! أيقنت حينها أنّ أمرا ذا بال يشغله.

أعملت تفكيري وقتلت الأمر بحثا، حتّى استنتجت أنه اشتياق إلى عائلته في الجزائر! الحنين، إنّه مثل مدّ جارف يغرق القلب فيملؤه إلى حافّته، فما يعود هناك متّسع لمشاعر أخرى. فأخذت أحثّه على السّفر.

كانت ملامحه تتجهّم كلّما جئت على ذكر السّفر، ويرفض بغلظة. ثمّ يغيّر الموضوع ويشغلني بأحاديث جانبيّة. حتّى جاء يوم بدا فيه أنّ غمامة الحزن قد انقشعت وابتسمت عيناه ببريق ذكّرني بنظرته يوم عقد قراننا! ولعلّه كان حينها قد عقد العزم على ما نفّذه بعد ذلك. فقد عاد بعد أيّام قليلة أخرى وبين يديه «آلة صنع الذكريات» تلك. كان والدك ينوي أن يلقي بي بعيدا، بعد أن يكون قد سجّل ابتسامتي وملامحي الطلقة في صور! هل تراه يكون مرتاح الضمير إذا ما طالعتُه مبتسمة في الصور التي يحتفظ بها؟

في تلك الأيّام، لم أعر اهتماما مسحة الانكسار التي ضبطتها أكثر من مرّة في نظرته إليّ. كلّما بادلته النظرة نأى عنّي كأنّما تدفع عيناي عينيه، بقوّة طرد مغناطسيّة، مثل قطبين متماثلي الشحنة. لكنّه يموّه أفكاره بانشغاله معك، يرفعك ويقفز وإيّاك ويجري ويدور حولك ويمسك بكفّك

ثمّ يدفعك على الأرجوحة. فأنسى، وتروح عنّي لحظة الشكّ العابرة.

في ذلك الصّباح المشؤوم، استيقظت بعد ليلة نوم هادئة لم يتخللها إزعاج. كنت قد اعتدت النّوم المتقطع من أجل تلبية حاجاتك الليلية، لذلك فقد كانت تلك الليلة المريحة مثيرة للريبة. بعينين ناعستين، حاولت تمييز مكانك على السرير الكبير إلى جواري. مددت ذراعي وتحسّست الفراش البارد. تملّكني فزع مفاجئ طرد النوم من جفنيّ. استويت جالسة وتفرّست في الغرفة من حولي في خوف. لم يعد أبوك ينقلك إلى سريرك منذ فترة، فقد كبرت وامتلأ جسمك ولم يعد يخشى عليك من بنيتي الهزيلة. ففكرت أنك قد تكون سقطت من السرير. وكيف تسقط ولا تبكي؟ زحفت بكلّ طاقتي في اتجاه طرف السرير الآخر وانحنيت على الأرض، لكنّك لم تكن هناك. تنهّدتُ وقد ذهب عنّي الذعر. فكّرت أنّك لا شكّ في المطبخ مع والدك، أو تشاهد برامج الأطفال في غرفة المعيشة.

قرّبت الكرسيّ المتحرّك وانتقلت إليه برشاقة، بحكم التّعوّد، ثمّ دفعت العجلات لألقي نظرة في أرجاء الشقة. بعد جولة تفقّديّة طبيعيّة في البداية، جبت المكان مرّات ومرّات بسرعة محمومة وأنا أبحث عن رَجُليّ اللذين اختفيا فجأة من دون إعلامي. أمسكت هاتفي واتصلت برقم نادر. انتظرت للحظات في توتّر ونبضاتي تتهافت في نسق مرتفع. لم يكن هناك ردّ. اتّصلتُ بضع مرّات أخرى قبل أن أستسلم. فكّرت في كلّ الاحتمالات.. هل يكون نادر أخذك إلى ساحة اللعب مثلا، ولم يشأ أن يزعج نومي؟ إنّ التّغييرات التي طرأت على سلوكه في الأيّام الأخيرة جعلتني أتوقّع منه أيّ شيء. كان منطلقا ومتحمّسا، وربّما لم يرد تفويت النّهار في النّوم فتصرّف بما أملاه عليه نزقه المجنون؟ وضوضاء الشارع قد لا تسمح له بسماع رنين الهاتف الذي كثيرا ما ينساه على الوضع الصامت.

اطمأننت إلى تلك الفكرة واسترخيت بعض الشيء. تنقّلت بين غرف الشّقة أحاول أن أشغل نفسي بأيّ شيء عن الإحساس الغريب المتشائم الذي يشوب اطمئناني. بعد نصف ساعة، حاولت الاتصال مجدّدا من

دون جـدوى. لـم أسـتطع منـع نفـسي مـن مراقبـة السّـاعة الـتي بـدت لي بطيئـة العقـارب بشـكل مزعـج ذلـك الصّبـاح. حـين أشـارت السّـاعة إلى الحاديـة عـشرة، كانـت العـبرات تطفـر مـن عيـنيّ مـن دون شـعور. حـدس مفاجـئ، جعلـني أهـرول إلى غرفـة نومـي لأتفقّـد خزانـة الملابـس. عـلى الفـور، لاحظـت الحقيبـة النّاقصـة. تملّكـني الهلـع وأنـا أفتـح الأدراج وأعايـن محتوياتهـا. لـم يكـن هنـاك شـكّ.. اختفـت ملابـس وحاجيـات كثـيرة! لا يمكـن أن يحتـاج كلّ تلـك الثيـاب مـن أجـل نزهـة بالخـارج!

عـاد الشـعور المتشـائم ليكتسـح السّـاحة ويفـرض سـيطرته. كان هنـاك شيء مـا خطـأ! حاولـت الاتصـال مـرّات أخـرى في عصبيّـة وجنـون هـذه المـرّة، مـن دون أن تختلـف النّتيجـة. وبينمـا كنـت أذرع مسـاحات الشـقة كاللبـؤة الجريحـة، كان تساؤل مرّ وممـضّ يتنامـى في داخـلي. مـا الـذي حصـل فجـأة؟ مـا الـذي تغـيّر منـذ الأمـس؟ مـا الجـرم الـذي اقترفتـه في حـقّ نـادر حـتّى أسـتحقّ عليـه العقـاب؟ لـم يكـن العقـاب واضحـا في ذهني حـتّى تلـك اللّحظة، لكنّـني أعاقـب عـلى أيّ حـال بـتركي لقمـة سـائغة للحـيرة، والهواجـس تنهشـني. حـتّى لـو رأيتـه يدخـل عـليّ آخـر النّهـار كأنّ شـيئا لـم يكـن، حـتّى لـو كان قـد انـصرف إلى لهـو بـريء معـك ونـسي أن يضعـني في الصّـورة، حـتّى لـو لـم يكـن اختفـاؤه الغامـض مقصـودا أو مدبّـرا.. فإنّـني لـن أسـامحه، لـن أسـامحه أبـدا عـلى لحظـات العجـز والقهـر الـتي عرفتهـا طيلـة انتظـاري المريـر.

حـين تـوارت الشّـمس في الأفـق مؤذنـة بالمغيـب، أصبحـت الحقيقـة ناصعـة الوضـوح أمام عيـنيّ.

لن يعود.

*****

عزيزي خليل،

مؤلـم للغايـة، أنّ تحـلّ بـك مصيبـة، ولا تـدري بمـن يمكنـك الاتّصـال.. أو ممّـن يمكنـك تلقـي المواسـاة.

كانـت أمّـي قـد تقدّمـت في السـنّ وأنهكهـا المـرض. ضغـط وقلـب وسـكّري. وخـبر مـن هـذا النـوع قـد يفعـل بهـا الأفاعيـل. لذلـك آثـرت أن أكتـم عنهـا فـرار والـدك بـك، حـتّى يكتمـل عنـدي الفهـم.. فأضبـط الكلمـات الـتي أنقـل بهـا الخـبر، وقـد تماسـكتُ وسـيطرتُ عـلى شـتات روحي، فـلا تنفعـل لانفعالي.

مـن حسـن الحـظّ أو التّدبـير.. أو كليهمـا معـا، كنـت قـد احتفظـت برقـم الأسـتاذة رنيـم شـاكر. عـلى الهاتـف، أفضيـت إليهـا بمـا وسـعني مـن رباطـة جـأش بمـا ألـمّ بي. رغـم وقـت المكالمـة المتأخـر، فقـد استمعت إليّ في انتبـاه ومـن دون مقاطعـة، ثـمّ قالـت:

- سأتحرّى عن الأمر وأعاود الاتّصال بك.

انتظـرت تلـك الليلـة متقلّبـة عـلى جمـر متّقـد، وأنـا أعلـم يقينـا ألّا شيء يمكـن عملـه قبـل بـزوغ نهـار يـوم جديـد. عـلى السّـاعة العـاشرة والنصـف مـن صبـاح اليـوم التـالي، وردني اتّصالهـا:

- إنّهـا عمليّـة اختطـاف واضحـة. اتّصلـت بالبنـك، فتبـيّن أنّـه قـد قـام بسـحب كامـل مدّخراتـه منـذ يومـين. طلبـت مـن بعـض معـارفي في شرطـة الحـدود التأكّـد مـن سـفره خـارج البـلاد.. أنتظـر أن يأتيـني الخـبر بـين لحظـة وأخـرى. سـيكون عليـك مرافقـتي للتّبليـغ عـن عمليّـة الاختطـاف...

قاطعتها في وجوم:

- لا.. لا أريد أن أبلّغ.

صمتت برهة، ثمّ عادت تقول:

- بأيّ حال، بما أنّ المختطف هو الأب، ولم يحصل طلاق أو خلاف على الحضانة وما إلى ذلك، فإنّ الشّرطة لن تأخذ البلاغ على محمل الجدّ قبل بعض الوقت...

تنهّدتُ، غير قادرة على التّنفس بشكل طبيعيّ، وثقل صخرة صمّاء عظيمة يجثم على صدري. حاولتُ أن أقول شيئا، لكنّني لم أعرف. فاندفعت أبكي وأكتم شهقاتي. كنت في حاجة إلى المواساة. إلى كتف تحتوي ألمي. سمعتُ الأستاذة رنيم تقول كلمات عزاء مرتجلة، كانت مرتبكة بدورها. ثمّ توقّفتُ عن البكاء، وقلت بصوت متماسك تشوبه بحّة:

- ماذا سنفعل الآن؟

- إن كان قد سافر إلى الجزائر.. فإنّ القانون الفرنسيّ لن يطاله..

- قلت إنّني لن أبلّغ!

عاندتُ من دون توضيح. وفي اللحظة نفسها، تفتّق ذهني عن فكرة جنونيّة لم أكن قد وفيتها حقّها من التقليب والتمحيص. هتفت بلهجة الـ«يوريكا».. وجدتها!

- نسافر إلى الجزائر!

- نسافر؟

- نعم، أنا وأنت!

كنتُ أطلب ببساطة من المحامية أن تترك أشغالها وموكّليها وقضاياها، وتسافر برفقتي في رحلة مجهولة العواقب. كان عليّ أن أضع على طاولة المفاوضات مبلغا يغطّي الأتعاب، ولم أكن أعلم كم سيكون كافيا. قلت متلجلجة:

- لقد حافظت على ميراثي.. لم أصرف منه شيئا بعد.. سأدفعه كلّه إذا اقتضى الأمر من أجل هذه الرّحلة!

تريّثت قبل أن تقول في هدوء:

- احتفظي بميراثك.. ودعيني أفكّر في الأمر.

لم أتوقّع أن تتصّل بي مساء اليوم ذاته لتبدأ كلامها قائلة:

- سنكون كمن يبحث عن إبرة في كومة قشّ!

سألتها غير مصدّقة:

- أنت موافقة؟

- لقد تأكّد لي أنّه سافر برفقة خليل مساء الأحد. تمكّنت أيضا من الاطلاع على نسخ من وثائقه الرّسميّة.. ونقطة البدء الوحيدة المتوافرة هي مكان ولادته! وكلّما تأخّرنا في اقتفاء أثره، تزايدت فرصه في الاختباء والتّواري عن الأعين. متى تريدين أن نسافر؟

*****

عدت إلى الصّفحات الأولى التي خططتها وهممت بتمزيقها. ما الذي تحاول أمك المسكينة إثباته؟ هل أكذب عليك أم على نفسي؟ رسمت لك حكايتي كما أتمنّى لو أنّها كانت. كسوت زواجي برداء القداسة لأنكر مشاعر نبض بها قلبي يوما تجاه رجل غدر بي. وهل يكفي أن ننكر شيئا ما لنغيّر حقيقته؟ هل تمحو كلمات أصرّح بها بعد سنتين واقعا أصبح في حكم الماضي وتعدّله؟ غالبا ما يدوّن الجانب المنتصر التاريخ ويخطّ ما يناسب هواه، لكنّني بعيدة عن مركز المنتصرين.. فإن لم أتمكّن من تزييف الأحداث، فإنّ مشاعري هي كلّ ما تبقى تحت إمرتي!

لكن كيف أكذب عليك يا ولدي؟ لماذا يكون إرثك منّي زيفا ووهما؟ إذن فلتعلم أنّني لم أكن تلك المرأة التي ادّعيت. لم أكن مدفوعة بإيمان نقيّ ولا بعاطفة تطهّر سامية. كنت شابّة سقيمة القلب والرّوح،

وقـد أظلّني والـدك تحـت جناحـه وبـثّ فيّ مـن دفئـه حـتّى شـفيت. همـت بـه غراما، وكان أوّل رجـل أوسـع لـه مسـاحة في وجـداني وحيـاتي. لكنّـني تمنّيـت لـو أنـني لـم أفعـل. تمنّيـت لـو أنّـه لـم يفعـل. أتمـنّى أن يرجـع أحدنـا عـن فعلـه. فإمّـا يرجـع بي الزّمـان إلى الـوراء فـلا أحبّـه ولا أتعلّـق بـه. وإمّـا يرجـع بـه الزّمـان إلى الـوراء فـلا يهجـرني. أمّـا الفعـلان مجتمعـان فقاتـلان.

حـتّى اللحظـة الفاصلـة، لـم أخـبر أمّـي بالحقيقـة كاملـة. قلـت إنّ نـادرا سـافر عـلى حـين غـرّة بعـد أن بلغـه مـرض والدتـه، واصطحبـك معـه. بينمـا تخلّفـتُ لأنّ جـواز سـفري كان منتهـي الصّلاحيّـة. كانـت نصـف الحقيقـة، فقـد كان جـوازي قيـد التّجديـد بالفعـل، واضطـررت إلى تأجيـل الخطّـة بضعـة أيّـام.

وخـلال تلـك الأيّـام الكئيبـة الـتي سـبقت الرّحيـل، اجـترت إحساسـا مقيتـا بالهجـر والنبـذ، وأنـا أدفـع بعجـلات الكـرسيّ ببـطء، أعـبر مسـاحات الشـقّة الهادئـة جيئـة وذهابـا. حقيبـة السـفر مشرعـة وسـط غرفـة نومـي، أضـع قطعـة ثـمّ أسـحب أخـرى. أفعـل ذلـك بتـأنّ وتريّـث. أطيـل فـترة انشـغالي حـتى أمتنـع عـن التفكـير. بعـد يومـين سـأحلّق لألقاهمـا. أعـدّل. سـألحق بهمـا إلى تلـك الأرض المجهولـة، لكنّـني قـد لا أراهمـا قبـل مـرور بعـض الوقـت. سـاعات، أو أيـام. لا أدري. كلّـه رهـن إرادة نـادر.

لـم أعـد أتسـاءل لمـاذا هجـرني نـادر فجـأة. فقـد كانـت حيـاتي مثـل الأرض القفـار الـتي لا يواطنهـا بـشر، فلمـاذا يكـون نـادر اسـتثناءً؟ سـلّمت بـأنّ الأمـر مقـدّر لا محالـة، لكـنّ جـلّ مـا آلمـني هـو أنّـني لـم أقـرأ بـوادر تغـيّره قبـل فـوات الأوان. كان يجـب أن أعلـم.

لكـنّ العـزاء الحقيقـي كان في غيـاب القلـق مـن أجلـك. كنـت أعلـم أنّـك تحـبّ صحبـة والـدك، ونـادر يهتـمّ بشـؤونك أكـثر مـن أيّ شـخص آخـر. لـم تكـن تفـارق ظلّـه مـا دام موجـودا في الشـقة. مـا عـدا الحمّـام والأكل وتغيـير الحفظـات، لـم يكـن وجـودي يشـكّل فرقـا. ألـوك تلـك الأفـكار القاتمـة مـن

دون رحمة بنفسي. فكّرت للحظة أنّك ستكون بخير بعيدا عني. سيكون نادر أهنأ بالا بشأن سلامتك ما دمت في منأى عن حركاتي الخرقاء. لكن أنا، هل سأكون بخير بعيدا عنك؟ كيف سيكون لحياتي معنى، بعيدا عن المخلوق الصغير الذي يكمّل نقصي ويغطي عجزي؟ معجزة الحياة التي خلقت في رحمي وأغرتني بالإقبال على الدنيا بأمل وتفاؤل. عشت أمومتي لك مثل حلم ورديّ البتلات مزدانٍ بالخضرة، أقبض على تلابيبه بكلّ قوّتي حتّى لا يتلاشى كالأوهام. لكنّني أفقت بعد سنة واحدة من السّعادة المؤقتة لأدرك أنّ حلمي كان أجمل من أن يكون حقيقة خالصة.

أعلم أنك ستسلوني خلال وقت قصير. تبكي في الأيام الأولى بقوّة وتنادي «ماما» التي ما كدت تتعلّم نطقها، ثمّ سرعان ما تتأقلم مع وضعك الجديد. الأطفال ينسون بسرعة. يحبّون بسرعة ويتعلّقون بسرعة. لكن ماذا عنّي؟ لن يمرّ عليّ يوم واحد لا تسافر فيه أفكاري إليك. لن تمرّ ساعة واحدة. دقيقة واحدة. لا تكون فيها أنت محور اهتمامي. ستكون في ذهني طوال الوقت. ليتني أكون بذاكرة طفل. بل لا، فلتبق في ذاكرتي إلى الأبد.. حتّى لو كان قدري ألا أراك بعدُ أبدا.

أعود إلى حقيبتي. أقلّب محتوياتها مرّة أخرى. لستُ في حاجة إلى متاع كثير. أسبوع أو أسبوعان على أقصى تقدير هي المدّة المقرّرة للرّحلة. أزفر طاردة ضيق نفسي وأفتح خزانتي. مرّة أخرى. تهاجمني نزعة أمومة جارفة، فأضع حاجياتي جانبا وأعوّضها بملابس إضافيّة من أجلك. الطقس آخذ في التقلّب وستحتاج كنزاتك الصّوف قريبا. أفاجئ نفسي وأنا أمعن لاإراديا في تفكير سلبيّ موجع. أتوقّف عن الحركة وأغطي فمي بكفّي لأمنع شهقة من تجاوز شفتيّ. أتصرّف كأنك لن تعود برفقتي! أدرك أنّ التفاوض لن يكون سهلا. فأيّا كانت دوافع نادر فمن السّذاجة أن أظنّها قد تلاشت بهذه السّرعة. إن كان قد أقدم على هذه الخطوة القاطعة، فهو بالتّأكيد مصمّم على الابتعاد عنّي بشكل لا يقبل الرجعة.

يخرجني رنين الهاتف من استغراقي المؤلم.

- أستاذة رنيم.. أنا بخير، شكرا لاتصالك.

أستمع إلى توصياتها في صمت. تلك المخلوقة الغريبة، امتدّت كفها إليّ في عتمة الفراغ لتطبطب على قلبي بكفّ حانية. نزلت كلماتها على وجداني مثل كمّادة باردة أطفأت لهيب قلقي الممض. كانت مستمعة جيّدة وصديقة أكثر منها محامية رسميّة المعاملة. استمرّت المحادثة لبضع دقائق كانت كافية لتقطع وتيرة البؤس الذي سيطر عليّ في الساعات الأخيرة.

*****

عزيزي خليل،

بين اللحظة التي كنت تستكين فيها نائما إلى جواري في شقتنا الباريسيّة، واللحظة التي لمحتك فيها في ثيابك الغريبة، متربّعا في جذل واضح إلى جوار امرأة غريبة، وتوزّع ابتسامات عذبة على أناس غرباء.. كانت قد مرّت تسعة أيّام بلياليها.

خضنا الرّحلة ثلاثتنا: الأستاذة رنيم ودليل محليّ وأنا. وجلّ ما بأيدينا من أدلّة، شهادة ميلاد والدك وصور لكما. في عنّابة، جبنا الحيّ الذي شهد مولد نادر -كما تذكر الشهادة- شارعا شارعا. طرقنا الأبواب مثل موزّعي الإعلانات وبائعي «الشنطة» وقوبلنا بالجفاء حينا وبالتّرحاب حينا آخر. دخلنا المقاهي، وتحدّثنا إلى المراهقين المرابطين عند نواصي الشّوارع، وقاطعنا شيوخا يلعبون النرد عند دكاكين البقالة أو الخضر. استجوبنا أطفالا يلهون بالكرة في عرض الطريق ورشوناهم بالحلوى والقطع النّقديّة. واعترضنا مسارات سيّدات ملتحفات وسافرات ينوؤن بحمل قفافهن عائدات من السّوق. نسأل من دون هوادة عن نادر الشاوي، الشاب الثلاثيني العائد من فرنسا، ومعه طفل ذو سنة واحدة. وكانت الرؤوس تهتزّ في كلّ مرّة علامة النّفي.

حتّى كانت مرّة، سأل فيها الدّليل شابين لما يبلغا العشرين، يجلسان على قارعة الطريق. ردّ الأوّل بتلقائيّة:

- نعم أعرفه.

فلكزه الثاني بمرفقه على الفور، كأنّما أفصح بما لا ينبغي ذكره. تبادلا نظرة واجمة، بدا بعدها أنّ الأوّل سيتراجع. فوجّدتني أقترب على عجلٍ بعد أن تركت للدّليل محاورتهما. قلت مبتسمة وأنا أخرج أوراقا من فئة

العشرين يورو من محفظتي:

- نحن أصدقاء نادر من فرنسا.. وقد دعانا إلى زيارته في الجزائر.. لكنّنا تهنا في طريقنا ولم نجد المنزل الذي وصفه لنا.. فهلّا ساعدتمانا في العثور عليه؟

أخذ كلّ منهما ورقة نقديّة وأخذ يتأمّلها بأعين متّسعة. ثمّ قال الثاني بنبرة ماكرة بعد أن أخفى الورقة في جيبه:

- لكنّ المنزل بعيد من هنا.. وسنضطرّ إلى ترك أشغالنا لمرافقتكم.

لم أدر إلى أيّ أشغال يشير.. عدا مغازلة المارّات ومضايقة المارّين. لكنّني فهمت مراده، فنقدت كلّ واحد منهما ورقة إضافية! عندئذ، وقف في كبرياء ورافقنا إلى السيّارة.

وصلنا إلى شارع فرعيّ ضيّق لم نكن قد وصلنا إليه في جولتنا، فتركنا العربة عند المنعطف وترجّلنا. أشار الولد إلى منزل واطئ السّور ذي باب معدنٍ أزرق ذهب طلاؤه، ثمّ أطلق ساقيه للرّيح. طرقنا الباب بهدوء بداية، ثمّ شدّدنا الضرب مرّة بعد مرّة.. من دون فائدة. خلف السّور، بدا المنزل القديم المكوّن من طابق واحد هادئا هدوء القبور. دمدم الدّليل بكلمات بذيئة وشتم الولدين الذين أرشدانا ولا شكّ إلى منزل مهجور وفرّا بالأوراق النقديّة! أغمضت عينيّ في إحباط. كان الأمل يحدوني بأن أكون قد وصلت إلى المكان المنشود، لكنّ الولدين جعلا منّي أضحوكة، ولعلّهما يتندّران بي الآن برفقة نادر! رفعت رأسي أتأمّل جدران الشارع وأقلّب عينيّ بين نوافذها. هل تراك تختفي خلف إحداها يا بنيّ؟ أشعر بقربك. الولدان كانا يعرفان أباك ولا شكّ، لكنّهما تلقّيا تعليمات بالصّمت، أو هكذا بدا لي.

كانت تلك الأفكار تشغلني، حين أطلّت امرأة من وراء سور منزل مجاور، تطاولت بعنقها وقد أفزعها الطرق المزعج على باب الجيران. أطلقت كلمات في الهواء على حين غرّة. ولم أفهم حرفا من كلماتها العربيّة. لكنّ

اهتمام الدّليل كان واضحا. رأيته يخطو باتجاهها يستفسر. التفتُّ إلى رنيم أسألها أن تؤكد الأمل. فترجمت الكلمات: «هل تبحثون عن أمّ نادر؟ لقد سافروا منذ أيّام إلى قريتهم الجبليّة»! كان الدّليل يحاول اقتناص المزيد من التّفاصيل. أين تقع القرية؟ الولاية البلدة، الحيّ. عاد بعد قليل ليقول:

- عشيرة الشاويّة، عند جبل الجرف من ولاية تبسة.

*****

جبال الأوراس، لم تكن ذات شبه بجبال الألب التي تزلّجت على منحدراتها الثلجيّة طفلة، قبل أن تفقد ساقاي الحركة. ربّما كانت متقاربة في شكلها، مرتفعاتها وأوديتها، خضرتها وصخورها، طرقاتها المتعرّجة المتّجهة صعودا ونزولا مشرفة على هاويات تزداد سحقا كلّما اقتربت من القمّة. كلّ الجبال متشابهة في هذا. لكنّ الشعور الذي يسكن قلوبنا ونحن نعبر منحنياتها ونشقّ تضاريسها مصّعدين في السماء أو منزلقين إلى السفح يرسم بصمتها الخاصّة في نفوسنا. وإن كانت الألب قد خلّفت نقاء في ذاكرتي في صفاء ثلوجها البيضاء وسرور الطفلة البريئة التي كنتها، وخفّة في روحي بمقدار ما ارتفعت محلّقة بين كثبان الثلوج الرّطبة.. فإني قد أحسست بثقل الأوراس الرّاسيات في حجم الجزع الذي سكن قلبي وأنا أقترب من مكان أتوقع رؤيتك فيه، وفي تقطّع أنفاسي، بينما تهتزّ بنا السيّارة الصغيرة وتتقافز على الطريق التّرابيّة غير المعبّدة، على نغمات الحجارة والحصى التي ترتدّ على هيكل السيّارة.

حين أصبحنا على مشارف مقرّ عشيرة الشاويّة -الذي أرشدنا إليه عمدة بلدة جبل الجرف- بدت أمامنا زينة احتفاليّة صاخبة. كان الوقت عصرا، والسيّارة تتوقف خارج سور المزرعة. أمامنا صفوف طويلة من السيّارات

والشاحنات والجرّارات التي حضر على متنها أقارب وجيران ومعارف من القرى والبلدات القريبة والبعيدة. لم يتوقّف الضّيوف عن التّوافد بأعداد غفيرة، يتراصّون في صناديق الشاحنات ويهلّلون ملوّحين بأوشحة مزركشة، وتزغرد النّساء فرحات، بينما يصل صدى الطبل الذي يقرع نغمة شعبيّة من الفناء الدّاخليّ. حبست عبرة توشك على الإفلات وتهدّج صوتي. قلت للأستاذة رنيم رافضة ترك مكاني من السيّارة:

- اذهبوا واستطلعوا الأمر.. سأنتظركم هنا.

هل كنت أخشى لحظتها أن أفقد أباك؟ ألم أكن قد فقدته بالفعل حين هجرني؟ فما الفارق إذن إن كان اليوم عرسه أم عرس غيره من أفراد العائلة؟ لكنّ تفكيري بأنّه قد يكون المحتفى به في عرس عائليّ مهيب، جعل قلبي ينزف أسى في صمت مضمّخ بالغيرة. لكنّ رنيم كانت حازمة:

- سنذهب معا. لا آمن أن يقترب بعض الصّبية من السيّارة وأنت وحدك.

نزلت على مضض. دفعت رنيم كرسيّي المتحرّك وعبرنا البوّابة. كانت الرّؤوس المتطفلة تستدير لترقب هيئاتنا الغريبة عن أجواء القرية. لكنّ أحدا لم يجرؤ على قطع طريقنا. كان يوم احتفال، والجميع مرحبٌ بهم، ببطاقة دعوة أو من دونها. الدّعوة في بلدة أبيك تلك شفاهيّة غالبا، والحاضر يعلم الغائب حتّى تحلّق الكلمة إلى أقصى مدى. لا يهمّ إلى أين تصل الدّعوة وإن عبرت قرى ومدنا، وإن تناثر الحمام الزّاجل في كلّ اتّجاه يعلم القاصي والدّاني. فما دام الضيّف سيكلّف نفسه مشقة السّفر لمشاركة أهل الفرح حفلتهم، فأهلا ومرحبا. لكن هل خطر ببال أحدهم أن يدخل عليهم يوما زائر قادم من وراء البحار، قد رمت النّوارس عند قدميه ذات صباح كلمة الدّعوة؟

مضينا عبر الفناء الخارجيّ، يتراءى لنا قنّ الدّجاج ومأوى الأرانب عند الجهة الشرقيّة، وحظيرة الأغنام والأبقار من الجهة الغربيّة، ومخزن العلف والقمح يظهر مرتفعا شامخا من وراء الدّور التي تستقبل الزوّار.

عند منتصف الطريق، يقف شيخ سبعينيّ في ثيابه الرّيفيّة التقليديّة. يرمي على كتفيه برنسا صوفا داكنا ويعمّم رأسه بقماش أبيض ناصع. بدا أنّه صاحب المكان والضّيوف ضيوفه. خمّنت أنّه عمّ نادر، كبير الشاويّة. كان يحيّي وفود الزوّار بابتسامة عريضة تشهد على فرحة حقيقية لا مجاملة فيها. كأنّ كلّ هؤلاء البشر الذين سيطعمون من مائدته الليلة قد أسدوه معروفا! وبين الفينة والأخرى، يلتفت إلى عمّاله المتفرّقين في حركة دؤوبة حوله ويشير بكفّه، فيسعون بجدّ ناحية حظيرة المواشي، ويسحبون خروفا آخر يلحق بكتيبة الذبائح التي تسلخ وتقطّع في الفناء الخلفيّ، ثم تطبخ في قدور عميقة مع المرق والخضر في مطبخ خارجيّ مرتجل. ربّما ذبحت العشرات منها تلك الليلة.

طالعنا الرّجل من دون أن تعبر ملامحه سحابة مفاجأة، كأنّ وجودنا في عقر داره طبيعيّ لا غرابة فيه. أشار إلى دليلنا كي ينضمّ إلى الخيام المخصّصة للرّجال، في حين دلّنا صبيّ على الغرف الدّاخليّة التي تحتلّها النّسوة. دلفنا إلى الفناء الدّاخلي الذي أسدلت على منفذه ستارة تحجب ما وراءها. وهناك تفتّقت الرؤية عن مشهد لم يكن ليعبر خيالي ولا حتّى في الأحلام. وكيف أحلم بعالم لا أفقه من أبجديّاته حرفا؟ كنّ فتيات ونساء من مختلف الأعمار، يجلسن في حلقات، متربّعات على أكلمة بيتيّة الحياكة، ويتكئن إلى وسائد خشنة مرصّفة على امتداد محيط الحائط. وفي وسط كلّ حلقة، صبيّة تربط وشاحا على خصرها وتتمايل في رقصة متغنّجة. وفي حلقات أخرى، من نساء أكبر سنّا، تتوسّط الجمع عجوز برتقاليّةٌ خصلاتها النافرة من تحت غطاء رأسها، تمتدّ الأكف باتّجاهها، فتلصق في كلّ كفّ قرص عجينة سوداء تميل إلى الخضرة. وهنّ في كلّ هذا، يلبسن أقمشة مزركشة زاهية في مهرجان من الألوان، كأنّما يتنافسن على إبداء الفرحة. وكلّما مالت الأجواء إلى الفتور، بادرت إحداهنّ بإطلاق زغرودة، فتتبعها زغاريد كثيرة مآزرة، معلنة بداية وصلة جديدة من الغناء والضرب على الدّفوف والرّقص.

حين دخلنا، رمقتنا أعين كثيرة في ريبة، لكنّ وجودنا الدّخيل لم يقطع شيئا من معالم الفرحة. كنّا دخلاء يُلحظ تطفّلنا بلا جهد، ولا أحد يصارحنا بتطفّلنا، كرما وتغافلا أو لامبالاة وتجاهلا. أخيرا، قدمت في اتّجاهنا سيّدة حسنة المظهر كانت تقف وسط الفناء، تسيّر أمور البيت وترحّب بالزّوّار. سرت في ظهري رعدة باردة. كان يجب أن تكون هي. أمّ نادر. ابتسمت وهي تعانقنا كأنّما تعرفنا أو تعرّفت إلينا. قالت في ودّ وبلغة لم أفهمها، ثمّ ترجمت لي رنيم:

- عسى ألا تكون السّفرة قد أرهقتكم؟

هل تراها كانت تتوقع مجيئنا أم أنّ تسريبات تدفّقت من عنّابة من مخابرات الحيّ -الجارة- فتأهبّت لاستقبالنا؟ لم أكن واثقة، لكنّ الظرف لم يسمح بكلام كثير، والزوّار يواصلون التدفّق، وحاجز اللغة يمنع تبادلا مباشرا. وماذا لو أنّها فهمتني وفهمتها، فهل كانت عقدة لساني لتنفكّ؟ وماذا كنت لأسألها؟ هل تزوّج زوجي عليّ؟ أين ضرّتي؟ سامحني يا بنيّ، فقد كنتَ في تلك اللحظة مُغيّبا عن ذهني بفعل العاطفة المجروحة. ولعلّي كنت لأخطفك من بين أذرعهم وأهرب، لكن بعد أن أخمش وجه ضرّتي وأصفع والدك متربّعا على منصّة الزّفّة!

فجأة، انطلقت المزامير في الخارج تعزف في عنفوان، وارتفعت ضربات الطبل في نسق متسارع محموم، ورأيت النّساء من حولي يهرعن إلى نعالهن، بعضهن يحكمن أغطية رؤوسهن وينفرن في اتّجاه الفناء الخارجيّ. أيّ العريس جاء! هكذا فكّرت وكفّاي تتوقّفان على جانبي كرسيّي، لا أقوى على دفع العجلات في اتّجاه المنفذ مثل كلّ من بالدّاخل. ذهب عزمي على الانتقام أدراج الرّياح حين غدت المواجهة وشيكة. رفعت رأسي إلى الأستاذة رنيم، فقالت بسرعة وهي تخمّن ما يدور في رأسي:

- انتظري هنا، سألقي نظرة.

أغمضت عينيّ لبرهة أختنق الألم وأعتصره حتّى يبقى في الدّاخل ولا

ينفضح أمره في شكل دمع أو تغضّن جبين. ثمّ سعيت أشقّ الصّفوف، وتوقّفت عند الفرجة التي أحدثتها السّتارة المواربة. من موقفي ذاك، لمحت الموكب. كانت عربة بيضاء ناصعة يجرّها اثنان من الخيول العربيّة الأصيلة، تتهدّل ستائرها الشفيفة لتكشف جزئيا عن هويّة الرّكاب المحتفى بهم. وهناك رأيتك. بل رأيتكم. أنت وأبوك وهي.. ثالثتكم التي سرقت مكاني. لمحت نادرا أوّلا. كان يقود زمام الخيل، ويمشي الهوينى محاذيا العربة. بينما تربّعت أنت وهي على المقعد داخلها. كانت اللحظة تجسيدا للمخاوف والضلالات التي تراقصت أمام عينيّ منذ يوم رحيلك! الآن صارت حقيقة ماثلة أمام عينيّ، من لحم ودم وأعين وابتسامة! حاولت أن أستهين بشأنها، أن أحتقرها. لكنّني فشلت. كانت حسناء بدويّة، وافرة الصحّة، فارعة الطول، وحين توقّفت العربة على بعد خطوات منّي، وقفت تمشي مثل الملكات والنساء يرمينها ببتلات الورد وحبّات الرزّ ويرششن ماء الزّهر. وأنت، كنت تبتسم وتضحك في جبّتك الحريريّة وطربوشك المائل، والمتعة تملأ نظراتك. ثمّ مدّت كفّها إليك وحملتك بين ذراعيها، بينما نادر يراقبكما في رضا. لقد وجد لك أمّا أخرى على جناح السّرعة! ملأ فراغ الأمومة متعجّلا، كي تسلوني وتُمحَى صورتي من ذاكرتك!

لكنّك خيبت ظنّهم وشفيت صدر أمّك يا ولدي، حين نظرتَ إليّ. كانت النساء قد أوسعن لها ولك، لتعبر إلى الفناء الدّاخلي حيث ستواصل النّسوة الاحتفاء بها. تلاقينا وجها لوجه وراء السّتارة. انتبهتَ إلى وجهي المألوف، ومددتَ يدك في اتّجاهي! كنت لا تزال بين ذراعيها، لكنّك رحت تتملّص، تتخلّص من قيدها لتأتيني. وهنا، انتبهت إليّ كلّ النظرات. لم أكن ضيفة غريبة في نهاية الأمر. كنت جزءا من «العائلة» شاؤوا ذلك أم أبوا. واستحال المشهد إلى عرض مسرحيّ مرتجل. لم يكن أحد غيرك يعرف دوره فيه. دور الابن الذي عثر على أمّه. تململتَ حتّى خلّصَتْك، فركضتَ إليّ بخطواتك الصغيرة المتردّدة وارتميت على ساقيّ. رفعتُك بين

ذراعيّ في لهفة، وذبتُ وإيّاك في عناق حارّ تخللته العبرات والشهقات من طرفي والضحكات المشرقات من طرفك. لم تنسني. لم تُمح صورتي من ذاكرتك بعد. كلّ المغريات لم تكن كافية لتغيّرك ناحيتي. لا الأمّ الجديدة التي أحضرها أبوك، ولا العربة الموشاة بالنقوش الذهبيّة، ولا الأحصنة ولا الولائم. كنت بريئا من خطايا أبيك ووفيا لذكرى الأمّ التي أنجبتك.

بعد لحظات الصّدمة والذّهول الصّامتة، دبّت الحركة في التماثيل الجامدة. تحرّك بي الكرسيّ على حين غرّة، بينما لمحت الأستاذة رنيم من بعيد تجاهد وسط الحشود لتصل إليّ. التفتُّ مبغوتة. كانت جدّتك من دفع بي الكرسيّ في اتّجاه جناح منعزل عن الفناء حيث الفوضى والزّحام. لم أستطع أن أنطق بكلمة بعد أن دلفنا غرفة هادئة مفروشة بالبسط والوسائد. كأنّما أدركتْ أمّ نادر من لقائنا القصير في الفناء أنّني لا أفقه لغتها، فقد انتظرت أن يصل مترجمي -رنيم- وهي ترقبني بنظرة باسمة وأنت مستكين في حضني. ولحسن الحظ لم تتأخر رنيم كثيرا. دخلت لاهثة تعتذر، فقالت جدّتك:

- لقد خمّنت هذا. الولد لم يسافر برضا أمّه، أليس كذلك؟

هزّت رنيم رأسها موافقة، وشرحت لها باختصار عمليّة الاختطاف. عبست جدّتك وبدا عليها الكدر. كان أبوك قد أخفى عنها فعلته. لست أدري أيّ كذبة تفوّه بها، لكن المرأة العارفة لم تصدّقه. أليست أمّا؟ وهل من أمّ لا تفقه مبادئ الأمومة؟ شعرت تجاهها بامتنان جارف. انتابني إحساس بأنّها ستنصفني، وقد تقف في صفّي ضدّ ولدها. لكنّني فزعت، حين وقفت وحاولت أن تأخذك منّي. تكلّمت بلهجة مطمئنة، فترجمت عنها رنيم:

- اتركي الولد الآن.. فقد حان وقت ختانه.

- ختانه؟

صدمت. عن أيّ ختان تتحدّث؟ ولم تكد الدّماء تعود تدريجيّا إلى

وجهي وقد فهمت نوع المناسبة -التي لم تكن عرسا على الإطلاق- حتّى انسحبت على الفور في الاتّجاه المعاكس حين تبيّنت بشاعة ما يهمّون بفعله بك. يقطعون جزءا من لحمك وأجلس مكتوفة اليدين؟ تجتهد رنيم في تفسير تلك العادة الإسلاميّة بكلمات تناسب فهمي وتخفّف من صدمتي، لكنّني أصرّ. أذهب معك. لن أتركك بعد الآن! هل أعيدك إليهم ليخفوك عني أو يرحّلوك إلى حيث لا أجدك ثانية؟ ترمقني جدّتك بنظرة عتاب. تقول عيناها، أنت لا تعرفين طينة النّاس الذين تتعاملين معهم. سمعتهم فوق الشبهات وكلمتهم بألف عهد وميثاق.

وهناك، عند باب الغرفة التي شهدت ختانك، لبثت أنتظر. أشيح بنظراتي عن وجه أبيك الذي يقف وفتاته تلك على مقربة، لا يحدّث أحدنا الآخر. وهل هناك من كلام ليقال؟ كانت تحاول أن تشاغله، تتحدّث إليه من دون انقطاع، تملأ فراغ الصّمت بصوتها. تصلني وشوشتها الرّقيقة وضحكاتها النّاعمة فيزداد غلياني.. غيرة وقهرا وعجزا وحنقا، وقلقا عليك أنت الذي جمعتنا خلف بابك، صامتين. أين الغضب الذي توعّدت أن ألقى به نادرا؟ أين جبال الشتائم وأكوام السّباب التي تدرّبت عليها لأخصّه بها من دون جميع البشر؟ أين حتّى نظرة الاحتقار النّاريّة التي تخيّلتني أقذفه بها فتصيبه في مقتل؟ أتجاهل وجوده قريبا، كأنّما أنفصل عن العالم الذي يكون فيه. هل كنت أخشى علائم السّعادة التي سأقرأها في ملامحه؟

وفي فورة شجاعة مفاجئة، استدرت إليه، فتسمّرت مكاني. ما كانت تلك النظرة التي طالعني بها؟ كانت مزيجا عجيبا من مشاعر متضاربة. حزن وشوق وخوف وانكسار. كانت عيناه تتحدّثان بكلام كثير كثيف، وسرعة بديهتي لا تكفي لأسجّل كلّ ما يقال. في الخلفيّة يستمرّ صوتها، تشويشا عديم القيمة، تلك السّارقة. ولكن ما الفائدة، إن كان قد اختارها طواعية؟ ما معنى ثرثرة الأعين السّخيفة إذا ما كان الفعل مناقضا لها؟ سحبت نظرتي في إعراض، وتشبّثت بباب الغرفة ألوذ به من عجزي وتشوّشي،

حتّى فُتح مصراعاه أخيرا لترتفع الزّغاريد من جديد. تنتشلنا دوّامة الفرح من النظرات ورموزها، ويغادر نادر الغرفة مع عمّه والطبيب بعد أن اطمأن عليك.

أما أنا فقد بقيت عند رأسك بعد مغادرة الجميع. أمسح جبينك وأهدهدك كلّما استيقظت باكيا. قالوا لي، كلّ الأطفال يمرّون بهذه التجربة، وختانه صغيرا أفضل. لكنّ الأيّام التي تلت كانت صعبة عليك وعليّ. جاءت جدّتك بعد زمن لا أدري مقداره، ومعها طبق من الوليمة. تكلّمت بعبارات مبهمة، تشجّعني على الأكل. تقبّلت منها الطعام شاكرة، لكنّني لم أستطع أن أبتلع إلا لقيمات صغيرة. تنهّدتْ ثمّ ضربت على فخذيها وقامت. كنت أدرك أنّها أكثر من يفهمني وإن كان بيننا حاجز اللغة. ظللت في الغرفة حتّى المساء. واستمرّ الصّخب في الخارج حتّى وقت متأخّر. ثمّ جاء نادر. كان وحيدا هذه المرّة. جلس في طرف الغرفة، وبدا متعبا. واصلت تجاهله وتشاغلت بك، فقال بعد صمت قصير:

- عسى ألا تكون السّفرة قد أنهكتك؟

لم أرفع نظرة إليه. وتقافزت كلمات ردّ لاذع على طرف لساني، لكنّني كبحت جماحها.

- يجب أن تنالي قسطا من الرّاحة.

لم أكن حتى تلك اللحظة قد فكّرت في خطوتي التالية. نسيت أمر الدّليل الذي يقبع في جهة الرّجال ينتظر التعليمات. ولم أعالج مسألة المبيت بعد. فكّرت أنّني لم أكن مدعوّة للبقاء، ولم أكن لأرغب بذلك في كلّ الظروف، لكنّني لا أقدر على تركك ولا على أخذك وأنت في تلك الحال!

- لقد نقدت الدّليل أجره وصرفته. ستبقين هنا والأستاذة رنيم.. حتّى نتوصّل إلى اتفاق.

هذه المرّة خرج الوضع عن السّيطرة. رميته بنظرة ساخطة. ها هو يخطّط ويقرّر وعليّ الامتثال؟ هممت بالرّفض، لكنّ إطلالة من النافذة

على الليل الذي خيّم بالخارج جعلتني أتمتم بكلمات اعتراض فاترة. لم يكلّف نفسه عناء الرّدّ. وقف وغادر في هدوء.

نمت تلك الليلة عند طرف سريرك. غلبني النعاس، فتقاسمت وإياك الوسادة. ولم يحاول أحد أن يقاطع نومنا الوديع ذاك. حين استيقظت، كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السّماء، وكنت أعاني آلاما في المفاصل. زفرتُ وأنا أتذكر مجريات اليوم الماضي، وما ينتظرني اليوم. وتساءلت أين ذهبت الأستاذة رنيم كلّ هذا الوقت؟ لم تكن قد ظهرت منذ حدث الختان. وكأنّما قد استدعيتها بتفكيري فيها، فقد وجدتها تدخل عليّ، وقد غيّرت ملابسها واستعارت عباءة بسيطة من أهل الدّار. وبدت مجهدة هي الأخرى. قالت بابتسامة صغيرة:

- سيكون بخير. لا تقلقي.

داعبت خصلاتك المستكينة على جبينك ولبثت ساهمة. سألتها في اهتمام:

- هل تحدّثت إلى نادر؟

أومأت برأسها أن نعم. واستمرّ صمتها. هتفت في جزع:

- رفض أن يعيد إليّ خليل أليس كذلك؟

- من الأفضل أن تتحدّثا.

ندّت عنّي ضحكة ساخرة.

- نتحدّث؟ وهل ترك مجالا لأيّ تبادل بيننا بعد أن خطف الولد وهرب؟ وهل قال ما الذي دفعه إلى ذلك؟ اشتاق إلى حبيبته القديمة؟ فقرّر أن يهديها صبيّا؟ طفلا من غيرها؟!

لم يبد عليها التركيز على ما أقول. أضافت بعد برهة قصيرة بنفس اللهجة الواجمة:

- يجب أن تتحدّثا.

قلت في عناد:

- عليه أن يطلقني الآن، هنا.. وحضانة الولد ستكون لي بالقانون. ولن يمكنه أن يفعل شيئا حيال ذلك. لقد حاول أن يهرب به، لكنّني وجدته ولن أستسلم. لن يبتعد عنّي بعد الآن مترا واحدا.

قلت ذلك وكفي تشدّ على ذراعك في عصبيّة، حتى استيقظت باكيا. احتضنتك أكفكف دمعتك وأذرف عشرات غيرها.

لم أر أباك طيلة الفترة الصّباحيّة، وبقيت رنيم إلى جواري، صامتة معظم الوقت. بدا أن لكلّ منّا أفكارا كثيرة تحتجزه في ظلالها. ثمّ جاءت جدّتك، باسمة وحازمة مثل عادتها. سألت عن أحوالنا، ثم خاطبت رنيم، فترجمت عنها:

- تريدك أن تذهبي معها.

هززت رأسي بعنف. لن أتحرّك من جوار ولدي! لم يكن هناك داعٍ لتعاتبني بنظراتها. لم أكن لأسايرها ولو استظهرت بتعهّد مكتوب ومختوم وعليه شهود! استسلمتْ لرغبتي وأطلّت من الباب لتخاطب صبيّا يلعب في الفناء، فانطلق ركضا يلبّي طلبها. بعد لحظات، حضر نادر.

أدارت جدّتك دفّة الحديث:

- أنت لم تطلّقها أليس كذلك؟ أخذت الولد وجئت به إلى هنا. لماذا كذبت عليّ؟

كانت توبّخه أمامي، كأنّما تطمئنني إلى أنّني لن أُظلم عندها.

- ماذا أقول لعمّك الآن؟ موعد الزّفاف قد تحدّد.. وعالية تنتظرك منذ سنين. ماذا نقول لهم الآن؟

كان مطرقا لا يردّ. فتاته تلك، هي ابنة عمّه إذن. اسمها عالية. تنتظره؟ وماذا كنت أنا؟ بطاقة عبور؟ زواج أبيض؟ تعشّش الغربان في رأسي ويستقرّ بها المقام.

- ما لا أفهمه بعد.. ما سبب فراقكما؟ هل هي سحابة صيف عابرة؟ هل هناك أمل باقٍ بعودة المياه إلى مجاريها؟

لم ينظر إليّ وهو يقول بسرعة مغلقا كلّ الأبواب دفعة واحدة:

- الحياة بيننا انتهت، ولا مجال لمراجعة هذا القرار. أمّا الطلاق، فيمكن أن أطلقها متى أرادت، بشرط أن تتنازل عن حضانة خليل.

صرخت من دون شعور وقد فقدت السّيطرة على رباطة جأشي:

- بل تطلقني غصبا عنك، وابني يبقى في حضني!

ربّتت رنيم على كفّي تهدئني. ولكن أيّ سبيل للهدوء وهو يكيل لي الإهانات من دون تمييز؟ أيّ هدوء وأنا لا أعي أيّ خطأ ارتكبت وأيّ ذنب اقترفت لأستحق منه كلّ هذا النّكران؟

- أنت ضيفة عندنا يا بنيّتي حتّى يستردّ الولد عافيته. وما دام الطلاق لم يحصل بعد، فأمامكما فرصة إصلاح ما فسد. وإذا ما تصالحتما، فإنّي أطمع في أن يستقرّ بكما المقام إلى جواري.

سارع يقول:

- لا يمكنها أن تعيش هنا. بيئتها مختلفة. لم تتعوّد على حياة الجبل الخشنة.

رمقته في ضيق. لطالما ألحّيت عليه حتّى نزور بلدته وعائلته وكان يرفض! هل يوهمهم الآن بأنّني منعته عنهم كلّ هذا الوقت، لأنّ بيئته لا تناسبني؟ قلت برغبة جامحة في العناد:

- لا أعرف، لم أجرّبها بعد!

وبدا كأنّ أحدا غيري نطق بالجملة، فقد استهجنتها بعد أن سمعتها بصوتي تتردّد عاليا في فضاء الغرفة. كأن والدك يحاول طردي وأنا أصرّ على البقاء! لكنّه كان أكثر عنادا، استمرّ يقول:

- وعالية؟ لن ترضى بأن تكون لها ضرّة. وأنا وعدت عمّي، وسأفي بوعدي.

وعد عمّه؟ هل هكذا يتمّ الزّواج في بيئتك أيها الجبلي الجلف؟ حبست الشتائم في حلقي واستسلمت لصمت مجبر، حتى لا تنفجر الثورة. مدّت لي جدّتك طوق النّجاة حين قالت بحزم:

- هل انتهيت؟ يمكنك الخروج الآن.

غادر مكانه وصفق الباب من دون كلمة إضافيّة.

- سأفهم ما الذي يحصل هنا.. أعدك أنني سأفعل!

ليتك تفعلين يا سيّدتي، ليتك تفعلين فأفهم بدوري! وقفت جدّتك متثاقلة. داعبتك ثمّ لحقت بولدها إلى الفناء. التفتُّ إلى رنيم بنظرة تقول: ألم أخبرك؟ ما من حديث بيننا! لكنّها همست فجأة:

- تحدّثي إليه على انفراد. هناك أمر يخفيه.

- أيّ أمر؟ أنت تعلمين إذن؟

- حكى لي بالأمس.. وحاولت إقناعه بالمصارحة، لكنّه مصرّ على الكتمان.

أخذت الغربان تنقر في رأسي في حماس متزايد:

- لا حاجة لي في أن أعرف، إن لم يرني أهلا لسرّه!

طويلا بعد أن غادرت رنيم مكانها، بقيت أقلّب الأمر في رأسي في ضيق وحيرة. ما الذي يمكنه أن يخفيه بهذا الحرص عن أقرب الأقربين، ويحدّث به المحامية؟ أيّ سرّ يجعله يترك زوجته وعمله وحياة مستقرة هانئة، ويفرّ كأنّ العفاريت على أعقابه؟ لمعت الفكرة في رأسي. هل يكون قد ارتكب حماقة ما؟ جريمة؟ وهرب من فرنسا بسببها؟ لم يكن هناك من تفسير منطقيّ غير ذلك. أتراه خجل من نظرتي إليه؟ من تقدير أمّه وأهله؟ أيّ نوع من الجرائم هي؟ تضرب الغربان بأجنحتها بقوّة في رأسي، وتزداد الصّورة قتامة. سرقة؟ قتل؟ لم يعد بوسعه أن يطأ الأراضي الفرنسيّة خوفا على حياته، قدّر أنّني لن أقبل باستمرار معه ففرّ في عتمة الليل؟ هو ذاك! هو ذاك! كنت متيقّنة من صواب تشخيصي. وبدأ كلّ شيء

يتّخذ صبغة منطقية. وعادت إليّ بعض السّكينة. عجيب أن تنتابني السّكينة وقد اكتشفت أنّ زوجي قد ارتكب جرما! لكنّه لم يهجرني لأنّه كرهني أو لعيب فيّ! كلّ شيء آخر يمكن التّعامل معه.

كنت هادئة بقيّة النّهار، وقد ذهب عنّي حنقي السّابق. وعزمت على الأخذ بنصيحة رنيم والتحدّث إليه على انفراد، وقد صرت أتناول المسألة من منظور مختلف. لكنّ عمّاتك كنّ لي بالمرصاد. تقاطرن واحدة إثر الأخرى على غرفتك، يقبّلن ويلاعبن، ويقدّمن الهدايا، واكتفين بابتسامات باهتة تجاهي. كنت أمّ الولد في نظرهنّ، لا زوجة شقيقهنّ. وربّما كان نادر قد عبّر عن نيّته الطلاق، فآثرن ألا تتوطد عرى المودّة بيني وبينهنّ، ما دام الفراق وشيكا؟ ثمّ جاءت تلك الـ«عالية»، فاحتفين بها وتباسطن معها متجاهلات وجودي معهنّ في الفضاء نفسه! كنت مثل دميّة القشّ المركونة في الزّاوية، لا يُسمع لها نبض ولا نفس. ولعلّهنّ تساءلن بينهنّ بلغتهنّ التي لا أفقه منها حرفا، ما لها لا تنصرف وتتركنا وشأننا؟ وقد لازمت مكاني في جلد أحسد عليه، كاتمة غيظي ما وسعني ذلك.. أترقّب انفضاض جمعهنّ ووصول أبيك.

وصل، مثل القمر، بعد أن توارت الشمس بالمغيب. ولم تكن الغرفة قد خلت لنا بعد! بعد عمّاتك، جاءت بنات عمّ أبيك، شقيقات عالية. وكنّ جميعهنّ، بلا استثناء، يمررن بك، يسلّمنك ورقة نقديّة وقطعة حلوى، ينكشن شعرك ويقرصن وجنتك، ثمّ يتكتّلن على المقاعد الواطئة ويستسلمن لثرثرة مستمرّة! حين دخل نادر، كان صبري على وشك النّفاد ورأسي قد شارف على الانفجار. تعلقت نظراتي به مثل غريق يتعلّق بقشّة. قال بضع كلمات مرحة، ضحكن لها.. ثمّ انسحبن بهدوء، فتنفّست الصّعداء.

جلس من الجهة الأخرى، يفصل بيننا السّرير الذي ترقد عليه. بحثت عن الكلمات التي تدرّبت عليها لساعات، وتاهت منّي ساعة احتجتها! ربّما

كان نادر أيضا يفكر، أيّ المفردات أنسب لقطع حبل الصّمت، حتّى قلت بصوت متخاذل:

- لقد عرفت.. بما حصل معك.

رفع رأسه مثل الملدوغ، واتّسعت عيناه من وقع المباغتة. ردّد غير مصدّق:

- عرفت؟ من أخبرك؟ الأستاذة رنيم؟

نفيت بسرعة:

- لقد حزرت. كان عليّ فقط أن أفكّر بصفاء وأتخلّص من تشويش المشاعر الجريحة.. لأدرك أنّ ما دفعك إلى الرّحيل بذلك الشكل لا شكّ أمر جلل، أقوى ممّا تطيق.. لم نكن زوجين مثاليين، لكنّني على الأقل واثقة بأنّ ما جمعنا كان حقيقيّا. لا يمكنك أن تمحوه بنفخة فيتبدّد في الهواء!

أطرق متأثّرا. كان على وشك البكاء. قال بصوت متهدّج:

- أمّي.. وأخواتي.. وعمّي.. لا يجب أن يعلموا..

سألته في حذر:

- وعالية؟

- عالية تعلم.

تصاعد الدّم حارّا إلى رأسي. طبعا، يجب أن تعلم. الزّواج شراكة في السّراء والضّراء، والصّراحة بين الشّركاء مطلوبة! تدفّق الكلام من شفتيه متابعا:

- حين علمت أنّ ستة أشهر فقط هي كلّ ما تبقى لي، لم يخطر ببالي إلا أن أهديها لأمّي. ستّة أشهر أكون فيها عند قدميها، أسعى في قضاء حاجاتها وأمدّ جسدي بساطا تمشي عليه. ستّة أشهر تكون محض فرح، أحقّق فيها ما عجزت عنه منذ سنين.. تمتّع فيها نظرها بمرأى ابنها

وحفيدها، كليهما موفوري الصّحة والعافية. لا أريد أن يكون كلّ ما يأتيها منّي أعباءً وهموما ووجعا في الرأس. سأهديها عرسا كما تحبّ، ترقص فيه إلى الصّباح. وأوقاتا جميلة وحميميّة تنضح بالحبّ والاهتمام. هذه السّتة أشهر هي كلّ ما لديّ. ما قبلها وما بعدها كان وسيكون حسرة لها في القلب وهموما لا تنتهي. لكنّ عالية ستحمل معها الحمل. ستهتمّ بها وبالصّغير.

مصدومة كنت، لا أعي ما يقول. ردّدت متأتأة:

- ستّة.. أشهر؟

- بل خمسة ونصف.. مضى أسبوعان مذ أعلن الطبيب الأجل.

يا للهول! ما أسمعه يدكّ سكينتي دكّا. ترتجف شفتاي وأنا أمعن التقصّي، علّه يفصح عرضا:

- وأنا؟ وأنا في كلّ هذا؟

- أنت! وهل هناك ما يُتعبني ويسحقني من الدّاخل غير التفكير فيك؟

كأنّ دموعي ودموعه رهن تلك الكلمة. ننفجر باكيين في وقت واحد. كلّ منّا يشهق وحيدا على الضّفة المقابلة من السّرير. يفصلنا تعقيد سقطنا فيه سهوا أو عمدا، لكنّ خيوط البكرة تلتفّ وتتشابك إلى ما لا نهاية.

- ماذا.. ماذا كان ليحصل لو أنني بقيت هناك؟ هل سيكبر خليل من دون أن يعرف أصله وأهله؟ من دون أن يتعلّم لغة أبيه؟ من دون أن تكون له جذور يأوي إليها؟ يدخل عليه زوج أمّ، وإخوة غير أشقاء، يكون البطة السّوداء بينهم؟ يشقى بأصل أبيه الذي رحل عنه صغيرا وخلّفه يتخبّط إزاء مجتمع لا ينصفه؟ لا تنظري إليّ هكذا.. أنت ستتزوّجين من جديد، ستكون لك عائلة أخرى. وخليل، سيكون في أمان في أحضان أناس يحبّونه ويحفظونه كقرّة أعينهم..

قاطعته مزمجرة:

- هـل اتّخـذت قـرارا عـنّي؟ رمّلتـني وزوّجتـني بينمـا زوجـي مـا يـزال أمـام عيـني نابضـا بالحيـاة؟ أيّ قلـب تحملـه؟ تـوزّع المشـاعر عـلى النّـاس.. هـذا نصيبـه أن يفـرح، وهـذا مصـيره أن يشـقى؟ دع لي القـرار وانظـر.. ربّمـا كنـت لأختـصر عليـك الطريـق وأهجـرك مثـلا! ربّمـا كنـت مـن يسرّحـك ويرسـلك إلى أهلـك! توقـف عـن لعـب دور البطولـة في مخيّلتـك!

ألهـث، يعلـو صـدري ويهبـط في اضطـراب. ألقـي بكلمـات حارقـة تلهـب قلـبي في طريقهـا. وسـيول الدّمـع لا تتوقّـف. يُفتـح البـاب فجـأة، جدّتـك تـأتي مهرولـة عـلى صـوت صراخـي. ترمقنـا في غضـب مكبـوت وتوجّـه كلمـات ناهـرة لأبيـك فينهـض مغـادرا. لعلّهـا حسـبتنا نواصـل شـجارا بدأنـاه في الصّبـاح. ومـا أن اختليـت بنفـسي حـتّى وضعـت رأسي عـلى السّريـر وانحرطـت في بـكاء مريـر. بكيـت أبـاك وبكيـت نفـسي، وبكيتـك.

*****

عزيزي خليل،

يطلع عليّ نهار جديد، وأنا امرأة أخرى غير التي باتت ليلتها. خرجت من غرفتك وتركتك نائما، على غير عادتي، وقد غادرني الهوس باختطاف جديد. جست عبر الفناء المقفر بعد صخب الاحتفال، أقتفي أثر أبيك. بدا المكان عاريا من كلّ زينة، وحاقت به كآبة غريبة، هي حتما صدى لما جاش في نفسي. لم أكن قد عقدت العزم على شيء، لكنّ ما قيل بالأمس لم يكن بالإمكان تجاهله. فكرت، هل يمكن لواجب مواساته أن ينسيني ما ألحقه بي من أذى؟ كنت أحاول إنشاء أولويّات في مشاعري. والغضب لم يكن مسموحا له بتصدّر القائمة، لأنّ مصاب أبيك كان أعظم من كلّ ما تخيّلت. وعتاب شخص يرى الموت يلتهم المسافات ليدركه لم يبد واقعيا آنذاك.

مشاعر الغيظ والقهر والهوان والغضب والغيرة.. كلّها انصهرت في بوتقة واحدة في أثناء نومي وذابت، ولم تخلّف في نفسي إلا بقايا ذريّتها رمادا حين نفضت لحافي في الصّباح. تعلم أنّني نطقت بالأمس بما لا أعني، حين صفعت والدك بكلمات قاسية. لم تكن قسوتها إلا صدى للجرح النّازف الذي غار عميقا في صدري. ولكنّني اليوم امرأة أخرى.

عبر باب المطبخ الموارب وصلتني ضحكاتهم. ضحكات عفويّة صافية، لأم وابنها الذي هبط في حضنها بعد طول غياب. تتبّعت الصّوت متوجّسة، حتّى وصلت. هل كان عليّ أن أطلع بعيني على موقف كهذا لأدرك ما عناه؟ لو أنّها كانت تعلم ما أصاب صغيرها، هل كانت البسمة لتعرف طريقا إلى ثغرها؟ أيّام قليلة إضافيّة من الحبّ والسّعادة والحبور، قبل أن يظهر المرض للعيان، فتدلّ عليه أعراضه وبصماته التي يخلّفها

على الجسم والرّوح.. هذا ما أراده.

انعكست أشعّة الشمس على هيكل المقعد المعدن، في لمعان شدّ نظرات من بالدّاخل إلى القادمة المتطفّلة التي كنتها. وقف نادر وجاء باتجاهي، ومن دون تشاور بيننا، دفع الكرسيّ حتّى الشرفة الخلفيّة. جلس في هدوء على مقعد بلاستيك ولم يقل حرفا. لعلّه خشي بعد ردّة فعل الأمس أن أتفوّه بكلام مجنون أمام والدته. لم تكن لتفهمني على كلّ حال!

- المكان هادئ هنا.

قطعتُ الصّمت في محاولة لرأب الصّدع الذي شققته بالأمس.

- هذا البيت بناه جدّي رحمه الله.. هنا ولد أبي وعمّي وتزوّجا، وولدت شقيقاتي، قبل أن ننتقل إلى العيش في عنّابة. لكنّه مرتبط أيضا بكلّ ذكريات الإجازات والمناسبات العائليّة والمشاعر الجميلة.. وهنا.. هنا.. قُتل أبي أمام عينيّ...

دسّ كفّه في جيب سرواله وأخرج الرّصاصة. فغرت فمي مبهوتة. لم أكن قد انتبهت لاختفائها من الإطار. كنت مفجوعة في ولدي فلم ألتقط التغييرات التي طرأت على القطع الجامدة.

- في هذا الفناء كانوا.. وخلف الباب اختبأتُ. تمّ الأمر خلال ثوانٍ وجيزة. حرّكتُ دفّة الباب، فتهاطل مطر الرّصاص في جنون. ثمّ انتهى كلّ شيء. لم يعلموا قط أنّ الهاربين الذين كانوا على أعقابهم، قد تسلّقوا الجبل تحت ستار الظلام وباتوا مختبئين بين الصّخور النّاتئة، يرتجفون من البرد والرّعب حتّى طلع علينا نهار يوم مضرّج بالدّماء. عمّي كاد يجنّ. أخفى الغرباء وتكبّد في سبيل حمايتهم العناء، ليلقى أخاه قتيلا! لو تأمّلتِ، لرأيتِ أنّ الأمر قُدّر له أن يكون.. كانت الأحوال مضطربة في المدينة. سافرنا من عنّابة قبل ذلك بأيّام، بعد أن غدا الوضع مستحيلا. نسمع كلّ يوم عن اغتيالات ومداهمات. وكان الرّعب ساريا مثل ثعبان هائل

يلتفّ على قلوبنا. نغلق أبوابنا ونتلصّص على الشارع من الشيش الخشب المغلق، كلّما تناهى إلينا دويّ إطلاق رصاص في الشوارع المجاورة. ركدت سوق العمل، ولم يعد أبي يجد ما يصنعه في ظلّ الفوضى المستحكمة. لذلك اتّخذ قرارا بالرّكون إلى ديار الأجداد. كان دافع خفيّ يسيّره في اتّجاه قدره. لعلّه نفس الدّافع الذي حدا بي إلى الهبوط هنا هبوطا اضطراريا حين دنا الأجل؟

ندّت عنّي زفرة طويلة. كأنّ كلماته تتكدّس ثقلا على صدري. فيواصل نزف الذكريات:

- كنت ولدا عاقّا طوال سنواتي الثلاثين! كلّ أمّ تنتظر أن يكبر أبناؤها ويحملوا عنها أعباء الحياة. ترنو إلى الرّجل الذي يزداد تعداد سنوات عمره، وتتوقّع أن يحطّ النّضج فوق كتفيه في أيّ لحظة! لكنّ ذكرها الوحيد يستمرّ في مراهقة متأخّرة. لا تسمع على لسانه إلاّ التذمّر والشكوى، ولا ترى في مقلتيه إلا العبث واللامبالاة. يزحف الشيب إلى فوديها ويفرد رداءه على مقدّمة شعرها، ولا شيء يهوّن عليها ترمّلها الباكر. هل كان عليّ أن أسافر وأغوص في غابة صبّار لأقرأ بعين أخرى آمالها وأمنياتها؟ مع كلّ وخزة شوكة تنغرس في جسدي يزداد اليقين الملحّ بضرورة العودة على الأعقاب. أن أوفيها حقّها من البرّ ما بقي في جسدي عرق ينبض. هل تفهمين ما أعني؟

أهزّ رأسي في صمت. لو كنت كلّفت نفسك عناء الشرح لكنت فهمت منذ الوهلة الأولى. لكنّك أبيت إلا أن تقذف بي خارج القارب. قلتُ فجأة:

- لا أريد أن أنزل من القارب.

نظر إليّ مستغربا. فأردفت بسرعة:

- هل فكّرت في خليل في كلّ هذا؟ جميل أن يكون برّ والدتك يشغلك بهذا القدر.. لكن من حقّ ولدك أيضا أن ينشأ بين أبويه، ولو كان قدره أن يفقد والده مبكّرا، فلماذا يفقد أمّه في نفس الوقت؟ أريد أن أكون

جـزءا مـن الخطّـة.. إلى النّهايـة.

ردّ متحفّزا:

- وبعـد ذلـك؟ حـين تـأتي.. النهايـة، ترحلـين بـه إلى فرنسـا؟ وينـسى أصلـه ووطنـه؟ ينشـأ بعيـدا عـن جدّتـه وعمّاتـه وإرثـه الثقـافي والحضـاري واللغـوي؟

تغضّـن جبيـني في ضيـق. كان عـليّ طمأنتـه. لـم أكـن واثقـة ممّـا أنويـه بعـد ذلـك. لكنّـني اندفعـت:

- يمكنـني أن أسـتقرّ هنـا، مـع عائلتـك. ليسـت لـديّ عائلـة أركـن إليهـا في فرنسـا، غـير أمّـي. إن توصّلـت إلى إقناعهـا، فسـتحضر للعيـش معنـا. وإلاّ زرتهـا مـرّة أو اثنتـين في السّـنة. وحرصـت عـلى أن يتعلّـم خليـل لغتيـه بنفـس القـدر. يكـون جزائريّـا وفرنسـيّا. سـيحمل في قلبـه مزيـج الحضارتـين، كمـا تحمـل جيناتـه خليـط نطفتـين.

- هل تعدينني؟

- أعدك!

تنهيـدة ارتيـاح مـن قلـب مثقـل بالهمـوم. همـوم اليـوم والغـد. الفرحـة في عـين الأمّ ومسـتقبل الولـد. أمّـا هـذا الجسـد فهـو ذاهـب إلى هـلاك.

*****

الأربعاء ١٩ ديسمبر ٢٠٣٥، الساعة السابعة مساء،

قلب آخر صفحة من الرسالة الأخيرة، وبقي محدّقا في الورق في جمود. سمع خطواتها تقترب، فأعاد ترتيب الأوراق في المنضدة كما كانت واستقام جالسا.

- العشاء أصبح جاهزا.

قال في وجوم:

- لم تفي بوعدك له!

انتبهت إلى الرزمة التي عادت مكدّسة بعضها فوق بعض. أنهى القراءة إذن.

- بلى فعلت.. ما وسعني ذلك! لكنّ الظروف لم تكن مواتية طول الوقت.

- ما الذي حصل.. بعد اتّفاقكما ذاك؟

جلست، تضمّ قبضتيها عند حجرها، وقالت مسترجعة ذكريات بعيدة:

- بقيت هناك إلى جواره. أرسلت إلى أمّي أعلمها بقراري. ورغم كدرها، فإنّها لم تعارضني. لكنّها رفضت الانتقال للعيش معنا في الجزائر. كانت تزورنا من حين إلى آخر. ولم تطأ قدماي الأراضي الفرنسيّة ما دام أبوك على قيد الحياة.. كانت أيّاما فريدة، عببنا فيها من الحياة بنهم. كلّ يوم إضافيّ هو عطيّة غالية. وحين اقتربت الستة أشهر الأولى من الانتهاء، تملّكني الجزع. كنت أخشى أن يكون كلّ يوم نستقبل صباحه هو اليوم الموعود. وكان نادر يبدأ يومه بصلاة ليل طويلة قبيل الفجر، تشهد على صدق امتنانه لربّه على تأخير الأجل.. حتّى مرّت ستّة أشهر، وسبعة وثمانية، ثمّ سنة.. من دون أن تبدو عليه علامات انهيار حيويّ

أو استسـلام لمـرض فتّـاك. نعـم، كان يعيـش بفضـل المسـكّنات. نعـم، كان يتحـدّث طويـلا إلى أشـباح هلوسـته في عمـق الليـل. لكنّـه يبـدو طبيعيـا متماسـكا في أثنـاء النّهـار، بشـكل لا يثـير شـكوك المحيطـين بـه. كنّـا نستسـلم أحيانـا لروتـين حيـاة أزواج عاديـين، فنتشـاحن ونتشـاجر.. ثـمّ نثـوب إلى رشـدنا ونعـوّض عـن تلـك السّـويعات الـتي أهدرناهـا في الخصـام.

- كم استمرّ ذلك؟

- ثلاث سنوات إضافيّة!

- كان الطبيـب النفـسيّ محقّـا إذن؟ حظـي بجـوّ عائـليّ مريـح مـدّ في عمـر مقاومتـه.

هزّت رأسها مؤيّدة وتشاغلت بسكب القهوة في الفناجين الصغيرة.

- كان نـادر قـد اقتـنى أرضـا زراعيّـة في الجـوار مسـتثمرا مدّخراتـه القليلـة، وكنّـا نقـضي جـلّ وقتنـا هنـاك. حـتّى جدّتـك، كانـت قـد أحبّـت فلاحـة الأرض وتعهّدهـا بالرّعايـة، فانكببنـا جميعـا عـلى اسـتصلاحها بجـدّ.. غرسـنا الأشـجار المثمـرة وزرعنـا الحبـوب، وفي كلّ مـرّة كنّـا نفعـل، كان نـادر يمسـك بالحبّـات في حنـوّ بالـغ ويهمـس إليهـا بـأن تنبـت سريعـا قبـل أن يوافيـه الأجـل. كان يـودّع الأشـياء ويبثّهـا الكثـير مـن المشـاعر، لعلّـه لا يلقاهـا مجـدّدا. يتسـاءل في كلّ موسـم حصـاد إن كان سـيعيش حـتّى موسـم الزّراعـة، ويتسـاءل في موسـم التقليـم إن كان سـيرى الأغصـان مخـضرّة مـرّة أخـرى.. يبـكي في تأثّـر حـين تنضـج الخـضراوات ويحـين قطافهـا، ويكـون أوّل المسـتيقظين يـوم بدايـة الحصـاد، كي يمـلأ عينيـه مـن مشـهد سـنابل القمـح المنحنيـة قامتهـا ثقيلـة بحملهـا. يقـول في نشـوة: «هـل رأيـت؟ هـذا حصـاد آخـر نتمتـع بـه معـا!». لـم نُـثرِ مـن الفلاحـة، هـذا مؤكـد، بـل أحيانـا مـا كنـت أنفـق عـلى نفـسي مـن الحـوالات الـتي ترسـلها أمّـي مـن فرنسـا. لكنّهـا كانـت أجمـل أيامنـا عـلى الإطـلاق، رغـم شـبح المـوت المترصّـد. ولـم يكـن يفسـد متعتهـا عـليّ غـير وجـود زوجتـه الثانيـة عـلى مقربـة!

- هل تزوّج حقًّا؟

- ابنة عمّه، نعم! كانت قد تجاوزت الخامسة والثلاثين، وهي في عرف القرية قد غدت «عانسا». لذلك كان عليه أن يفعل.. إرضاء لعمّه، ووفاء بوعد والده. ولم أقدر على تفهّم ذلك على الإطلاق. الضرّة ضرّة، ولو كان الرّجل محكوما بالموت! لم يكن لإحدانا أن تحبّ الأخرى، لكنّ العلاقة كانت مسالمة ظاهريًّا. بل كنّا نبدو منسجمتين ومتعاونتين لكلّ مشاهد خارجيّ، بشكل يثير الإعجاب والحسد! فقد كانت كلتانا شريكة في السرّ الصغير، رغم أنّني لم أغفر له أن استأمنها عليه قبلي، ورغم أنّني أشكّ في أنّ جدّتك قد أدركت حقيقة مرضه بفراسة الأمّ التي لا تخطئ. وكنت أغار منها.. جدًّا. كانت بينهما حميميّة اللغة التي لا أفهمها، وذكريات طفولة سحيقة البعد، وميراث حضاريّ وثقافيّ وعائليّ لا يستهان به.. وأنا كنت الأجنبيّة الدّخيلة! لذلك فقد عزمت على أن أصبح واحدة منهم. تعلّمت العربيّة. جدّتك كانت معلّمة جيّدة. نبقى أنا وهي وجها لوجه، لا أحد يترجم بيننا، فإمّا أن يُقوَّم لساني أو يستقيم فهمها. ولكنّها كانت معرضة عن لغتي، وأنا كنت مقبلة على التعلّم بفعل الغيرة والرّغبة في التوحّد مع محيطي الجديد، فلا أبقى الغريبة إلى الأبد. تعلّمت إذن لهجة أهل أبيك، ودرّسني نادر بنفسه العربيّة الفصيحة، حتّى أتقنت قراءتها وكتابة حروفها. وخلال وقت وجيز تمكّنت من تصفّح الجرائد المحلية ومطالعة كتب الأطفال التي يشتريها أبوك من أجلك..

تركت ديانا مكانها وتناولت من المنضدة القريبة ألبوم صور قديمة، كانت قد أخرجته من مكمنه قبل وصول خليل. ولعلّها أمضت ساعات الليالي الفائتة تناجي الخيالات التي يضمّها بين دفّتيه. أبقته بين كفّيها لبرهة وقالت، بينما تتطاول نظرات خليل لاكتشاف ما يحجبه الغلاف:

- وفي تلك الفترة وقفت على قدميّ من جديد.. واستغنيت عن الكرسي..

- حقًّا؟ كيف حصل ذلك؟

- هناك أزمات تدكّنا.. وأخرى تُخرج من الأعماق أفضل ما فينا. وتلك الأزمة كانت من النّوع الثاني. كنت قد جرّبت العلاج الطبيعيّ لسنوات من دون فائدة. ثمّ استرجعت بعض العزيمة حين رأيت أباك يقاوم ظروفه ويواجه الموت.. أبديت بعض التقدّم آنذاك، لكنّني لم أستمرّ كثيرا. تمكّنت من الوقوف بضع مرّات.. لكنّني بقيت أعتمد على العجلات في تنقّلاتي. ثمّ، حين ضربت تلك الأزمة، أحسست بعظم المسؤولية التي تنتظرني. كنت سأبقى أنا وأنت، وحدنا، خلال وقت قصير! والدك أيّامه معدودة، وجدّاتك سيّدات طاعنات في سنّ تتهدّدهن أمراض الشيخوخة. هل يمكن أن نظلّ في حاجة إلى من يمدّ لنا يد المساعدة على الدّوام؟ كنت أنت حافزي هذه المرّة.. ونعم الحافز! من أجلك، من أجل أن أكون قادرة على العناية بك، واجهت ضعفي وتحدّيت عجزي. لم أعتمد على مركز للعلاج أو على معدّات تهمّ من هم في مثل حالتي، بل ارتجلت بما توافر في محيطي. وحيدة في الزّريبة، كنت أمضي ساعات، أحاول السّير على امتداد الحواجز الخشب التي حوصرت خلفها قطعان الخراف والبقر، لا يؤنسني غير الثغاء والخوار!

ضحكت، وهي تفتح الألبوم. قلّبت بضع صفحات قبل أن تتوقّف عند مشهد فتاة شابّة ترتدي عباءة سماوية باهتة، وتجمع شعرها تحت غطاء رأس مزركش. كانت تنحني في منتصف حقل قمح ناضج وتبتسم للعدسة. كانت ديانا أخرى. ديانا شابّة، فلاحة قرويّة.. وسعيدة. ضحكت وهي تناول ابنها الألبوم:

- ألا يليق بي هذا الشكل؟ ليت الزمن يعود إلى الوراء.. وأبقى هناك إلى الأبد!

سألها في اهتمام:

- لماذا لم تفعلي؟

- كانت ابنة عمّه عالية تجتهد لتحتلّ المشهد وتثبت حضورها. كانت

تطبخ، وتتفوّق عليّ في الطبخ على الدّوام. حاولت أن أتعلّم أصناف الأكل التي يحبّها نادر من أمّه، لكنّني كنت أفشل. أعترف، ليس الطّبخ من مهاراتي، وأنت أوّل العارفين!

ضحكا. كانت ضحكتها رثاء لحالها، وضحكته مواساة حانية.

- ذهبتِ لأنّك خسرت «معركة» المطبخ؟ هناك معارك أخرى في «الحرب» من أجل البقاء!

- كنت أقنع نفسي بأنّه لا ضير من ترك تلك المهام لها.. الطبخ والتنظيف والغسيل والحياكة.. فأفرّغ وقتي من أجل العناية بك وبأبيك. لكنّ محاولاتها تلك كانت تجعلها تغنم مساحات من اهتمام نادر، وزخّات من ثناء جدّتك وتقديرها. وحزّ في نفسي أن أكون مرّة أخرى زوجة خرقاء بلا فائدة! وحين سقط نادر طريح الفراش في مرضه الأخير، تفانت في رعايته والسّهر على راحته.. رغم حملها الذي كان في شهوره الأخيرة.

- آه! لديّ إخوة غير أشقاء إذن!

- أخت. اسمها فائزة، على اسم خالة أبيك.. أمّ عالية. وضعتها بعد رحيل نادر بوقت قصير. كانت تعلم أنّ زوجها لن يعيش طويلا، لكنّه فرصتها الوحيدة -ربّما- لتصير أمّا.. حتّى لو اضطرت لتربية الطفل وحيدة. وربّما لو أسعفها الوقت لحرصت على إنجاب المزيد! لكنّ مشيئة الرّبّ قضت بألا تحبل على الفور. بالنسبة إليّ، كنتَ كافيا جدّا. خشيت ألا أكون قادرة وحدي على إيفائك نصيبك من الحبّ والاهتمام الذي يفترض بالأبوين معا تقديمهما.

قبل وفاته بأسابيع، اكتشفت أمر الرّسائل. كان يكتبها في هدأة اللّيل، فيخلو بك ويناجيك على الورق. وفي إحدى المرّات، غلبه الألم في أثناء الكتابة. أيقظني أنينه الشديد، فهرعت إليه أسنده وأحاول التخفيف عنه. حين مرّت النّوبة، أشار إلى كومة الورق التي تكدّست إلى جواره، وأوصاني بحفظها من أجلك. بعد ذلك، لم يعد قادرا على الجلوس أو الكتابة أو

ممارسة أيّ نشاط يتطلّب جهدا وطاقة.

وفي ليلة شتويّة باردة، رحل والدك في وقت متأخّر.. قبيل الفجر. كان قد تألّم كثيرا. لم تعد المسكّنات ذات فائدة. قضى أيّامه الأخيرة يتلوّى ويئن ويثنيه الوجع. انقطع عن الأكل، فوصل طبيب القرية وريده بالسّائل المغذي. وكنّا نتداول على السّهر إلى جواره.. أنا وعالية وجدّتك. نراقب سحنته الشاحبة ووجنتيه الغائرتين وشفاهه الجافّة المتشققة.. الأعين التي تذوي وتغادرها الحياة. نرطّب فمه بقماشة مبلّلة، نحرص على نظافته الشخصيّة، ونبكي طالبين له الرّحمة. وحين جاءت تلك اللحظة الحتميّة وتسرّب من صدره الرّمق الأخير، كنّا مجتمعين عند رأسه. لم يكن يشعر بوجودنا أو يهتمّ له، كان يهذي بكلام كثير لا نفقه له معنى، ثمّ صعدت روحه إلى بارئها، مخلفا أمّا ثكلى، وأرملتين وطفلين يتيمين.

حاولنا أن نستمرّ على النّسق نفسه بعد ذلك. لكنّ هذا لم يكن ممكنا. كان الحزن قد رفع جدارا عازلا بين جدّتك والعالم الخارجي. ما عاد للأعمال الصغيرة نفس معناها القديم لديها. كانت قويّة من أجل ابنها. أخفت قلقها وحسرتها في صدرها حتّى لا يشعر بأنّ ما اجتهد في إخفائه كي لا يكدّرها، قد كان مكشوفا ناصعا أمام عينيها. لكن بعد رحيله، بدا أنّ جبالا من الألم قد حطّت الرّحال بين قسماتها دفعة واحدة في فجر ذلك اليوم. شاخت عشرين عاما على حين غرّة. ورغم محاولاتي وعالية أن نواسيها ونخفّف عنها، فقد كنّا كمن يحرث البحر. أوصدت قلبها على ذكرى الغاليين -نادر وأبيه- مثلما تحفظ الورد المجفّف بين صفحات الكتب، وطردت خارجه كلّ أسباب الحياة اليانعة. لم تكن قد لبست السّواد ولا أعلنت الحداد بعد رحيل زوجها. شمّرت على السّاعد ونهضت بمسؤولياتها الجسام، فجهّزت البنات وزوّجتهنّ، وعلّمت الولد وزوّجته ورأت أحفادها منه. أمّا وقد رحل، فقد آن لها أن تدخل مرحلة الحداد المؤجّلة. كان حزنها مضاعفا ومكثّفا، مثل شاي ثقيل غلى طويلا على نار جمر هادئة حتّى استحال سوادا. ثمّ رحلت عنّا بدورها.. بعد سنة واحدة

مـن وفـاة نـادر.

لعلـك تتخيّـل، أنّ الحيـاة في بلـدة أبيـك غـدت غـير ممكنـة بعدهـا. لـم تعـد لي صلـة مباشرة بـأيّ سكّانها. مـن أجـل مـن أبقـى؟ وإلى مـن أركـن؟ كانـت زوجـة أبيـك الثانيـة قـد أخـذت عـلى نفسـها أن تنهـض بـكلّ أعبـاء الفلاحـة وتديـر مزرعـة العائلـة، بعـد أن شـاخ والدهـا بـدوره وتفرّقـت مـن حولـه البنات بزواجهـنّ، إلّاهـا. كنـت أراهـا تدخـل وتخـرج آمـرة ناهيـة، تتذمـر مـن ثقـل مهامهـا، تشـدّ الطفلـة الرضيعـة بوشـاح عريـض إلى ظهرهـا وتقصـد الحقـل منـذ طلـوع النّهـار. كانـت ذات همّـة وشـطارة، وكنـت أبـدو عالـة عليهـا. لـم أكـن أملـك نشـاطها وتفانيهـا، وقـد فـترت حماسـتي تجـاه الأرض بعـد وفـاة أبيـك. نظراتهـا كانـت تقـول: ارحـلي، لـم يبـق مـن مسـوّغ لمكوثـك!

في تلـك الفـترة، كنـت أبـكي كثـيرا. أفتقـد أبـاك بشـدّة، فأفتـح رسـائله إليـك وأقـرأ، أسـتزيد مـن صحبتـه. ورغـم أنّـني كنـت أعـرف كلّ مـا ورد فيهـا تقريبـا، إلّا أنّـه خصّـك بخلاصـة أفـكاره وخبرتـه في الحيـاة، مـا جعلـني أقرأهـا بتأثّـر وشـغف كأنّـني أكتشـف الأحـداث للمـرّة الأولى. بعـد ذلـك، شرعـت في الكتابـة إليـك أيضـا. لا أدري لمـاذا انتابتـني حاجـة ملحّـة للتوثيـق لتلـك التّجربـة قبـل أن تتبخّـر تفاصيلهـا مـن رأسي. انهمكـت أكتـب وأكتـب، كأنّمـا أصرف طاقـة الحـزن في اتّجـاه آخـر.. حـتّى وصلـت إلى العهـد الـذي قطعتـه عليـه بالبقـاء في الجزائـر. لـم أسـتطع أن أكتـب حرفـا بعدهـا. كلّمـا قـرأت السّـطور الأخـيرة مـن رسـالتي، غبـت في تفكـير متشـعّب، حـول الخيـارات المتاحـة.

كنـتَ قـد بلغـت الخامسـة. تتكلّـم العربيّـة غالبـا، وتفهـم الفرنسـيّة الـتي أخاطبـك بهـا في خلواتنـا، وتشـبه صبيـان الجـوار في شـغبك وشـكلك القـرويّ المغـبرّ، رغـم ملامحـك الأوروبيّـة. وكان عـليّ أن أتخـذ قـرارا. إن تأخّـرت في أخـذك إلى فرنسـا بضـع سـنوات أخـرى، فقـد تتعـثّر في تعليمـك هنـاك. فـإن كان العـزم بالعـودة، فـلا داعـي لتأخـيره. إمّـا بقـاء دائـم وقطـع مـع فكـرة الرّجـوع إلى بلـدي، وإمّـا رحيـل فـوريّ.

وقد جاء خلال شهور قليلة حدث حسم التردّد. ماتت أمّي، بسكتة قلبيّة، وحيدة في شقّتها، وأنا بعيدة عنها. وقد عانيت من تقريع الضمير لفترة طويلة بعدها.كنت أدين نفسي لتخلّيّ عن أمّي في مرضها لأمكث مع غرباء! وهكذا قفلنا راجعين إلى باريس على جناح السّرعة، من أجل مراسم المأتم والدّفن. كان من المفترض بها أن تكون رحلة قصيرة، فلم أكن قد نويت بعد موطن استقراري. فخلّفت في الجزائر متاعي ومتاعك ورسائلي ورسائل والدك. لم أكن أدرك حينها أنّها رحلة ذهاب من دون رجعة.

لكنّ مكوثي في شقّتي القديمة التي عرفت فيها طفولتي وسنوات الشّباب الأولى، كانت مبعث حنين ووجع. وكان مزاجي يتأرجح بين حالتين. الأولى تقول بأنّه لم يعد لديّ ما يربطني بفرنسا بعد رحيل آخر من تبقّى من عائلتي، والأولويّة لك الآن حتى تعيش محاطا بعمّات وأقارب من العائلة الممتدّة. والثّانية تقول بأنّني إن رجعت الآن إلى الجزائر، فقد تنتهي صلتي بفرنسا إلى الأبد!

النّاس يتغرّبون غالبا لحاجة. عمل أو دراسة أو ثقافة ومتعة. حين تنتفي الحاجة أو تُقضى، يفكّر المغترب في العودة إلى وطنه. لكنّ طول الإقامة وانقطاع حبل المرساة التي تربطه بالوطن الأصليّ قد تجعله يستبدله بوطن جديد. العائلة تمثّل أمتن جزء من الحبل، ثمّ هناك التعوّد ونمط العيش. وأنا كنت قد فقدت كلّ صلة عائلية بفرنسا، وتقمّصت دور السيّدة الرّيفية التي تشكّل الأرض محور وجودها، حتّى أتقنته. أيقنت في تلك اللحظة أنّني على وشك استبدال وطني.

لا يجدر بالمرء أن يتّخذ قرارات مصيريّة تحت وطأة الضغوطات، لكنّه إن لم يفعل، فالضغوطات ستستمرّ! وقد كنت في تلك الآونة أرزح تحت ضغط رهيب من إحساس بالذنب تجاه أمّي، والمسؤوليّة تجاهك، والوفاء لأبيك، والخوف من المستقبل. ثلاثة منها، أقنعت نفسي بأنّها تصبّ في اتّجاه واحد.. وحده الوفاء لعهدي تجاه نادر لم يكن بمقدوري

أن أحافظ عليه إلى الأبد. غلب حنيني إلى حياة المدنيّة الأوروبيّة الباردة على أُنسي لوداعة العيش في الرّيف الجزائريّ النضر. فحططت الرّحال في حيّي القديم، وأنت عائلتي وكلّ دنياي.

عدتُ وقد ازددتُ عقودا من خبرة الحياة. تعلمتُ لغة وتعرّفت إلى حياة من نوع آخر. وقفت على قدميّ، واستغنيت عن الكرسيّ ذي العجلات بشكل نهائيّ. رأيت الموت -مرّة أخرى- يخطف المقرّبين. وكان عليّ أن أصمد وأبقى شامخة من أجلك.

*****

باقي القصّة يعرفها خليل. بعد مرور كلّ تلك السّنوات، لم يتبقّ من هويّته العربيّة غير اسم يحمله في بطاقته الرّسميّة وشعر أسود فاحم هو كلّ ما ورثه من شبه بأبيه. ديانا تناديه بـ«دانيال». وكذلك تفعل زوجته وأصدقاؤه المقرّبون. ربّما لو سعت بجدّ لتمكّنت من تغيير الاسم في الأوراق الرّسميّة أيضا، اكتفت بإضافة دانيال كاسم أوسط. كانت تحاول التصرّف بما تقتضيه مصلحته، فتتوقّف في منتصف الطريق حين تردعها بارقة وفاء لزوجها الرّاحل ووعودها الباهتة له. مع الوقت، لم يتبقّ من معاني الوفاء إلا صورة يتيمة للعائلة الصّغيرة تتصدّر غرفة المعيشة، التقطت في أثناء جولة السياحة تلك. وحكايات متباعدة عن الوالد، مسرح أحداثها باريس وحدها. في ذكرياتها المرويّة، مسحت ديانا حقبة الجزائر وطمست معالم البلدة الريفيّة.

نشأ خليل وهو يعتقد أنّ والده قد توفي بسبب ورم خبيث حين كان في الثانية أو الثالثة، سنّ من المفترض ألا يذكر فيها شيئا. لكنّه يذكر. ترتسم في رأسه صور ضبابيّة عن رجل مسجّى على فراش المرض، وعن مساحات شاسعة كان يركض فيها بحريّة ويطلق ضحكات صاخبة مع أطفال شعثٍ غبرٍ. لم يكن ذلك في باريس، حيث الشقة الصّغيرة

المعلّقـة، والملعـب النظيـف المسيّج، والأطفـال المهذّبـون المنضبطـون يلعبـون مـن دون ضوضـاء تحـت مراقبـة لصيقـة مـن الأمّهـات والمربّيـات. حسبها أحلامـا، مجـرّد أحـلام جامحـة متمـرّدة. تمامـا مثـل رحلـة الصّيـد عنـد الجـدول الضيّـق، ولعبـة الاختبـاء بـين سـيقان القمـح الصفـراء الشـامخة، وتسـلّق الأشـجار المثمـرة.. والسّـقوط الحـرّ عـلى فـراش ورق وحبّـات زيتـون. الآن يعلـم أنّـه ليـس هنـاك مـا هـو أوفى مـن ذاكـرة طفـل صغـير.

- ما هذه؟

كان قـد سرح في ألبـوم الصّـور، ينعـش ذاكرتـه المتقادمـة ويبحـث في ثناياهـا عـن قطـع ينفـض عنهـا غبـار السّـنين، حـين قاطعتـه ديانـا وهـي تمـدّ إليـه ورقـة أخـيرة، كانـت مطويّـة أسـفل تـلّ الرّسـائل.

- عنوان.. عنوان فندق في باريس.

*****

دلـف إلى المكتـب، وهـو يشـعر بـأنّ أشـياء كثـيرة تغـيّرت مـذ غـادره آخـر مـرّة، منـذ يومـين. ألقـى تحيّـة عـلى جانيـت الـتي اهتّمـت بالسّـؤال عـن صحّتـه بعـد غيابـه بالأمـس، ثـمّ فتـح الرّسـائل ليواجـه المواعيـد المؤجّلـة الـتي سـتتراكم في مسـاحة اليـوم الجديـد، إضافـة إلى مواعيـده المقـرّرة.

بـين موعديـن، فتـح محـرّك البحـث، ورقـن اسـم «نـادر الشـاوي». ظهـرت مجموعـة مـن النتائـج. تصفّحهـا باهتمـام، محـاولا فرزهـا عـلى ضـوء المعطيـات الجديـدة. ليسـت المـرّة الأولى الـتي يمـارس فيهـا تلـك اللعبـة. منـذ سنوات، كلّمـا استبدّ بـه الفضـول ليعـرف أكـثر عـن والـده، كان يبحـث في صفحـات الأسـماء المشـابهة، يتأمـل الصّـور ويتسـاءل.. هـل يكـون والـده قـد هجـر أمّـه وأنشـأ لنفسـه عائلـة أخـرى في مـكان بعيـد، فادّعـت وفاتـه تخفيفـا للصّدمـة؟ يحـاول أن يميّز شـبها مـا، بـين صـور أولئـك الغربـاء الذيـن

يتلصّص على حياتهم الخاصّة، والرّجل الذي يعرفه من صورة وحيدة عمرها ثلاثون عاما. لعلّه سيتوصّل إلى إجابة تشفي الغليل هذه المرّة.. وقد أنهى الرسائل كاملة.

عاين الصّفحات ذاتها، تلك التي يقع عليها في كلّ مرّة، حتّى حفظ وجوه أصحابها. ثمّ خطرت بباله فكرة. رقن اسما جديدا. «رنيم شاكر». بدا الاسم مألوفا حين سمعه للمرّة الأولى. بسرعة ظهرت سلسلة من النّتائج التي أكّدت ظنونه. فتح صفحتها الشخصيّة التي تصدّرتها صورة حديثة. وجهها مألوف أيضا. قرأ البيانات على عجل. أستاذة القانون في جامعة «باريس دوفين». هكذا إذن. لعلّه صادفها في أروقة الجامعة؟ لم يجمعه معها لقاء مباشر، لكنّه يتخيّلها الآن، تمرّ حذاءه بمشية جادّة معتدّة بنفسها، بكفّها حافظة تضمّ أجهزتها وملفّاتها الإلكترونية. لعلّها ظهرت على شاشة التلفاز أيضا.. يكاد يستحضر صوتها وطريقة كلامها وهو يتأمّل صورتها. سجّل معطياتها في ذاكرة جهازه. ستخبره ديانا إن كانت هي «رنيم شاكر» المعنيّة.

في جيب بنطاله، تستقرّ قصاصة الورق مع بيانات الفندق. ربّما عليه أن يتّصل، يكتشف من يحاول التّواصل معه. يتغضّن جبينه في تفكير يستغرقه. نبتت لعائلته تلك الليلة أطراف جديدة. جدّة لأبيه، زوجة أب وأخت غير شقيقة. وماذا يعني أن تمتدّ شجرة العائلة، في تلك الآونة بالذات، وهو يستعدّ ليكون نائبا للشعب في البرلمان الفرنسيّ؟ يتخيّل قريبا من الدّرجة الثالثة أو الرّابعة، يحمل إليه وصيّة ما.. وصيّة جدّته أو زوجة أبيه؟ بشكل ما، يكون هو الوريث الوحيد لثروة ما. كم هو في حاجة إلى تمويل إضافي لحملته الانتخابيّة. كم سيصنع الخبر فرقا في وضعيته تلك! هديّة غير متوقّعة في الزّمن بدل الضّائع.

بل لعلّه قريب طمّاع، اكتشف ترشّحه للبرلمان فقصده بنيّة الابتزاز! ربّما احتفظ لنفسه بنسخة من الرّسائل، يهدّده بها إن هو رفض تسوية ماليّة سخيّة، فيفضحه في وسائل الإعلام!

عـادت الرّسـائل لتشـكّل كابوسـه مـرّة أخـرى. إن لـم يعـرف مـن وراءهـا، فسـتظلّ الظنـون تؤرجحـه بـين تفـاؤل وتشـاؤم. عليـه أن يتّصـل. كـوّن الرّقـم، وهـو لا يـدري عمّـن يسـأل! حـين جـاءه الـردّ، قـال إنّ قريبـا مـا تـرك عنـوان الفنـدق وطلـب منـه الاتّصـال، وهـو يجهـل تمامـا مـن يكـون، لكنّـه مـن عائلـة الشّـاوي! أصغـى إليـه الموظّـف مـن دون ملاحظـات سـخيفة، دوّن اسـمه ثـمّ طلـب منـه الترقّـب لبرهـة.. حـين عـاد إليـه، توقّـع خليـل أن يعلـن رحيـل القريـب. مـن سينتظر في فنـدق باريـسيّ لمـدّة أسـبوع كامـل، اتّصـالا قـد يـأتي وقـد لا يـأتي؟ لكـن لمفاجأتـه، أعلـن الموظّـف أنّ الشـخص المعـنيّ ليـس في الغرفـة، لكنّـه تـرك تعليمـات لمكتـب الاسـتقبال بإعـلام كلّ مـن يسـأل عنـه بوجـوده بعـد السّـاعة الرّابعـة مـن عـصر كلّ يـوم!

طالـع سـاعته، كانـت تشـير إلى الثانيـة ظهـرا. سـينتظر بعـض الوقـت قبـل أن يتّجـه إلى العنـوان.

- جانيت، اتّصلي بالخبير المعماري رجاء.

أرسـل أوامـره عـبر الهاتـف الدّاخـلي، ثـمّ جهّـز الملفـات الخاصّـة بقضيّـة رسـتم. زار المحكمـة صباحـا قبـل مجيئـه إلى المكتـب، لرفـع طلـب إيقـاف الهـدم. كان ينهـي إدخـال المعطيـات عـلى جهـازه الشـخصيّ، حـين سـمع دقّـات موقّعـة عـلى البـاب، تلاهـا اقتحـام برونـو لعزلتـه بحضـوره المهيمـن. اقـترب بمشـيته المعتـدّة وابتسـامته الـودود:

- عرفت أنّك كنت في إجازة يوم أمس. هل أنت بخير؟

- بعض الإرهاق، لا غير.

- اهتمّ بنفسك جيّدا. يجب أن تكون في كامل لياقتك يوم المقابلة!

قاطعهما صوت جانيت على الهاتف الدّاخلي:

- أستاذ دانيال، الخبير على الخطّ.

ضغـط خليـل عـلى زرّ الـردّ في اهتمـام وانـبرى يحـدّث الخبـير، بينمـا وقـف برونـو مسـتمعا.

- نعم سيّدي، نحتاج تقريرا مستعجلا بشأن أحد البيوت المهدّدة بالسّقوط، في المنطقة المتضرّرة من زلزال ٢٠٢٩.. هل يناسبك يوم غد؟ ممتاز..

ما أن أغلق الخطّ حتّى بادره برونو في ضيق:

- هل تعمل على قضيّة متعلّقة بإسناد مبان قديمة في منطقة الزلزال؟

رمقه خليل بدهشة:

- هل كنت تعلم بشأن ذلك؟ أنّ بيوتا على وشك الانهيار تؤهّل للسّكن، بعلم الدّولة؟

- اسمع، هذا يحصل منذ سنتين.. ولم يحصل أن انهار أحدها. لذلك فإنّ الموضوع لا يدعو إلى القلق.

- تعني أنّ ذلك لم يحصل بعد! لكنّها بيوت متصدّعة! لقد رأيتها بعيني! والخبير في نهاية الأمر سيقرّر ما إن كانت صالحة للسّكنى أم لا..

زفر برونو وبدا محتدّا وهو يستطرد:

- دانيال، ابق بعيدا عن هذا الموضوع رجاء! أنت الآن مرشّح للبرلمان، والعبث بمثل هذه الملفّات قد يُفقدك المصداقيّة. خبّرني صراحة، من هم المتضرّرون المحتملون؟ إنّهم أشخاص منبوذون، مشاريع إرهابيّين، تأذّى منهم جيرانهم فطردوهم إلى المناطق المهجورة. وماذا لو انهار منزل أحدهم فوق رأسه، ها؟ إنّها مجرّد نفس خبيثة نتخلّص منها!

ظهرت على ملامح خليل الصّدمة وهو يحدّق في برونو غير قادر على الردّ، فأردف برونو:

- إنّها مبالغة يا صديقي، تعرف أنّني لا أعني ذلك حتما! كلّ النّفوس البشريّة جديرة بالاحترام، لأنّ «الوطن للجميع» كما تعلم! لكنّني أريدك أن ترى أنّ أسوأ ما قد يحصل ليس بهذا السّوء في نهاية الأمر.. وأنا مستعدّ للمراهنة على أنّ أيّا من ذلك لن يحصل. الدّولة أكثر حكمة من أن تعرّض

أبناءها لهذه المخاطر.. ولا شكّ أنّ خبراءها قد فحصوا المنطقة بشكل دقيق قبل فتحها من جديد. لكنّك تتعامل مع الأمر ببعض الحساسيّة، لأنّ الموضوع يهمّ من هم من نفس جذورك...

ألقى ملاحظته الأخيرة بلهجة المتفهّم، كمن ضبط طفلا بدينا يلتهم الحلوى، لكنّه يعده بالصّفح والتجاوز إن وعد بعدم معاودة الكرّة! تسارعت الأنفاس في صدر خليل. أصبح الأمر شكلا من التّحدّي:

- إذن فلنترك الخبير يؤدّي مهمّته، ويثبت صحّة ما تقول!

احتقن وجه برونو وانتفخت أوداجه، ثمّ قال بما أمكنه من ضبط النّفس:

- العناد لن يكون في صالحك!

لوّح بسبّابته في تهديد سافر، ثمّ استدار على عقبيه ومشى خارجا.

أسند خليل جبينه إلى كفّه وأغمض عينيه في إعياء.

إنّه عربيّ الأصل شاء ذلك أم أبى، وستبقى لعنة الاسم تطارده إلى الأبد. لا يهمّ إن كان قد تربّى في فرنسا، في محيط فرنسيّ صرف، سيظل في نظر الآخرين عربيّا، حتّى يُثبت العكس. هكذا يراه الفرنسيّون الذين ينتمي إليهم. بل هكذا يراه أقرب النّاس إليه. أليست تلك الحقيقة؟ تتقشع السّحب عن ذهنه في لحظة صفاء. ما الذي يجري يا خليل؟ هل يستحقّ الأمر أن تتشاحن مع شركائك وتغامر بوظيفتك ومصدر رزقك؟ ما الذي سيتغيّر بعد كلّ العناء الذي ستبذله والصّراعات التي ستخوضها؟ سترجع مثخنا بجراحك، صفر اليدين!

أعلن رنين جهازه وصول رسالة عاجلة. ردّ المحكمة. وصل في وقت قياسيّ مقارنة بما عهده لمثل هذه المعاملات. فتحه على الفور، ثمّ تلا نصّه مرّة تلو الأخرى بصوت عال، يواجه الحقيقة العارية. لا فائدة. تمّ رفض التماسه بوقف أعمال الهدم.

قُضي الأمر.

ماذا تقول إذن؟ الوطن للجميع؟! يا للهراء!

*****

تشقّ السيّارة طريقها في زحمة السّير الباريسيّة، وخليل سارح شارد الحواسّ. يستعيد في مرارة كلمات برونو المؤذية. مشاريع إرهابيّين؟ إذن فلنزد الاحتقان احتقانا، لنطأ على الجرح بأحذية عسكريّة ثقيلة، نتركه يتعفّن ويتقرّح، ويُنبت في أعماقه حقدًا يجرّ في أعقابه إرهابًا. فكّر، هل يمكن لمحمّد رستم أن يغدو أحد إرهابيّي الغد؟ يكفي أن يشهد مقتل والده تحت سقف المنزل المتداعي، واعتداءً على شقيقته بعد أن ترابط شهورا أمام مكتب المدّعي العام.. يكفي أن ينهار عالمه أمام عينيه ليفقد البوصلة، فيلبس حزاما ناسفا ويفجّر نفسه في أحد ميادين باريس! على من يقع اللّوم، لو أنّ السيناريو الكارثيّ الذي يحْضُره يتحقّق؟

أوقف السيّارة أمام الفندق ذي النّجمتين اليتيمتين وزمّ شفتيه في امتعاض. لا يمكنه أن يطمع في وجود قريب ثريّ ينتظره في بهو فندق كهذا. عليه أن ينسى فرضيّة الميراث الوفير إذن. دفع دفّة البوابة الزّجاجية، ثمّ توجّه رأسا إلى مكتب الاستقبال. وهو يعبر البهو بخطوات واسعة، يراوده شكّ غريب على حين غرّة. ماذا لو كان أبوه على قيد الحياة؟ أمّه كذبت منذ سنوات طويلة بشأن أصله وتاريخ أبيه.. ما الذي يمنعها من تكرار ذلك؟ ماذا لو كان رجل ستينيّ كفيف ينتظره في هذا الفندق التّعس؟ يتخيّله الآن، على هيئة أبي محمّد، رقيق العود محنيّ الظهر مجعّد الوجه والكفّين. وتلازم لاوعيه صورة سقف حجري ينهار، ليحطّم جمجمة شيخ لا يميّز ملامحه.

قبل أن تشطح به الخيالات بعيدا، انتبه إلى عائلة مؤلفة من زوجين وطفلين، تحتلّ أحد صالونات البهو. السيّدة الشابّة كانت تراقب الباب في انتباه. تلاقت نظراتهما لبرهة، ثمّ تجاهلها وتابع مساره باتجاه موظّف

الفندق. عرّف بنفسه، وسأل عن الشّاويّ الآخر.. فأشار الموظّف إلى نقطة خلف ظهره. حين استدار، رأى السيّدة ذاتها تشدّ على ذراع زوجها، ليقفا معا في استقباله.

خطا باتّجاههما بتردّد. ألقى التحيّة، ثمّ مدّ كفّا ليصافح الرّجل من دون حرارة. ابتسامة لبقة على شفتيه، يحاول ألا تكون متكلّفة أو مبالغا فيها. إنّها مجرّد مقابلة بين غرباء صادف انتماؤهم إلى شجرة العائلة نفسها. احتار كيف يسلّم على المرأة. من عادته أن يقبّل الوجنتين، لكنّها كانت تضع وشاحا مترمّتا على رأسها يوحي بنوع من التحفّظ. إذن مصافحة ستكفي. فوجئ بها تتجاهل كفّه وترتمي عليه معانقة في اندفاع عاطفيّ جارف. ربّت على ظهرها في ارتباك، بينما ارتفع نشيجها بين ذراعيه. بعد ثوان، فكّت وثاقه واستقرّت بهم الجلسة، لتواصل البحلقة فيه بعينين واسعتين تلتهمانه بينما تكفكف الدّمع المنهمر. تكلّم أخيرا:

- كيف حالكم؟ هل كانت سفرة طويلة؟

شرح الزّوج كيف رأت فائزة ذات يوم على شاشة التلفاز، بمحض الصّدفة، برنامجا يتحدّث عن الانتخابات الفرنسيّة المرتقبة، فانتبهت إلى اسم أخيها بين المترشّحين. رغم محاولته إقناعها بأنّه مجرّد تشابه أسماء ربّما، فقد أصرّت على البحث والتقصّي. الصّورة وتاريخ الميلاد كانا كافيين لتجزم بأنّه هو، وتشرع على الفور في التّجهيز لرحلة عائليّة إلى باريس. كانت بحوزتها كومة الرّسائل تلك. قرأتها مرّة بعد مرّة حتى حفظتها. وكان من واجبها إيصالها. قاطعت زوجها لتشرح:

- لم أظنّ أنّني قد أصل إليك يوما، لذلك سمحت لنفسي بالاطّلاع عليها.. ثمّ، أبي لم يترك لي شيئا. كان قد رحل قبل ولادتي. لذلك فقد اعتبرت من حقّي أيضا أن أعرف عنه..

هزّ خليل رأسه متفهّما. لو كان مكانها لفعل الشيء نفسه. ثمّ، من ذا الذي يكلّف نفسه عناء السّفر من بلد إلى آخر لإيصال رسائل متأخّرة؟

بـين طيّـات كلماتهـا، يصلـه تأكيـد ضمـنيّ عـلى وفـاة الرّجـل الـذي مـنّى نفسـه بلقائـه. كانـت فائـزة تواصـل شرحهـا:

- لـم أرد أن أدخـل عليـك فجـأة وأقـول: أنـا أختـك الـتي لا تعرفهـا. لـم أكـن أدري مـا الـذي أخبرتـك بـه أمّـك بالضبـط.. ربّمـا كنـت لتطـردني، جهـلا بي. لذلـك فضّلـت أن تصلـك الرّسـائل أوّلا، فنتجـاوز مرحلـة الشـكّ والإثبـات.

يهـزّ رأسـه بشـكل متواصـل يوحـي بالاهتمـام، بينمـا يتسـاءل في سرّه: ومـاذا بعـد؟ مـا الـذي جـاءت تطلبـه هـذه الأخـت بعـد كل هـذا الوقـت؟

- هذا نادر.. وهذا خليل.

تشـير إلى الولديـن الجالسـين في وداعـة وأعناقهمـا مشرئبـة باتّجـاه الخـال الجديـد. يمـدّ كفّـه ليمسـح عـلى رأسـيهما بحركـة مجاملـة. يتأمّـل خليـل برهـة. مـا مـن شـبه بينهمـا. لكنّـه لا يمنـع نفسـه مـن الدّهشـة، لتلـك الأخـت الـتي تحـرص عـلى أن يحمـل ابنهـا اسـم أخ لـم تـره يومـا.

- أمّـي.. كان بودّهـا أن تـراك، مـرّة أخـرى. لكنّهـا ترهـب الطائـرة. لـم تشـأ أن ترافقنا..

مـاذا تطلـب الآن؟ أن يسـافر هـو إليهـا؟ أن يـزور زوجـة أبيـه الـتي عكّـرت حيـاة أمّـه سـابقا؟ حـاول ألاّ يبـدو الامتعـاض عـلى وجهـه ويحافـظ عـلى تعبـيره المهـذّب، بينمـا تابعـت:

- ثـمّ هنـاك مـيراث أبي رحمـه اللـه.. لـن تشـعر بالرّاحـة حـتى يصـل إليـك حقّـك كامـلا. لـم يكـن في نيّتهـا أن تحرمـك منـه، لكنّهـا لـم تقـف لأمّـك عـلى أثـر بعـد رحيلهـا. اختفـت فجـأة ولـم تعـاود الاتصـال..

آه. هناك ميراث إذن في نهاية الأمر!

دفعت إليه ظرفا مغلقا. تحسّسه في فضول واهتمام.

- صكّ ملكيّة نصيبك وأمّك من أرض أبي.

تلك الأرض الصغيرة؟ ميراث هزيل إذن.

- إضافة إلى نصيبك من تركة جدّي.. عمّ أبي. كان قد أوصى لأبي، ولك من بعده، كأنّه ابن من صلبه. وصكّ بنكي بإيرادات الأراضي لأكثر من عقدين ماضيين.

رفع حاجبيه دهشة هذه المرّة. لم يدار فضوله وهو يفضّ الظرف، ويطالع المبلغ الذي كتب على الصكّ. ثمّ رفع حاجبيه أعلى، وأعلى.. قبل أن يعود بنظراته إلى فائزة وزوجها.

- لا أدري ماذا أقول!

- لا تقل شيئا.. هذا حقّك.

تضيف مداعبة:

- إن كنت لا تعرف الشاويّة، فالأرض بالنّسبة إليهم أغلى من الذّهب. قد يصل بهم الأمر إلى سفك الدّماء ومقاطعة الأهل ونكران الذّريّة من أجلها! لذلك لا تستهن بما يُعرض عليك اليوم.. فالأمر قد لا يتكرّر على مرّ عصور مقبلة!

يبتسم، ويسرح مفكّرا بما يمكنه فعله بمبلغ مماثل. أبواب كثيرة تفتح، ويتسع مجال الإمكانيات.

بعد نصف ساعة، كان يقبّل فائزة على وجنتيها ويصافح زوجها. لديه مشاغل كثيرة تنتظره. يعتذر. كان بودّه لو رافقهما في جولة سياحيّة، لكنّ الحملة الانتخابية على أشدّها ولا وقت لتضييعه. تعتذر، لم ترد أن تكون عبئا عليه. كلمات كثيرة مجاملة. تحمّله سلاما لأمّه وزوجته وابنته وتتمنّى أن تلقاهنّ. يرسل سلاما باهتا لأمّها المتخلّفة وراء البحر. لا يعرض عليها أن تزور بيته، ويشعر بخيبتها رغم عبارات التفهّم. لم تقطع كلّ تلك المسافة لتكتفي بثلاثين دقيقة من وقته الثّمين.

يسألها في فضول وهو يهمّ بالمغادرة:

- ما الذي كنت لتفعليه لو لم أتّصل اليوم؟

- كنت لأنتظر لنهاية الأيّام العشرة التي حجزتها في الفندق، ثمّ أرحل. لو لم تأت، لعرفت أنّك لا ترغب في رؤيتي.. ولتفهّمت ذلك. وكنت لأرسل إليك الظرف في كلّ الأحوال.

يسترجع كلماتها المرّة إثر المرّة وهو يقود سيّارته في طريق العودة. ينتابه إحساس مزعج بأنّه قد فطر قلبها. تعامل معها مثل غريب لا يدين لها بعواطف تقابل تلك التي أبدتها بسخاء. يصيبه إحباط مفاجئ. يوقف السيّارة على جانب الطريق السّريعة ويجلس ساهما وراء عجلة القيادة. يتذكّر كلمات فائزة وهي تودّعه: «إن شئت بيع الأرض، نشتري منك.. لكنّنا نفضّل أن تبقى لك، صلة بأهلك في تلك البقعة القصيّة من العالم.. لعلّك تفكّر يوما في وصلها.. ووصلنا»، فينتابه سخط شديد، لا مبرّر له.

*****

وصل متأخّرا مثل كلّ ليلة من هذا الأسبوع الطويل. لم تعد سيلين تبدو قلقة أو متوتّرة. إنّها غاضبة حدّ اللاّمبالاة بوجوده من عدمه. ربّما حان وقت المكاشفة. يستدعيها بهدوء لجلسة مصارحة في غرفة المكتب، فتستجيب على مضض. تجلس حيث أشار، معقودة الذّراعين والسّاقين، مصعّرة وجهها، مزمومة الشّفتين. يبحث عن بداية ممكنة.

- حدثت أشياء كثيرة هذا الأسبوع. لقد عرفت من أكون!

تدير إليه نظرات ملؤها الاستغراب وغياب الفهم. يشرع في الحديث، عن أبيه الذي جاء إلى فرنسا مصارعا الموج، عن تشرّده ورصاصته، زواجه وهروبه، وشجرة العائلة التي تمتدّ فروعها هناك في الجزائر. يحدّثها عن زوّاره الذين لقيهم عشيّة ذلك اليوم. زوّار من الجزائر؟ آه.. لديه أهل هناك في نهاية الأمر! يرضي فضولها ويستدعي حبورها بحديث الميراث. تنطلق قسماتها وتعاتبه بحنان، ما كان عليه أن يخفي اكتشافاته ويحتفظ

بها لنفسه! يفاجأ من ردّة فعلها الهادئة والسلسة. عانقته بحبّ وهي تهمس:

- خفت أن أفقدك بنهاية الانتخابات.

سلوكه المريب وغيابه المتكرّر أوحيا إليها بأزمة من نوع آخر! علاقة بأخرى؟ يبدّد شكوكها ويطمئنها لنقاء ذهنه من كلّ أثر للخيانة. ثمّ يسألها متقصيّا:

- ألا يضايقك تاريخ أبي.. ولو قليلا؟

تبتسم في دلال:

- بل هذا يضيف طبقات من الإثارة.. أنْ تكون سليل بعض الرّحّالة الشرقيّين!

حين اختلى بنفسه أخيرا في غرفة المكتب، ابتسم غير مصدّق. لقد كان قلقا أكثر ممّا يجب. يصحّح، هذا الأمر ليس مهمّا لأحد، بقدر ما هو ذو أهميّة له هو. لم يستطع أن يصارح سيلين ويعبّر عن مضمون الرّسائل بكلمات مختصرة وواضحة، إلاّ بعد أن تقبّلها هو نفسه.

تدخل مريم الصّغيرة ذات الخمس سنوات وهي تجرّ حذاءها المنزليّ الظريف على شكل رأس أرنب، وتحتضن دمية تبكي.

- ألا تسكتينها؟

تدسّ المصاصة في فم الدّمية، فتسكت. تقول مريم باسمة:

- أحبّ أصوات الأطفال.. ألا تحبّها؟

يربّت على رأسها من دون تعليق. لم يعد يدري ما الذي يحبّه، وما الذي يكرهه. بكاء الأطفال مزعج، تماما مثل حقيقة أصله العربيّ. لكن لا مفرّ من مواجهته، اليوم قبل الغد. يمدّ يده ويزيح المصاصّة، فينطلق بكاء الدّمية بنفس النّسق. تتعوّد عليه الأذن بعد برهة، فيخفت شعوره بالانزعاج، مثل خلفيّة موسيقيّة مستمرّة. الإرهاق يرفع من حساسيّته تجاه

الأصـوات النّـاشزة. في الأحـوال الأخـرى، يمكنـه تحمّـل صخـب فتاتـه أوقـات لعبهـا وضجيـج ألعابهـا. هـل يمكنـه مـع الوقـت أن يتعـوّد عـلى حقيقـة كونـه عربيّـا خـاض والـده غمـار البحـر ونجـا مـن الغـرق، ليتـشرّد في الشـوارع الفرنسـيّة دهـرا، وينتهـك القوانـين الـتي يقـف هـو اليـوم حاميـا لهـا؟

ينتبـه مـن شروده ليجـد نفسـه وحيـدا. لـم يعـد يسـمع صـوت مريـم ودميتهـا. لـم يـدرك توقيـت مغادرتهـا. شرد فجـأة، فتركتـه ورحلـت. وقـف في اسـتغراق قبالـة النافـذة يرقـب قطـرات المطـر الـتي أخـذت تتسـاقط بهـدوء في الخــارج.

لم يكتب حرفا إضافيّا في مسودّة الخطاب.

*****

في كلّ دائـرة انتخابيّـة، يـتراوح عـدد النّاخبـين مـن أصـول عربيّـة بـين ربـع السكّان وثلثهـم. لـو أنّهـم يتوحّـدون خلـف مرشّـح واحـد، لكانـت الغلبـة حتما مـن نصيبـه. لكنّهـم لا يفعلـون. ربّمـا لأنّهـم متفرّقـون بطبعهـم، ينتمـون إلى ديـن واحـد ولهـم السّـمات العامّـة ذاتهـا، لكنّهـم مختلفـون في توجّهاتهـم مـن أقـصى اليمـين إلى أقـصى اليسـار. وربّمـا أيضـا لأنّ أحـدا مـن المرشّـحين لـم يكلّـف نفسـه مشـقّة أخـذ مصالحهـم بعـين الاعتبـار في برنامجـه الانتخـابيّ، أو لأنّ محاولـة اسـتمالتهم تعـدّ وصمـة عـار في تاريـخ أيّ سـياسيّ محـترم، وقـد تنهـي مشـواره السـياسيّ بضربـة واحـدة!

صبـاح الجمعـة، وهـو يجلـس خلـف مكتبـه، يراجـع مسـودّة الخطـاب الـذي أهملـه طويـلا، ينتابـه اسـتياء مـن كلّ كلمـة، مـن كلّ حـرف. لا يجـد نفسـه في الـكلام المنمّـق الممطـوط الفضفـاض الـذي رُصّ عـلى شاشـته. هـل يمكنـه أن يجلـس أمـام الجماهـير ويتقلّـد الابتسـامة المتملّقـة ويـردّد عبـارات جوفـاء لا تقنعـه؟ ينـبري يمسـح ويمسـح بحمـاس ملهـوف. تختفـي الفقـرات مـن الصفحـة واحـدة إثـر الأخـرى، حـتّى عـاد أمـام شاشـة شـبه بيضـاء، يقـرأ

عليها عنوانا متردّدا، لا هو حقيقة ولا هو شعار يملك أن يذود عنه حتّى النّهاية: الوطن للجميع. يتأمّل الكلمات، ويأخذ نفسا طويلا. هل يمكن لهذا الوطن أن يكون ملكا مشاعا بشكل عادل بين جميع مواطنيه؟!

تطرأ الفكرة في ذهنه، مثل بذرة نمت تحت الأرض وامتدّت جذورها، وآن أوان انبثاقها إلى السّطح. يطلع البرعم على استحياء، ويبحث عن مصدر نور يتزوّد منه بالطّاقة. لو أنّه يتصدّى للدّفاع عن حقوق المواطنين الفرنسيّين ذوي الأصول العربيّة، لو أنّه يسبغ معنى على شعاره الخاوي، لو أنّه يسترضي تلك الفئة المهمّشة من النّاخبين.. فقد يضمن مقعده! إذا أراد تقييم تلك الخطوة بميزان السّياسة، فهي مخاطرة غير مأمونة. قد تعدّ انتحارا سياسيّا بالنّسبة إلى أيّ مرشّح آخر. لكنّ حظوظه أوفر هذه المرّة. لديه «ميزة» طالما حسبها «عيبا». الاسم من المفترض به أن يجتذب قاعدة ناخبين لا يستهان بها. من المتاح له أن يصنع قوّة ممّا حسبه موطن ضعف، بشرط أن يحكم صياغة خطابه.

ماذا عن أولئك الذين هم «من طينته»؟ رفاقه الذين دعموه وشجعوه على اتّخاذ تلك الخطوة لتتويج مسار مهنيّ ناجح؟ هل يخون ثقتهم بارتدائه جلباب الرّجل العربيّ الذي لطالما تبرّأ منه في السّابق؟

إنّها سياسة. مجرّد لعبة سياسيّة! والغاية تبرّر الوسيلة!

يتوقّف عند ذلك الحدّ. هل يصبح المرء شخصا غير نفسه حين ينغمس في مستنقع السّياسة الموحل؟ لقد كان هدفه من دخول البرلمان منذ البداية منحرفا وأنانيّا. مجرّد عقدة شخصيّة يحاول تخطّيها. ما الذي ستفعله يا خليل دانيال الشاوي حين تُصبح بالفعل مسؤولا تجاه الشعب الذي منحك صوته؟ تعاوده كلمات ديانا في القصاصة التي صدّرت بها رسائلها:

«هذا تاريخك، ميراثك.. احمله على عاتقك وسر به في الطريق التي تختارها. لكن لا تهمله أو تتخلّ عنه، فأنت لا شيء من دون ماضيك

وجــذورك»!

تذكّـر فجـأة المحاميـة. ديانـا أكّـدت هويّتهـا. قالـت إنهـا ظهـرت مـرّات في برامـج تهـمّ قضايـا عامّـة، كمستشـارة قانونيّـة. هـل سـيكون الاتّصـال بهـا ذا فائـدة مـا؟ لا يـدري. لكنّـه يفضـل أن يطـرق كلّ الأبـواب الممكنـة، بـدل أن يتربّـع عـلى الأريكـة ويراقـب الثـواني وهـي تمـضي، يسـحب بعضهـا بعضـا. طالـع بياناتهـا الـتي سـبق وحفظهـا في ذاكـرة هاتفـه، ثـمّ اتّصـل برقمهـا الخـاصّ. بعـد رنّتـين، جـاءه صوتهـا.

- أسـتاذة رنيـم شـاكر؟ معـذرة عـلى الإزعـاج.. أنـا خليـل الشـاوي. هـل يمكننـا أن نلتقـي؟

*****

تابـع الإشـارة الحمـراء عـلى جهـاز الملاحـة وانعطـف إلى يسـاره مذعنـا إلى تعليمـات الإرشـاد. كان قـد اقـترب مـن العنـوان الـذي أملتـه إيّـاه في المكالمـة القصـيرة. حـدّدت موعـدا خـلال سـاعتين. لا يـدري إن كانـت قـد اسـتجابت لمرشّـح مجلـس النّـوّاب الـذي كانـه، أم للتّاريـخ القديـم الـذي سـاقه إليهـا الاسـم؟

لاحــظ أنّ منزلهـا يقـع في حـيّ خـاصّ بالبيـض. تسـاءل إن كانـت مقاوِمـة أخـرى للقانـون العـرفيّ مثـل ديانـا، أم مندمجـة تنكـر هويّتهـا، ولـم يُسـعفها الوقـت لتغيـير اسـمها، مثلـه؟

اسـتقبلته في أعـلى الـدّرج بمـودّة وقادتـه إلى جلسـة شرقيّـة مريحـة. كانـت نظـرة فضـول تطـلّ مـن عينيهـا. مـا أن اسـتقرّ بهمـا المقـام، حـتّى بـادرت مسـتفسرة:

- كيف حال ديانا؟ مضى دهر على لقائنا الأخير!

- لم تتغيّر.. لعلّها سجينة بإرادتها في الزّمن الماضي!

تبادلا بعض العبارات المجاملة والبسمات اللبقة، قبل أن يبادرها خليل:

- أنت بالتأكيد تتساءلين عن سبب الزّيارة المفاجئة. وليست بحوزتي إجابة شافية. لا أدري ما الذي سأفيده تحديدا من هذا اللقاء.. لكنني أحسست بحاجة إلى شهادة محايدة! أنت تعرفين والديّ، وكان لك دور في تيسير زواجهما، ثمّ في جمعهما مجدّدا في الجزائر. وردتني منذ أسبوع رسائل قديمة.. كتبها لي أبي منذ ثلاثين عاما. وأمّي حكت وجهة نظرها أيضا.. لكنّني ما زلت أشعر بالضّياع. لقد حاول كلّ منهما أن يشدّني إلى حضارته وثقافته. أبي خطفني وسافر بي إلى الجزائر حين علم بقرب أجله.. أراد لي أن أعيش في كنف أهله وأتشرّب هويّته. خاف أن تُمحى بصمته من وجودي بعد رحيله. وأمّي، خطفتني بدورها حين تسنّت لها الفرصة! وعدت بأن تحفظ في تكويني ثنائية الهويّة، لكنها أخلفت وتنكّرت لعهودها. قالت إنّها خافت عليّ من هويّة كانت وما زالت محلّ اتّهام! مسحت الماضي من ذاكرتها، ونكّرت لي جذوري، فنشأت كما شاءت. لا أفهم، إن كان كلّ منهما لا يقبل ثقافة الآخر ويحسبها خطرا عليّ، فلماذا تزوّجا؟ ألم يفكّرا في المسافة التي تفصل بين هويّتيهما إلا حين أصبح الأمر يتعلّق بي؟ أصبح كلّ منهما تهديدا جديرا بالإبعاد والطّمس والإلغاء!

ابتسمت رنيم. هل كان بحوزتها جواب وإضافة تقدّمها للشاب الذي تمزّقه هويّته؟

- لعلّ أحدهما لم يتحلّ ببعد النظر الكافي ليكوّن رؤية استشرافيّة لما ستكون عليه الحياة بعد عقود. كانت حاجتهما إلى بعضهما البعض فوريّة وآنيّة. لكن من الظّلم أن نسلبهما حقّهما في المحاولة. فكّر معي.. لو عاش نادر لفترة أطول، ربّما كنت لتشعر بتوازن أكبر. لم تكن جذورك لتظهر بشكل مفاجئ. كنت لتتعايش معها منذ نعومة أظفارك، وتتقبّلها ببساطة.. أو ترفضها وتتخذ قرارا بالانحياز إلى جهة من دون أخرى. لا أحد يدري. أنت تشعر بالتمزّق الآن لأنّ الشلال تدفّق على رأسك على حين غرّة. لم تتعلّم أن تتعامل مع هويّتك بشكل سلس وتدريجيّ...

قالت وقد خطرت ببالها فكرة:

- انتظرني لحظة.

غابت بالدّاخل لبضع دقائق، ثمّ عادت محمّلة بدفاتر وملفّات ورقيّة. المزيد من الورق القديم.

- قبل أن أصبح أستاذة في القانون، كانت هناك قضيّة فاصلة، حوّلتني من محامية مبتدئة إلى مستشارة قانونية يُحتفى بها على منصّات الحوارات التلفزية. دافعت عن رجل اتّهم بارتكاب تفجير إرهابيّ! كانت بالنّسبة إلى الآخرين مسألة شجاعة وقوّة، فاستحقّيت الاحتفاء والتبجيل.. لكنّها كانت بالنّسبة إليّ مواجهة مع ذاتي.. بين الهويّة العربيّة المسلمة التي أحملها بالوراثة، والهويّة الفرنسيّة المتحرّرة التي أطمح إلى الانتماء إليها. تلك القضيّة كانت شلالي الخاصّ.

قلّبت في شرود الصّفحات التي احتضنت مقالات صحفيّة وقصاصات جرائد دأبت طوال سنوات خلت على قصّها ولصقها في دفترها. تابع خليل حركاتها في انتباه، وهو يسترجع شذرات من حديث أبيه عن الشّاب الذي عرفه في ليون، ثمّ واجه تهمة تفجير مختبر الكيميائيّات. سألها في فضول:

- ولمن كانت الغلبة؟

- تريد الحقيقة؟ لا أدري! إنّه صراع مستمرّ ما دامت الحياة. لم أستطع أن أنحاز أو أن أمعن في الانتماء إلى شقّ من دون آخر.. لكنّني على الأقلّ أصبحت أستوعب أكثر وجهة نظر كلّ طرف، ومخاوفه وأحكامه المسبقة. راودني شعور بأنّني قد أنفع جسرا بين العالمين، أترجم عن كلّ أفكاره ومواقفه، فأسهم في ردم جزء من الهوّة الفاصلة بين جذوري وفروعي! اخترت أن أكون مزيجا متوازنا من ثقافتين تعرّفان بشكل متساوٍ من أكون. أنا رنيم شاكر.. مصريّة وفرنسيّة، مؤمنة بالإسلام وبالثورة الفرنسيّة وبالقضايا العادلة. حين أقف في قاعة المحكمة، أو في قاعة المحاضرات، أو على منصّة تلفزيّة، أذكّر نفسي برسالتي.. الجسر، الهوّة، كيف أكون

عنصر بناء لا هدم. ليس ذلك يسيرا على الدّوام.. أنت تنحاز بطبعك، حين تحرّك القضايا نقطة حسّاسة في أعماقك، والحياد التامّ يحتاج ميزانا دقيقا للمشاعر، لم يُخترع بعد! وقد حرصت على أن ينشأ أبنائي على هذا المبدأ.. التوازن، ثراء الثقافة الشخصيّة، الخيارات.. كلّ منهم اتّخذ قراراته الخاصّة حين نضجت الهويّة واتّضحت معالمها في داخله. سمر، ابنتي الكبرى، اختارت أن ترجع إلى مصر، وجدت الوضع هنا غير محتمل وانحازت إلى هوّيتها المسلمة. أمّا ابني عمر، فهو يسير على خطى والدته، ولعلّه يصل إلى نتائج أفضل ذات يوم.

انتبه خليل إلى الاسم. سألها فجأة:

- ذلك المتّهم، كان اسمه عمر أليس كذلك؟ ما الذي حلّ به؟

أومأت رنيم برأسها وقد اكتست وجنتاها حمرة خفيفة:

- نعم، الدّكتور عمر الرّشيدي. استمرّ سجنه خمس سنوات كاملة، قبل أن تثبت براءته! أنشأ مختبره الخاصّ في ضواحي باريس، وحاول مواصلة العمل على تجاربه.. لكنّ المضايقات استمرّت، ووقع تعطيل حصوله على تصريحات وتجهيزات أكثر من مرّة، حتّى نفد صبره. رغم حصوله على تعويض مادّي وردّ اعتبار معنويّ، فإنّ السّياسة العامّة للبلاد كانت متناقضة مع نفسها.. وهذا ما أحارب من أجل تخطّيه والفصل بشأنه. أن تكون القوانين متّسقة مع نفسها وعادلة مع أبنائها. إذن انتهى الدّكتور عمر إلى اتّخاذ قرار بالهجرة خارج فرنسا.. إلى سويسرا، حيث تمكّن من الاستقرار وتنفيذ مشروعه على الوجه الذي يشتهيه. الآن، مولّد الطاقة الذي اخترعه منتشر الاستعمال بشكل كبير.

*****

السبت ٢٢ ديسمبر ٢٠٣٥، السّابعة مساء.

يجلس الآن تجاه مقدّمة البرنامج الشقراء، بينما تنهمك اختصاصيّات التجميل في وضع طبقة أخيرة من البودرة على وجه كلّ منهما. تبادله المقدّمة ابتسامة صغيرة مشجّعة، والحركة مستمرّة حولهما. في الغرفة الأخرى يتجهّز باقي ضيوف الحلقة. دوره يحين أوّلا.

زار عائلة رستم مرّة أخيرة ذلك الصّباح. بلّغهم عميق أسفه لما آلت إليه الأمور. «الأمور»، لفظ فضفاض يلخّص به صراعات الأسبوع. وعيه الطازج بجذوره، انغماسه في قضايا لم تكن يوما تحرّكه، تخبّطه بين بذور عاطفة لا تزال هشّة تهدّد مستقبله المهنيّ، وأعمدة صلبة من قناعات عريقة تقيم أركان حياته منذ الأزل.. الأمور ليست بخير يا أبا محمّد! أمورهم أيضا، لم تكن كذلك. لكن لماذا تبدو أكثرهم أسفا وتأثرا؟ يهزّ أبو محمّد رأسه والابتسامة ذاتها، بصفائها الصّادق ذاته، لا تحلّلها الخطوب ولا تذيبها النّوائب. بينما تسخر مريم، وتنطق نظرتها بالاستهانة. ألم أقل لك؟ «الوطن» و«الجميع» في شعارك الإنتخابي، كلّهم لا يعنوننا!

يتّصل به برونو، ساخطا يأتي صوته عبر الهاتف. أين مسودّة الخطاب؟ لم يف بوعده. لا مسودّة خطاب ليصادق عليها الشّركاء. تهرّب حتّى اللحظات الأخيرة. يدرك أنّه يخاطر بثقتهم وصداقتهم ودعمهم.. وربّما باستمرار شراكتهم. برونو لن يتفهّم أبدا. يقول مفتعلا جزعا شديدا: عطل في الشبكة، لم أتمكن من إرسال الملف! سأحاول من جديد. يتنصّل من مطاردة صاحبه، ويتجاهل اتّصالاته التّالية. لا فائدة.

تعديل الإضاءة، أكسسوارات تُغيّر أماكنها في اللحظة الأخيرة، وتعليمات المخرج تُلقى في كلّ الاتّجاهات. بينما يتّخذ خليل قرارا. سيفعل شيئا من

أجل عائلة رستم. يجد وظيفة لمحمّد. إذا ما أبقى على وظيفته في المكتب فسيكون معه، ساعيا أو مرافقا، أيّ شيء. ستكون وظيفة بسيطة ومريحة، تسمح له بساعات من المراجعة، حتّى لا يضيّع دراسته. أمّا إذا طُرد.. فسيأخذه معه أيضا، إلى وظيفته الجديدة. لن تذهب التّضحية سدى. ضاع المنزل، لكن مستقبل محمّد لن يضيع. سيتعلّم العربيّة أيضا. قرار آخر لا ينبغي تأجيله. سيتعلّمها ليستمرّ تواصله مع أبيه. لن يحتاج ترجمة في كلّ مرّة يريد فيها الاستزادة من صحبته عبر الرّسائل.

تنتابه سكينة عجيبة في جلسته تلك أمام العدسات المحملقة فيه. أنت لا تعلم أيّ لغم سينفجر في وجهك أوّلا -لأنّ حقل الألغام كثيف من حولك- لكنّك لا تبالي. لعلّك ستبادر بتفجير بعضها بنفسك.

ثمّ.. تصوير!

- معنا اليوم المرشّح المستقلّ الشابّ لمجلس النّوّاب، خليل دانيال الشاوي. مرحبا بك.

حافظ خليل على ابتسامته الوديّة، بينما تحدّثت لبضع دقائق لتقدّم سيرته الشخصيّة ومسيرته المهنيّة. وبعد بضعة أسئلة بسيطة، ألقت بالسّؤال المتوقّع والمرتقب:

- أمامي شابّ فرنسيّ تربّى في ضواحي باريس، من أمّ فرنسيّة.. لكنّه يحمل اسما عربيّا، مثل أبيه الذي توفي منذ سنوات طويلة. الآن، من حقّ النّاخب أن يتساءل، لمصلحة من سيقف خليل الشاوي في البرلمان الفرنسيّ؟ هل سيمثّل مصالح الفرنسيّين من أصول عربيّة؟

ألقى خليل نظرة فارغة على الجماهير المحدقة به. ثمّ دسّ كفّه في جيبه حيث استقرّت الرّصاصة. أحسّ بثقلها بين أصابعه، مؤكّدة حضورها، وراوده لبرهة مخطّط الحركة المؤثّرة التي تخيّلها في وقت سابق. ثمّ رفع بصره في اتّجاه المقدّمة. استطالت الثواني وامتدّ حاجز الصّمت، وأطلّت من عيني سيلين التي ترقبه بين جمهور الحاضرين نظرات قلق وتوتّر.

كانت المقدّمة تهمّ بإعادة السّؤال، حين اتّخذ قراره أخيرا. سحب كفّا فارغة من جيبه وشبك أصابعه في حجره قائلا:

- سيّدتي، هل من أقاربك وأهلك من سافر إلى خارج فرنسا وأقام هناك؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وفي عينيها نظرة حذرة.

- ربّما سافر بعضهم منذ عقود، واستقرّ في بلد آخر.. فنشأ هناك أبناؤه وأحفاده. خبّريني، كيف ستكون ردّة فعلك، لو اكتشفت اليوم أنّ لديك أقارب من الدّرجة الثانية أو الثالثة، يحملون جنسيّة أخرى.. من بلد آسيويّ مثلا؟ يتكلّمون لغة مختلفة ولديهم عادات مختلفة؟

أطلقت ضحكة متشنّجة وقالت مدارية موجة ارتباك عابرة:

- سيكون ذلك غريبا، وظريفا.. في البداية. ثمّ سأتعوّد على ذلك. العالم أصبح قرية صغيرة في نهاية الأمر!

- بالضبط. العالم أصبح قرية صغيرة.. لكنّنا في فرنسا ما زالنا نتعامل بعضنا مع بعض، نحن الفرنسيّين الذين نشأنا على أرض واحدة، ونتكلّم لغة واحدة، ويجمعنا حبّ وطن واحد، نتعامل من منطلق «الأصل» و«التقليد». إن لم تكن فرنسيّا من أصول صرفة -أو أوروبية على الأقل- فأنت مشكوك في ولائك! ماذا يعني أن أكون فرنسيّا من أصول جزائريّة أو صينيّة أو مكسيكيّة؟ ألست أعيش على هذه الأرض، ويهمّني استقرارها ورخاؤها؟ ما دامت منحت الدّولة الجنسيّة الفرنسيّة لأيّ فرد، فقد أصبح مواطنا، ومن حقّه أن يقف ممثل في مجلس النّوّاب ويتكلّم باسمه -مثل أيّ فرد آخر- ويسهر على عدم استثنائه من القوانين أو حرمانه من الحقوق!

- إذن فقد اخترت أن تمثّل الفرنسيّين من أصول عربيّة؟

- أسأت الفهم سيّدتي. سأتكلّم باسم الفرنسيّين، كلّ الفرنسيّين.. بمن فيهم من يحمل أصولا عربيّة أو إفريقيّة أو آسيويّة. من المفترض بسيّدة

مثقفة وواعية في مقامك الكريم ألا تشير إلى فروقات كهذه وعلى منبر إعلاميّ! أن يتحدّث عامّة النّاس بهذه اللغة السّطحيّة والسّاذجة، فهذا أمر متوقع.. لكن ما هو دورنا نحن السياسيّين والإعلاميّين والفنّانين؟ إن لم نقف نحن حماة للوعي العام ومصحّحين لمخلّفات ثقافيّة بالية، فمن سيفعل؟

لا يدري من أين استمدّ القوّة ليصدح بتلك الكلمات التي لطالما اعتقد في نقيضها! أخذ نفسا طويلا، وتخيّل الأب الذي لم يعرفه يراقبه وراء إحدى الشاشات. للمرّة الأولى، يفكّر في جعله فخورا به. لم يعرف من قبل ذاك الإحساس المستعر الذي تنبض به قلوب الأبناء، حين تكون بغيتهم نظرة رضا من آبائهم. لقد فعل كلّ شيء حتّى تلك اللحظة من أجل ذاته وحدها. كان الحقد محرّكه الأساسيّ، والرّغبة الأزليّة في انتزاع اعتراف الآخرين بكفاءته ونديّته، بل تفوّقه. لهاث مستمرّ وسعي محموم ينكت في قلبه سوادا، ويلتهم روحه. أمّا الآن، فما الذي يصبو إليه؟

- سيّدتي، ربّما لا تعلمين، ولا يعلم شركاؤنا في الوطن الذين يتابعون حديثنا هذا.. أنّ والدي كان مهاجرا غير شرعيّ، وصل إلى فرنسا ذات خريف على أحد مراكب الموت. وقد أمضى وقتا عصيبا قبل أن يستقرّ به المقام. عرف التشرّد والضّياع، وخالط عصابات الشّوارع وتجّار الممنوعات والإرهابيّين. وترك لي إرثا من التّجارب أفتخر به...

تحدّق به المحاورة غير مصدّقة. يبتسم في داخله: فجّرنا اللغم الأوّل.

أنت عارٍ من الأسرار الآن.

أن تعلن بنفسك على الملأ ما خلته منذ أيّام سرّا لا يجوز البوح به إلى أقرب المقرّبين، أليس ضربا من الجنون؟ من يبحث عن فضيحة يصدّر بها صفحات السّياسة، فعليه أن يجدّ أكثر في التّقصّي! أمّا هذه، فلن تكون الفضيحة التي يريدونها. كانت لتكون كذلك، لو أنّك بالغت في إخفائها تحت طبقات من الغموض والتستّر. وزن الفضيحة يعتمد على

درجـة حرجـك تجاههـا. أمّـا وأنـت تتقبّلهـا ببسـاطة، فهـي لا شيء في موازيـن الصّحافـة الفضائحيّـة.

- هذا مثير.. مثير جدّا!

- ربّمـا، لكـن ليـس بقـدر الآتي. سيّدتي، دعيـني أشرح واحـدة مـن القضايـا الأساسـيّة الـتي سـأهتمّ بهـا في حملـتي، وسـتكون مـن أولى أولويّـاتي إذا مـا جلسـت يومـا عـلى مقعـد البرلمـان أمثّـل هـذه الدّائـرة. منـذ عقـد أو أكـثر، بدأنـا في تطبيـق نظـام التقسـيم الجغـرافي للمدينـة الواحـدة، حسـب الأصـول الإثنيـة للمقيمـين بـكلّ جهـة.. وقـد انجـرّ عـن ذلـك ظلـم شـديد عـلى عائـلات كثـيرات. عائـلات حُرمـت مـن ديارهـا الـتي أفنـت عمرهـا ترفـع جدرانهـا وتشـيّد أسـقفها وتزيّـن واجهاتهـا، ليـأتي نظـام التقسـيم ويطلـب منهـا ببسـاطة أن تتركهـا وترحـل، نحـو بيـوت أخـرى في أحيـاء بعيـدة، لـم يجمعهـا بهـا تاريـخ مشـترك ولا ذكريـات.

- لكـنّ الحـالات الـتي تتكلّـم عنهـا محـدودة، وأغلـب المنتفعـين مـن القانـون سـعداء به.. والمتـضرّرون..

- فرنسيّون يا سيّدتي!

- عفوا؟

- المتــضرّرون فرنســيّون، تمامــا مثــل أولئــك المنتفعــين والسّــعداء. مــا الهــدف مــن قانــون يكــرّس التفرقــة والظلــم لأبنــاء الوطــن الواحــد؟ هــذا قانـون سـيّئ، ويجـب مراجعتـه وإلغـاؤه، وإعـادة الحقـوق إلى أصحابهـا. مـن هدّمـت بيوتهـم ونقلـوا إلى أحيـاء مهـدّدة بالانهيـار، مـن أرغمـوا عـلى الهجـرة في وطنهـم نفسـه.. إنّهـم يسـتحقّون عدالـة أفضـل!

استمرّ مع كلّ جملة، يفجّر لغما إضافيّا. أحرق أرض المعركة.

لـم يكـن مـن المسـتغرب بعـد ذلـك أن تتجاهلـه المقدّمـة حـتّى نهايـة الحلقـة مباشرة البـثّ. انشـغلت عنـه بضيوفهـا الآخريـن، مرشّـحون منافسـون ومحلّلـون سياسـيّون. علّقـوا بكلمـات باهتـة عـلى مشروعـه الجـريء، ثـمّ انتقـل

الحديث فجأة إلى مناطق أكثر هدوءا وأقلّ إثارة.

غاص خليل في مقعده، وغاب داخل فقاعة وهميّة عزلته عن الهراء الذي يقال حوله. الآن يتبيّن أنّ السّياسة هي فنّ احتراف الهراء؟ وما الذي كنت تفعله لساعات في مكتبك غير رصف الهراء وتشكيل الخواء؟ حين شغلتك قضيّة صادقة، كشفت زيف كل ما عداها.

حين أعلنت المقدّمة انتهاء البثّ، ترك مكانه على عجل وغادر القاعة. لحقت به سيلين إلى الرّدهة وهتفت في حماس:

- خطاب رائع يا عزيزي! ولتقرع طبول الحرب!

استسلم لعناقها لثانيتين، ثمّ أبعد ذراعيها كالملسوع. تساءلت في جزع:

- ما الأمر؟

- هل تسمعين؟

كانت أصوات طرقات وصراخ مكتوم تصل إلى داخل إستوديو التصوير. كانت فوضى عارمة قد احتدمت خارج المبنى وتناهت أصداؤها إلى داخله. تحرّك خليل في اتّجاه الممرّ، ومن ثمّ إلى النوافذ المطلّة على الشّارع. ألقى نظرة على الحركة غير الاعتياديّة بالنسبة إلى الشّارع الفرعيّ الهادئ، ثمّ تراجع مصعوقا. كانت جموع غفيرة قد تجمّهرت عند مبنى القناة المحلّية تحمل لافتات عليها صورته مشطوبة بالأحمر ومشوّهة بقرون وأنياب وعبارات بذيئة.

- يا إلهي!

لم تكن سيلين أقلّ صدمة منه. لكنّها انتبهت من جمودها على الفور وجذبته من ذراعه لتبعده عن النّافذة. لا تنظر. أمرته بصرامة. سايرها في ذهول، لكنّه في قرارة نفسه كان يدرك ألا مهرب ممّا يراه في الخارج. حين تخرج عن المسلك الآمن الذي يتّبعه سياسيو الشاشات من الطبيعيّ أن تكون المعارضة شرسة. في الخارج، سيجد بانتظاره ناخبين من الجالية العربيّة والمسلمة، يستنكرون أن يكون رجل اسمه الثاني دانيال مرشّحا

يمثّلهـم.. وسـيكون هنـاك أيضـا مدافعـون عـن الثقافـة الفرنسـيّة الأصيلـة، يطالبـون بحرمانـه مـن الجنسـيّة الفرنسـيّة وقـد أعلـن تعاطفـه مـع أنصـاف الفرنسـيّين!

فكّـر، هـل كان في حاجـة إلى خـوض تلـك الحـرب إلى النّهايـة؟ ألـن يجـد نفسـه إلا عـلى ضفّتهـا الأخـرى؟ لقـد عـاش تجربـة كاملـة ومدهشـة خـلال أسـبوع واحـد، عـرف خلالهـا مـن يكـون، وجـد لنفسـه دورا وهويّـة وانتمـاء، حـدّث بياناتـه في سـجّلات لاوعيـه وأصبـح أكـثر رضـا وقناعـة عـن كينونتـه ووجـوده. هـل مـا زالـت الانتخابـات قضيّتـه؟ هـل بقيـت شـهوة السّـلطة ماثلـة ضمـن أولويّاتـه؟ لـم تعـد مسـألة حيـاة أو مـوت كمـا أقنـع نفسـه حـين قـرّر اجتيازهـا. مـاذا الآن؟ هـل بوسـعه أن يتراجـع ويتجنّـب المعركـة وخسـائرها المبـاشرة والجانبيّـة المحتملـة؟

ثـمّ مـال تفكـيره إلى كلّ أولئـك الذيـن منحهـم خطابـه الأمـل. فكّـر في كلّ مـن يحمـل فكـرا يشـبهه، ويضـع عـلى عاتقـه مهمّـة تمثيلـه في البرلمـان. فكّـر في أكـوام الخيبـة الـتي سـتثقل صـدورا تحـرّك فيهـا الأمـل ونفـض عنـه الغبـار بعـد سـنوات مـن الخمـود. هـل يمكنـه أن يخذلهـم والمعركـة في أوجهـا؟

يوقظـه أزيـز الهاتـف المرتـجّ في جيبـه مـن تأمّلاتـه. برونـو ديبـون يتّصـل. رسـالة الشاشـة تعلـن أنّ اتّصـالات أخـرى لـم يـردّ عليهـا قـد سـبقت. لعلّـه سـيفقد عملـه الآن قبـل أن يفعـل شـيئا يذكـر! هـل هـي المعركـة الخطـأ؟ هـل ضحّـى بـكلّ شيء مـن أجـل وهـم سـيتبخّر بعـد قليـل؟ لا النّاخبـون المعنيّـون راضـون عنـه، ولا ربّ عملـه المموّل لحملتـه! انطفـأ الهاتـف لبرهـة، ثـمّ تعـالى الأزيـز مـن جديـد بشـكل ملـحّ متّصـل. تسـأله سيلين:

- ألن تردّ؟

- إنّه برونو..

تنتبه إلى تكشيرته العابسة، فتقول بحماس:

- أنت تواجه فرنسا الآن.. برونو لن يشكّل فرقا!

إنّها محقّة. فليتحلّ بالشّجاعة إلى النّهاية. تمرّ إليه عدوى حماستها. ما أن فتح الخطّ حتّى تدفّق صوت برونو عاليا مزمجرا:

- أين أنت يا رجل؟ أتّصل بك منذ دهر! هاتفي لم يتوقّف عن الرّنين هذا المساء.. الكثير من العملاء الثائرين! سوف نجني ثروة يا صديقي!

ترتفع قهقهة برونو، وخليل لا يستوعب شيئا ممّا يقوله.

- سوف نفتح النّار على وزارة الإسكان! الجميع الآن يريد أن يقاضيها من أجل مشروع التقسيم الذي لم يرض إلا أقلّ القليل. سنكون الممثّل الرّسمي للمتضرّرين.. سنبدأ في جمع التواقيع منذ الغد. خطابك ألهب الجماهير، والحرب الحقيقيّة ستبدأ!

قهقهة أخرى تملأ أذنيه، قبل أن يهتف برونو منهيا الاتّصال:

- ارجع إلى الميدان أيها الفارس، واصل إبداعك!

أغلق الخطّ وقد سيطر عليه الذّهول. هل كان هذا حقيقيّا؟ تنبّهه سيلين وقد حيّرها سرحانه:

- ماذا قال؟

- أن أواصل إبداعي! العملاء يريدون مقاضاة وزارة الإسكان!

أطلقت صيحة منتشية وقفزت مثل طفلة وهي تعانقه بحرارة.

يأخذ نفسا عميقا، ويُذكّر نفسه، أنت جسر.. أنت تردم الهوّة. كان عليه أن يواصل المسير على الطريق التي شرع في تعبيد أمتارها الأولى هذا المساء. الطريق الوعرة التي يصعب السّير عبرها، سيتمدّد فوقها، جسرا، فيعبر آخرون من ورائه. كان يجب أن يبادر أحدهم، أن يكون أوّل السّالكين، وقد قدّر له أن يكون هو، حامل الرّاية. قبل ذلك، عليه أن ينتهي من رأب صدوعه الخاصّة، أن يصل الجسور المنقطعة في داخله مع ذويه.

تحرّك فجأة، ركض باتّجاه أحد تقنيّي التّصوير، يسأل عن مخرج

الطّـوارئ. تبعتـه سـيلين، لا تـدرك فيـمَ يفكّـر. هتـف وهـو يحـثّ الخطـى في اتّجـاه المخـرج:

- يجب أن ألحق بها قبل أن ترحل!

قطـع بضعـة أمتـار، ثـمّ عـاد أدراجـه بنفـس السّرعـة الـتي ولّى بهـا. شـدّ سـيلين مـن كفّهـا وقـال مبتسـما:

- أظنّ فائزة ستكون سعيدة بالتعرّف إليك وإلى مريم.

وهمـا يهـرولان عـبر السـلالم في اتّجـاه المخـرج ويتبـادلان ابتسـامات متواطئـة، ينتابـه إحسـاس غامـض بالإثـارة.

أنـت تمـضي باتّجـاه منعطـف حـادّ، والرؤيـة غائمـة لا تكشـف مـا وراءه. وعيـك بهويّتـك يتغـيّر ويواصـل التحـوّل. مـا يدريـك كيـف تكـون قناعاتـك خـلال أسـابيع، شـهور، سـنوات؟ هـل تصبـح شـخصا آخـر لا تتعرّفـه في مرآتـك؟ هـل يمكـن أن ينهـار زواجـك وتتنكّـر لـك سـيلين كمـا تنكّـرت ديانـا لنـادر؟

تعبر صدره موجة قلق، ثمّ يتبدّد الزبد.

أوليست تلك سنّة الحياة؟ لا شيء باق على حاله.

فليدع القلق لأوانه.

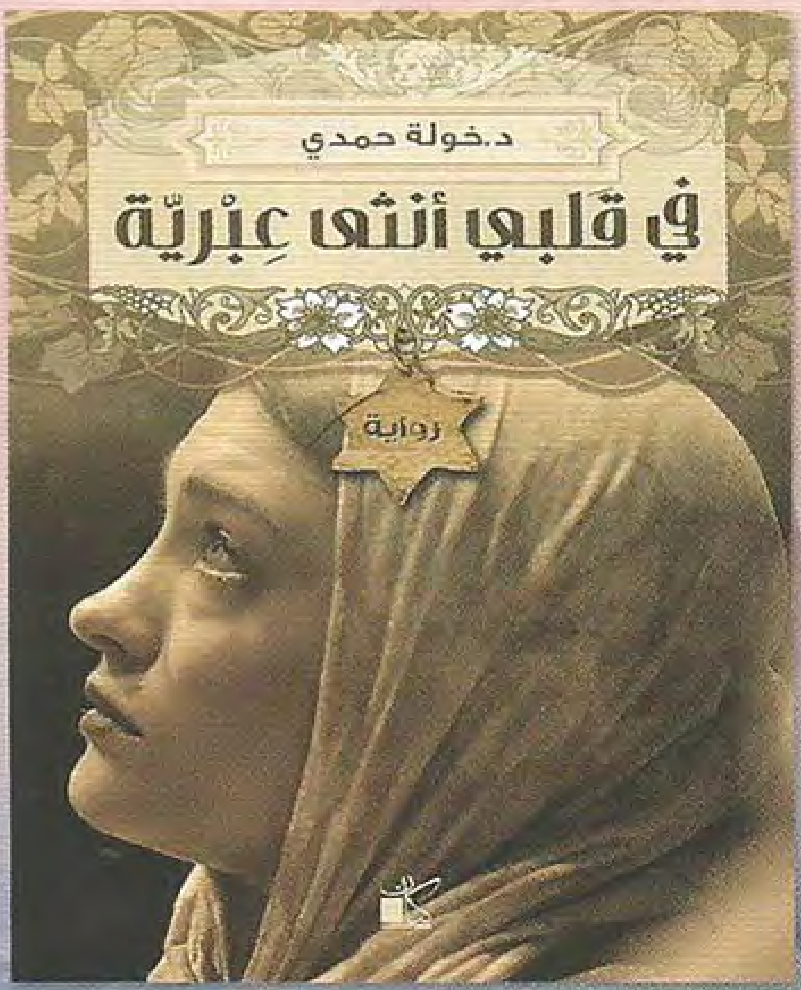
تمت بحمد الله

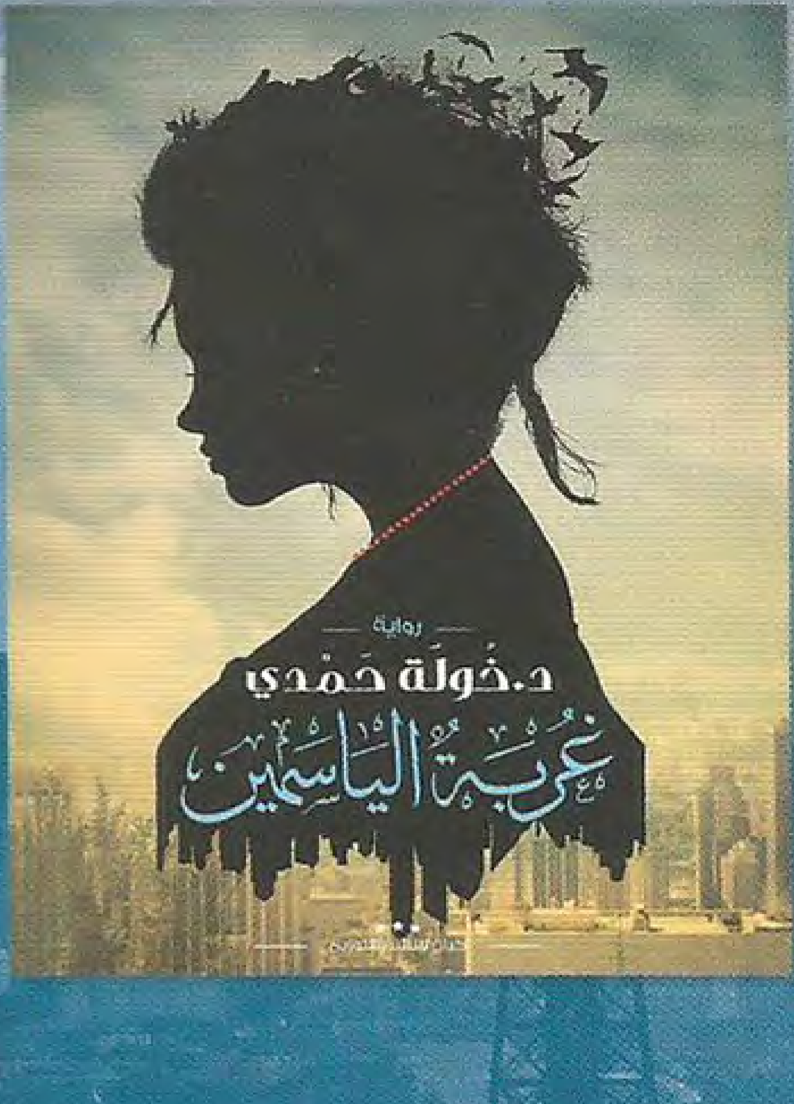


د.خولة حمدي

كان كل شيء باردا وخاليا من الإثارة حتى تلك اللحظة التي قرّرت فيها التمرّد على مساري المحبط وصنع شيء خارق يحرّرني من جحيم الفراغ. منذ وضعت قدمي اليمنى في القارب الخشب المتراقص على الشاطئ في ليلة خريفيّة غاب قمرها، أصبحت حياتي تتابعا مرتجلا لحالات استثنائية. خضت المغامرة تلو الأخرى وعرّضت حياتي للخطر أكثر من مرّة. اقتربت من حدود الموت غرقا، جعلت نفسي طريد العدالة، وكدت أنحدر إلى عالم الجريمة. وجدتني مرارا أتمنّى لو عدت إلى حياتي الرتيبة الخالية من الإثارة. خفت أن أموت وحيدا وشريدا في ركن منسيّ. خفت أن أكون قد قايضت حياتي العاديّة باللاشيء!

صدر للكاتبة





تصميم الغلاف: عبد الرحمن الصواف

كيان
Kayan
9 789776 376908